التراث الأثري في سورية الواقع والآفاق

الدكتور سلطان محيسن

هيئة متحف قطر

المكانة التاريخية والحضارية للتراث الأثري السوري

١ – عصور ما قبل التاريخ:

تبدأ عصور ما قبل التاريخ، العصور الحجرية (Stone Ages)، مع ظهور الإنسان الأول، الذي وُجد في إفريقية منذ أكثر من مليوني سنة خلت، وصل إلى سورية منذ حوالي مليون سنة، أي مطلع العصر الحجري القديم (Palaeolithic)، الباليوليت الأدنى، سالكاً الممرات الطبيعية على امتداد الانهدام السوري – الإفريقي وسواحل المتوسط.

إنسان سورية الأول كان من نوع الهوموراركتوس (Homo-Erectus) ذي الصفات الإنسانية الواضحة، وبخاصة القامة المنتصبة وحجم الدماغ الكبير. وجدت الأدوات الحجرية الدالة على هذا الإنسان على شكل فؤوس يدوية من النوع الآشولي القديم (Acheulean)، في موقع ست مرخو، في حوض نهر الكبير الشمالي، وقواطع من نوع الدوفاي (Olduwan) في موقع خطاب، في حوض العاصي. في المرحلة

الثانية من العصر الحجري القديم، منذ حوالي ٧٠٠ ألف سنة خلت، امتد الاستيطان وانتشر فوصل إلى مناطق البادية وحوض الفرات، كما أصبحت الفؤوس الحجرية، العائدة إلى العصر الآشولي الأوسط، أكثر تطوراً، دلت عليها مكتشفات اللطامنة في حوض العاصي والكوم في البادية السورية، حيث كشف عن معسكرات عرفت استخدام النار وبناء الأكواخ منذ ذلك العصر. قبل حوالي ٤٠٠ ألف سنة، في العصر الآشولي الحديث، بلغ الآشوليون أوج تطورهم فاستوطنوا جميع المناطق الجغرافية، وبخاصة منطقة الكوم، وحيث موقع الندوية الذي وجدت فيه آلاف الفؤوس اليدوية بشكل لا مثيل له في العالم حتى اليوم، كما كشفت فيه عن العظم الجداري لجمجمة الهوموار كتوس، هو الأكمل والأهم من نوعه في المشرق. مرت منذ حوالي ٢٥٠ ألف سنة خلت، مرحلة انتقالية تعايشت خلالها جماعات بشرية مختلفة لم تصنع كلها الفؤوس الحجرية، بل اختص بعضها بتصنيع الحراب الطويلة (الهمليون) أو المتاحف القصيرة (اليبروديون)، إلى أن ظهر منذ حوالي ١٥٠ ألف سنة إنسان جديد، هو النياندرتال (Neanderthal) الذي قدم على الأرجح من أوروبة، وكان أكثر تطوراً، فيزيولوجياً وحضارياً، مكن سلفه الهوموار كتوس إلى النياندرتال تنسب الحضارات اللفولوازية – الموستيرية (Levalloiso-Mousterian) ذات الأسلحة والأدوات الحجرية المتنوعة الأشكال والوظائف، كما ظهرت لأول مرة الأدوات المركبة، من قبضة وحد وعامل. وكان النياندرتال أول من مارس الفنون البسيطة، ودفن موتاه، كما تبيّن من مكتشفات عديدة، بينها كهف الديدرية في منطقة عفرين شمالي حلب، حيث عثر على هيكل عظمي لطفل عمره حوالي السنتين هو الأكمل من نوعه في العالم، وقد دفن وفق شعائر واضحة، دلت عليها الحفرة والوضعية والمرافقات. منذ حوالي ٤٠ ألف سنة، اختفى إنسان النياندرتال لأسباب غامضة وحل مكانه نوع جديد من البشر هو الإنسان العاقل (Homo- Sapiens) ذو الأصل الإفريقي، والسلف المباشر

للإنسان الحالي، لكن آثار هذا العصر فقيرة على العموم في المشرق كلــه، بمــا فيــه سورية، ولأسباب لا زالت مجهولة أيضاً[١].

استعادت سورية دورها بدءاً من حوالي ١٥ ألف سنة خلت، العصر الحجري الوسيط، الميزوليت (Mesolithic)، فظهرت فيها حضارات محلية، أهمها الكبارية والنطوفية، نسبة إلى مغارة الكبارا ووادي النطوف في فلسطين، التي مارست لأول مرة البناء في العراء، وعرفت الفنون وصنعت الحلي والأدوات العظمية، كما دلت مواقع المــريبط، وأبو هريرة في حوض الفرات وغيرها. ثم حصل منذ حوالي ١٠ آلاف سنة، العصر الحجري الحديث، النيوليت (Neolithic)، انعطاف جذري وعميق في تاريخ المنطقــة والبشرية كلها، مثلته الثورة النيولينتيــة (Neolithic Revolution)، التــي تميــزت بالتحول من نمط حياة التنقل والصيد والالتقاط، الذي كان سائداً في العصر الحجــري القديم السابق، إلى حياة الاستقرار وممارسة الزراعة وتدجين الحيوان، وما رافق ذلك من تحولات اقتصادية واجتماعية حاسمة حصلت في قرى المزارعين الأوائــل التــي مارست معتقدات جديدة على رأسها عقيدة "الآلهة الأم" و"الثــور المقــدس" و"عبــادة الأسلاف" التي دلت عليها مكتشفات المعابد والفنون في أكثر من مكان. توجــت هــذه المرحلة بتصنيع الفخار في الجزيرة السورية، وانتقاله من هناك إلى مختلف الأرجاء، وظهور مبتكرات أخرى ميزت هذه الثورة التي حصلت في المــشرق القــديم، وفــي سورية، قبل أي مكان آخر، ودلّت عليها مواقع المريبط وجرف الأحمــر، وحالولــة، وبقرص في الفرات وتل أسود، وتل الرماد، في حوضة دمشق وغيرها[٢].

بدأ في الألف الخامس ق.م. استخدام النحاس، العصر الحجري النحاسي، الكالكوليــت (Chalcolithic)، وظهرت الشخصية الحضارية للمنطقة، ولسورية، واضــحة أكثــر من أي وقت مضى، جسدتها الحضارة الحلفية (Halaf)، نسبة إلى موقع تل حلف في الخابور، التي امتدت من الموصل في الشرق وحتى اللاذقية في الغــرب، واشــتهرت بأوانيها الفخارية الرائعة وعمارتها وفنونها المتميزة وغيرها مــن الإنجــازات التــي

تابعتها الحضارة العبيدية، نسبة إلى موقع تل العبيد في جنوب العراق (Ubaid)، التي تخطت حدود انتشار سابقتها الحلفية، فوصلت جنوباً حتى الخليج العربي لتحقق بذلك أول وأشمل وحدة حضارية عرفها المشرق العربي القديم، ودلت عليها العمارة وعلى رأسها المعابد، والفنون واستخدام الدولاب، لأول مرة، في صنع الأواني الفخارية، وغير ذلك من الخطوات التي أظهرتها مكتشفات مواقع شاغاربازار وتل حلف في الجزيرة، ورأس شمرا على الساحل السوري وغيرها.

دخلت سورية في حوالي منتصف الألف الرابع ق.م. في المرحلة الانتقالية إلى العصور التاريخية القديمة، العصور البرونزية، التي توجت بخطوات كبرى مثلها ظهور المدن الأولى المحصنة بالأسوار والأبراج (الثورة العمرانية)، كما تطورت المعابد والفنون والمعتقدات، وظهرت الأختام الأسطوانية، دليل التمايز الاقتصادي والاجتماعي، والكتابات التصويرية الأولى (Pitographs التي دلت عليها مكتشفات مواقع حبوبة الكبيرة وجبل عارودة في حوض الفرات الأوسط، وغيرها من المستوطنات في شمالي سورية، التي شابهت حضارة الوركاء الرافدية (Uruk، بينما سادت في المستوطنات الجنوبية الحضارية الغسولية (Ghassul، نسبة إلى موقع تليلات الغسول شرقي البحر الميت[٣].

٢- عصور البرونز والحديد:

انتهت في مطلع الألف الثالث ق. م. العصور الحجرية، وبدأ عصر البرونز (Bronze Age) ومعه العصور التاريخية القديمة، حيث الوثائق الكتابية المسمارية الأولى (Cuneifirms) التي دلّت على وجود السومريين، كأكبر قوة حضارية في المنطقة، الذين أسسوا المدن الأولى، وابتكروا الكتابة التي بفضلها حصلنا على المعلومات حول تاريخ تلك الشعوب وأسماء مدنها وملوكها وسلالاتها وآلهتها، كما كان الحال في ماري، وما كشف فيها من قصور ومعابد وفنون ونصوص وغير ذلك.

بدأ الأكاديون (Akkadians)، منذ حوالي منتصف الألف الثالث ق. م. يلعبون دوراً متصاعداً في تاريخ المنطقة، بلغ ذروته في عهد سارغون الأول الذي أقام أول إمبراطورية في المشرق والعالم، امتدت من الأناضول وسواحل المتوسط شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً. كانت سورية جزءاً من هذه الإمبراطورية، حيث كشف عن القصور الأكادية في تل براك في الجزيرة. ولكن سورية تمتعت أيضاً بشخصية حضارية مستقلة وأصيلة، دلت عليها بوضوح مكتشفات مملكة إيبلا، بعمارتها وفنونها وأرشيفها الكتابي الذي جاوز الخمس عشر ألف لوحة. إلى جانب إيبلا، ازدهرت ممالك كثيرة أخرى مثل ماري (تل الحريري)، وتوتول (تل البيعة)، ونبادا (تل بيدر)، وعاصمة الحوريين أوركيش (تل موزان) في الجزيرة السورية[٤].

لم تتراجع الممالك العمورية السورية بعد انهيار الأكاديين، واستمرت ممالك ماري وناغار (تل براك) رائدة إلى أن حل عصر البرونز الوسيط في مطلع الألف الثاني ق.. م. وحصل تحول جذري بصعود نجم البابليين (Babylonians) الذين تعاصروا مع الآشوريين (Assyrians) والعموريين (Amorites) في بلاد الشام، وأقاموا بعد الأكاديين ثاني أكبر إمبراطورية في الشرق بعاصمتها بابل ومليكها المعروف حمورابي. بقيت ماري مزدهرة، وإحدى عواصم هذا العصر الكبرى في عهد الملك زمري ليم، بدلالة قصرها الفريد "درة العمارة الشرقية" ومعابدها وفنونها وأرشيفها الذي تجاوز العشرين ألف رقيم. كما سطع نجم ممالك إيبلا، وقطنا (تل المشرفة)، وقادش (تل النبي مندو) في منطقة حمص. وشباط أنليل (تل ليلان) في الجزيرة، العاصمة الثانية للملك الآشوري شمسي حدد الذي بسط نفوذه على ماري أيضاً قبل أن يدمرها حمورابي في حوالي منتصف القرن الثامن عشر ق.م. ثم لم تلبث الإمبراطورية البابلية نفسها أن تحطمت، ومعها الممالك العمورية السورية على يد الحثيين، المنطلقين في مطلع القرن السادس عشر ق.م. من عاصمتهم الأناضولية حاتوشا (بوغازكوي)، والذين سقطوا بدورهم تحت ضربات العيلاميين (Elam)

القادمين من إيران، بعدها بدأ في مطلع القرن السادس عشر ق.م. عصر البرونز الحديث، وظهرت قوى جديدة مثّلها الآشوريون في بلاد الرافدين، والحوريون / الحثيون (Hueeians/Hitties) في الأناضول والجزيرة السورية، بينما ساد الكنعانيون (Canaanians) في بلاد الشام. استطاعت الممالك الكنعانية السورية، وعلى رأسها أوغاريت، الحفاظ على دور مستقل وخلاق رغم المخاطر التي أحاطت بها من كل القوى الكبرى المتطاحنة في حينه، من آشوريين وحثيين ومصريين وغيرهم. بلغت أوغاريت شأناً عظيماً دلَّ عليه تنظيمها العمراني، قصورها ومعابدها وقبورها وأسوارها وبواباتها، إلى جانب صناعاتها المعدنية والعاجية والحجرية، الفنية والنفيسة، وأرشيفها الملكي الذي تجاوز الستة آلاف لوحة، وضم معلومات أدبية ودينية وتاريخية قلّ نظيرها، دون الحديث عن أبجديتها الأولى، أصل الأبجديات الراهنة في العالم.

ازدهرت إلى جانب أوغاريت ممالك أخرى مثل آلاخ (تل عطشانة) في منطقة العمق، وأيكالتة (ممباقة)، وإيمار (مسكنة) في الفرات، ودور كاتليمو (تل الشيخ حمد) في الخابور وغيرها[٥].

حلّت في مطلع القرن الثاني عشر ق.م. عصر الحديد (Iron Age) بالمشرق أحداث مدمرة، عندما اجتاحت شعوب البحر، القادمة من مناطق مختلفة في حوض المتوسط والأناضول، الإمبراطورية الحثية، ودمرت جميع الممالك الكنعانية الساحلية، بما فيها أوغاريت، لكن سورية سرعان ما استجمعت قواها على يد الآراميين (Aramaeans) الذين أصبحوا في هذا العصر إحدى القوى الفاعلة ولعدة قرون. وقد أقاموا ممالك مزدهرة، حملت أسماء قبائلهم، مثل مملكة بيت باخياني وعاصمتها جوزن (تل حلف) في الخابور، وبيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل أحمر) في الفرات، وبيت أجوشي وعاصمتها أرباد (تل رفعت) شمال حلب، وتبقى دمشق وحماة على رأس الممالك الآرامية الكبرى. بينما انتشر الآراميون في الداخل قامت على السواحل ممالك

إخوانهم الفينيقيين، مثل رأس البسيط، وجبلة، وتل سوكاس، وعمريت، وأرواد، إلى جانب جبيل، وصيدا، وصور في لبنان، وغزة في فلسطين.

لكن الآشوريين في عصر إمبراطوريتهم الحديثة، تابعوا ضغوطهم على الممالك الآرامية والفينيقية فأسقطوها، تدميراً وتهجيراً، الواحدة تلو الأخرى، وأولها مملكة دمشق وحماة، ثم ما لبثت الإمبراطورية الآشورية نفسها أن سقطت ودُمرت عاصمتها نينوى على يد الكلدانيين (Chaldaeans)، وغدت بابل عاصمة الدولة الكلدانية، البابلية الجديدة، التي بسطت نفوذها على سورية وفلسطين، مدمرة القدس مرتين ومهجرة اليهود إلى بابل في عهد الملك نبوخذ نصر، في النصف الأول من القرن السادس ق.م.[٦].

٣- العصر الفارسي:

تمكن الأخمينيون الفرس (Achaemenids)، عام ٥٣٩ق.م. من احتلال بابل وإسقاط الدولة الكلدانية، وبدأت مرحلة جديدة لم تعد فيها شعوب المشرق القديم تحكم نفسها بنفسها، وإنما خضعت لأول مرة لحكم خارجي، دون أن يعني ذلك أن تلك الشعوب قد تخلت عن دورها الحضاري. معلوماتنا عن هذا العصر الفارسي (Persian Period) قليلة، بسبب تلف النصوص التي كتبت على مواد حساسة، وتدمير المدن الفارسية لتشاد فوقها المدن اليونانية – الرومانية.

شكلت سورية الولاية الخامسة، ساتراب (Satrapy) في الإمبراطورية الفارسية وأطلق عليها اسم عبر نهرا (Abar Nahra) أي خلف نهر الفرات قياساً على موقع بلاد فارس، وقد امتدت من الأمانوس شمالاً وحتى غزة وسيناء جنوباً، بما فيها قبرص. كانت عاصمتها دمشق ومن مدنها الهامة أرواد ومارانوس (عمريت).

وضع احتلال سورية الفرس على ضفاف المتوسط في مواجهة مباشرة مع اليونان لتبدأ نزاعات طاحنة، هي الأولى في التاريخ، بين الشرق والغرب، للسيطرة على

سورية، التي دفعت تلك المواجهات كمعركة سلاميس (Salamis) التي ألحقت بالفرس هزيمة كبرى.

كما دار حول سورية صراع فارسي – مصري، جعل من مدنها الداخلية حليفة للفرس، في حين مالت كفة مدنها الساحلية نحو المصريين.

بالرغم من النفوذ السياسي والعسكري الفارسي، فقد تمتعت سورية باستقلالية شبه كاملة في إدارة شؤونها الداخلية، وحافظت على تقاليدها الحضارية القوية التي تجسدت باعتماد اللغة الرسمية (Lingua Franca) للإمبراطورية الفارسية.

وجدت آثار العصر الفارسي وهي قليلة معظمها أسلحة معدنية ودمى للخيالة، في مواقع مثل إبلا وتل دينيت في محافظة إدلب، وتل الكزل قرب طرطوس، ورأس ابن هانيء قرب اللاذقية، وتل سوكاس في منطقة جبلة. لكن عمريت، ماراتوس اليونانية- الفارسية، تبقى الموقع الأهم، وبخاصة المعبد، الذي بنى خلال هذا العصر، وحمل تأثيرات فارسية ومصرية، مع أنه سوري- فينيقي الجوهر(٧).

٤- العصر الهلنستي:

اكتسح الإسكندر المقدوني الكبير، الشرق ملحقاً بالفرس، داريوس الثالث، هزيمة ساحقة في معركة إيسوس (Issus) عند المدخل الشمالي لجبال الأمانوس، المسماة البوابة السورية (Syrian Gate) وذلك في عام ٣٣٣ق.م. ليبدأ العصر الهلنستي (Hellenistic Period)، ولتتغير موازين القوى من جديد، فتبعت سورية لإمبراطورية الإسكندر، وأطلق عليها اليونان اسم سورية، بدل عبر نهرا، في العصر السابق. لكنها بقيت ضمن حدودها الجغرافية السابقة، بعد موت الإسكندر في بابل عام ٣٢٣ق.م. اقتسم جنرالاته الإمبراطورية، فكان شمال سورية من حصة سلوقس نيكاتور الثاني (See\leucos II Nicator)، بينما كان جنوب سورية، بما فيها دمشق، ولبنان وفلسطين من حصة البطالمة في مصر. تميز العصر السلوقي

(Seleucid) بازدهار كبير، رافقته حركة عمران ضخمة، ونشأت خلاله أمهات المدن الهلنستية السورية وأهمها أنطاكية، عاصمة سورية آنئذٍ، وسلوقية على العاصي، وأفاميا واللاذقية وابن هانيء وكيروس (النبي هوري) وخالقيس (قنسرين) وبرويا (Broia) حلب، وهيرابوليس (منبج)، ودورا أوروبوس، وأرواد، وغيرها من المدن التي تمتعت باستقلالية واضحة بإدارة واضحة بإدارة شؤونها من قبل حكامها المحليين، بالرغم من خضوعها السياسي وتأثرها الحضاري بالسلوقيين، الذي خاضوا، كما الفرس من قبلهم، الحروب، وبخاصة في القرن الثاني ق.م. ضد البطالمة للسيطرة على جنوب سورية.

شهد العصر السلوقي ظهور سلالات عربية أقامت ممالك قوية ومزدهرة، لعبت دوراً كبيراً على مسرح الأحداث، أقواها مملكة الأنباط بعاصمتها البتراء في الجنوب، وهناك مملكة الرها في الشمال (Edessa) في أورفا، تركيا حالياً، ومملكة حمص في الوسط، حيث حكمت أسرة شمسي – جرام، إضافة إلى مملكة الإيطوريين (Ituraeans) في الجولان، وهي كلها ممالك ساهمت في زعزعة الحكم السلوقي الذي خاض بدوره الحروب ضد البارثيين (Parthians) في إيران إلى جانب مواجهة صراعاته الداخلية وتحديات روما الصاعدة.

شهد هذا العصر تلاقحاً حضارياً شرقياً- غربياً هو الأول والأوضح من نوعه، تجسد في أكثر من ميدان، وبخاصة العمارة التي جمعت بين العناصر الشرقية والغربية على حد سواء، فبنيت المدن وفق النظام المؤلف من جزر سكنية متكاملة، أي النظام الشطرنجي (Hippodamus)، تفصلها شوارع متعامدة، أهمها شارعان رئيسان، شمالي/ جنوبي (Cardo)، وشرقي/ غربي (Decumanus). أحاطت بهذه المدن الأسوار والأبراج، وتوسطتها المعابد والمسارح العامة، في حين استمرت البيوت محافظة على النمط الشرقي المؤلف من باحة مركزية تلتف حولها بقية غرف البيت.

بقي نظام العمارة الهلنستي النمط الرئيس الذي سارت عليه العمارة في العصور الكلاسيكية اللاحقة[٨].

٥- العصر الروماني:

لقد حصل الانعطاف الجديد الآخر في تاريخ سورية، والمنطقة، عندما أطاح الحاكم الروماني بومبي (Pompey) بالسلوقيين، وجعل من سورية مقاطعة رومانية تدار من روما، بعد أن كانت تحكم من أنطاكية. شهدت سورية في هذا العصر (Roman Period) ازدهاراً حضارياً وسياسياً عظيماً، فقد تطورت في عهد أباطرة روما والحكام المحليين جميع المدن السورية، من تدمر إلى بصرى، إلى اللاذقية وغيرها من المدن التي بنيت وفق النظام الشطرنجي السابق، ولكن بفخامة ظاهرة جسدتها الأسوار والأبراج والحصون والبوابات والمعابد ذات الأروقة والأعمدة العملاقة والباحات الواسعة والزخارف الفنية والمدافن، بما فيها المدافن البرجية التدمرية التي بقيت علامة فارقة في نظام العمارة السورية في العالم القديم كله.

غدت أنطاكية ثالث مدينة إمبراطورية بعد روما والإسكندرية، وأصبحت أفاميا قاعدتها العسكرية بأكثر من ٤٠ ألف مقاتل في وجه الفرس. وكان هذا عصر ازدهار اقتصادي كبير، انطلقت فيه خطوط التجارة البعيدة المدى في كل الاتجاهات بعد أن أنشأت الطرقات التي ربطت مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، مثل ديوكليسيان (Strata Diocletiana) الذي ربط محمياً بالمحطات العسكرية والتجارية (Limes) ما بين الفرات ودمشق عبر تدمر والرصافة، ووصل جنوباً حتى بصرى والعقبة. انطلق في هذا العصر أيضاً طريق الحرير الذي ربط بين أقصى شرق آسية وغرب أوروبة، مروراً بمحطاته الكبرى، وأهمها مدينة القوافل تدمر. كما أقيمت الجسور والأقنية والسدود وتطورت الزراعة والصناعة والإدارة بكل أنواعها.

إذا كان التأثير الروماني السياسي والحضاري، على سورية كبيراً فإن تأثير سورية على روما كان أكبر بعد زواج الجنرال الليبي في الجيش الروماني سبتيموس سيفيروس (Septimus Severus) من الأميرة السورية بنت الكاهن الحمصي جوليا دومنا (Julia Domna) في نهاية القرن الثاني الميلادي، ثم ما لبث هذا الجنرال أن أصبح إمبراطور روما كلها، فاتحاً لعهد من الأباطرة السوريين، على امتداد النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، الذين خلفوه من كاركلا إلى إيلاجبال، إلى ألكسندر سيفيروس، وبعدهم ابن شهبا فيليب العربي، مع أنه ليس من الأسرة السيفيرية. لقد كان التفاعل الحضاري السوري – الروماني قوياً في أكثر من مجال، دلت عليه في العمارة إنشاءات المعمار الدمشقي أبولودور في روما نفسها، بل طال هذا التفاعل الجوانب الروحية بعد أن اقترن زيوس مع بعل، وأثينا مع اللات، وأبولو مع نبو، وملقارت مع هرقل، وما إلى ذلك من شواهد.

عكست مملكة تدمر العربية صورة هذا الواقع على أكثر من صعيد، فهي بلغت قمة الإبداعات الحضارية في العمارة والفنون والثقافة والعلوم والسياسة والحرب. وقفت تدمر إلى جانب روما ضد الساسانيين (Sasanians) الذين ألحق بهم حاكمها أذينة هزيمة ساحقة، فحاصرهم على أبواب عاصمتهم طيسفون، في حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي، حاصلاً بذلك على اللقب الروماني الرفيع "مصلح الشرق كله". تلا ذلك صعود نجم زوجته زنوبيا التي حكمت باسم ابنها القاصر وهب اللات. بعد مقتل أذينة في ظروف غامضة. مهما قلنا في الميزات التي أعطيت لزنوبيا، قوة وذكاء وجمالاً، فمن المؤكد أنها كانت امرأة ذات طموح وحنكة كبيرين، فهي سعت إلى التحرر من سيطرة روما ملحقة الهزيمة بحاكم سورية الروماني هيراكلوس، بل احتلت مصر وعينت حاكماً عليها، واجتاحت الأناضول حتى مشارف أنقرة لتعلن ابنها إمبراطوراً، مطلقة عليه "أوغست" الإمبراطور، أرفع لقب روماني. ويبدو أن طموحها كان حكم الإمبراطورية الرومانية كلها، وهذا ما أثار القلق، فسارع إمبراطور روما

أورليان بالتحرك عام ٢٧٢م، لإجهاض مشاريع زنوبيـــا، وكبحهـــا. ودارت معـــارك طاحنة في سلسلة من المواجهات مع الجيش الروماني الضخم، ابتدأت في الأناضــول، وتراجعت حتى حمص، وانتهت أمام أسوار تدمر، فسقطت هذه المملكـــة العظيمـــة، وألحق الرومان بها دماراً وقتلاً هائلين. تذكر بعض المصادر القديمة أن زنوبيـــا قـــد أُسرت قرب الفرات في محاولتها الفرار طلباً لنجدة الفرس، وأنها اقتيدت لتسير مكبلة بالأغلال الذهبية في موكب النصر الذي نظمه أورليان في روما، وبقيت هناك إلى أن توفت ودفنت في منطقة التيفولي بقرب روما. كما ذكرت معلومات عن قطع رأســها من قبل الرومان.

مهما يكن فنحن لسنا متأكدين بأن ملكة بحجم زنوبيا، التي تكنت بكليوبـــاترة وجوليـــا دومنا، وطمحت إلى أعلى منصب إمبراطوري وقامت بأهم فتوحات من نوعها بعـــد الإسكندر، شكلت تهديداً لروما مائل تهديد هانبيال القرطاجي، يمكن أن تقبل بـــالعيش كامرأة عادية، ولا يستبعد أن تكون أعدمت أو قتلت أو انتحرت أثناء أو بعد المعـــارك رافضة الوقوع أسيرة في أيدي الرومان(٩).

٦- العصر البيزنطي:

كان ظهور المسيحية (Christianity)، وتتويج انتصارها قسطنطين الكبير في نهايـــة القرن الرابع الميلادي، نقطة تحول مفصلية أخرى بين الشرق والغرب وبين ســـورية وروما. وهو تحول حدد تاريخ أوروبة والعالم ، غدا خلاله الـــدور الـــسوري أكثـــر وضوحاً بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، لتصبح القسطنطينية، بيزنطـــة عاصـــمة القسم الشرقي منها، وهي الأقرب إلى سورية التي تابعت دورهـــا فبقيـــت عاصـــمتها الأولى أنطاكية المدينة الثالثة في الإمبراطورية، بينما ازدهرت جميع المدن الأخـــرى من سلوقية على العاصي إلى أفاميا وحمص ودمشق وحلـــب وخـــالقيس (قنـــسرين) وبيلوس (Belus) (منطقة المدن الميتة) وغيرها. قد يبدو للوهلة الأولى بأنه لا فـــرق

جوهري بين هذا العصر (Byzantine Period) والعصر الروماني الـذي سـبقه إلا بانتقال مركز القرار السياسي من ورما إلى بيزنطة، وانتقال الناس من الديانة الوثنية إلى المسيحية. لكن حقيقة الأمر مختلفة، فانتصار المسيحية لم يكن سهلاً ولا سلمياً، بل رافقه اضطهاد وحروب طويلة قادت إلى تدمير المعابد الرومانية "بيوت الشياطين" لتشاد على أنقاضها الكنائس التي أصبحت مركز القرار في هذا العصر الكهنوتي (Eclesiastic) الذي لعب فيه الدين دوراً كبيراً، وأصبح معتمداً من قبل الدولة.

كانت سورية القديمة مهد ولادة المسيح، ومن دمشق انطلق الحواريون (Apostles) ناشرين المسيحية في أوروبة وبقية الأرجاء. كما وقف على رأس الكنيسة العديد من البابوات السوريين. رافق هذا العصر الانقسام بين الكنيستين الشرقية والغربية حول البيعة المزدوجة، المقدسة والأخرى البشرية، للمسيح التي أيدها النساطرة الشرقيون، وعارضها أنصار الطبيعة الواحدة (Momophysites) في الكنيسة الأرثوذكسية الغربية، لقد تحررت المسيحية السورية، من الهيمنة الكهنوتية لروما، وعادت الكنيسة الشرقية، بجهود النساطرة واليعاقبة إلى جذورها المحلية، فتقدمت اللغة السريانية على اليونانية واللاتينية، وأصبحت الآرامية اللغة الرسمية. كما نشطت الدراسات والترجمات في المراكز السورية في الرها وحرّان ونصيبين التي كانت بمثابة أولى جامعات ومراكز بحوث العصر. وكان لها دور حيوي في حفظ العلوم ونقلها إلى أوروبة التي كانت تعيش عصرها المظلم بعد سقوط روما على يد البرابرة وهكذا فقد سطع دور سورية أكثر من أي وقت مضى، حتى قيل: إذا كان العصر السابق هو عصر رَوْمَنَة سورية (Romanization of Rome) فإن هذا العصر هو عصر سَوْرَنَة روما (Syrianization of Rome)، مع ذلك لم تعطِ المصادر الأوروبية هذا العصر في الشرق حقه، لكن المكتشفات الأثرية أثبتت حضارته الراقية التي ظهرت في أكثر من مجال، ودلت عليها مواقع مثل الرصافة وحلبية – زلبية والأندرين وقصر ابن وردان والمدن الميتة، بما فيها قلعة سمعان والبارة وسرجيلا، ومواقع

منطقة حوران وجبل العرب بعمارتها الدينية، الكنائس، والمدنية، القصور والقلاع، والقبور بأنواعها المحفورة في الصخر أو الهرمية والمشاهد والأقنية والسدود وغيرها(١٠).

٧- العصر الإسلامي:

بدأت منذ حوالي منتصف القرن السادس الميلادي أحوال الشرق بالتدهور فعمت المجاعات والأوبئة والكوارث، وأنهك المتحاربون من ساسانيين وبيزنطيين، وظهرت قوة جديدة كانت الحدث الأهم في التاريخ البشري هي الإسلام (Islamic Period)، فانتهت مرحلة امتدت لأكثر من ألف سنة من الحكم اليوناني – الروماني في الشرق. كانت سورية من أول المناطق التي دخلها الإسلام، في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، بعد هزيمة البيزنطيين الساحقة في معركة اليرموك عام ٦٣٦ للميلاد، مما فتح الباب لعودتها إلى أهلها الذين استقبلوا الجيوش الإسلامية كأشقاء محررين من الحكم البيزنطي الغريب. بعد أن عيّن معاوية والياً على سورية، نشأ الخلاف بينه وبين علي، وانتهى بانتصار الأول وإعلان الخلافة الأموية (Umayyad Period) ٦٦١م، وعاصمتها دمشق. فكانت أكبر إمبراطورية في التاريخ، امتدت من شواطئ الأطلسي حتى تخوم الصين، متجاوزة فتوحات الإسكندر في روما.

لم يأتِ الإسلام بعقيدة ولغة جديدة فقط، بل بحضارة جديدة، ازدهرت في إطار حركة تعريب وإبداع وانفتاح، جعل من الأمويين قوة عسكرية واقتصادية وعلمية لا منافس لها، وحتى منتصف القرن الثامن الميلادي. بعدها حل الضعف وسادت الاضطرابات في أكثر من مكان، فظهر العباسيون (Abbasid Period) ليؤسسوا للخلافة الجديدة وعاصمتها بغداد، التي أخذت طابعاً دينياً وتوجهاً شرقياً، خلافاً لدمشق ذات الطابع المدني والتوجه الغربي، إذا صح التعبير. لم يعد لسورية دور سياسي كبير في هذا العصر، لكن الحياة فيها ظلت نشطة، وقد غدت صلة الوصل بين شرق الخلافة

وغربها، وأصبح دورها أكثر بروزاً بعد اختيار هارون الرشيد الرقة عاصمة ثانية له، وبنائه الحصون والقصور فيها. بل طال التقدم العلمي دمشق، حيث نصبت في قاسيون أجهزة فلكية كانت الأهم من نوعها آنئذٍ. بعد تألق بغداد وازدهارها الشامل لحوالي القرن بدأت الاضطرابات تقطع أوصال الخلافة، ونشأت إمارات أهمها إمارة سيف الدولة –التي بالرغم من قوتها وازدهارها في القرن العاشر الميلادي– لم تستطع مقاومة التغير الجديد الذي حصل بصعود السلاجقة الأتراك (Seljuq Period) الذين سيطروا على سورية في القرن الحادي عشر الميلادي، رابطين التاريخ الإسلامي مع الشرق، إيران، والأناضول، أكثر من أي وقت مضى. كما اشتد الصراع مع الغرب بطموحاته التجارية والدينية، فبدأت الحملة الصليبية الأولى (Crusades) التي احتلت سورية، وأقامت أول إمارة لها في الرها، في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، ومارست وحشية لم توفر المسيحيين الشرقيين أنفسهم. ثم أتى الزنكيون (Zingid Period) (١١٢٨-١١٧٤م)، الذين ساهموا في صد الحملة الصليبية الثانية والهجوم على دمشق. تلاهم الأيوبيون (Ayyubid Period) (١١٧٦-١٢٦٠م)، وصلاح الدِّين الذي حرر القدس وألحق بالصليبيين في معركة حطين هزيمة ساحقة (١١٨٧م)، كانت الدافع إلى الحملة الصليبية الثالثة، بقيادة ملوك فرنسا وإنكلترا وألمانيا، وما رافقها من أحداث سجل فيها المؤرخون لصلاح الدين أنصع صفحات التسامح والعظمة.

استمرت الحروب الصليبية بعد موت صلاح الدين لأكثر من قرن، وأتى المماليك (١٢٦٠-١٥١٦م) (Mamelluke Period) الذين واجهوا الغزوات المغولية (Mongoles) المتكررة وتمكنوا من طرد الصليبيين من الشرق نهائياً في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. بعدها خضع الشرق للخلافة العثمانية (Ottomans)، وعادت سورية لتحكم للمرة الثانية من القسطنطينية، التي غدت استانبول العثمانية، بعد أن كانت حكمت في المرة الأولى من بيزنطة المسيحية.

الآثار العائدة لمختلف المراحل الإسلامية كثيرة ومتنوعة، فقد أسس المسلمون مدناً جديدة كالكوفة وبغداد والفسطاط، وعمّروا لأول مرة الصحراء التي أشيدت فيها قصور الخلفاء الأمويين الكبار، عبد الملك والوليد وهشام، كقصور الحير الغربي والشرقي وقصر سيس، وهي لم تكن مجرد أماكن نزهة وترفيه، بل مدناً متكاملة العناصر والخدمات. جرت إليها مياه من مناطق بعيدة، وزرع محيطها، فغدت واحات لا تختلف عن الواحات الطبيعية في شيء.

أبدع المسلمون عمارة أصيلة، جسدتها الجوامع بمخططاتها الجديدة من قسم مفتوح الصحن، إلى قسم مغلق، قاعة الصلاة، وبينهما الأروقة نصف المغلقة ونصف المفتوحة، كما في الجامع الأموي الكبير، النموذج الساطع للعمارة الدينية الإسلامية، إلى جانب القصور والجوامع هناك المدارس والخانات والحمامات والمشافي والمكتبات والتكايا والمشاهد والقباب والبيوت التي لا زال الكثير منها قيد الاستخدام. تحتل العمارة العسكرية في العصر الإسلامي مكانة خاصة، دلت عليها قلاع دمشق وحلب وصلاح الدين، وغيرها، وقد تميزت بأسوارها وأبراجها وخنادقها وبواباتها وقاعاتها ومخازنها وإسطبلاتها التي تداخلت أجزاؤها المعمارية في العصور الصليبية، مع عناصر بيزنطية في أكثر من نقطة، كما ابتكر المسلمون زخارفهم المميزة النباتية والهندسية المترافقة مع الكتابة العربية (الآرابيسك Arabesque) التي زينت ليس فقط عمارتهم، بل أوانيهم وأسلحتهم وحليهم ونقودهم، وغيرها، وغدت إلى جانب فن المقرنص من أهم إبداعاتهم.

لم تحظَ الآثار الإسلامية، كما أشرنا، بالاهتمام من قبل الباحثين الغربيين الذين رأوا أنها لا تخصهم، وأنها من سوية أدنى وغير ذلك، خلافاً لما أظهرته التنقيبات الأثرية الجدارية منذ أكثر من عقدين، في عدة مناطق من الرقة إلى مسكنة وقصر الحير ومدينة الفار وقنسرين والرحبة وخراب سيار ودمشق وحلب، وفي بقية بلاد الشام مما أكد أصالة الحضارة الإسلامية(١١).

خاتمة:

هكذا نلاحظ أن نشوء علم الآثار كان في البداية مرتبطاً بتوجهات دينية ومنافع اقتصادية للغرب، وأن ممارسته اقتصرت على قلة وأوساط محدودة، لكنه سرعان ما تحول إلى اختصاص دقيق له أدواته وتاريخه ومناهجه ومدارسه المتنوعة التي لم تعد تسعى إلى الحصول على المكتشفات الفنية والنفيسة وإنما تهدف إلى دراسة الماضي بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تقف سورية على رأس البلدان التي قدمت مادة أثرية فريدة في غزارتها وأهميتها، مما أعطاها مكانة خاصة في دراسة التاريخ القديم والحضارات الأولى. فقد كانت مركز استيطان بشري باكر مستمر غني منوع وصلها الإنسان منذ أكثر من مليون سنة، وكشفت فيها أدوات حجرية وبقايا أنتروبولوجية ومستحاثية، نباتية وحيوانية، وفرت معلومات غزيرة عن المراحل الأولى في عصور ما قبل التاريخ.

كانت سورية في الألف الثامن ق.م. مهد الثورة الزراعية الأولى وما رافقها من تحولات اقتصادية واجتماعية كبيرة، وقد غدت في الألف الرابع ق.م. موطن الثورة العمرانية التي تميزت بنشوء المدن المحصنة، ثم أصبحت سورية في الألف الثالث ق.م. أحد أهم مراكز نشوء المدن والدول الأولى في المشرق العربي القديم. وقد كانت على امتداد الألف الثالث ق.م. جزءاً أساسياً من الإمبراطوريات البابلية والآشورية، ثم مكوناً رئيساً للحضارة الكنعانية والفينيقية وقاعدة انطلاق الدول الآرامية، وعلى رأسها مملكة دمشق. بقي دور سورية متميزاً على امتداد العصور الكلاسيكية اللاحقة، الهلنستية والرومانية والبيزنطية، وكانت الموقع الأهم للتأثيرات الغربية – الشرقية المتبادلة على كل صعيد.

وما إن دخل الإسلام حتى أضحت دمشق عاصمة الإمبراطورية الأموية، التي امتدت من الأطلسي غرباً حتى تخوم الصين شرقاً. بقيت سورية فاعلة على امتداد العصور

الإسلامية اللاحقة، بالرغم من تبدل النفوذ السياسي لسورية عبر الزمن، إلا أن دورها الحضاري ظل حيوياً ورائداً بلا انقطاع. أكدت هذه الدور المكتشفات الأثرية، من عمارة فنون وكتابات، وغير ذلك من اللقى والآثار التي لا زالت في تزايد مستمر بعد كل موسم كشف وتنقيب، مبرزة صورة سورية ودورها الحضاري المتميز.

كل ذلك يتطلب التعامل مع التراث الأثري السوري وفق رؤية واضحة تؤمن جميع متطلبات حماية وتوظيف هذا التراث، بما يخدم مصالحنا الوطنية والثقافية، ويعزز مكانته الإنسانية والعالمية.

الحواشي والملاحظات

(١) تعتبر مؤلفاتي، أو تلك التي ساهمت فيها من المراجع العربية، القليلة، حول عصور ما قبل التاريخ. راجع محيسن سلطان، ٢٠٠٦، ١٩٩٥. ومن المراجع الأجنبية يمكن العودة إلى

- Akazawa T. and Muhsen S. 2002 (eds) .
- Hours F. 1992

(٢) من المراجع العربية الرئيسية حول العصر الحجري الوسيط والحديث:

- Cauvin J. 1994.
- Aurenche O. et Kozteowski S. 1999.

(٣) من أحدث وأفضل المؤلفات عن الآثار السورية منذ البداية وحتى نهاية عصر الحديد، هو:

- Akkermans. M.M. G. and Schwartz G. M. 2003

المؤلفات يعملان في سورية ويتابعان تفاصيل مكتشفات البعثات الأخرى – حول هذه المرحلة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ، العصر الكاكوليتي، راجع المرجع المشار إليه أعلاه، وبخاصة الصفحات ١٥٤-٢١٠.

للمزيد في إطار مشرقي واسع انظر:

- Butterlin P. 2003. pp. 59-96.

(٤) راجع:

- Akkermans P. M. M. G. and Schwartz G. M. 2003,
- Pp. 211-287. Margueron J.-C. 2004, Pp. 39-312.

للمزيد انظر:

- Buccellati G. and Kelly-Buccellati M. 1998. MatthiaeP. 1995.

(٥) حول آثار الألف الثاني، انظر:

- Akkennans P. M. M. G. and Schwartz G. M. 2003, Pp. 289-359.

للمزيد انظر:

- Charpin D. and Ziegler N. 2003.

(٦) حول آثار الألف الأول ق.م. عصر الحديد، انظر:

- Akkermans P. M. M. G. and Schwartz G. M. 2003, Pp. 360-402.

للمزيد انظر:

- - Lipinski E. 2000.

للتعرف على موقع المكتشفات الأثرية السورية المؤرخة من العصر الحجري الوسيط، مروراً بالحجري الحديث، فالبرونز، فعصر الحديد في الإطار المشرقي العام، راجع:

- Scarre C. 2005 (ed)
- Watkinsl., Pp. 200-233.
- Matthews R. Pp. 432-471

(٧) من أكثر المؤلفات شمولية وأهمية التي تناولت تاريخ سورية، منذ العصر الفارسي وحتى الإسلام، كما أظهرت التنقيبات الأثرية الجارية، هو:

- Dentzer J.-M. and Orthmann W.1989 (eds), Pp.9-30.

(٨) إضافة إلى المرجع السابق، الصفحات ٣١-٤٤، انظر

- Schlumberger D. 1970.
- Dentzer J.-M. 1985-1986 (ed).

(٩) انظر:

- Ball W. 2000, Pp. 30-87.
- Dentzer J.-M. and Orthmann W.1989 (eds). Pp.45-61.
- Butcher K. 2003, Pp. 32-51.
- Rey-Coquais J.-P. 1987.

(١٠) انظر:

- Ball W. 2000, Pp. 207-245.
- Dentzer J.-M. and Orthmann W. 1989 (eds)Pp.97-116.
- Canivet P. et Rey-Coquais J.-P. 1992.

للمزيد راجع:

- TateG.1992.

– وحول ما ذكر عن "روْمنه سورية" و"سوْرَنة رزما" انظر:

- Ball W.I 994. P. 32.

(١١) انظر:

- GraberO.1984.
- Kennedy H. 2006 (ed).

تجد الإشارة بأن المؤلفات عن آثار سورية عبر مختلف العصور، هي أكثر من أن تحصى، معظمها بلغات أجنبية. جزء هام منها نشر في مجلة الحوليات الأثرية السورية كتقارير علمية لمواسم تنقيب أو مسح. وفي مجلة Syria. كما تضمنت جميع

المطبوعات التي رافقت المعارض الأثرية السورية في الخارج (كاتالوج)، دراسات مبسطة لكنها دقيقة علمياً، ومتكاملة. وهناك أبحاث عدة نشرت في الموسوعة العربية.

انظر بعض المطبوعات التي رافقت المعارض الخارجية مثل:

- Au Pays de Baal et Astarte. 1983 Paris.
- From Ebia to Damascus. 1985 Washington D. C.
- Syrie, Memoire et Civilisation. 1993 Paris.
- Syria, Land of Civilizations. 1999 Montreal.

المراجع الأجنبية

- Abdulhak A. and S. 2008, Salim Abdulhak, de la Direction des Antiquites Syriennes a la Direction du Patrimoine Mondial. In, Pionniers et Protagonistes de FArcheologie Syrienne, 1860-1960. Ministere de la Culture-DGAM, Pp. 299-306.
- Akazawa T. and Muhesen S. 2002 (ed), Neanderthals Burial: Excavations of Dederiyeh Cave. Afrin, Syria. SIR. Kyoto - Japan.
- Akkermans P. M. M. G. and Schwartz G. M. 2003, The Archaeolology of Syria. Cambridge University Press.
- Aurenche 0. and Kozlowski S. 1999, La Naissance du Neolithiqw UK Proche-Orient, Errance, Paris.
- Au pays de Baal et d'Astarte. 1983, Paris, Catalogue.
- Ball W. 1994, Syria a Historical and Architectural Guide. Es§e3l» England.
- Barker P. 1993, Techniques of Archaeological Excavation, London: Routledge.
- Bar-Yousef E. 2005, The Holly Land in English Culture, 1799-1917. Claredon Press. Oxford.
- Bemhardsson M. T. 2005, Reclaiming the Plundered Past. University of Texas Press.
- Biers W. R. 1993, Art Artifact and Chronology in Classical Archaeology. London: Routledge.
- Binford S. R. and L. R. Binford 1968 (eds). New Perspectives *m,* Archaeology. Chicago Aldine Press.
- Buccellati-Kelly M. 1997, Archaeology in Syria. In : The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East (OEANE). Meyers E. M. (ed). Vol. 1, Pp. 42-47, Oxford University Press.
- Buccellati G. and Kelly-Buccellati M. 1998, Mozan III, Urkesh and the Humans, Malibu. L. A.
- Bums R. 1994, Monuments of Syria, London: Tauris.
- Butcher K. 2003, Roman Syria and the Near East. The British

Museum Press.
- Butterlin P. 2003, Le Temps Proto-Urbain de Mesopotamie. **CNRS, Purls.**
- Canivet P. and Rey-Coquais J. P. 1992, La Syrie de Byzance a l'Islaaa. Damas IFAPO.
- Cauvin J. 1994, Naissance de Divinite, Naissance de l'Agriculture. CNIBSt Paris.
- Charpin D. and Ziegler N. 2003, Mari et le Proche-Orient a Amorite. NABU. 6. Paris.
- Chevalier N. 2003, La Recherche Archeologique Fran^aise au Orient, 1842-1947. ERC. Paris.
- Childe V. G. 1965, Man Makes Himself. London: Watts.
- dark A. 1996, Seeing Beneath the Soil: Prospecting **Methods** M» Archaeology. London: Routledge.
- Clarke D. L. 1978, Analytical Archaeology. London: Methuen.
- Conolly J. L. M, 2006, Geographical Information System in Archaeology. Cambridge University Press, Cambridge.
- Dentzer J.-M. 1985-1986 (ed), Hauran I: Recherches Archeologiques sur La Syrie du Sud a l'Epoque Hellenistique et Romaine. 2 Vols. Paris.
- Dentzer J.-M. and Orthman W. 1989 (eds), Archeologie et Histoire de la Syrie H: La Syrie de FEpoque Acheminide a l'Avenement de l'Islam. Saarbrucken.
- Diaz-Andreu M. 2007, A World History of Nineteenth
- -Centetty Archaeology, Nationalism, Colonialism and Past. Oxford University Press.
- Buccellati G. and Kelly-Buccellati M. 1998, Mozan III, Urkesh and the Humans, Malibu. L. A.
- Bums R. 1994, Monuments of Syria, London: Tauris.
- Butcher K. 2003, Roman Syria and the Near East. The British Museum Press.
- Butterlin P. 2003, Le Temps Proto-Urbain de Mesopotamie. CNRS, Paris,
- Canivet P. and Rey-Coquais J. P. 1992, La Syrie de Byzance a

rislaai. Damas IFAPO.
- Charpin D. and Ziegler N. 2003, Mari et le Proche-Orient a Amorite. NABU. 6. Paris.
- Chevalier N. 2003, La Recherche Archeologique Fran^aise au Orient, 1842-1947. ERC. Paris.
- Childe V. G. 1965, Man Makes Himself. London: Watts.
- dark A. 1996, Seeing Beneath the Soil: Prospecting **Methods** Archaeology. London: Routledge.
- Clarke D. L. 1978, Analytical Archaeology. London: Methuen.
- Conolly J. L. M, 2006, Geographical Information System in Archaeology. Cambridge University Press, Cambridge.
- Dentzer J.-M. 1985-1986 (ed), Hauran I: Recherches Archeologiques sur La Syrie du Sud a l'Epoque Hellenistique et Romaine. 2 Vols. Paris.
- Dentzer J.-M. and Orthman W. 1989 (eds), Archeologie et Histoire de la Syrie H: La Syrie de l'Epoque Acheminide a l'Avenement de l'Islam. Saarbrucken.
- Diaz-Andreu M. 2007, A World History of Nineteenth-Centwy Archaeology, Nationalism, Colonialism and Past. Oxford University Press.
- Dolukhanov P. 1994, Environment Ethnicity in the Ancient Near East Avebury.
- From Ebia To Damascus, 1985, Washington DC. Catalogue.
- Fagan B. 1998, People of the Earth, N. Y. Longman.
- Finkel I. L. and Seymour N. J. 2008, Babylon, Myth and Reality. British Museum.
- Gelin M. 2002, L'Archeologie en Syrie et au Liban a FEpoque du Mandat 1919-1946. Librairie Orientaliste. Paris.
- Goode J. F. 2007, Negotiating the past, Archaeology, Nationalism and Diplomacy in the Middle East 1919-1941. University of Texas Press.
- Graber 0. 1984, La Formation de l'Art Islamique. Flammarion, Paris.
- Hodder I. 2001, (ed). Archaeological Theory Today. Polity

Press Cambridge.
- Hodder I. and Hutson S. 2003, Reading the Past. Cambridge University Press.
- Hours F. 1992, Le Paleolithique et FEpipaleOlithique de la Syrie et du Liban. Beyrouth, Dar el-Machreq.
- Howard P. 2003, Heritage, Management, Interpretation, Identity. London:Continuum.
- Kennedy H. 2006 (ed), Muslim Military Architecture in Greater Syria. Leiden: Brill.
- Leon M. P. 2005, The Archaeology of Liberty in an American Capital:Excavations in Annapolis. Berkley, University of California Press.
- Lipiski E. 2000,The Aramaens, Leuven, Peeters.
- Mallowan M. E. L. 1936, Excavations at Chagar Bazar and an Archaeological Survey of the Habur Region of North Syria 1934-35. Iraq:3,P: 1-85.
- Marchetti N. and Thuesen I. 2008 (eds), ARCHAIA, Case Studies on Research Planning, Characterization, Conservation and Management of Archaeological Sties. BAR. I. S. 1877.
- Margueron J.-C. 1991, Les Mesopotamiens, Tom. 1, A. Colin, Paris.
- Margueron J.-C. 2004, Mari, Metropole de 1'Euphrate. Picard. ERC. Paris.
- Matthiae P. 1981, Ebia, An Empire Rediscovered. Garden City N.Y. Doubleday.
- Matthiae P. 1995, Au Origine de la Syrie. Ebia Retrouve. Gallimard, Paris.
- Mc-Guire R. H. 1992, A Marxist Archaeology. San Diego. CA. Academic Press.
- Meskell L. 1998 (ed). Archaeology Under Fire, Nationalism, Politics and Heritage in the Eastern Mediterranean and Middle East. London: Routlrdge.
- Meskell L. and Preucel R. W. 2007 (eds). Companion to Social Archaeology, Blackwell Publishing.

- Nordiquian L. & Salles J.-F. 2000, Au Origine de l'Archeologie Aerienne. MUSJ, 45.
- Poidebard A. 1934, La Trace de Rome dans Ie Desert de Syrie, Paris.
- Renfrew C. and Bahn P. 2008, Archaeology: Theories, Methods and Practice. London: Thames and Hudson.
- Rey-Coquais J.-P. 1987, La Syrie Romaine de Pompee a Diocletien: Journal of Roman Studies. 68.
- Roskams S. 2001, Excavation. Cambridge University Press.
- Said E. 1991, Orientalism. Penguin Books.
- Scarre C. 2005 (eds), The Human Past. London: Thames and Hudson.
- Schlumberger D. 1970, L'Orient Hellenise. Paris.
- Searight S. and Wagstaff M. 2001 (eds). Travelers in the Levant , Durham: Astene.
- Syria: Land of Civilizations, 1999, Montreal (Catalogue). Syrie, Memoire er Civilisation. 1993, Paris (catalogue).
- Tate G. 1992, Les Campagnes de la Syrie du Nord du IIeme au VIIteie Siècle. BAH. Vol. 133, Paris.
- Thomas J. 2002 (ed). Interpretive Archaeology, a Reader, Leicester University Press. N. Y. London.
- Trigger B. G. 2003, Artifacts and Ideas: Essays in Archaeology. New Brunswich. N.Y. Transaction Publisher.
- Trigger B. G. 2008, A history of Archaeological Thoughts. Cambrigr University Press.
- Wheatley D. E. and Gilling M. 2002, Spatial Technology Archaeology: The Archaeological Application of GIS: Taylor Francis.
- Whealer M. 1954, Archaeology From the Earth. Oxford University Press. Penguin Books.
- Witten A. J. 2006, Geophysics and Archaeology. London: Equinox.

المراجع العربية

- عطري عبد الغني، ٢٠٠٠، **حديث العبقريات**، دار البشائر، دمشق.
- محيسن سلطان، ١٩٨٩، **آثار الوطن العربي القديم، الآثار الشرقية**، جامعة دمشق.
- محيسن سلطان، ١٩٩٥، **الصيادون الأوائل**، دار الأبجدية، دمشق
- محيسن سلطان، ١٩٩٦، **المزارعون الأوائل**، دار الأبجدية، دمشق.
- محيسن سلطان، ٢٠٠٦، **عصور ما قبل التاريخ**، جامعة دمشق.

الرواية التاريخية حول تحديد منبع نهر النيل في المصادر العربية القديمة

الدكتورة خولة شاكر محمد الدجيلي

قسم التاريخ

كلية التربية للبنات

جامعة بغداد

المقدمة:

تناولت مصادرنا العربية القديمة، وتحديداً مصادر المكتبة التاريخية-الجغرافية، مواضيع معرفية حظيت باهتمام بعض المؤلفين آنذاك، فتناولوها إما حباً بالمعرفة التاريخية والرغبة في الاستزادة منها. أو تحقيقاً وتوثيقاً لها بسبب تضارب الآراء حولها، سواء في صحة وقوعها أو تأريخها أو تحديد موقعها، وغيرها من الأسباب التي تكثرُ ولا سبيل لإيرادها هنا.

من هذه المواضيع: القضايا الاجتماعية، الجوانب الاقتصادية، أصول السكان وعناصرهم، المواقع الجغرافية... فضمت كتبهم معلومات جميلة عنها، وإن كانت قليلة ومتناثرة، محاولين اعتماد الدقة العلمية والموضوعية قدر ما تسمح به حالة الوعي الفكري والتدوين التاريخي آنذاك. وإن كنا لا نعدم وجود معلومات يطغى عليها طابع المبالغة أو الخرافة أو الأسطورة، وليس هذا ما يعنينا هنا. هذه المواضيع تشكل جوانب بحثية جديدة وجادة تستحق الدراسة

من لدن الباحثين المحدثين، لاسيما الأكاديميين، في علمي التأريخ والجغرافية. فالتشابه البحثي المنهجي كبير بينهما، كما أن مادتيهما ترفد الباحثين في هذين العلمين، إضافة لكونها تتسم بالأهمية والحيوية، وتمس بشكل غير مباشر حياة الإنسان وحتى الوقت الحاضر.

من هذا المنطلق، استأثرت دراسة طبيعة الرواية التاريخية في توثيق وتحديد بعض المواقع التي ترد في كتب المكتبة التاريخية- الجغرافية باهتمامنا. فقد تعددت وتنوعت الأسس المنهجية التي اعتمدوها، ما بين الرواية المستندة على المشاهدة الشخصية، وهي الأهم ولكنها الأقل في توثيق الرواية التاريخية. أو الأخذ من كتب الأقدم منهم، أو على الرواية الشفوية المعتمدة إما على مشاهدة من أهم أقدم، أو ممن قرأ كتب الأقدمين.

لذا، تغيرت وفي أحيان كثيرة تشابهت هذه الروايات في الصياغة والمضمون، أو بتغيير كلي أو جزئي فيها. والبعض من المؤلفين كان يمحص ويدقق في روايته التاريخية مشيراً إلى مكمن الصحة أو الخطأ حسب اعتقاده، والبعض الآخر يرويها كما هي وبدون شرح لوجهة نظره أو نقدها أو تعليلها.

هذا الأسلوب في الكتابة التاريخية يظهر جلياً في موضوع تحديد منبع نهر النيل، والتحقق من موقعه وتشكله ومجراه قبل وبعد دخوله مصر وإلى مصبه في البحر المتوسط، لدى البعض من باحثينا القدماء. فمع أنهم أدركوا أهميته، لكنهم أشاروا إليه باقتضاب أحياناً، وبتفاصيل قليلة محددة أحياناً أُخَرْ. ويتسم قسم منه بالدقة في الرواية وتمحيص في المعلومة التاريخية- الجغرافية، ويطغى طابع المبالغة وعدم الدقة في الرواية على القسم الآخر منه.

إن الرغبة في تقصي حقيقة ما وبأمانة علمية، هي التي تدفع البعض للقيام برحلات استكشافية إلى الموقع المطلوب هدفها المشاهدة العينية والتأكد من

صحة ما سمعوه أو قرؤوه. لكننا سنرى أن روح الاستكشاف هذه كانت لا تزال ضعيفة في هذا الجزء من قارة إفريقيا. مع أن مناطق الساحلين الشرقي والغربي ومعظم مناطق غرب إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى أو ما يسمى بالسودان الغربي قد استُكشفت من قبل الرواد العرب والمسلمين كالمسعودي وابن بطوطة والبكري وغيرهم. لذا اعتمد كتابنا على البحث في بطون بعض الكتب التي يشير أصحابها إلى وصولهم لإحدى مواقع هذه المنطقة، أو السؤال ممن لديه إطلاع أو معرفة بهذا الموضوع أو استخراج المعلومات المطلوبة من كتب الأقدم منهم. وهو أمر أشار إليه بعض كتابنا بصدق ووضوح في موضوع بحثنا هذا.

من هنا جاء الاختلاف في رواياتهم حول تحديد موقع المنبع باختلاف مصادرهم التي اعتمدوها. فمنهم من اكتفى بتحديد أقرب نقطة يخرج منها نهر النيل، ومنهم من حدد أبعد نقطة لمنبعه، وهذه أو تلك تحمل الصحة في طياتها، فعندما يُذكر مثلاً أن نهر النيل ينبع من جبلٍ ما أو من بحيرات وبطائح، فهي صحيحة في مضمونها لأنها تشكل فعلياً جزءاً من منبعه ومن ثم تكوّنه.

والمُلاحظ هنا، أن معظم باحثينا القدماء يتفقون على تحديد نقطة المنبع، وأن اختلفوا في تحديد اسمها كما سنرى. فإليهم يعود الفضل في الوقوف على منبعه. وما وصلت إليه الدراسات الحديثة جاء مطابقاً لما أثبتوه حول منبعه وتشكّله، بل إنها أحياناً كانت أكثر دقة. وما حققوه، يشهد لهم بالريادة مع الموضوعية في عرض المعلومة التاريخية- الجغرافية، ونقل الحقيقة.

وسيكون منهجنا قائم أساساً على تتبع الرواية التاريخية حول منبع نهر النيل لدى كتابنا بغض النظر عن قدمهم، ومدى دقتها فيما يخص منبعه وتشكّله

ومجراه من المنبع وحتى المصب. مبتدأين أولاً بذكر الروايات التي تتفرد بذكر معلومة ما ونقدها، ثم نشير ثانياً إلى الروايات التي تشترك -بشكل أو بآخر- في تحديد موقع المنبع لكنها تختلف في التسمية، محاولين قدر الإمكان تعليل هذا الاختلاف. وأخيراً، سنورد الروايات التي حددت وبدقة كبيرة موقع المنبع وتكوّنه.

واستكمالاً لوحدة الموضوع، وحفاظاً على منهجيته، فسوف نبحث في الروايات عن تشكّله بعد المنبع ومجراه حتى دخوله مصر ومصبه في البحر المتوسط. مع الإشارة إلى أهم المدن التي قامت على ضفتيه من الجنوب إلى الشمال، على اعتبار أن قيامها مرتبط بمجراه. والتأكيد على أن كتّابنا رصدوا ظواهر جغرافية مهمة مرتبطة به والتحقق من دقة روايتهم حولها، كظاهرة فيضانه في موسم يختلف عن مواسم فيضانات الأنهار الأخرى، وأثرها في رسم نمط حياة المصريين لاسيما في الجانبين الاجتماعي والاقتصادي، وظاهرة مسراهُ من الجنوب إلى الشمال في ملاحظة ذكية لعلمائنا وقتذاك. وأخيراً دققنا في الروايات التاريخية التي حددت طوله من المنبع وحتى المصب، وسنرى مدى دقتهم في هذا المجال.

الروايات التاريخية التي تناولت منبع نهر النيل[١]:

وأولها رواية اليعقوبي[٢] (٢٨٤هـ/٨٩٧م)، وسنوردها بداية لأنها تختلف كثيراً عن الروايات الأخرى. ومضمونها أن النيل ينبع من مدينة علوة[٣] في النوبة جنوبي مصر من عدد من العيون، ثم تتصل علوة التي يسميها اليعقوبي أحياناً بالجزيرة ببلاد السند، وبالتالي فإن النيل يجري في أرض السند ليلتقي بنهر مهران هناك. ويضيف ما يعتقده دليلاً على صحة روايته، بأن هذين النهرين يتشابهان ليس لأنهما يلتقيان معاً بالسند، بل لوجود التماسيح في

كليهما[٤]. هذه الرواية يخالطها تضارب جغرافي كبير، فلم يعن اليعقوبي شيئاً بتدقيقها والتأكد من صحتها، بل اكتفى بنقلها عمن سمعها منه. فروايته هذه مفردة لم يعتمدها أو يُشر إليها أياً من كتّابنا من بعده، لاسيما أنه لم يذكر مصدره.

أما الروايات التي تشير -بشكل أو بآخر- إلى مكان المنبع، لكنها تختلف في التسمية بما يؤشر عدم التثبت من صحتها، وأن الاهتمام بالرحلات العلمية ذات الطبيعة الاستكشافية وتحديداً في أواسط إفريقيا، كان لا يزال قاصراً، على الرغم من اهتمام الباحثين آنذاك بمعرفة ودراسة كل ما يتعلق بنهر النيل. وأولها تلك التي يوردها ابن الفقيه الهمداني[٥] (٣٤٠هـ/٩٥١م). ومفادها أن النيل يخرج من خلف خط الاستواء، لكن المنطقة خلفه مجهولة لذا يسميها بالظلمة[٦]. ومع أن هذه الرواية تُظهر نوعاً من التطور في الفكر التاريخي-الجغرافي وتدوينه، إلا أنه يبقى قاصراً لعدم القدرة على التثبت من موقع المنبع. مع أنه أشّر حقيقة مهمة ألا وهي كون منبعه من خلف خط الاستواء.

أما الاصطخري[٧] (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري السادس الميلادي)، فمع محاولته تحديد موقع المنطقة أعلاه بأنها مفازة تقع وراء أرض الزنج لا يمكن الوصول إليها، لكنه يشير إلى عدم معرفة مكان المنبع. هنا لابد من القول أن الاصطخري لا يستطيع فعلاً تحديد موقع المنبع لأن تعبير أرض الزنج واسع وفضفاض ويحتمل تفسيرات عدة، فما بالنا بالمفازة التي تقع ورائها.

ونقف قليلاً عند الروايات التي يوردها كل من ناصر خسرو في السفرنامة[٨]، وجان ليون الإفريقي (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) في كتابه وصف إفريقيا[٩]. فالأول

يذكر أكثر منه رواية حول منبعه ولكنها ناقصة وتحتاج لتدقيق أكثر، بل وتصل إلى حد التضارب فيما بينها. وأول ما يذكره أن النيل ينبع في منطقة تقع ((بين الجنوب والغرب))(١٠)، ثم يدخل مصراً عند مدينة النوبة ليصب في البحر الرومي(١١). هنا يظهر عدم وضوح الرؤية التاريخية-الجغرافية في هذه الرواية، فأين تقع هذه المنطقة وما اسمها؟ وما هو مساره لحين دخوله مدينة النوبة؟ لكن الجيد في هذه الرواية هو تحديدها لأول نقطة يعبر منها النيل إلى مصر وهي النوبة. ومع هذه البداية المعقولة في روايته الأولى أعلاه، نجده ينقضها في ذات الصفحة بقوله إن حقيقة منابع النيل لا تُعرف(١٢).

بعدها يشير ناصر خسرو إلى واقعة مهمة مفادها سماعه ببعثة أرسلتها الإدارة المصرية لاستكشاف منابع النيل استمرت سنة كاملة لكنها باءت بالفشل(١٣). هنا ينفرد ناصر خسرو بذكر هذا الأمر، إذ لم يُشر إليه أحد من مؤلفينا، ولا ندري أحدث في عهده أم في عهد أسبق. لكنه أن صحّ، فهو يؤشر تنامي الوعي التاريخي-الجغرافي، إضافة إلى التأكيد على ضرورة البحث والتقصي للحصول على دليل يُثبت حقيقة أمرٍ ما.

وبعد كل هذا، يختم ناصر خسرو عديد رواياته المارة الذكر برواية دقيقة عن منبع نهر النيل بقوله أنه(١٤) ((يأتي من جبل في الجنوب يسمى جبل القمر))(١٥). ومع أنه لم يحدد هذا الـ (جنوب)، لكن من المحتمل جداً أنه يعني به جنوب خط الاستواء.

أن هذه الكثرة من الروايات لدى ناصر خسرو التي تصل حد التناقض أحياناً حول منبع النيل، هي خير دليل لحالة عدد من كتّابنا آنذاك الذين اعتمدوا أساساً على السماع أو القراءة والأخذ من بطون الكتب دون محاولة التأكد من

صحة ما يكتبونه. ومع ذلك، فهي مقبولة لأنها تمثل إحدى مراحل التدوين التاريخي العربي الإسلامي وصولاً إلى مرحلة قرن البرهان أو الدليل بموضوع ما.

أما روايات جان ليون الإفريقي فهي الأخرى تعكس حالة من الخلط وعدم الدقة. فمنذ البداية يذكر أنه ((توجد آراء مختلفة حول موضوع أصل النيل))(١٦)، وأولها أنه ينبع من جبل القمر ويهبط كالشلال مع عنفوان شديد ثم يغوص في الأرض ليخرج بعدها على شكل عيون عدة(١٧). أما الرأي الآخر فمفاده أن نهر النيل ينبع ((في سهول مهجورة في حضيض هذا الجبل عن طريق بضعة ينابيع شديدة التباعد بعضها عن بعض))(١٨). ثم ينقل بعد ذلك رأياً لتجار أحباش يتاجرون مع دنقلة مضمونه أنهم توغلوا جنوباً لحوالي ١٦٠٠كم فلم يروا من النيل سوى عدد من البحيرات الصغيرة وفروع كثيرة تجري بين قيعان ضحلة منتشرة من الشرق إلى الغرب بحيث يتعذر تماماً معرفة معالم مجراه (١٩) ثم يناقض هذه الرواية برواية أخرى لنفس المصدر فحواها أن النيل يتسع جنوباً حتى ليصبح بحيرة(٢٠). ثم يُنهي حديثه عن نهر النيل بقوله أنه لو سرد ((كل ما قاله الجغرافيون عن النيل إذن لأصيب كل الناس بالدهشة والتعجب، ومن المحتمل ألا يصدقوا ذلك ولهذا لن نتعرض لذلك بشيء كيلا يضيع الوقت في أمور غير موثوق بها))(٢١).

وبعد استعراض هذه الروايات، نرى أن معلومات جان ليون الإفريقي مستندة أساساً على السماع. ومع أنه لم يوضح مصدره في أول روايتين كما فعل في الروايتين الأخيرتين، لكنه لم يعنِ بمناقشتهما أو نقدهما ومحاولة استخلاص معلومة دقيقة عن منبع النهر، وبسبب قاعدة معلوماته تلك، فلا غرابة إذن لما ذكره في النص الأخير أعلاه. أن جمع روايات جان ليون وتحليلها يثبت أنها تحوي معلومات جيدة عن منبع نهر النيل وتشكله في منطقة المنبع وما بعدها.

وهو أمر لم يحققه المؤلف مع أن منهجية البحث العلمي والتدوين التاريخي في وقته كانت قد توضحت بشكل أفضل، مما كان يتيح له سُبلاً علمية أكثر دقة في المنهجية البحثية.

وقريب من إحدى روايات ناصر خسرو المذكورة آنفاً، تأتي رواية المقدسي البشاري[٢٢] (٣٧٥هـ/٩٨٥م) والتي ينص فيها على أن النيل يدخل مصر من مدينة النوبة جنوباً حتى يصب في البحر المتوسط. فهي تؤشر أيضاً مع رواية ناصر خسرو الأولى كون مدينة النوبة مدخل النيل إلى مصر، لكنه لا يذكر شيئاً عن منبعه وتكوّنه ومجراه لحين وصوله النوبة ومن ثم دخوله مصر، لذا فهي لا تفيد بشيء في تحديد المنبع.

بقيت لدينا روايتان مهمتان في هذا الصدد، إلا أن فيهما خلط جغرافي كبير. الأولى لابن رسته[٢٣] (ق ٣ هـ/٩م) يذكر فيها أن النيل ينبع من جبل البن الواقع خلف خط الاستواء. وربما تكون هذه التسمية خطأ غير مقصود من ابن رسته، وليست نتيجة للنقل أو السماع، فلا أحد غيره، قبله أو بعده، استخدم هذه التسمية.

والرواية الثانية هي لابن خرداذبة[٢٤] (٣٠٠هـ/٩١٢م) ويقدم فيها معلومتين، في الأولى يؤكد أن جبل القمر هو منبع نهر النيل، لكنه يجعل موقعه في اليمن. وهذا أمر غريب لا نعرف كيف وقع به ابن خرداذبه، لكننا نراه في المعلومة الثانية، وكأنه يصحح الخطأ الذي وقع فيه أعلاه فيذكر أن موقع جبل القمر في إفريقيا. هذا التصحيح أمر جيد لكنه ناقص لأنه لم يحدد موقعه في إفريقيا لذا بقيت معلومته فضفاضة.

أما الروايات التي تؤكد وبدون إبهام على أن جبل القمر في إفريقيا الواقع خلف خط الاستواء هو منبع نهر النيل، فهي التي ترد عند كل من:

المسعودي[٢٥] (٣٤٦هـ/٩٥٧م)، ابن حوقل[٢٦] (٣٦٧هـ/٩٧٧م)، الزهري[٢٧] (٥٤١هـ/١١٥٤م)، الإدريسي[٢٨] (٥٦٠هـ/١١٦٦)م، ياقوت الحموي[٢٩] (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) القزويني[٣٠] (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) الخورازمي[٣١]، ابن سعيد المغربي[٣٢] (٦٨٥هـ/١٢٨٥م)، شيخ الربوة الدمشقي[٣٣] (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، أبو الفدا[٣٤] (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، النويري[٣٥] (٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، ابن بطوطة[٣٦] (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، ابن خلدون[٣٧] (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، المقريزي[٣٨] (٨٤٥هـ/١٤٤١م)،[٣٩] Persian Geography، Mustawfi[٤٠] .

وتنفرد رواية كل من المسعودي في مروج الذهب وابن حوقل في صورة الأرض بأهمية متزايدة. فالمسعودي الذي يُوصف بأنه يقف على قمة المعارف الجغرافية في عصره[٤١]، يشير إلى إطلاعه على مصور جغرافي فيه خريطة للنيل توضح خروجه من جبل القمر من اثنتي عشر عيناً -كما يسميها- والتي تشكل عملياً منبعه[٤٢]. ومن المؤسف أنه لا يخبرنا كيف وأين عثر على هذا المصور ولمن هو، لكننا نلاحظ أنه ينفرد في هذه الرواية بالقول أن عدد العيون التي تخرج من جبل القمر اثنتا عشر عيناً، في حين تُجمع الروايات الأخرى على أنها عشرة فقط. وفي كتاب أخبار الزمان المنسوب له، يقدم وصفاً جميلاً لهذه العيون أو الأنهار -وهي الأدق- حين يشبهها بأنها كالخيوط[٤٣] ينساب ماءها رقراقاً[٤٤].

أما ابن حوقل فيذكر أنه قرأ في رسالة جغرافية أن منبعه من جبل القمر من أنهار خارجة منه وبحيرات كما سنوضح لاحقاً. ومن المؤسف أيضاً أنه كالمسعودي لا يعيننا بأية معلومات عن هذه الرسالة. ومع ذلك فالجيد في هاتين الروايتين، أنهما مدعمتين بوثيقتين تحدد كلتاهما موقع المنبع.

وأخيراً، لابد من التعرض لرواية مهمة وهي للعمري[٤٥] (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) يذكر فيها أنه قام بنفسه بتتبع مجرى نهر النيل جنوباً، فوجده متفرقاً على سبعة أنهر تدخل في صحراء جرداء منقطعة ثم تظهر وتجتمع لتصير نهر النيل. ويبدو واضحاً أنه لم يستطع الوصول لنقطة المنبع، ويعلل ذلك بأنها تقع في أرض خراب مُهلكة وراء خط الاستواء لا يعيش فيها شيء. ويرفد أبو الفدا[٤٦] رواية العمري بالتأكيد على عدم وصول أحد لجبل القمر، بل شُوهد عن بُعد، ومن شاهَدَه يصفه بالبياض بسبب الثلج الذي يكسوه. لكن أبو الفدا يُفند هذا الكلام معللاً أن الجبل يقع في منطقة حارة لا تسمح ببقاء الثلج عليه، وهذا تعليل منطقي وجميل منه.

وهنا، تجدر الإشارة، إلى رحلة قام بها البكباشي المصري سليم قبطان للكشف عن منبع النيل[٤٧]، لكنها لم تصله بسبب الموانع الطبيعية، بل وصلت لأقرب نقطة من منبع رافد للنيل وهو النيل الأبيض، علماً أن هذه الرحلة تمت بتوجيه من السلطان محمد علي في الفترة ما بين(١٢٥٥-١٢٥٨هـ/١٨٣٩-١٨٤٢م). أما رافده الثاني النيل الأزرق، فقد أُكتشفت منابعه من قبل الاسكتلندي جيمس بروس (James Bruce) خلال زيارته لمرتفعات الحبشة للفترة من (١١٨٤-١١٨٧هـ/١٧٧٠-١٧٧٣م) [٤٨].

ثم تتابع الروايات تشكل النهر بعد منبعه من جبل القمر خلف خط الاستواء، فتشير إلى تكوّن عشرة أنهار، كل خمسة منها تصب في حظيرة[٤٩] أو بحيرة[٥٠] أو بطيحة[٥١]، يسميهما الهمداني: بحيرتا النيل، والمسافة بينهما مسيرة أربعة أيام[٥٣]. أما مسيرةُ بعد هاتين البحيرتين، فتشير إليه مصادرنا بروايات عدة لا تختلف فيما بينها إلا في تحديد عدد الأنهر التي ستخرج منهما. فمعظمها يذكر أنه يخرج من كل منهما أربعة أنهار[٥٤] تنساب بين مفاوز ورمال وصخور لتلتقي كلها بعدئذٍ في بحيرة واسعة عند خط

الاستواء[٥٥]، يخرج منها نهر النيل بمجرى واحد[٥٦]. وتطلق مصادرنا على هذه البحيرة تسمية: كورا[٥٧] أو كوري[٥٨]، والتي أخذت اسمها من اسم جنسٍ من الزنوج مستقرين عندها[٥٩]. واسمها حالياً بحيرة أوكريوة- ونلاحظ الشبه هنا مع الاسم العربي لها، أو بحيرة فكتوريا نيانزا وتعني الماء الكبير[٦٠].

الرواية التاريخية حول تحديد مجرى نهر النيل:

لا تختلف الروايات التاريخية حول مجرى النيل، لذا يمكن تتبع مجراه وفق المعطيات التي تقدمها تلك الروايات. فبعد أن يخرج من بحيرة كوري، يشق طريقه طويلاً عبر أراضي رملية وجبلية مخترقاً -أرض السودان-[٦١] حسب تعبير مصادرنا، باتجاه الشمال وصولاً إلى مدينة النوبة الجبلية[٦٢] الواقعة جنوب مصر[٦٣] وقاعدتها دنقلة[٦٤] ثم مدينة علوة التي تقع على جانبه الغربي، والبجة الواقعة على ضفته الشرقية[٦٥]. وبعد أن يخترق كل النوبة[٦٦]، يصل أول أرض مصر[٦٧]، ((عند أسوان في صعيد مصر))[٦٨] أي أقصى الجنوب المصري. وبدخول النيل الصعيد، يكتنفه من الشرق والغرب جبلان وكأنهما قُطعا ليخترقهما كما تقول الروايات[٦٩]. وعلى ضفتيه المدن والقرى، والراكب فيه يراها تنتثر عن يمينه وشماله[٧٠].

والذي يهمنا هنا الإشارة إلى ظاهرة طبيعية يمر بها مجرى النيل بعد دخوله أسوان وهي الجنادل[٧١] أو الشلالات[٧٢] حالياً. هذه الجنادل تشكل أشبه ما يكون بمنطقة عازلة بين جنوب مصر وبلاد الزنج. وهي عبارة عن جبال صم[٧٣] وعرة جداً، تتميز بكونها قليلة العلو شمالاً من جهة بلاد السودان، عالية جداً جنوباً من جهة مصر. لذا فعندما تنصب مياه النيل منها من الأعلى إلى الأسفل، يكون له صوت عظيم مهول[٧٤] ويسقط كالشلالات مندفعاً بقوة[٧٥]، على أحجار كبيرة وصخور مغرسة تمنع تماماً اجتياز السفن أو

المراكب فيه[٧٦]. لذا تتوقف عند الجنادل حركة السفن، سواء القادمة من النوبة أو أرض الزنج في انحدارها شمالاً، أو المراكب المصرية في صعودها جنوباً[٧٧]. عندها يتحولون مع تجاراتهم إلى البر مستخدمين الجمال حتى يصلوا أسوان، أي إلى حين عودة النهر إلى مجراه المستقيم[٧٨]. ويعلّق ابن حوقل على الجنادل قائلاً: ((وكأنه تُرك ردءاً لمن قصد بلد العدو، أو ردءاً لمن أراد مصر من ناحية العدو)) [٧٩]. ومن الطريف التنويه بوجود مثل هذه الجنادل في مجرى النيل الأبيض، فعند إحدى الجزر التي يمر بها هذا الرافد، هناك حاجز صخري يمتد عبر مجرى الماء من الشرق للغرب، تتدفق منه المياه بشدة تشبه تدفقها على جنادل النوبة[٨٠].

الرواية التاريخية حول أهم المدن على ضفتي نهر النيل:

لابد لنا الآن أن نستعرض بإيجاز شديد أهم المدن المستلقية على ضفتيه منذ دخوله مصر عند مدينة أسوان وحتى مصبه في البحر المتوسط. لما كان لكلاهما من أثر في تشكيل طبيعة المجتمع المصري واقتصاده، لكثرة المزارع والجنان والرياض المشرفة على جانبيه حتى شُبهت بأرض العراق لا سيما بين واسط والبصرة[٨١].

فقد تواترت الروايات عنها وكثُرت، لكننا لا نلمح اختلافاً فيها، بل منسجمة في ذكر هذه المدن. كما أنها تقدم معلومات جميلة ولكن ضئيلة عن أوضاع اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية فيها. وعلى العموم، فأول المناطق التي يمر بها النيل بعد دخوله مصر هي بلاد الصعيد التي وُصفت بكونها منطقة واسعة كبيرة ضمت مدن مهمة كان لها أثر في التراث العربي المصري سواء قبل الإسلام أو بعده. وأهمها أسوان وهي قصبة بلاد الصعيد[٨٢]، إسنا وادفو على ضفته الغربية[٨٣]، الأقُصر، قوص، وقفط على ضفته الشرقية[٨٤]. بعدها تأتي

اسيوط الواقعة على ضفته الغربيــة[٨٥]، وأثــر أســيوط الاجتمــاعي والاقتــصادي والفكري لاسيما بعد الإسلام، كبير ومعروف ولكن لا مجــال هنــا للحــديث عنــه. ويُطلق على هذه المنطقة من الصعيد اسم الصعيد الأعلــى. أمــا الــصعيد الأوســط فيمتد من اخميم على الضفة الشرقية[٨٦] حتى مدينــة البهنــسا[٨٧]، ومنهــا إلــى مــا قبل الفسطاط يسمى الصعيد الأدنى[٨٨]. ومن المدن المهمــة التــي يمــر بهــا قبــل الفسطاط، اشتهرت الفيوم التي تقع فــي مــنخفض مــن الأرض مــن ضــفة النيــل الغربية، لذا فمياه النيل تصلها حتــى مــع نقــصه فتــسقي أهلهــا ومزارعهــا[٨٩]، وعُرفت بمدارسها وعلمائها وكثرة أسواقها وحماماتها[٩٠].

ثم يمر النيل بالفسطاط التي اتخذها عمرو بــن العــاص مقــراً لــه بعــد تحريرهــا من السيطرة البيزنطية إبان عهــد الفــاروق عمــر رضــي الله عنــه وتقــع علــى ضفته الشرقية[٩١].

وبعد اجتيازه الفسطاط، يتفرع النيل إلى فــرع يتجــه مــشرقاً إلــى دميــاط علــى ساحل البحر المتوسط[٩٢]، والتــي خربهــا الإفــرنج أكثــر مــن مــرة[٩٣]. وآخــر يتجه مغرباً[٩٤] إلى مدينة رشيد القريبة مــن الإســكندرية وكلاهمــا يــصبان فــي البحر[٩٥]، ليصل بعدها إلــى الإســكندرية التــي تقــع علــى ســاحل البحــر مــن جهة[٩٦] ومدينة تُنيس من جهة أخرى[٩٧].

ونقف قليلاً عند مدينتي دميــاط وتُنــيس لموقعهمــا المتميــز، وكأنهمــا جزيرتــان وسط بحيرة[٩٨] يدخلها ماء النيل تسمى ببحيرة تنــيس[٩٩] فــإذا فــاض النيــل فــي الصيف غلبت حلاوته على ماء البحر فعَــذُبَ ماؤهــا[١٠٠]، ويملــح شــتاءاً لــنقص ماء النيل وغلبة ماء البحر عليها[١٠١]. بينما يقدم ابــن رســته تعلــيلاً آخــر لهــذه الحالة بقوله: ((إذا هبّت ريح الجنــوب عَــذِبَ مــاؤهم الــذي يلــي النيــل لتــراكم

الأمواج من ذلك الوجه من ماء النيل... فإذا هبت الشمال أمالت عليهم الأمواج ومَلُحَ ماؤهم))[١٠٢].

وما أن يصبح ماؤها حلواً، حتى يأخذ أهل تُنيس بتخزينه في الصهاريج ليستعملوه طوال السنة إلى حين موسم الفيضان التالي[١٠٣]. وإضافة لموقعهما، اشتهرتا بصناعة أنواع فاخرة من المنسوجات والثياب[١٠٤].

وإذا كان ماء بحيرة تنيس يتبدل حسب المتغيرات الطبيعية، فهناك بحيرات مالحة تنفرز من النيل بسبب دخول ماء البحر المالح إليها، أهمها بحيرة نستروه الواقعة بين مدينتي الإسكندرية من الغرب ورشيد من الشمال، وقد أخذت اسمها من اسم قرية في طرفها. وهي بحيرة واسعة، وصفت أن الإنسان إذا توسطها في مركب فلا يرى شيئاً من جوانبها[١٠٥].

الرواية التاريخية حول فيضان نهر النيل:

تحدثت الروايات التاريخية مطولاً عن فيضان النيل لأهميته الكبيرة. وما نلاحظه، عدم وجود خلاف فيما بينها، فروايات من شاهد الفيضان شخصياً أو رأى مقياسه لا تختلف عن رواية من سمع أو قرأ عنه. كما نلاحظ أن هذه الروايات علّلت بدقة سبب فيضانه في وقت يختلف عن فيضانات الأنهار الأخرى، ووضحت أثره العميق على الزراعة بمصر. واهتمام الدولة على مر الأزمان بإيجاد الوسائل التي تُمكّن من معرفة وقت فيضانه، ونسبة الزيادة في الماء، فعليها تُقدر نسبة أهم ضريبة تجبيها الدولة وهي الخراج. ثم نراها تتحدث عن أثر الفيضان في حياة الناس، وذلك بظهور أنماط حياتية وعادات اجتماعية تُعبّر عن الغبطة لفيضانه لاسيما إذا كانت الزيادة وفق المعدل المطلوب.

فمع موسم الصيف وبداية الحر، يأخذ ماء النيل بالزيادة وتحديداً بعد منتصف شهر حزيران، ثم تموز وآب وحتى شهر أيلول. ومع حلول موسم الشتاء والبرد، أي ومع شهر تشرين الأول -كما تذكر بعض الروايات- يبدأ بالتناقص على خلاف الأنهار الأخرى[١٠٦].

وفي نص جميل لناصر خسرو مفاده أن ((نظام الفيضان كالآتي: يتزايد الماء أربعين يوماً من بدأ الفيضان، ويبقى عليها أربعين يوماً، ثم يتدرج نحو النقصان أربعين يوماً أخرى)) [١٠٧]. أي أن مدة الفيضان الإجمالية -كما يوردها- ونقصانه تصل إلى أربعة أشهر. لكن شيخ الربوة الدمشقي يوصلها إلى ستة أشهر[١٠٨]، وكلاهما قريب للصحة.

ويعلل كتّابنا سبب زيادته، بكمية الأمطار الغزيرة التي تسقط على مناطق منبعه ومجراه[١٠٩]، بحيث وُصفت بأنها ((كأفواه القرب)) [١١٠]، والتي تؤدي إلى رفد مجراه بكميات مائية هائلة، إضافة إلى السيول الكثيرة التي تتكوّن جرّاء هذه الأمطار من مختلف الجهات وتصب في مجرى النهر[١١١]، مع ذوبان الثلوج في منطقة البحيرات الاستوائية[١١٢]. ومن المفيد التنويه هنا إلى أنه في أواخر نيسان يبدأ فيضان النيل الأزرق القادم من الحبشة إلى الخرطوم، وبعد منتصف أيار يبدأ فيضان النيل الأبيض القادم من البحيرات الاستوائية الكبرى والواصل إلى الخرطوم أيضاً، وبعد هذا التاريخ يصل دفق هذه المياه إلى مدينة دنقلة، وبعدها إلى أسوان أواخر أيار، وبهذا يستغرق الفيضان أكثر من خمسين يوماً ليقطع مسافة ٢٧٥٩كم الفاصلة بين الخرطوم والقاهرة[١١٣]. وإلى أن يقطع تلك الأراضي ويصل مصر يكون أوان الحر قد بدأ[١١٤]، وليبتدأ في موسم الصيف زيادة مائه وفيضانه.

ومع أن معظم الروايات أكدت بدقة أن هذه الزيادة المائية تحصل في مناطق منبع النهر ومجراه، إلا أن قسم قليل منها أشار إلى مناطق أخرى مما يقتضي التنويه بها. فالقزويني يسميها أرض الزنجبار(١١٥)، والأصح أرض الزنج، لأن الزنجبار هي جزيرة في مياه المحيط الهندي محاذية للساحل الإفريقي الشرقي وتُعد أكبر جزره. أما التطيلي وجان ليون الإفريقي فيذكران أنها تسقط في الحبشة(١١٦)، وهذا أيضاً غير دقيق، في حين يكتفي أبو الفدا بالقول أنها تقع في تلك البلاد(١١٧).

ولمعرفة نسبة زيادته، وهل تُنبأ بقلة الماء أو كثرته، عُمل له ما يسمى مقياس النيل. والروايات التاريخية تتحدث باستفاضة عنها، ولا تختلف في طرحها، اللهم إلا في التفاصيل. فتؤكد أن الاهتمام بصنع مقاييس النيل قديم يعود لعصر الفراعنة الذين أقاموا العديد منها في منطقة الصعيد تحديداً، في أِنصنا، ومنف، واخميم(١١٨). ويقدم لنا ياقوت الحموي وصفاً جميلاً لمقاييس تلك الفترة، حين صنع العلماء والمهندسون بيتاً من زجاج على حافة النيل تتوسطه بركة نحاسية صغيرة فيها ماء موزون. ومع زيادة الماء في النيل، يرتفع في داخل البركة بمقدار أصبع لكل ذراع من الماء(١١٩). وسنرى أن هذه التقنية في صنع المقاييس ستستمر في العصور اللاحقة، لأنها أثبتت فاعليتها ودقتها في تقدير نسبة زيادة ماء النيل، نقصاً أم زيادة.

وتخبرنا الروايات أن عدد المقاييس ازداد بعد الإسلام كالمقياس الذي أنشأه في أسوان والي مصر عمرو بن العاص، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان، بُني مقياس في أِنصنا بأمر منه. وفي ولاية عبد العزيز بن مروان أُقيم مقياس في حلوان، وفي عهد سليمان بن عبد الملك أنشأ مقياس في الجزيرة(١٢٠) الواقعة بين الفسطاط والجيزة، بقي مستعملاً حتى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م –

وشاهده مؤرخنا المسعودي- إضافة لمقياس آخر بناه أمير مصر أحمد ابن طولون[١٢١] (٢٧١ت.هـ/٨٨٤م).

أما المقاييس الأهم كما تذكر الروايات، فهو مقياس الجزيرة المُشار إليه أعلاه. وهي جزيرة الروضة. بناه مهندسون بارعون[١٢٢]، وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن في وسط بركة، يسميها الظاهري فّسقية يُنزل إليها بسلالم[١٢٣] وهي عبارة عن حفرة ترتبط بها قناة باطنية تتصل بمجرى النهر[١٢٤]، ينحصر فيها الماء عند دخوله إليها. والعمود مفصل إلى اثنين وعشرين ذراعاً[١٢٥] مقسمة إلى أربع وعشرين قسماً تسمى الأصابع. فإذا حلّ موسم الفيضان وابتدأ النيل بالزيادة بعد منتصف حزيران يبدأ الماء بالدخول في القناة حتى يصل إلى الفسقية أو الحفرة، وتتراوح الزيادة على العمود يومياً ما بين أصبعين إلى ثلاث وأحياناً تصل إلى نصف ذراع[١٢٦]. عندها يبدأ الوكيل أو ما يسمى بشيخ مقياس النيل[١٢٧] وهو الموظف المعين على المقياس نقل أخبار الزيادة يومياً للسلطان، وهناك أولاد معممون بعمائم صفراء -كي يُمكن التعرف عليهم- مهمتهم إعلام الناس عن زيادة الماء في سائر أنحاء القاهرة وأرباضها ويهاديهم الناس لعملهم هذا[١٢٨]. وما أن تبلغ زيادة الماء ست عشرة ذراعاً حتى يُبشر بها الوكيل الحاكم والناس[١٢٩]. وبهذه النسبة تُستوفى ضريبة الخراج، أما أن قُصرت عنها فلا جباية ولا خراج[١٣٠]. ويذكر ياقوت الحموي رواية جميلة عن تعيين الخليفة العباسي المتوكل عام ٢٤٧هـ/٨٦١م أبو الرداد المعلم عبد الله بن عبد السلام البصري[١٣١] وكيلاً على مقياس النيل براتب شهري قدره سبعة دنانير[١٣٢]، بينما يذكر ناصر خسرو أن راتبه الشهري بلغ ألف دينار[١٣٣]. والفرق كبير جداً بين تقدير كلتا الروايتين، ومع أنهما ينفردان بذكر مبلغ الراتب هذا، لكن كلا المبلغين غير مقبول ولابد من وجود خطأ ما عند أحدهما أو كلاهما.

ويستطرد ياقوت الحموي في روايته السابقة، فيخبرنا أنه منذ ذلك العام، أي ٢٤٧هـ/٨٦١م، لم يُعين النصارى لقياس النيل[١٣٤]. ويبدو أن النصارى حتى هذا العام، كانوا يُعينون حصراً بهذه الوظيفة ربما لخبرتهم القديمة في التعامل مع مناسيب الزيادة أو معرفتهم ببعض العلوم التي تعينهم بعملهم، وقد يكون للغتهم القبطية أثر مهم في هذا المجال لاسيما قبل الإسلام. ومهما يكن الأمر، فقد بدأ المسلمون بتوليها وأحسنوا عملهم بها.

أما زيادته التي تؤدي إلى فيضانه، فقد أجمعت الروايات على أنها إذا بلغت ستة عشر ذراعاً، ففيها ((تمام الخراجن وخصب الأرض وريع للبلد عام، وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والأكل)) [١٣٥]. وأفضل الزيادة حسب رواية المسعودي هي التي تصل إلى سبعة عشر ذراعاً لأن فيها استكمال ري جميع الأراضي[١٣٦]، ويكون ((الخصب في العام والصلاح التام)) [١٣٧]. لكنها أن بلغت ثمانية عشر ذراعاً، أدت إلى غرق ربع الأراضي[١٣٨]، وما تؤدي إليه من إلحاق ضرر كبير بالأرض وحدوث الأوبئة كالحالة التي حدثت في عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م[١٣٩]. أما إذا بلغت الزيادة تسعة عشر ذراعاً عندها يكون الضرر كبيراً وشاملاً لكل الأرض كالفيضان الذي حدث عام ٩٩هـ/٧١٧م[١٤٠].

وعلى العكس، فإذا بلغت الزيادة خمسة عشر ذراعاً، فهي تُنذر بنقص في المزروع من الأرض[١٤١]. وعندها تُنقَص ضريبة الخراج[١٤٢]. ذلك أن نظام استحصال هذه الضريبة ومنذ القديم يكون عند تمام الفيضان وانسياحه على سائر الأرض[١٤٣]. ويكون الضرر شديد إن بلغت أربعة عشر ذراعاً، فيلجأ الناس إلى صلاة الاستسقاء وطلب الغوث من الله تعالى[١٤٤]، إذ لا تُسقى إلا المناطق الجنوبية أي الصعيد الأسفل[١٤٥]، وتعاني البلاد والناس من نقص في الزراعة وجدب كبير[١٤٦]، ويصبح سعر كيلة القمح عشرة دنانير[١٤٧].

من ناحية ثانية، أعطتنا مصادرنا روايات جميلة تتحدث عن أسلوب حياة وتقنية تتناسب تماماً مع الفيضان. فقد درجت عادة الأهالي على شق فروع كثيرة من النيل إلى مختلف مدنهم وقراهم، تتفرع منها ترع صغيرة شُيدت عليها المدن والقرى، والأخيرة بُنيت على التلول والمرتفعات كي تقيها الغرق(١٤٨). كما شقوا خلجاناً وحفروا قنوات وأترعة تُفتح وقت تمام الزيادة -أي ستة عشر أو سبعة عشر ذراعاً- لتسقي المناطق البعيدة عن المجرى يميناً وشمالاً(١٤٩)، وتبقى ملآنة بالماء حتى بعد انحساره(١٥٠).

ومن رواية الحموي، نعرف أن عدد الخلجان سبعة تتوزع على المناطق، وأنها ((متصلة الجريان، والزروع بين هذه الخلجان متصلة من أول مصر لآخرها... فإذا بلغ الماء في المقياس ستة عشر ذراعاً، أُطلق حتى يملأ أرض مصر، فتبقى تلك الأراضي كالبحر لم يفارقها الماء.. والقرى بينه يُمشى إليها على سكور مهيأة والسفن تخترق ذلك))(١٥١).

وبما أن الماء يحيط تماماً بأكثر المدن والقرى، لذا تنقل الناس فيما بينهم بالمراكب أو على الجسور الطينية التي تبنيها كل مدينة أو قرية من أولها لآخرها بمحاذاة النهر، ويُصرف عليها من قبل الدولة من ريع ضريبة الخراج(١٥٢)، كما تُعيّن الدولة لهذه الجسور موظفين مع مبالغ معينة لتجديدها وترميمها(١٥٣). وفي رواية لناصر خسرو يذكر فيها أن ثلث ريع ضريبة الخراج كان يُخصص سنوياً لترميم الجسور أو بنائها(١٥٤). إلا أنه من غير المعقول أن يُرصد مثل هذا المبلغ الكبير لعمارة الجسور فقط بل لعلها تشمل الخلجان والقنوات والترع. ولتحقيق أقصى استفادة من الماء، فقد أُقيمت دواليب كثيرة على ضفتي النيل لسقي المزارع بعد نقصان الماء(١٥٥). ولولا إتقان الناس لهذه الوسائط، لقلّ انتفاعهم بماء الفيضان كثيراً(١٥٦).

ومع نهاية أيلول يكون الفيضان قد بلغ أقصى ارتفاع له، لكنه يبدأ بالتناقص والانحسار بعده، أي مع مطلع الخريف، وتحديداً منذ شهر تشرين الأول(١٥٧). عندها يكون الجو قد برد، فيُبدأ بزراعة الأراضي التي ينحسر عنها الماء تدريجياً بمختلف أصناف الغلاّت(١٥٨). ولا تحتاج الأرض للسقي لأنها مكتفية من ماء الفيضان أولاً، ولأنه بتقدم الوقت يزداد الجو برودة فلا تتشف الأرض ثانياً وإلى حين استكمال الزرع، حينئذٍ يكون موسم الصيف قد حلّ، فيأخذون في الحصاد(١٥٩)، ويتهيأون بعدها لموسم فيضان جديد.

هذه الحالة أوجدت عند الأهالي أنماطاً اجتماعية جميلة ترصدها بعض رواياتنا التاريخية، يمارسونها قبل الفيضان وأثنائه. بعضها كان موجوداً قبل الإسلام واستمر بعده، والآخر ألغاه الإسلام لمنافاته مبادئه وقيمه. وعموماً، فمجمل هذه العادات يؤشر بوضوح اعتقاد الناس الراسخ أن النيل هبة الله تعالى لهم، وإن حياتهم معتمدة عليه لاسيما الزراعية التي تشكل العمود الفقري للكثيرين باعتبارها مهنة غالبيتهم.

فمن عاداتهم القديمة إلقاء فتاة في الماء وقت الفيضان تقرباً إليه وتبركاً به. لكن محرر مصر عمرو بن العاص ألغاها(١٦٠) لمخالفتها الشريعة الإسلامية. وما أن تبلغ الزيادة اثني عشر ذراعاً، حتى يبدأ الوكيل والعاملين معه بالنداء بين الناس استبشاراً ببدء موسم الفيضان، ويزيد الاستبشار بوصول الزيادة أربعة عشر ذراعاً لأن معنى ذلك سقي أراضي الصعيد كلها(١٦١). ومع كل زيادة، يتوجه موظفو المقياس إلى المسجد الجامع ومعهم الورود والرياحين ينثرونها على الناس في حلقاته، منادين ((أن الله عز وجل قد زاد في النيل كذا وكذا))(١٦٢). فتعم الفرحة بين الناس ويُكثرون من الدعاء والحمد لله. وما أن يصل الماء في المقياس خمس عشر ذراعاً وأصبع واحد من الذراع السادس عشر، يحدث ما يسمى بكسر الخليج أو وفاء النيل أي فتح السدود

وفوهات الخلجان والأقنية والترع ليتدفق فيها الماء إلى مختلف الأراضي، وهذا الكسر يقوم به السلطان وكبار أمرائه وضباطه حيث يتوجهون إلى قناة تسمى القناة الكبرى تقع في فم الخليج ومعهم الفؤوس يضربون جدارها حتى يتهدم وينهمر الماء بشدة في القناة الكبرى ومنها إلى بقية القنوات في القاهرة وضواحيها، ويستمر الاحتفال بهذه المناسبة سبعة أيام[١٦٣]. وكسر الخليج يوم مشهود بمصر يحتفل به ((الخاص والعام بحضرة القاضي))[١٦٤]، ويُسمى يوم الزينة، لخروج الناس للاحتفال ومعهم كل أنواع الزينة[١٦٥].

وتستمر الروايات بإعطائنا صورة نابضة بالحيوية والتلاحم الاجتماعي بين الناس -مسلمين ونصارى- تتجلى في الاحتفال بزيادة النيل في عيدين من أهم أعياد النصارى. الأول عيد الصليب[١٦٦] ويصادف منتصف شهر أيلول[١٦٧]، والثاني عيد الغطاس[١٦٨] في ليلة الحادي عشر من كانون الثاني. وهي ليلة ذات أهمية كبرى عند الناس يقدم عنها المسعودي وصفاً في غاية الجمال حين حضرها في العام ٣٣٠هـ/٩٤١م بدعوة من حاكم مصر آنذاك الأخشيد محمد بن طغج في داره المسماة بالمختارة الواقعة في جزيرة النيل، والأنوار تتلألأ في أرجائها من ألف مشعل أمر الأخشيد بإيقادها عدا ما أشعله الناس. وجرت العادة أن يطوف صاحب الشرطة بشوارع القاهرة داعياً الناس إلى المشاركة بالاحتفال وعدم التكدير على النصارى في عيدهم[١٦٩]. وعلى ضفتي النيل، يسهر مئات الآلاف من مسلمين ونصارى، منهم مَن يركب في الزوارق، ومنهم من يسهر في الدور القريبة من الشاطئ، والقسم الآخر يبقون على الشطوط. ومعهم أنواع الأطعمة والأشربة وآلات اللهو والغناء وأدوات الزينة، وتوصف بأنها أحسن ليلة بمصر وأكثرها سروراً، لا تُغلق فيها أبواب المحلات أو الحارات والدروب. ويعمد الكثيرون إلى الغطس بماء النيل في هذه الليلة لاعتقادهم أن في ذلك أمان من المرض وشفاء للداء[١٧٠].

الروايات التاريخية حول تحديد مسرى نهر النيل وطوله:

استطاع العديد من علمائنا عبر رواياتهم التاريخية أن يرصدوا ظاهرة جغرافية مهمة لا تنطبق إلا على القلة من أنهار العالم وهي سريان النيل من الشمال إلى الجنوب، من منبعه في جبل القمر ودخوله مصر حتى مصبه في البحر المتوسط، وهم بهذا ثبتوا ملاحظة علمية وجغرافية صحيحة دلت على سعة إطلاعهم وتنوع علومهم.

وبعد استعراض رواياتهم بهذا الصدد، نلاحظ أمراً. فالبعض منهم أكّد جازماً أن هذه الظاهرة يتفرد بها نهر النيل دوناً عن سائر أنهار العالم الأخرى، كابن الفقيه الهمداني[١٧١]، ياقوت الحموي[١٧٢]، القزويني[١٧٣]، ابن بطوطه[١٧٧]. أما البعض الآخر فقد ذكرها بدون ذلك القطع، كابن حوقل[١٧٥]، ناصر خسرو[١٧٦]، الإدريسي[١٧٧]، شيخ الربوة الدمشقي[١٧٨]، ابن سعيد[١٧٩]، والعبدري[١٨٠]. ومن الصعب التحقق من أن أرائهم -في كلا المجموعتين- كانت عفوية، أم كانت مستندة إلى أدلة ما. وعلى العموم، يبقى من الأفضل عدم الجزم في الرواية التاريخية، كي لا يقع صاحبها في خطأ قد يُنقض أو يُرد لاحقاً.

والأمر الآخر الذي اهتمت به مصادرنا فيما يخص نهر النيل، هو محاولة تحديد طوله من المنبع وحتى المصب. وبداية، من الطريف الإشارة إلى أن الاصطخري[١٨١] قدّر طوله بشكل آخر، فذكر أنه أطول من نهري دجلة والفرات إذا ما جُمعا.

اختلفت الروايات بهذا الصدد. فبعضها كان قريباً جداً من الرقم الذي حددته الدراسات الحديثة، والبعض الآخر اشتط في التقدير فابتعدت روايته عن المصداقية. فالمسعودي[١٨٢] يورد روايتان أخذها عمن يسميهم بالحكماء تحدد

طوله مرة بتسعمائة فرسخ والثانية بألف فرسخ. ولما كان الفرسخ يعادل ٦كم[١٨٣]، فطوله إذن حسب روايتي المسعودي: ٥٤٠٠ كم و٦٠٠٠كم.

كذلك قدم الإدريسي روايتين يقول أنه قرأها في كتاب الخزانة لقدامة بن جعفر، قدّرت الأولى طوله بـ: ٥٦٣٤ ميل[١٨٤]، والثانية ٤٥٩٥ ميل[١٨٥]. ولما كان الميل يعادل أكثر بقليل من ٣ فرسخ، ويصبح طوله ١٦٩٠٢كم و١٣٧٨٥كم. ثم تأتي رواية شيخ الربوة الدمشقي[١٨٦] -والذي يخبرنا أنه ينقل عن الإدريسي- لتحدد طوله بـ ٣٠٠٠فرسخ أي ١٨٠٠٠كم. أما رواية الزهري[١٨٧] فتحدده بـ ١٠٤٥ فرسخ أي ما يعادل ٦٢٧٠كم، ونختتم برواية النويري[١٨٨] التي تجعل طوله ٧٤٨ فرسخ أي ٤٤٨٨كم.

فإذا استبعدنا روايات الإدريسي وشيخ الربوة، لأنها بعيدة عن الدقة، نجد أن التقدير الذي يتراوح ما بين ٤٤٨٨كم إلى ٦٢٧٠كم، لا يختلف كثيراً عن الأرقام الحديثة التي قدّرت طوله ما بين ٥٦٣٢كم إلى ٦٥٠٠كم من المنبع وحتى المصب[١٨٩]. ولعل السبب في هذه الاختلافات في تقدير طوله يعود للتأثيرات المناخية والمتغيرات الجيولوجية.

الخاتمة:

نخلص أخيراً إلى القول، أن مجمل الروايات التاريخية حول نهر النيل التي وردت في مصادرنا القديمة، وتحديداً التاريخية-الجغرافية، اتفقت على كون منبعه من جبل القمر خلف خط الاستواء، من عشرة أنهار تصب كل خمسة منها في بحيرة، يخرج من كلا البحيرتين أربعة أنهر تلتقي بعد سريانها في بقاع شاسعة في بحيرة واحدة، يخرج منها نهراً واحداً هو النيل.

وإذا كانت بعض الرحلات الاستكشافية التي قام بها العلماء والمستكشفين في العصر الحديث قد جعلت البحيرة الأخيرة -أي بحيرة كوري- هي منبع

النيل[١٩٠]. فإن دراسات باحثينا القدماء كانت أكثر صحة ودقة، حينما حددت منبعه من جبل القمر، وهو الرأي الصحيح.

أما الاختلاف في بعض الروايات فلم يكن جوهرياً. وسببه يكمن بالدرجة الأولى لاختلاف المسميات أو درجة الفهم، نتيجة اختلاف المصادر التي أخذوا منها سواء كانت سماعية أو مكتوبة.

وعلى العموم، فتلك الروايات كانت صحيحة في معظمها وقدمت تعاليل دقيقة لظواهر محددة تُنبأ عن إطلاع معرفي واسع ومتنوع عند علمائنا، وبما يؤشر تطور إيجابي في الفهم والوعي التاريخي يدفع إلى كتابة تتوخى العلمية والموضوعية، وشكلت أساساً لدراسات أحدث وأدق.

الهوامش

١- النيل: تعريب نيلوس بالرومية- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: **معجم البلدان**، ج٥، بيروت، ص٣٣٤. وهو النهر الوحيد الذي اقترن اسمه بتسميتي اليم والبحر في القرآن الكريم بقوله عز وجل: ((إن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم)) **سورة طه**، آية: ٣٩. يُنظر: ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد: **مختصر كتاب البلدان**، ليدن- بريل- ١٣٠٢، ص٥٨؛ البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، **تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن**: تحقيق: ب-بولجاكوف، مراجعة: امام إبراهيم أحمد، القاهرة١٩٦٤، ص٤٨؛ الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تصحيح: بولس راويس، باريس-١٨٩٤، ص١٤٨؛ ابن بطوطه، محمد بن عبد الله: **تحفة النظار**، **تهذيب**: أحمد العوامري بك، ح١، القاهرة- ١٩٣٨، ص٣٠؛ العبدري، أبو عبد الله محمد: رحلة العبدري المسماة: **الرحلة المغربية**، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط-١٩٦٨، ص١٤٥. وتشير بعض مصادرنا القديمة إلى مأثورات شعبية عن نهر النيل منها أنه أحد أربعة أنهار من الجنة مع الفرات وجيحون والرس، وأنه يجري عسلاً هناك. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: **مروج الذهب** ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، ح١، مصر-١٩٥٨، ص٣٤٠؛ المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن-بريل- ١٩٠٦، ص٢٣، ص١٩٣، وتصف ماءه بأنه أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من كل الأنهار في المدن الإسلامية. الاصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد: **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر الحيني، مصر-١٩٦١، ص٤٠؛ المقدسي: **أحسن التقاسيم**،

ص٢٠، ص٢٠٦؛ ابـن بطوطـة، **تحفـة النظـار**، ح١، ص٢٩؛ Mustawfi, Hamd- Allah (730- 1340): Nuzhat – Al- Qullub (The Geographical Part), Translated: G. Lestrang, London- 1919, P. 203. ويـصفه أبـو الفدا بأن ليس له نظير في الوجود. عماد الـدين إسـماعيل: **تقـويم البلـدان**، تصحيح: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس-١٨٤٠، ص٤٥.

٢- أحمد بن أبي يعقوب: **البلدان**، ليدن-١٨٣٩، ص٣٣٥- ص٣٣٦ وص٣٣٩.

٣- ن.م، ص٣٣٥.

٤- ن.م، ص٣٣٥-ص٣٣٦.

٥- **مختصر كتاب البلدان**، ص٦٤.

٦- ن.م، ص٧٨.

٧- **المسالك والممالك**، ص٤٠.

٨- ترجمة: يحيى الخشاب، ط٢، بيروت-١٩٧٠، ص٨١.

٩- جان ليون الإفريقي، الحسن بن محمـد الـوزان الزيـاتي: **وصـف إفريقيـا**، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الرياض- ١٩٧٨، ص٦٣٢.

١٠-ناصر خسرو، **سفرنامة**، ص٨٠.

١١-ن.م، ص٨٠.

١٢-ن.م، ص٨١.

١٣-ن.م، ص٨١.

١٤-ن.م، ص٨١

١٥-يعلل المسعودي في كتاب أخبار الزمان سبب تسميته هذه بأن القمر لا يطلع عليه لأنه خرج كثيراً عن خط الاستواء، ط٢، بيروت-١٩٦٦، ص٢٤٢.

١٦-وصف إفريقيا، ص٦٣٢

١٧-ت.م، ص٦٣٢

١٨-ن.م، ص٦٣٢

١٩-ن.م، ص٦٣٢

٢٠-ن.م، ص٦٣٢

٢١-ن.م، ص٦٣٢

٢٢-أحسن التقاسيم، ص٢٠.

٢٣-أبو علي أحمد: **الأعلاق النفيسة**، ليدن-١٨٩٣، ص٩٠.

٢٤-أبو القاسم عبيد الله: **المسالك والممالك**، ليدن-١٨٨٩، ص١٧٦.

٢٥-**مروج الذهب**، ج١، ص٩٨؛ **أخبار الزمان**: ص١٢٨، ص١٣٣، ص١٣٧، ص١٨٧، ص٢٤٢.

٢٦-أبو القاسم: **صورة الأرض**، بيروت، ص١٣٨.

٢٧-أبو عبد الله محمد بن بكر: **الجغرافية**، تحقيق: محمد حاج صادق، القاهرة، ص٩.

٢٨-أبو عبد الله محمد: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج١، القاهرة-٢٠٠٢، ص٣٢.

٢٩-معجم البلدان: ح١، ص٢١، ح٥، ص٣٣٤.

٣٠-زكريا بن محمد: **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات** (على هامش كتاب حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري)، ح٣، القاهرة-١٩٥٨، ص٢٩٠.

٣١-أبو جعفر محمد بن موسى: **صورة الأرض**، تصحيح: هانس فون مزيك، فيينا-١٩٢٦، ص٣٨، ص١٠٦.

٣٢-أبو الحسن علي: الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، بيروت-١٩٧٠، ص٨٠.

٣٣-شمس الدين أبو عبد الله: **نخبة الدهر في عجايب البر والبحر**، لايبزك-١٩٢٣، ص٩٠.

٣٤-تقويم البلدان، ص٣٧، ص٤٥، ص٦٤، ص٨٨.

٣٥-شهاب الدين أحمد: نهاية الأدرب في فنون الأدب، ح١، القاهرة، ص٢٦٢.

٣٦-تحفة النظار، ح١، ص٣٠.

٣٧-عبد الرحمن بن محمد: **مقدمة ابن خلدون**-ط٦، بيروت-١٩٨٩، ص٤٨-ص٤٩.

٣٨- تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي: **الخطط المقريزية**، ح١، بغداد، ص٦٥، ص١٩١.

39- Persian Geography (372 A.H- 982 A.D) Hudud Al- Alam, (The Regions of the world), translated: V. Menorsky, London-1937, P.78.

40- Mustawfi: Hamd-Allah, (730/1340), Nuzhat – Al – Qulub (The Geographical part), Translated: G. Lestrange, London-1919, P. 203.

٤١-كراتشكوفسكي، اغناطيوس: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة: صلاح الدين عثمان، ط١، ١٩٥٧، ص١٧٧. يُنظر: حميدة، عبد الرحمن: **إعلام الجغرافيين العرب**، دار الفكر.

٤٢-**مروج الذهب**، ج١، ص٨٣. وفي كتاب أخبار الزمان المنسوب له أخبار طريفة عن النيل في العصور القديمة. ص١٢٨، ص١٣٣، ص١٣٧، ص١٨٧، ص٢٤٢، ص٢٤٣.

٤٣-**أخبار الزمان**، ص١٣٧.

٤٤-ن.م، ص٢٤٢.

٤٥-ابن فضل الله: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق: أحمد زكي، ج١، القاهرة-١٩٢٤، ص٩٧.

٤٦-تقويم **البلدان**، ص٦٥.

٤٧-مقار، نسيم: البكباشي المصري سليم قبطان، **والكشف عن منابع النيل**، ط١، القاهرة-١٩٦٠، ص٩١.

48- Bruce, James: Travels to discover the source of the Nile, Vol.7, London-1844; William, Charles: Expedition to Discover the Sources of the white Nile in the years 1840-1841, Vol.11, P.89-90

٤٩-ساماراكو، أنجلو: **رحلة محمد علي إلى السودان**، ترجمة: طه فوزي، القاهرة-١٩٤١، ص١٤.

٥٠-المسعودي: أخبار الزمان، ص٢٤٢.

٥١-ابن خرداذبة: **المسالك والممالك**، ص١٧٦؛ ابن رستة: **الأعلاق النفيسة**: ص٩٠؛ شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص٨٨، ص٨٩؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص٤٥.

٥٢-الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص٣٢، ص٣٣؛ الخوارزمي: **صورة الأرض**، ص١٠٦؛ ابن سعيد: **الجغرافية**، ص٨٠؛ شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص٨٨؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص٤٥.

٥٣-**مختصر كتاب البلدان**، ص٦٤.

٥٤-شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص٨٨.

٥٥-الخوارزمي: **صورة الأرض**، ص١٠٧؛ ابن سعيد: **الجغرافية**، ص٨٠؛ شيخ الربوة الدمشقي، **نخبة الدهر**، ص٨٩؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص٤٥. في حين يحددها الإدريسي بثلاثة أنهار. **نزهة المشتاق**، ص٣٢.

٥٦-الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص٣٣؛ شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص٨٨.

٥٧-الخوارزمي: **صورة الأرض**: ص١٠٧؛ ابن سعيد: **الجغرافية**، ص٩٣.

٥٨-أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص٤٥.

59- ابن سعيد، **الجغرافية**، ص٨٠، ص٨٢، ص٩٣-ص٩٥؛ شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص٨٩؛ أبو الفداء: **تقويم البلدان**، ص٣٧؛
Persian Geography, Hudud Al-Alam. P.55-56.

٦٠-ابن سعيد: الجغرافية، ص٩٤.

٦١-علي، إسماعيل: **النخبة الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية**، ط٢، ح٢، لات، ص١٥٣.

٦٢-الخورازمي: **صورة الأرض**، ص١٠٧؛ ابن سعيد: **الجغرافية**، ص٩٥؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص٤٥.

٦٣-ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص٨٠؛ الخورازمي: **صورة الأرض**، ص١٠٧، Persian Geography, Hudud Al-Alam. P.78.

٦٤-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٥.

٦٥-المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص٣٢٥؛ الخورازمي: **صورة الأرض**، ص١٠٧؛ ابن سعيد: **الجغرافية**، ص٤٦؛ جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٥٥٧.

٦٦-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٥.

٦٧-ابن رستة: **الأعلاق النفيسة**، ص٩٠؛ الاصطخري: **المسالك والممالك**، ص٤٠؛ Persian Geography, Hudud Al-Alam. P.78.

٦٨-ابن خرداذبة: **المسالك والممالك**، ص١٧٦؛ ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص١٣٨.

٦٩- المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص ٨٣؛ الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ح١، ص١٩-٢٠؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص١٠٣؛ Persian Geography, Hudud Al-Alam. P.78.

٧٠-ابن حوقل: **صورة الأرض**: ص١٣٦-ص١٣٧؛ ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٤٢؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص ٦٧ وص١٠٣.

٧١-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٣، ص٤٠٨ وح٥، ص٣٣٥.

٧٢-ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص١٣٧، المسعودي: **مروج الذهب**، ح٢، ص١٠٠؛ الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ح١، ص٣٩؛ ابن سعيد: **الجغرافية**، ص١١٦.

٧٣-علي: **النخبة الأزهرية**، ح٢، ص١٥٥.

٧٤-الظاهري: **زبدة كشف الممالك**، ص٣٣.

٧٥-الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ح١، ص٣٩.

٧٦-ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص٨١.

٧٧-المسعودي: **مروج الذهب**، ح٢، ص١٠٠؛ ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص١٣٧؛ ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص٨١.

٧٨-الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ح١، ص٣٩؛ ابن سعيد المغربي: **الجغرافية**، ص١١٦.

٧٩-المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص ١٠٠؛ ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص٣٧؛ الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ح١، ص٣٩؛ ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص ٨١. أما جان ليون الإفريقي فيعطي تفسيراً آخر، يُنظر **وصف إفريقيا**، ص٦١٦، هامش رقم ٢١١.

٨٠-**صورة الأرض**، ص١٣٧.

٨١-مقار: **البكباشي المصري**، ص٩٣؛ William: Expedition to discover, P. 89-90.

٨٢-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٣، ص٤٠٨.

٨٣-المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص٢٠١. يُنظر جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٦١٦.

٨٤-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح١، ص١٨٩، ح٤، ص٤١٣. حول اسنا يُنظر: جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٦١٥.

٨٥-اليعقوبي: **البلدان**، ص٣٣٢. يُنظر: أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص١١٠-ص١١٩.

٨٦-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح١، ص١٩٣. يُنظر: جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٦١١-ص٦١٢.

٨٧-اليعقوبي: **البلدان**، ص٣٣١.

٨٨-أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص ١١٠.

٨٩-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٣، ص ٤٠٨.

٩٠-ن.م، ح٤، ص٢٨٦. يُنظر أيضاً: جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٦١٠-ص٦١١.

٩١-أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص ١١٥.

٩٢-ن.م، ص١١٩؛ Persian Geography, Hudud Al-Alam. P.151.

٩٣-ابن رستة: **الأعلاق النفيسة**، ص ٩٠.

٩٤-أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص ١١٧.

٩٥-ن.م، ص١١٧.

٩٦-التطيلي: **رحلة بنيامين**، ص١٧٤. يُنظر: اليعقوبي: **البلدان**، ص ٣٣٨.

٩٧-اليعقوبي: **البلدان**، ص٣٣٨؛ Persian Geography, Hudud Al-Alam. P.151.

٩٨-اليعقوبي: البلدان، ص ٣٣٧؛ المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم، ص١٩٦.

٩٩-الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٤١؛ ابن سعيد: الجغرافية، ص ١٤٩.

١٠٠- أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ١١٩.

١٠١- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٢، ص٥١.

١٠٢- الاصطخري: **المسالك والممالك**، ص٤١؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص ٣٩؛ Persian Geography, Hudud Al-Alam. P.54-55; Mustawfi, Nuzhat Al-Qulub, P. 234.

١٠٣- **الأعلاق النفيسة**، ص٩٠.

١٠٤- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٢، ص٥٢.

١٠٥- الاصطخري: **المسالك والممالك**، ص ٤١؛ ابن رستة: **الأعلاق النفيسة**، ص٩٠.

١٠٦- أبو الفدا: **تقويم البلدان**، ص ٣٩.

١٠٧- اليعقوبي: **البلدان**، ص ٣٤٠؛ الاصطخري: **المسالك والممالك**، ص٤٠؛ ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٤؛ القزويني: **عجائب المخلوقات**، ص٢٩٠، ص٢٩٢؛ القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت-١٩٦٠، ص٢٦٥؛ شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص٩٠؛ ابن بطوطة: **تحفة النظار**، ح١، ص٣٠؛ العبدري: **رحلة العبدري**، ص١٤٥.

١٠٨- **سفرنامة**: ص٨٣.

١٠٩- **نخبة الدهر**: ص٩٠.

١١٠- ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص ١٣٠.

١١١- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٢، ص٣٣٥.

١١٢- القزويني: **آثار البلاد**، ص٢٦٦.

١١٣- جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٦٣٢، هامش رقم ٤٠.

١١٤- جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٦٣٢، هامش رقم ٤١.

١١٥- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٥. ولمزيد من المعلومات، يُنظر: اليعقوبي: **البلدان**، ص ٣٣٩؛ ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص١٣٠؛ القزويني: **آثار البلاد**، ص٢٦٦.

١١٦- **آثار البلاد**، ص٢٦٦.

١١٧- **رحلة بنيامين**، ص١٧٤؛ **وصف إفريقيا**، ص٦٣٢، هامش رقم ٤٠.

١١٨- **تقويم البلدان**، ص٤٥.

١١٩- المسعودي: **أخبار الزمان**، ص١٤٥.

١٢٠- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح١، ص٢٦٥-٢٦٦.

١٢١- وهي جزيرة الروضة، ومكان المقياس في نهايتها. جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٥٨٨، هامش رقم ١٠٠.

١٢٢- المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص٣٤٤؛ ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص١٧٨. وقد تولى حكم مصر من قبل الخليفة العباسي المعتز بن الخليفة المتوكل.

١٢٣- التطيلي: **رحلة بنيامين**، ص١٧٤.

١٢٤- **زبدة كشف الممالك**، ص٢٨.

١٢٥- جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩.

١٢٦- يذكر التطيلي أن عمود المقياس مفصل إلى اثني عشر ذراعاً، رحلة بنيامين، ص١٧٤. ولا يبدو هذا صحيحاً، لأن الماء قد يرتفع إلى أكثر من هذا الرقم، فكيف تُقاس الزيادة إذن إن كان عمود المقياس لا يزيد

عن اثني عشر درجة. أما جان ليون الإفريقي فيذكر أن ارتفاع المقياس سبعة عشر ذراعاً، **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩.

١٢٧- جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٥٨٩.

١٢٨- ن.م، ص٥٨٩.

١٢٩- جان ليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩

١٣٠- يُنظر: المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص٢٠٦. وعند جان ليون الإفريقي تبلغ ١٥ ذراعاً و١٦ أصبع أي ٨ و٤٥م، **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩، هامش ١٠٤.

١٣١- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي: **رحلة ابن جبير**، بغداد-١٩٣٧، ص٢٢-ص٢٣.

١٣٢- لم أعثر على ترجمة.

١٣٣- **معجم البلدان**، ح٥، ص١٧٨.

١٣٤- **سفرنامة**، ص٨١.

١٣٥- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص ١٧٨.

١٣٦- المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص ٣٤٢؛ المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص٢٠٦؛ ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص ٨٢؛ ابن بطوطة: **تحفة النظار**، ح١، ص٣٠؛ العبدري: **الرحلة العبدرية**، ص١٤٥. أما جان ليون الإفريقي فيذكر أن التجربة تبين أن الزيادة إذا بلغت ((خمسة عشر ذراعاً على العمود فأن العام سيكون ممتازاً))، **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩.

١٣٧- **مروج الذهب**، ج١، ص٣٤٢.

١٣٨- المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص٢٠٦؛ ابن بطوطة: **تحفة النظار**، ج١، ص٣٠؛ العبدري: **الرحلة العبدرية**، ص١٤٦.

١٣٩- المسعودي: **مروج الذهب**، ج١، ص٣٤٢. وعند جان ليون الإفريقي إن هذه الزيادة ستُغرق كل الأراضي المسكونة في مصر. **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩.

١٤٠- المسعودي: **مروج الذهب**، ج١، ص١٠٠ وص٣٤٢؛ ابن بطوطة: **تحفة النظار**، ج١، ص ٣٠؛ العبدري: **الرحلة العبدرية**، ص ١٤٦. وعلى موظفي المقياس تحذير الناس، فينطلق الأولاد المعممون صارخين بالشوارع ((أيها الناس اتقوا الله من جبل إلى جبل)) أي أن الفيضان سيصل إلى الجبلين الواقعين على ضفتي النيل. جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٥٨٩.

١٤١- المسعودي: **مروج الذهب**، ج١، ص٣٤٢.

١٤٢- يُنظر: جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٥٨٩.

١٤٣- المسعودي: **مروج الذهب**، ج١، ص ٣٤٢.

١٤٤- ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص ١٢٩.

١٤٥- ابن بطوطة: **تحفة النظار**،ج١،ص٣٠، العبدري: **الرحلة العبدرية**، ص١٤٦.

١٤٦- المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص ٢٠٦.

١٤٧- الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ج١، ص ٣٢٥.

١٤٨- جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩.

١٤٩- ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص ٨٢.

١٥٠- شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص٩٠؛ العبدري: **الرحلة العبدرية**، ص١٤٦.

١٥١- التطيلي: **رحلة بنيامين**، ص ١٧٤. كان يُعلن عن بدأ موسم الفيضان بالقاهرة يوم ١٧ حزيران، وفي ٤ تموز يُعلن المنادون عن قدوم وفاء النيل أي يوم فتح السدود والقنوات، ويبلغ الفيضان أقصاه في ٢٦ أيلول بعدها يبدأ النقصان، وفي تشرين الثاني يكون نهر النيل قد عاد لوضعه العادي. جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٥٨٩، هامش١٠٥.

١٥٢- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٥. يُنظر: المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص ٢٠٦.

١٥٣- ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص١٣٧؛ ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص٨٢؛ المقريزي، تقي الدين أبو العباس: **الخطط المقريزية**، ح١، دار صادر-بيروت، ص٩٨.

١٥٤- ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص ٨٣.

١٥٥- المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص٢٠٦ وص٢٠٨.

١٥٦- ناصر خسرو: **سفرنامة**، ص ٩٨.

١٥٧- ن.م، **سفرنامة**، ص ٩٨.

١٥٨- جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص ٥٨٩، هامش رقم ١٠٥.

١٥٩- اليعقوبي: **البلدان**، ص ٣٤٠.

١٦٠- يُنظر: الاصطخري: **المسالك والممالك**، ص٤٠؛ القزويني: **عجائب المخلوقات**، ص٢٩٢؛ ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٥.

١٦١- القزويني: **آثار البلاد**، ص٢٦٥.

١٦٢- المقدسي البشاري: **أحسن التقاسيم**، ص٢٠٦.

١٦٣- ابن رستة: **الأعلاق النفيسة**، ص١١٦.

١٦٤- جان ليون الإفريقي: **وصف إفريقيا**، ص٥٩٠.

١٦٥- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٦.

١٦٦- القزويني: **آثار البلاد**، ص٢٦٤.

١٦٧- القزويني: **عجائب المخلوقات**، ص ٢٩١؛ المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص ٣٤٣. ويعني العثور على الخشبة التي صُلب عليها النبي عيسى (ع). النويري: **نهاية الإرب**، ح١، ص١٩٢-١٩٣؛ المقريزي: **الخطط**، ح١، ص٢٦٧؛ محيميد، وسن حسين: **أهل الذمة في العصر العباسي**، بغداد-٢٠٠٩، ص٣٢١.

١٦٨- المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص ٣٤٣.

١٦٩- ويسمى التعميد، لتعميد النبي يحيى للنبي عيسى عليهما السلام في نهر الأردن. المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص ٣٤٣؛ محيميد: **أهل الذمة في العصر العباسي**، ص٣٢٠.

١٧٠- كاشف، سيدة إسماعيل: **مصر في عهد الأخشيديين**، ط٢، القاهرة-١٩٧٠، ص٢٦٤.

١٧١- المسعودي: **مروج الذهب**، ح١، ص ٣٤٣.

١٧٢- مختصر **كتاب البلدان**، ص٦٣ وص٦٧.

١٧٣- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ح٥، ص٣٣٤.

١٧٤- القزويني: **عجائب المخلوقات**، ص ٢٩٠؛ **آثار البلاد**، ص٢٦٥.

١٧٥- **تحفة النظار**، ح١، ص٣٠.

١٧٦- **صورة الأرض**، ص١٤٣.

١٧٧- **سفرنامة**، ص٨٣.

١٧٨- **نزهة المشتاق**، ح١، ص٣٢.

١٧٩- **نخبة الدهر**: ص٨٩.

١٨٠- **الجغرافية**، ص٩٦.

١٨١- **رحلة العبدري**، ص١٤٦.

١٨٢- **المسالك والممالك**، ص٤٠.

١٨٣- **مروج الذهب**، ح١، ص١٠٠.

١٨٤- هنتس، والتر: **المكاييل والأوزان الإسلامية**، ترجمة: كامل العسلي، عمان-١٩٧٠، ص٩٤-٩٥.

١٨٥- **نزهة المشتاق**، ح١، ص٣٤.

١٨٦- ن.م، ح١، ص٣٢٥.

١٨٧- **نخبة الدهر**، ص٩٠.

١٨٨- **الجغرافية**، ص٩.

١٨٩- **نهاية الإرب**، ح١، ص٢٦٢.

١٩٠- **موسوعة الكتاب المقدس**، ١٩٩٣، ص٣٢٧.

١٩١- تشير الدراسات الجغرافية الحديثة إلى أن النيل يخرج من ثلاث بحيرات عند خط الاستواء في أواسط إفريقيا هي: بحيرة أوكريوة -كوري عند العرب والمسلمين- وتسمى أيضاً فكتوريا نيانزا. بحيرة موتنزيجة أو البرت نيانزا. بحيرة: لوتنريجة أو البرت ادوارد. علي: **النخبة الأزهرية**، ح٢، ص١٥٣؛ يُنظر: لودفيغ، اميل: **النيل**، ترجمة: عادل زعيتر، مصر-١٩٥١، ص٢٢-ص٢٣. وهي نفسها البحيرات الثلاثة التي تحدثت عنها رواياتنا التاريخية قبل عدة قرون.

المصادر

- **القرآن الكريم**

الإدريسي، أبو عبد الله محمد (ت ٥٦٠هـ/١١٦٦م)

١- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة- ٢٠٠٢.

الاصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد (ت النصف الأول من القرن ٤هـ/١٠م).

٢- المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني، مصر-١٩٦١.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).

٣- تحفة النظار في عجائب الأمصار، تهذيب: أحمد العوامري بك، القاهرة- ١٩٣٨.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ/١٠٥٤م).

٤- تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، تحقيق: ب- بولجاكوف، مراجعة: د. إمام إبراهيم أحمد، القاهرة-١٩٦٤.

التطيلي، الربي بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي.

٥- رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، بغداد-١٩٤٥.

جان ليون الإفريقي، الحسن بن محمد الوزان الزياتي

٦- وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الرياض-١٩٨٧.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٦م)

٧- رحلة ابن جبير، بغداد-١٩٣٧.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٨م)

٨- صورة الأرض، دار الحياة، بيروت.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)

٩- المسالك والممالك، ليدن-١٨٨٩.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

١٠- المقدمة، ط٦، بيروت-١٩٨٩.

الخوارزمي، أبو جعفر محمد بن موسى.

١١- صورة الأرض، تصحيح: هانس فون مزيك، فيينا-١٩٢٦.

ابن رستة، أبو علي أحمد (ت القرن ٣هـ/٩م).

١٢- الأعلاق النفيسة، ليدن-١٨٩٣.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن بكر (ت ٥٤١هـ/١١٥٤م)

١٣- الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، القاهرة.

ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٥م)

١٤- الجغرافية، تحقيق: اسماعيل العربي، بيروت- ١٩٧٠.

شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

١٥- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لايبزك-١٩٢٣.

الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (مجهول سنة الوفاة)

١٦- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راويس، باريس-١٨٩٤.

العبدري، أبو عبد الله محمد (مجهول سنة الوفاة)

١٧- رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط-١٩٦٨.

العمري، ابن فضل الله (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

١٨- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة-١٩٢٤.

أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)

١٩- تقويم البلدان، تصحيح: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس-١٨٤٠

ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد (ت٣٤٠هـ/٩٥١م)

٢٠- مختصر كتاب البلدان، ليدن-بريل ١٣٠٢.

القزويني، زكريا بن محمد (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)

٢١- عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات (على هامش كتاب حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري)، القاهرة-١٩٥٨.

٢٢- آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت--١٩٦٠.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)

٢٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر-١٩٥٨.

٢٤- أخبار الزمان (منسوب)، ط٢، بيروت-١٩٦٦.

المقدسي البشاري (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م)

٢٥- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن-بريل-١٩٠٦.

المقريزي، أبو العباس أحمد (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)

٢٦- الخطط المقريزية، دار صادر- بيروت.

ناصر خسرو

٢٧- سفرنامة، ترجمة: يحيى الخشاب، بيروت-١٩٧٠.

النويري، شهاب الدين أحمد (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

٢٨- نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

٢٩- معجم البلدان، دار صادر، بيروت

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م)

٣٠- البلدان، ليدن-١٨٣٩.

المراجع العربية:

حميدة ، عبد الرحمن

١- أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، لات

ساماراكو، انجلو

٢-رحلة محمد علي إلى السودان، ترجمة: طه فوزي، القاهرة-١٩٤١م.

علي، إسماعيل

٣- النخبة الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية، لات

كاشف، سيدة إسماعيل

٤- مصر في عهد الأخشيديين، ط٢، القاهرة-١٩٧٠

كراتشكوفسكي، اغناطيوس

٥-تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان، ط١، ١٩٥٧.

لودفيغ، اميل

٦- النيل، ترجمة: عادل زعيتر، مصر-١٩٥١

محيميد، وسن حسين

٧- أهل الذمة في العصر العباسي، بغداد-٢٠٠٩

مقار، نسيم

٨- البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل، ط١، ١٩٦٠.

٩- موسوعة الكتاب المقدس، ١٩٣٣.

هنتس ، والتر

١٠- المكاييـــل والأوزان الإســـلامية، ترجمـــة: كامـــل العـــسلي، عمان-١٩٧٠.

المراجع الأجنبية:

1- Bruce. James:
Travels to discover the source of the Nile, London- 1844.
2- Mustawfi, Hamd-Allah (730/1340);
Nuzhat – Al – Qulub, (The Geographical part), Translated: G. Lestrange, London- 1919.
3- Persian Geography (372 A.H – 982 A.D):
Hudud Al – Alam, (The regions of the world), translated: V. Minorsky, London- 1937.
4- William, Charles:
Expedition to discover the sources of the whit Nile in the years 1840-1841, London

الدور السياسي للمرأة في العصر العباسي الأول (الخيزران نموذجاً)

الأستاذة الدكتورة اكتمال إسماعيل

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة دمشق

من يقرأ التاريخ بموضوعية يدرك أن الخطوط البيانية لمسار الشعوب لا تسير بطريق واحد، فما من أمة وصلت إلى الأوج والألق والازدهار السياسي والحضاري إلا عندما تفاعلت كل فئاتها مع بعضها بعضاً وذلك بمشاركة رجالها ونسائها في عملية البناء حضارياً وسياسياً.

من ذلك نستطيع القول إن ظهور المرأة على المسرح السياسي لم يكن جديداً، بل شهدته عصور التاريخ القديمة، حيث نرى أسماء لامعة مثل حتشبسوت، كليوباترا جوليا دومنا، بلقيس، زنوبيا وماوية، وغيرهن من النساء.

فهي إما حاكمة تسير دفة النظام أو مستشارة للحاكم، أو مسيطرة عليه.

ولا يغب عن البال دور المرأة في البناء الاجتماعي والثقافي، فهي الأم والأخت والابنة والزوجة، وإن قيامها بهذه الأدوار جعل مكانتها توازي مكانة الرجل ولا تقل

عنها إطلاقاً، وقد أكدت هذه المقولة جميع المصادر العربية والإسلامية عندما خطت الروايات والقصائد والحوادث التي تظهر مكانتها وأهميتها.

وانطلاقاً من ذلك سأحاول إلقاء بعض الضوء على دور المرأة السياسي في العصر العباسي الأول، هذا الدور لم تشغله امرأة واحدة بل تعددت الأسماء ولكن الحديث سيقتصر عن الخيزران فقط.

لقد تمتعت المرأة في العصر العباسي الأول بحظ وافر من الحرية يعادل الحظوظ التي تمتعت بها في المدة التي تقدمت على ظهور الإسلام، ولم يقتصر هذا الأمر على الخيزران لأنها من نساء الخاصة بل تعدتها إلى نساء العامة، ومع أن المصادر قد غصت بالأخبار و الروايات عن وضع النساء من طائفة الخاصة، إلا أنه ما من أحد أرخ للعامة.

وبما أن عمل المرأة بالنسبة للشرائح العليا قد تعدى إلى العمل السياسي فقد نالت نتيجة تدخلها العزل أو الإهمال أحياناً أو غير ذلك، وإذا كانت العصور الإسلامية المتقدمة على العصر العباسي الأول شهدت ظهور أسماء نسائية كبيرة فإن من أهم الأسماء في العصر العباسي الأول اسم الخيزران زوجة الخليفة محمد المهدي، فمن هي الخيزران؟

اختلفت الروايات وتباينت معظم المصادر حول أصل الخيزران، بينما اتفقت على اسمها وعلى دورها السياسي، فبعض الروايات أوردت بأنها أمة شريت من سوق النخاسة وأن المهدي أعتقها وتزوجها، فكانت أول امرأة اضطلعت بسلطة واسعة في شؤون السلطة العباسية(١).

ومن هؤلاء المؤرخ ابن كثير حيث أكد بأنها جارية اشتراها المهدي ، لكنه اعترض في البداية على دقة في ساقيها فقال لها لما عرضت عليه: ((ياجارية إنك لعلى غاية

المنى والجمال لولا دقة ساقيك وخموشها. فقالت: يا أمير المؤمنين إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما))[٢]. فأعجبه جوابها واشتراها.

وأوردت روايات أخرى بأنها كانت بنت عطاء وهي يمانية جرشية، اشتراها المهدي ثم أعتقها وتزوجها[٣]، ويذكر أنها كانت متفقهة أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي[٤].

من المرجح أن الخيزران كانت من مولدات اليمن، فهي تمت بصلة وثيقة إلى طبقة الأبناء، معنى ذلك أنها من العربيات، ولكن من الصعب قبول القول أنها جارية من أصل يمني لأنه لم يكن هناك استرقاق لعربية، ومع ذلك لا يعني هذا عدم وجود رقيق آنذاك.

وعند استقراء رواية ابن كثير وغيرها يمكن القول أن اسمها الأصيل ليس الخيزران، إنما نحفها ودقة ساقيها كان وراء إطلاق الاسم عليها، ومعلوم بأن نساء اليمن اتصفن بالنحافة وشبهن بالخيزران.

أنجبت الخيزران ولدين هما موسى الهادي وهارون الرشيد، اللذان أصبحا خليفتين، ويذكر أن هناك نسوة آخرين أنجبوا خلفاء مثل ولادة بنت العباس العبسية زوجة عبد الملك بن مروان وأم الوليد وسليمان ابني عبد الملك وكذلك شاه فرند بنت فيروز بن يزدجر، ولدت لمولاها الوليد بن عبد الملك: مروان وإبراهيم، وكلاهما ولي الخلافة[٥].

حظيت الخيزران بمكانة مرموقة عند الخليفة المهدي حتى إنه أولع وأغرم بها حيث إنها سيطرت عليه ويعود السبب في ذلك إلى قوة شخصيتها وجاذبيتها وكان كلما غابت عنه يزداد شوقه إليها وما يثبت ذلك أنها ذهبت في إحدى المرات للحج إلى مكة المكرمة فكتب لها:

نحـــن فـــي غايـــة الـــسرور ولكـــن ... لـــيس إلا بكـــم يـــتم الـــسرور
عيب ما نحـــن فيـــه يـــا أهـــل ودي ... أنكـــم غيـــب ونحـــن حـــضور
فأجد وافـــي الـــسير بـــل إن قـــدرتم ... أن تطيـــروا مـــع الريـــاح فطيـــروا

فأجابته أو أمرت من أجابه:

قد أتانا الـــذي وصـــفت مـــن الـــشو ... ق فكـــدنا ومـــا قـــدرنا نطيـــر
ليـــت أن الريـــاح كـــن يـــؤدين ... إلـــيكم مـــا قـــد يكـــن الـــضمير
لـــم أزل صـــبة فـــإن كنـــت بعـــدي ... فـــي ســـرور فـــدام ذاك الـــسرور[٦]

ومن شدة حب المهدي لها أنه لم يكن يفارقها، فعندما كان يجلس في صـــدر المجلـــس كانت تجلس هي في عتبة باب الرواق المقابل للإيوان، وكان يأتي إلى مجلـــسها مـــن حين لآخر فيجلس ساعة ثم ينهض[٧].

وخارج نطاق السياسة كانت الخيزران مطواعة في بعض الأحيان لأمر المهدي وهـــذا ما أكدته قصتها مع مزنة امرأة مروان بن محمد. ذلك أن الخيزران كانت تجلس فـــي دارها ومعها مجموعة من أمهات الخلفاء و بعض نساء بني هاشم وعلى رأسهم زينب ابنة سليمان بن علي وكانت أعلاهن مرتبة وكان المهدي قد أمرها بالامتثال لأوامـــر زينب حيث قال لها:

((اقتبسي من آدابها، وخذي من أخلاقها فأنها عجوز لناقد أدركت أوائلنا)). وقـــد روي أنه بينما كانت الخيزران تجلس على بساط أرمني وباقي النساء على نمارق أرمنيـــة، دخل الخادم واخبرها بوجود امرأة بالخارج عليها ثياب رثة لكنها ذات حسن وجمـــال، وهي تصر على الدخول ، فأذنت لها، فلما دخلت أوضحت أنها مُزنة امرأة (أو ابنـــة) مروان بن محمد الأموي، فانزعجت منها زينب وقالت لها:

((........ الحمد لله الذي أزال نعمتك، وهتك سترك وأذلك، تذكرين يا عدوة الله حين آتاك عجائز بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك -مروان بن محمد- في الأذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهن وأسمعتهن ما أسمعت وأمرت بإخراجهن)). فردت عليها مُزنة ((.......أي بنت عمي أي شيء أعجبك من حسن صنع الله بي على العقوق حتى أردت أن تتأسي بي فيه؟ والله لقد فعلتُ بنساء أهل بيتك ما فعلت، فأسلمني الله إليك ذليلة جائعة عريانة، فكان هذا مقدار شكرك الله على ما أولاك فيّ))(٨).

ثم استأذنت مُزنة وانصرفت، لكن الخيزران حنت عليها فأمرت بإرجاعها، ثم طلبت من جواريها إدخالها المقاصير وإكرامها.

لما سمع المهدي بعمل الخيزران أثنى عليها مقابل إنكاره فعل زينب، ثم استدعى مُزنة بعد أن بعث لها الأموال، فلما جاءت أمرها بالجلوس ورفع منزلتها فوق منزلة زينب، وساواها بنسائه و أخوته وقال لها:

((لك ما لهن وعليك ما عليهن، إلا أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق)).

وظلت مُزنة مقيمة في قصر المهدي حتى توفيت زمن الرشيد(٩).

وتدل هذه الرواية على الرجاحة في العقل، والدهاء، والحنكة السياسية التي تمتعت بها الخيزران وعلى العموم عملت الخيزران دوماً على كسب ود المهدي، وأن يكون لها تأثيرها على دفة الحكم والسياسة.

وقد شهدت الخيزران تولية ابنها موسى الهادي ولياً للعهد بدلاً من عيسى بن موسى بعدما أجبره المهدي على التنحي لصالح ابنه الذي عد ولياً للعهد الأول وعين أميراً

على الأقاليم الشرقية بينما عد هارون الرشيد ولياً ثانياً للعهد وعين على الجناح الغربي للدولة.(١٠)

وهنا لابد من مناقشة قضية هامة هي ولاية العهد؟

صحيح الذي يقال عن ولاية العهد وأن الخليفة أبو جعفر المنصور وضع اللبنة الأولى لنظام ولاية العهد العباسية في الأبناء بعد إجباره عيسى بن موسى على التنازل للمهدي عن الولاية ومعروف أن قضية ولاية العهد يختلف عليها، بعضهم أرجعها إلى الخليفة الراشدي علي (كرم الله وجهه) عندما أصبح ابنه خليفة من بعده ولكن هذا بعيد عن القبول لأنه غير موثق علمياً، بينما أرجع آخرون ولاية العهد فعلياً إلى الابن إلى الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان لما ورث الحكم لابنه يزيد بإرغام رسمي للمسلمين.

والواضح أنه كان لكل دولة ولكل خليفة معطيات ،وكل قوة كان لها مرشحها وأهم شيء هنا أن المنصور أراد حصر ولاية العهد بذريته، وولاية العهد كانت مشكلة سياسية طيلة العصرين الأموي والعباسي فكأن المنصور أجل المشكلة ولم يحلها، ولعله كان يرغب في أن يحلها الزمن بموت عيسى بن موسى الذي كان ولياً للعهد مدة حكمه.(١١)

مايهم أن الخيزران قبضت على شؤون السلطة بقوة حيث مثلت حزباً أو تياراً يتزعمه أقطاب الحزب العباسي الذي ضرب ضربات شديدة منذ مقتل أبي سلمة الخلال، هذا الحزب الذي أراد للخليفة أن يملك ولايحكم، ولاح في الأفق أن الرشيد هو المرشح المستقبلي لهذا الحزب وهذا مايعلل وصول الرشيد للسلطة وتحكم البرامكة إلى أن انقلب عليهم وصفاهم وهذا فيه مؤشر لمحاولات التصفية الجسدية التي قيل بأن الخيزران قد قامت بها تجاه ابنها الهادي.

لكن ما علاقة الخيزران بالبرامكة والحزب العباسي؟

ربما تعود العلاقة مع الحزب العباسي ومع البرامكة كونها من مولدات اليمن ، ومن الأبناء وهذا مايفسر ارتباطها الوثيق ببلدها اليمن من جهة ، وبتحديد مستقبل أبنائها من جهة أخرى.

لكن الصورة السياسية تتوضح عندما يجد الباحث أو القارئ بأنه كان يوجد كتلتين أو حزبين متصارعين: كتلة هارون الرشيد وتتزعمها الخيزران والبرامكة قادة الحزب الخراساني وهذه الكتلة متنفذة، وكتلة موسى الهادي الخليفة المقبل وصاحب السلطة القوية، وقد ضمت هذه الكتلة بعض المتنفذين أمثال يزيد الشيباني، وابراهيم الحراني، إضافة إلى عدد من الهاشميين، ولم تكن هذه الكتلة أقل قوة من الأولى بدليل استطاعة الهادي الوصول إلى سدة الحكم وإدارة شؤون السلطة بقوة [١٢].

ومن شبه المؤكد أن وجود الخيزران في هذا الدور ونفوذها في القصر مكن حزبها فيما يبدو من الضغط على المهدي، وإقناعه في تقديم هارون على أخيه الهادي. فتكاد تجمع المصادر على عزم المهدي تقديم الرشيد في الولاية حيث بعث إليه وهو بجرجان في هذا المعنى ،فلم يفعل، فبعث إليه بالقدوم إليه فضرب الرسول وأمتنع من القدوم ، وكان المهدي قد خرج إلى جرجان ويقال إلى ماسبذان مكان وجود الهادي فوافته المنية[١٣]. وإثر وفاة المهدي شهدت بغداد اضطرابات قادها الجند فدمرت بعض الدواوين، ولحق بعض الضرر بدار الربيع بن يونس الذي تركه المهدي نائباً عنه في بغداد. ثم طلبت الخيزران عقد اجتماع لبحث الوضع السياسي، وقد حضره الربيع ابن يونس، وتخلف عن الحضور يحيى البرمكي لأنه كان مدركاً عواقبه الوخيمة لعلمه بشدة غيرة الهادي[١٤].

ونتج عن هذا الاجتماع دفع عطاء الجند سنتين لضمان ولائهم، وتجنباً لاضطرابات جديدة، على أساس أن الهادي خليفة وهارون الرشيد ولياً للعهد[١٥].

قدم الهادي الذي كان مقيماً بجرجان عند وفاة والده إلى بغداد، وكان ناقماً على الربيع ابن يونس الذي أرسل إليه ابنه الفضل بالهدايا فعاتبه الهادي، فاعتذر إليه عندئذ ولاه الوزارة مكان عبيد الله بن زياد بن أبي ليلى .[١٦]

وسيطر الهادي على زمام الأمور في بغداد سنة ١٦٩هـ/٧٨٥ م.[١٧] ومنذ تسلمه السلطة بدأت والدته الخيزران تتحكم به وتسلك تجاهه ما كانت تفعله زمن أبيه من قبله في التدخل بالأمر والنهي. لكن الهادي أراد أن يحكم ولا يتدخل أحد بسلطته كما أنه أراد أن يتخلص من الحزب المعارض وقد يكون للاثنيات والانتماء المذهبي دور في المعارضة التي قاومت وصول الهادي إلى الحكم. ومع كل مواقفها السياسية الرافضة للهادي والمرجحة للرشيد فإنها استدعته للحكم لكن لايعني ذلك زوال الخصومة بينهما.

وذكر بأنه لما صارت اليه الخلافة أرسلت إليه جاريتها خالصة فقالت: ((إن أمك تستكسيك، فأمر لها بخزانة مملوءة كسوة قال: وجد للخيزران في منزلها من قراقر[١٨] الوشي ثمانية عشر ألف قرقر)).

ويقال بأنه في أول خلافته كانت تفتات عليه في أموره فضايقه ذلك وأرسل إليها: ((ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك))[١٩].

عند قراءة النص بتمعن يلاحظ أن الهادي وكأنه أمرها بعدم التدخل في شؤون الحكم والالتفات إلى طاعة الله وتسبيحه فقط .وهذا يعني بوجه أو بأخر بأنها إذا تدخلت بالسياسة والملك فإن ذلك يحط من قدرها وسمعتها وبالتالي لا طاعة واجبة تجاهها.

وبما إنها كانت معتادة على تسيير دفة الحكم منذ أيام المهدي أو التدخل ولو من بعيد فإنها لم تستطع الاعتكاف في بيتها لأن ذلك من الصعوبة بالنسبة إليها كونها قوية

الشخصية، ولم يمض أربعة أشهر على تسلم ابنها الهادي للسلطة حتى حصلت أزمة بينهما نتيجة تدخلها في تسيير شؤون البلاد على الرغم من التحذير الدائم لها من قبله، فقد كان أصحاب الحاجة والمصالح يطرقون بابها ويسألونها قضاء حاجاتهم دون أن يكون الطلب من الخليفة نفسه، وانطلاقاً من إقصائها عن الحكم وممارسة صلاحيات تخص مستقبله السياسي فإنه لم ينفذ الطلبات التي كانت تطلبها منه عندئذ قالت له:

((فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. قال فغضب الهادي وقال: ويل على ابن الفاعلة! قد علمت أنه صاحبها، والله لا قضيتها لك، قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذاً والله لا أبالي. وحمي وغضب . فقامت مغضبة فقال: مكانك تستوعي[٢٠] كلامي والله، وإلا أنفي قرابتي من رسول الله (ص)، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي، أو خدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم! أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك! إياك ثم إياك، ما فتحت بابك لملي أو ذمي. فانصرفت ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها))[٢١].

ولما كان الهادي متأكداً أن أمه الخيزران تريد التغلب عليه سياسياً كما كانت أيام أبيه المهدي قال لأصحابه:

((أيما خير أنا أم أنتم ؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين، قال: فأيما خير أمي أو أمهاتكم؟ قالوا: بل أمك يا أمير المؤمنين قال: أيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقولون فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحب ذلك، قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها، فشق ذلك عليها، فاعتزلته وحلفت ألا تكلمه فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة))[٢٢].

لذلك وبناء على كثرة الشكايات والتدخلات من قبل أمه فقد منعها نهائياً من التدخل بشؤونه السياسية وكان يقول: ((ماللنساء والكلام في أمر الرجال))[٢٣] .

إن هذا يعني بكل المقاييس تدخل الخيزران في القرارات، ومن المرجح أن يكون رد الهادي عليها من باب التفرد بالحكم والسلطة لأنه كان يعلم مدى وزنها السياسي وأنها تمثل تياراً حزبياً هاماً في عصرها هذا التيار الذي كان يعمل برئاستها لإزاحته عن سدة الحكم والسلطة، لذلك أراد كبح جماح نفوذها.

وورد في بعض المصادر حكاية لربما كانت ملفقة تؤكد محاولة الخيزران فرض نفوذها على ولدها الهادي ومفاد الرواية أن الخيزران طلبت من ابنها موسى الهادي أن يولي خاله الغطريف بن عطاء على اليمن فوعدها بذلك، ثم ترك الأمر معلقاً حتى أرسلت إليه ثانية تطلب منه توليته، وهذا الطلب كان عن طريق رسول أرسلته إليه ويقال بأن هذا الرسول ربما كان جارية لها، لما دخل الرسول إليه وأخبره بشأن أخيها الغطريف أرسل إلى أمه بأن تخير أخيها بين حكم اليمن أو طلاق ابنته /الغطريف/ والتي هي زوجته. ولما غادر الرسول مجلس الهادي لم يفهم ما قاله وتوجه إلى الخيزران ونقل كلاماً مغايراً لما قاله الهادي فأجابته بأنها تريد اليمن، ثم عاد للهادي وقال له تقول لك أمك ولاية اليمن فغضب الهادي وطلق زوجته ابنة الغطريف وولاه اليمن.

ولكن تبين فيما بعد من خلال ما أوردته معظم المصادر التاريخية أن الرسول قد أخطأ في نقل الكلام وعلم الهادي ذلك بعد أن سمع صراخ النساء[٢٤].

إذن من المفترض أن الغطريف بن عطاء لم يكن أخاً للخيزران وهذا يميل إلى الصحة أكثر من الآراء الأخرى وهو من بلحارث أخوال الأسرة العباسية، لكنها بتدخلاتها بالسلطة رشحته لنيل الولاية أي ولاية اليمن، ويدل ذلك على اهتمام الخيزران بشؤون وطنها الأم وهو اليمن وشعرت بالحنين إليه، كما أنها أرادت أن يوضع (أخوها) في

خدمة أهلها وهذا ما يؤكد بأنها من مولدات اليمن وأن عاطفتها نحو بني قومها كانت ما تزال جياشة وقوية نحوهم.

أدت هذه السجالات بين الهادي والخيزران إلى محاولته التخلص منها وهذا ما أكده بعض المؤرخين أمثال الطبري الذي ذكر بأن الهادي أرسل لأمه مع جاريتها خالصة بأرزة مسمومة، لكن خادمتها منعتها من أكلها عندما شكت بوجود شيء فيها. فجاءت بكلب فأكل منها فتساقط لحمه، وعندما أرسل لأمه يسألها عن طعم الأرزة، ردت له بأنها وجدتها طيبة فقال: لم تأكلي ولو أكلت لكنت استرحت منك، متى افلح خليفة له أم(٢٥).

وهذا ليس بمستغرب أخلاق الخليفة الهادي فقد وصف بأنه كان: ((قاسي القلب، شرس الأخلاق، صعب المرام .... شديداً شجاعاً، بطلاً، جواداً، سخياً))(٢٦).

ولكن ما هي المسوغات التي دفعت الخليفة الهادي أن يرسل لوالدته أرزة كهدية لتأكل منها كما يتهادى الفقراء؟ مع العلم بأن النفرة بين الاثنين بلغت أشدها منذ أن خرجت من عنده وحلفت بأن لا تكلمه أبدا ولم يكلمها هو حتى مات.

ولو حصلت هذه الحادثة قبل حدوث النفرة أو القطيعة بينهما لكان موسى الهادي استغنى عن قتل أمه، أو لكان كلف أحد القائمين على خدمتها بذلك فلا تتكشف الجريمة، ولا يكون للاغتيال صدى استياء بين الناس. ثم إن تنبه الجارية خالصة إلى وجود السم ومنعها الخيزران من الأكل يدل على أن الأرزة المسمومة كانت مرسلة من جهة – إن أرسلت – يهمها فقط أن تعتقد الخيزران بأن ابنها موسى الهادي يريد قتلها، فدبرت تلك المسرحية بالاتفاق مع خالصة.

ولكن هل كانت الخيزران من القوة بمكان احتاج إلى اغتيالها؟ .

هذا السؤال أجابت عنه الحوادث عندما أصبح الصراع مكشوفاً بين الطرفين وصار كل جانب يعلم سر الجانب الآخر ونواياه، وكانت الخيزران كلما توترت الأزمة واتسعت خافت على ابنها هارون الرشيد من بطش أخيه موسى الهادي.

فبعد وقت قليل من استلام الهادي للخلافة عزم على خلع أخيه هارون من ولاية العهد وتنصيب ابنه جعفر بدلاً عنه، وهذا شكل أزمة حقيقية إذ بدأ الصراع بين التيار الحزبي أو السياسي الذي تمثله الخيزران والمؤيد لهارون الرشيد، وبين التيارات السياسية الأخرى المعارضة لتوليه، وهذا الصراع لم يكن سياسياً فقط بل كان اقتصادياً واجتماعياً أيضاً.

يشابه هذا المشهد المشهد نفسه الذي حصل أيام حكم المهدي، وكما هو متوقع فإن أنصار الهادي الذين كانوا يخشون فقدان نفوذهم عند وصول الرشيد للخلافة، هم الذين قاموا بتحريضه أمثال يزيد بن مزيد، وعبد الله ابن مالك، وعلي بن عيسى وغيرهم.(٢٧)

وبناء على ذلك حرم هارون الرشيد من امتيازاته كولي للعهد،واستعملت ضده وسائل مختلفة من الضغوط والإهانات، فأظهر الرشيد رغبة في التنازل عن الولاية لكن يحيى البرمكي منعه من ذلك، مقوياً عزمه(٢٨)، وهنا ظهر جلياً عمق الصراع ما بين التيارات السياسية المصبوغة بالصبغة الحزبية، عندما حاول الهادي أن يستغل نفوذ يحيى البرمكي على هارون الرشيد لإقناعه بالتنازل، لكن يحيى رفض مسوغاً ذلك أن جعفر بن موسى مازال صغيراً، وبأنه يمكن أن يعينه ولياً للعهد بعد الرشيد إذا أصر، كما نبهه إلى وجود الأمراء الهاشميين الطموحين الذين يترقبون تصدع الفرع العباسي الحاكم ليثبوا على الخلافة.

عاود الخليفة الهادي الضغط على أخيه هارون، فاضطره إلى ترك بغداد حيث سافر إلى قصر مقاتل في الجزيرة، لكنه استدعي إلى بغداد وسجن مع مربيه يحيى ابن خالد

البرمكي. إلا أن الضغوط السياسية انتهت بوفاة الخليفة الهادي سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م بعيسا باذ[٣٣] قبل تحقيق أمنيته وقد اختلف في سبب وفاته وكانت إحدى الروايات تقول إنه اغتيل من قبل جوار لأمه الخيزران كانت أمرتهن بقتله.

وتكاد تجمع المصادر على أن الخيزران هي السبب في وفاة ابنها، لأنها خافت على ولدها هارون الرشيد فدست بعض الجواري فجلسن على وجهه فمات[٢٩].

وهنا يطرح تساؤل لماذا لم تكشف دار الخلافة الدسائس التي حيكت؟

لكن هناك مصدر آخر ناقض ما ورد من قبل عن مقتل الهادي بأنه أثناء احتضاره أرسل إلى أمه الخيزران بالحضور فلما صارت عند رأسه قال لها: ((أنا هالك في هذه الليلة، وفيها يلي أخي هارون، وأنت تعلمين ما قضى به أصل مولدي بالري، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى، مما أوجبته سياسة المُلك لا موجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقاً، بل كنت لك صائناً وبراً واصلاً)). ثم مات قابضاً على يدها واضعا لها على صدره[٣٠].

من الواضح أن الرواية الأولى أكثر إقناعاً من الثانية لأن الخيزران لم تكن لترضى بهذا الوضع الذي سلبها القوة والنفوذ والذي سوف يسلبها ولدها الرشيد ومرشحها للخلافة، والتي كانت تأمل في أن يكون هو الخليفة قبل الهادي، لكن مشروعها آنذاك أخفق بوفاة المهدي، فسارعت لتحقيق الفرصة الأخيرة لكسب السلطة والنفوذ في قتل ولدها.

وما يؤكد هذا القول أنها أرسلت في طلب الفضل بن يحيى الذي كان في السجن.

وما يدحض الرواية القائلة بأن الخيزران كانت مع الهادي وقت الوفاة أنه عندما آتاها الرسول وأخبرها بوفاته قالت: ((وما أصنع به؟ فقالت لها خالصة قومي إلى ابنك أيتها الحرة ، فليس هذا وقت تعتب ولا تغضّب، فقالت أعطوني ماء أتوضأ للصلاة، ثم

قالت: أما كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة، ويملك خليفة، ويولد خليفة، فمات موسى الهادي وملك هارون الرشيد وولد المأمون)) [٣١].

ما هذه الأم التي تناهى إلى مسامعها خبر وفاة ابنها فتقول وما أصنع به؟

ثم تقوم للصلاة بقلب بارد وكأن شيئاً لم يحدث لولا أنها كانت تتوقع خبراً يأتيها بالوفاة، والمؤكد أنها هي التي خططت لهذا القتل في قولها أما كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة، فهل تعلم هي بالغيب حتى يموت خليفة لا يعاني من أي مرض وهو في عز الشباب.

وزيادة في التأكيد بأنها هي التي تخلصت منه أنها هي التي تخلصت منه أنها لما جاءت خادمتها خالصة لتخبرها بوفاة موسى قالت: ((ما فعل الناس، قالت يا سيدتي، مات موسى ودفنوه، قالت: إن مات موسى فقد بقي هارون، هات لي سويقاً، فجاءت بسويقٍ فشربت..... ثم قالت: ما فعل ابني هارون؟ قالت: حلف ألا يصلي الظهر إلا ببغداد، قالت هاتوا الرحائل فما جلوسي هاهنا، وقد مضى فلحقته ببغداد)) [٣٢].

وهل هناك دلائل أكثر من ذلك على دورها في مقتله،فما هذه الأم التي لم تهتز مشاعرها ولم تتأثر لوفاة ابنها، وتقول إذا مات موسى بقي هارون.إن شخصية الخيزران القوية والغائبة المشاعر والعواطف لهي شبيهة بأخلاق وسمات بعض نساء العصر اللواتي أقدمن على بيع أطفالهن و التنازل عنهم ، أو قتلهم، وبمقتل الهادي انتهت المعركة السياسية مع الخيزران التي تخلصت بدورها من عدوها اللدود الذي كان فيما مضى فلذة كبدها وأحب الخلق إليها. لكن وفاته ظلت لغزاً محيراً على الرغم من أن معظم المصادر أكدت دور والدته في وفاته وهذا الحادث حمل في طياته بذور تدهور الأسرة العباسية، فقد وقع الهادي ضحية مؤامرات البلاط، وتدخل الحريم في السياسة و الصراع الخفي على السلطة بين التكتلات السياسية. وليس غريباً أن تختفي معالم جريمة القتل مادام الذين ارتكبوها هم أنفسهم استلموا الحكم.

وتابعت الخيزران بعد مقتل الهادي سياسة توجيه دفة الحكم، كما تعاظم دورها وأصبحت هي التي تحل وتربط الأمور وتمضي وتحكم. وكان هارون قد أمر يحيى البرمكي أن لا يقوم بأي عمل إلا بعد استشارة والدته الخيزران[٣٣]. والواضح بأن يحيى بن خالد البرمكي إضافة إلى المعارضة استفاد من مقتل الهادي، لأن سلطة يحيى تعاظمت زمن الرشيد حتى أصبح يسيطر على مقاليد الأمور كلها.

وهناك بعض الإشارات التي تظهر دور يحيى في التخلص من الهادي مستعيناً بالخيزران.

على كل حال لم يطل عمر الخيزران في خلافة هارون الرشيد، فلما توفيت سنة١٧٣هـ/٧٨٩م مشى الرشيد أمام (أو خلف) جنازتها وهو يلبس طيلساناً أزرق، ويمشي حافٍ في الطين ويحمل قائمة السرير حتى وصل إلى مقابر قريش فغسل رجله ودعا بأن يأتي له بحذاء فلبسه ثم صلى عليها ودخل قبرها، فلما خرج من المقبرة وضع له كرسي فجلس عليه ودعا الفضل بن الربيع وأعطاه خاتم الوزارة قائلاً له: إني كنت أهم أن أوليك فتمنعني أمي فأطيعها[٣٤].

وقد أنشد الرشيد حين دفن أمه الخيزران:

وكنا كندمائي جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً[٣٥]

وبوفاة الخيزران تغيرت الأمور السياسية، واستلم خاتم الوزارة الفضل بن الربيع فهدأت الأحوال مؤقتاً، أما بالنسبة لحياتها الاجتماعية فكانت كثيرة البر تنفق من غلتها الضخمة الكثير من الصدقات فقد بلغت غلتها مائة ألف ألف وستين ألف درهم، واشترت الدار المشهورة بمكة المعروفة بدار الخيزران فوسعت بها المسجد الحرام، كما أنها جعلت الدار التي ولد فيها الرسول (ص) مسجداً للناس[٣٦].

ولكن هل انتهى دور المرأة السياسي في العصر العباسي؟

توضح الحوادث التاريخية بأن زبيدة زوجة هارون الرشيد حلت محل الخيزران في القصر لتكمل المسيرة التي بدأتها سالفتها من التدخل بالحكم وتسييره مما

أدى إلى الشقاق والفتنة ما بين الأمين وأخيه المأمون، مع العلم أن زبيدة لم يكن لها نفوذ الخيزران أو ربما ساعدت الظروف الخيزران في الاتفاق حول المرشح لولاية العهد (الرشيد) بينما لم تساعد الظروف زبيدة إذ اختلف الأمر هنا وتوجب على زبيدة الانحياز إلى ابنها وقد أدت الفتنة في النهاية إلى مقتل الأمين.

مما تقدمً يتضح أن دور الزوجة أو الأم المتسلطة المتحكمة بمقاليد السلطة استمر طيلة حكم الخلفاء العباسيين وقد استمر فيما بعدهم قروناً طويلة.

حواشي البحث /المصادر والمراجع/

(١) ابن الأثير (عز الدين): **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر،ج٦، ص٤٠- حتي (فيليب): **تاريخ العرب**، دار غندور للطباعة والنشر ،ص٤٠٠.

(٢)ابن كثير(الحافظ): **البداية والنهاية**، بيروت، دار الفكر،د.ت،ج١٠،ص١٦٣.

(٣) الطبري (محمد بن جرير): **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت، دار سويدان،ج٨، ص٢٣٠-البغدادي(الخطيب): **تاريخ بغداد**- بيروت، د.ت،ج١٠، ص٨٣-المسعودي(علي): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت، دار الأندلس، ط٥، ١٩٨٣،ج٣، ص٣٢٤-ابن الأثير:المصدر السالف،ج٦، ص ١٠٦- الموسوعة العربية، ط١ ،٢٠٠٤م،ج٩، ص ٧٨ .

(٤) الطبري: المصدر السالف، ج٨، ص٢١٢-الزركلي (خير الدين):**الأعلام**، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٤،١٩٩٩م ،ج٢،ص ٣٢٨.

(٥) ابن كثير: المصدر السالف،ج١٠،ص١٦٣.

(٦) ابن كثير: المصدر السالف ،ج١٠ ص١٦٣.

(٧) التنوخي (المحسن بن علي):**المستجاد من فعلات الأجواد**، ص٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-المسعودي: **مروج** ،ج٣، ص٣١٣بيروت ط ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

(٨) التنوخي: المصدر السالف ص٢١-٢٢-٢٣-المسعودي: **مروج** ،ج٣، ص٣١٣-٣١٤- الموسوعة العربية ،ج٩،ص٧٨.

(٩) التنوخي: المصدر السالف ، ص٢٤-٢٥- المسعودي :المصدر السالف، ج٣، ص٣١٥.

(١٠) الطبري: المصدر السالف،ج٨،ص١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٧-١٥٤-ابن الأثير : **الكامل**، ج٦، ص٤٤-٤٥-٦١-٦٩-ابن كثير : البداية، ج١٠، ص١٤٧.

(١١) العبسي (هدى): **قضية ولاية العهد منذ تأسيس الدولة العباسية حتى وفاة المتوكل**، رسالة ماجستير غير منشورة ، دمشق ، ٢٠٠٦م، ص٦٣.

(١٢) الجهشياري (أبو عبد الله بن محمد بن عبدوس الكوفي ت٣٣٢ه):**الوزراء والكتاب**، مصر ، ط١، ١٩٣٨ ، ص١٥٦.

(١٣) الطبري: المصدر السالف: ،ج٨، ص ١٦٨ -ابن الجوزي (عبد الرحمن ت٥٩٧هـ): **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، بيروت، دار صادر،١٣٥٨ هـ، ج٨، ص٣٠٤-ابن الأثير: **الكامل**، ج٦،ص٧٣-٨١-٨٧الذهبي (شمس الدين محمد ت٧٤٨هـ):**العبر في خبر من غبر** ، ج١، ص٢٠٤-ابن كثير: المصدر السالف،ج١٠، ص١٥٤-ابن خلدون(عبد الرحمن):**تاريخ ابن خلدون**، ج٢، ص٢٦٨ -ابن تغري بردي (جمال الدين): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج٢، ص٥٨.

"(١٤) الطبري: المصدر السالف، ج٨، ص١٨٧-١٨٨-ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص٨٨.

(١٥) الطبري،ج٨، ص ١٨٨- ابن الأثير: الكامل،ج٦، ص ٨٨.

(١٦) الطبري :المصدر السالف ،ج٨، ص ١٨٩- ابن الأثير: الكامل،ج٦، ص٨٩.

(١٧) الطبري: **تاريخ** ،ج٨، ص١٩٢ – الجهشياري: **الوزراء**، ص١٢٥

(١٨) القرقر: من لباس المرأة حاشية الطبري ،ج٨، ص٢٠٥،حاشية١.

(١٩) الطبري: المصدر السالف،ج٨،ص٢٠٥.

(٢٠) في بعض المصادر فاستوعبي كلامي.

(٢١) الطبري : المصدر السالف ،ج٨، ص٢٠٥- المسعودي **مروج** ،ج٣، ص ٣٢٨ - ابن الأثير : **الكامل** ،ج٦، ص١٠٠- ابن كثير : **البداية** ج،١٠، ص ١٥٨ – كحالة (عمر الرضا): **المرأة في عالمي العرب والإسلام**، سوريا، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٢١٥.

(٢٢) الطبري: المصدر السالف، ج٨، ص٢٠٦- ٢٠٧- ابن الأثير: المصدر السالف، ج٦، ص ١٠٠ – كحالة:**المرأة**، ص٢١٦.

(٢٣) الطبري: المصدر السالف ،ج٨، ص ٢٠٧.

(٢٤) الطبري: المصدر السالف، ج٨، ص٢٢٢-كحالة: المرأة ، ص٢١٤.

(٢٥) الطبري: المصدر السالف ،ج٨، ص ٢٠٦ – الأصفهاني (أخبار النساء في كتاب الأغاني): ص ١١٢- ١١٣-الأربلي: **الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك** – بغداد د. ت، ص ١١٤ ابن الأثير: المصدر السالف،ج٦،ص ١٠٠- علي إبراهيم حسن: **نساء لهن في التاريخ نصيب مصر** د. ت ،ص ٨٠.

(٢٦) المسعودي: المصدر السالف،ج٣،ص٣٢٥.

(٢٧) الطبري: **تاريخ**، ج٨، ص٢٠٧- ٢٠٨ وحتى٢١١ –ابن الأثير : **الكامل**، ج ٦، ص ٩٦.

(٢٨) الطبري: المصدر السالف، ج٨، ص ٢٠٦- ابن الأثير:**الكامل**، ج٦، ص ٩٦.

(٢٩) محلة كانت شرقي بغداد وقد بنى بها المهدي قصره الذي سماه السلام و قيل بأن الهادي لما توفي دفن في قصر بناه وسماه الأبيض بعيساباذ.

(٣٠) ابن كثير: **البداية** ،ج١٠، ص ١٦٠.

(٣١) الطبري ،ج٨، ص٢١٣ –المسعودي: **مروج** ،ج٣، ص٣٣٣.

(٣٢) الطبري: **تاريخ** ، ج٨، ص٢١٢ – المسعودي ،ج٣، ص ٣٣٤- كحالة :**المرأة**، ص ٢١٦.

(٣٣) الطبري: تاريخ، ج٨، ص٢١٣.

(٣٤) الطبري: المصدر السالف، تاريخ ،ج٨، ص ٢٣٤-ابن كثير: المصدر السالف ، ج١٠، ص١٦١-كحالة **الأعلام**، ج٢، ص١٧- حسن: **نساء**، ص٨٠- الموسوعة: ج٩،ص٧٨.

(٣٥) الطبري: المصدر السالف، ج٨، ص٢٣٨ – المسعودي: المصدر السالف،ج٣، ص ٣٣٧-ابن كثير: المصدر السالف،ج١٠، ص ١٦٤ – كحالة:**المرأة**، ص ٢١٦- الزركلي: **الأعلام**،ج٢، ص ٣٢٨ .

(٣٦) ابن كثير: المصدر السالف، ج١٠، ص١٦٤ .

(٣٧) ابن كثير: المصدر السالف، ج١٠، ص ١٦٤ –الموسوعة : ج٩، ص ٧٨.

العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في العصر الوسيط

الدكتور مبخوت بودواية
قسم التاريخ
جامعة تلمسان
الجزائر

مقدمة:

لقد كانت الروابط التجارية بين السودان الغربي وبلاد المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، تعود إلى أزمنة تاريخية قديمة، فقد كانت قوافل قرطاجة تقطع الصحراء لجلب الذهب والعبيد والعاج في مقابل المنسوجات والنحاس والأدوات المصنعة. وظل هذا التواصل قائماً في العصر اليوناني والروماني ثم البيزنطي(١)، وبعد الفتح الإسلامي للمغرب تولى سكانه تأمين أسواق السودان الكبرى وعملوا على تنظيم المواصلات مع بلاد السودان وعلى أساس تجاري، فكانت أهم الطرق التجارية في القرن الثامن تتجه باتجاه شمال –شرق وجنوب غرب منطقة من واحات مصر ومن جنوب إفريقية، نحو حلقة النيجر، وقد عرف القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر تكثيف المبادلات التجارية بين المنطقتين وستوضع الأسس الدائمة لها والمتمثلة في مقايضة الملح بالذهب(٢)، ولقد ظهرت هذه الطريقة على ما يبدو مع

الفاطميين الذي سيستغلون بانتظام علاقاتهم التجارية للحصول على الذهب الضروري لسياستهم عن طريق الطريق الرابط بين المغرب والأوسط والسودان الغربي في طريق سجلماسة تفادياً للطريق بين ورجلان – توات– السودان الذي كان بيد البيزنطيين.

أولاً– علاقة تيهرت الرستمية بالسودان الغربي:

لقد سمحت سياسة حسن الجوار التي كرسها الأئمة الرستميون مع جيرانهم دولة بني مدرار، والأغالبة، والأدارسة، والدولة الأموية بالأندلس، وحتى مع سكان بلاد السودان الغربي بإقامة علاقات اقتصادية طيبة وتفعيل الحركة التجارية في بلاد المغرب الإسلامي كله، لتصبح بذلك العاصمة تيهرت قطباً ومركزاً اقتصادياً هاماً ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة إلى غاية نهاية القرن الرابع الهجري. حيث أخذ فلول تيهرت ينطفئ(٣). وبفضل تلك الحركة الكبيرة صار المغرب الإسلامي يؤدي دوراً ريادياً في الحركة التجارية العالمية وذلك إلى غاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث تمكن الأوروبيون من اكتشاف طريق الأطلس من جهة، والمماليك الذين تمكنوا من جهة أخرى الاتصال بموارد الذهب عن طريق إفريقية الوسطى(٤).

وتشير كل المصادر التاريخية من جهة إلى الازدهار الاقتصادي الذي عمّ بلاد المغرب الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الثاني والقرن الثالث الهجري وبالخصوص في ربوع الدولة الرستمية.

ونتصور من خلال ما نقله ابن الصغير أن ذلك الازدهار الذي عاشته الدولة الرستمية كان سريعاً جداً إلى درجة أن العاصمة تيهرت انتقلت في ظرف زمني قصير بنحو ثلاث سنوات أو أكثر بقليل من قرية صغيرة تقبل التبرعات من إخوانهم الإباضية بالمشرق إلى مدينة غنية ومزدهرة وقوية يهابها الأعداء، وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال

إلا بالرخاء الاقتصادي الذي جاء بفضل تنشيط الزراعة وإعطاء دفع للحركة الصناعية وتفعيل حركة التجارة الداخلية والخارجية، قد نشطت التجارة بشكل ملفت للانتباه إذ أصبحت تيهرت قبلة للتجار من كل أقطار العالم الإسلامي بعد بضع سنوات تقريباً من تأسيسها فيذكر في هذا الصدد: "... فأقاموا على ذلك سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون"[٥].

ويفهم أيضاً من ابن الصغير أن الرخاء الذي كان قد شهدته تيهرت بخاصة والدول الرستمية بعامة جلب العديد من الأثرياء وكان نتيجة ذلك الاستقرار السياسي الذي سعى الأئمة الرستميون على توفيره بنشر سياسة التسامح بين أفراد المجتمع واتباع سياسة حسن الجوار مع الدول المجاورة، وعدل الإمام في رعيته كل هذه العناصر شجعت لممارسة التجارة جو ملائم[٦].

كانت تربط الدولة الرستمية بكل الدول المجاورة علاقات تجارية هامة ولكن علاقتها التجارية مع بلاد السودان الغربي كانت أقوى وأمتن[٧]. فموقع مدينة تيهرت الاستراتيجي سمح للدولة الرستمية من أن تؤدي دوراً بارزاً في التجارة العالمية فتحكمت في تجارة الذهب والعبيد ونشط بفضل ذلك المحوران جنوب – شمال، غرب– شرق، وقد جلبت شهرة تيهرت الاقتصادية العديد من التجار من كل بقاع العالم الإسلامي فيقول ابنه الصغير: "واستعملت السبل إلى بلدان السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة:"[٨].

وكانت القوافل تسلك ثلاث طرق نحو بلاد السودان الغربي أحدهما غربياً يمرّ بسجلماسة في اتجاه أودغست التي يصف البكري سكانها بأنهم من إفريقية ويتكون غالبيتهم من قبائل: برقجانة، ونفوسة، ولواثة، وزناتة، ونقزاوة البربرية[٩]، وهي القبائل التي كانت تشكل المجتمع الرستمي وغانا، وهكذا كان تجار تيهرت ينتقلون بسلعهم المختلفة بين أودغست وغانا، واستفادوا كذلك مما تقدمه الحركة التجارية بين

المنطقتين. والطريقان الآخران شرقيان، يمر الأول على مدينة وارجلان (ورقلة) في اتجاه كوكو، والثاني ينطلق من جبل نفوسة في اتجاه كوكو أيضاً مروراً بغدامس وتادمكة وفي اتجاه كواركانم مروراً بزويلة(١٠). وهكذا ساهم تجار تيهرت بشكل كبير في تفعيل الحركة التجارية نحو أدوغست وتنقلوا بينها وبين غانا، وكوكو، وغاو. ولقد كان ملوك بلاد السودان الغربي في حاجة ماسة إلى مادة الملح، لذا كانت هذه المادة هي الأساس في المبادلات التجارية إذ يتم بيعها بالمقايضة بالذهب أو العبيد(١١).

إضافة إلى الذهب كان الرستميون يستوردون من بلاد السودان الغربي الأحجار الثمينة والشبّ والعنبر وريش النعام وغير ذلك من المواد.

ولقد أولى التجار الرستميون اهتماماً بالغاً لتجارة العبيد فجلبوا عدداً كبيراً من هم إلى درجة أنهم صاروا يشكلون طبقة لا بأس بلها في المجتمع التيهرتي. كما لا نستبعد قيام هؤلاء التجار بتوزيع هذه البضاعة في الحواضر الإسلامية الأخرى خارج التراب الرستمي(١٢).

ولقد ظل هذا الاتصال غير منتظم مدة طويلة، إلى القرن العاشر الميلادي، حيث حدث تطور في هذا المجال لسببين هامين:

تمثل الأول في قطع الرحلات التي كانت تتم عبر محور شمال – شرق جنوب غرب، بين واحات مصر وجنوب تونس، وبين مصب نهر النيل (النيجر)(١٣)، لما كان التجار يعانونه من قسوة الظروف المناخية، وهجمات الأعراب على قوافلهم، أما الأمر الثاني: فيتمثل في تأسيس دولة المرابطين التي كان لها الفضل في إقامة علاقات جديدة بين منطقة غرب بلاد المغرب والصحراء الأمر الذي أدى بالمغاربة إلى التعرّف على بلاد السودان سنة ٤٨٠هـ/٩٨٧م. لقد نتج عن تغيير طرق الرحلات التجارية، وقيام دولة المرابطين، ظهور تبادل تجاري منتظم بين المناطق الغربية لبلاد المغرب الإسلامي وبين السودان الغربي، وقد أصبح المغرب الأوسط أهم منطقة لها علاقات

تجارية بممالك السودان الغربي خاصة في عهد دولة مالي الإسلامية، وسنغاي في عهد الإسيقيين. ومما ساعد على نمو الحركة التجارية بالمغرب الأوسط، وما حدث في تلك الأثناء من تأسيس المدن، مثل وتنس، وسوق إبراهيم، وسوق حمزة، ووهران، وجراوة، وسجلماسة(١٤)، التي كانت محطة هامة للتجار المغاربة ومنها يسيرون إلى غانا فيقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً، وهذا يدل على أن عامة بني واسول كانت محطة لتجمع القوافل التي كانت تتجه نحو بلاد السودان بالملح وغيره من السلع ثم يعود بالذهب وغير ذلك.

ثانياً- المسالك التجارية بين المعرب الأوسط والسودان الغربي في العهد الزياني:

لقد لعبت تلمسان دوراً بارزاً في الحركة التجارية نحو بلاد السودان لاسيما في العهد الموحدي(١٥)، بحكم موقعها الجغرافي وسبب وجود طرق مختصرة بينها وبين بلاد السودان، وعندما سقطت الدولة الموحدية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (١٣، ١٤م)، حلت المبادرات الخاصة محل المبادرات الرسمية في حماية التجارة التي بقيت نشطة عبر الصحراء رغم المشاكل المتعددة التي كانت تواجهها-(١٦).

وفي عهد دولة بني زيان كانت التجارة تتم عن طريق القوافل، ويذكر عبد الرحمن ابن خلدون أن القوافل التي كانت تمر على أيامه (أواخر القرن الرابع عشر الميلادي بالهقار)، كان عدد جمالها يبلغ اثني عشر ألف جمل في أحيان كثيرة، وكانت القوافل التجارية إلى السودان الغربي تخترق الصحراء من جميع جوانبها، أما اتجاهها فشمال إلى جنوب وبالعكس، وأهم المسالك التي كانت تربط بلاد المغرب الأوسط والسودان الغربي عديدة غير أن المشهور منها هي:

١- من سجلماسة، ينطلق إلى والاته، ومنها إلى تومبوكتو وجني وغاو.

٢- من تلمسان يمر هذا الطريق بغرداية وتوات[١٧] وينتهي إلى تومبوكتو.

٣- من تقرت وورقلة، ينطلق طريق آخر إلى غاو مباشرة، وهذا الطريق يتصل شمالاً ببضائع الموانئ الجزائرية الهامة في الشمال، مثل جزائر بن مزغنة، وبجاية وغيرهما.

٤- من واحة الجريد في جنوب تونس، ينطلق طريق تمر قوافله بورقلة، وسوف، وغدامس.

٥- من طرابلس الغرب على الساحل الليبي، ينطلق طريق يمر بغدامس، ويمر فرع منه بفزان، وينتهي إلى بورنو وغاو.

٦- وينطلق من مصر طريق بواحة سيوة، وبزويلة، وتادمكة، وينتهي في غاو تومبوكتو.

وكانت هناك مسالك أخرى هامة تربط توات بجنوب الصحراء وبلاد السودان الغربي، فكانت تربط توات، انطلاقاً من تيدكلت بأهم المراكز التجارية على نهر النيجر، وأهم المسالك التي بقيت مستعملة من طرف القوافل إلى نهاية القرن التاسع عشر مسلكان: مسلك يربد أقبلي بتومبوكتو (حوالي ١٤٠٠ كلم) وكان هذا المسالك يتوفر على المصادر المائية والكلأ للدواب والمؤن للرحالة خلال مراحل الرحلة.

أما المسلك الثاني فيربط مجموعتي قصور عين صالح وأقبلي، بالمراكز التجارية في الضفة الشرقية لنهر النيجر ومركزي كانو، وكوكا، ويمر هذا المسلك بمرتفعات تاسيلي عبر أدغاغ وكانت هناك مسالك أخرى تربط توات بمراكز الشمال ومنها[١٨]:

- مسلك عين صالح – غدامس: يقع في اتجاه الشمال الشرقي بالنسبة لتوات، وتكمن أهمية غدامس في انفتاحها على تجارة البحر الأبيض المتوسط عبر طرابلس، وقابس، وتونس. وطرابلس كانت أهم نهاية في هذا المسلك حيث

كانت على اتصال دائم بغدامس التي تقتني منها البضائع السودانية التي تتصرف فيها بعد ذلك في مالطا والمدن الإيطالية.

- مسلك توات وسط المغرب الأوسط وشرقه: ترتبط توات بوسط المغرب الأوسط وشرقه بعدة مسالك تقع شرقي العرق الكبير الغربي، ومن أهم هذه المسالك المسلك الذي يربط توات بغرداية جنوب التل الصحراوي. حيث تعدّ المنيعة أهم نقطة فيه.
- مسلك توات – جنوب المغرب الأوسط.

وهذا المسلك يرتبط بين جنوب وهران ويمر بفجيج فتفيلالت ويعدّ هذا المسلك أهم مسلك يصل توات بالشمال. فإذا كانت المسالك الأخرى عبارة عن نقط مائية متباعدة فإن هذا المسلك تشكله في الواقع واحات متصلة من زاوية الرقان (آخر واحة في جنوب توات) إلى قصر إيغلي وادي وادي زوزفانة وقير[١٩].

أما الطرق التجارية بين تلمسان الزيانية وبلاد السودان فكانت تنطلق من تلمسان فتتجه غرباً نحو فاس ومن هناك تأخذ طريقها إلى سجلماسة نحو بلاد السودان فتقطع رحلاتها على ثلاث مراحل كبرى هي:

المرحلة الأولى تنتهي عند سلجماسة أو توات أو عين صالح ويربط بين كل محطة من هذه المحطات وبين تلمسان طريق، وأهم هذه الطرق: طريق تلمسان – سجلماسة الذي ينقسم بدوره إلى فرعين.

الأول يصل بين تلمسان ومدينة وجدة ليصل إلى منطقة تازة عبر تاوريرت، وجرسيف إلى فاس، ثم يقطع بعض المدن في الجنوب ومنها تادلا، وأغمات، وريكة، ودرعة، ثم سجلماسة.

أما الفرع الثاني فكان يربط تلمسان بوجدة ثم بجبيل تامريت وينتهي إلـى سجلماسة ويلتقي الفرعان في سجلماسة وتبلغ المسافة بينها وبين عاصمة الدولة الزيانية حوالي عشر مراحل(٢٠) طريق تلمسان توات:

١- فرع يشق، عين الصفراء، تيوت، وادي الناموس، وينتهي في شبه خط مستقيم عند سبخة كورارة.

٢- فرع ثاني يتجه إلى سبدو، ويعبر قصر بوسمغوون، إلى تيميمون.

٣- فرع ثالث يمر عبر قصر الأبيض، سيدي الشيخ، إلى تيميمون(٢١).

أما المرحلة الثانية فكانت تتمثل في الطرق التي تربط سجلماسة، وتوات، وعين صالح نحو بلاد السودان الغربي، فمن سجلماسة إلى تغازا مدينة مناجم الملح، ثم إلى إيولاتن بداية بلاد السودان.

أما المرحلة الثالثة: فتمتد الطرقات في داخل بلاد السودان من إيولاتن تسير القوافل إلى زاغارا، ثم بلد أرسو من مملكة مالي(٢٢).

ثالثاً- نظام سير القوافل:

كان انطلاق القافلة محدد الزمان والمكان، فكان تجار يحددون طريق سفرهم لمدة شهرين فيختارون المسلك الذي تتخلله بعض المراعي، وتنتشر على طول الآبار وكان المسافرون يعتمدون على الجمل لسد حاجياتهم من الغذاء فيأكلون لحمه ويشربون لبنه. وكان المسافرون يكترون دليلاً يسمى التكشيف، يقود القافلة كي لا تضيع ويعرف أماكن الآبار والمسالك الآمنة، وكان أغلب المرشدين من قبيلة مسوفة، وان الدليل يؤجّر بأثمان مرتفعة فقد أجّر ابن بطوطة دليلاً من تغازي إلى إيولاتن بمائة مثقال من الذهب، كما كان ملوك تومبوكتو يدفعون ٧٣٠٠ مثقال من الذهب لحماية رسلهم إلى سجلماسة(٢٣).

كانت القافلة تضم مجموعة من التجار يخضعون لنظام خاص كان على رأسها رئيس، يبدو أن القوافل كانت تسير في الشمال في فصول الربيع والصيف والخريف. وأما في الجنوب (الصحراء) فيذكر الإدريسي أن: "هذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف"(٢٤)، وكان المسافرون فيها يوقرون جمالهم في السحر الأخير ويمشون إلى أن يشتد الحر فيحطون أحمالهم ويقيدون جمالهم ثم يخيّمون على أنفسهم ظلالاً تقيهم الحر. وتواصل القافلة مسيرتها بعد العصر وتسير جزءاً كبيراً من الليل ثم تتوقف لتأخذ قسطاً من الراحة، وتستأنف رحلتها عند آخر الليل حتى ترتفع درجة الحرارة، فتتوقف مرة أخرى. وكان يتراوح متوسط سرعة القافلة في الصحراء بين ثلاثة وأربعة كيلومترات في الساعة الواحدة، كانت تقطع القافلة ما بين خمسة وثلاثين وأربعين كيلومتراً بمعدل عشر ساعات سيراً في اليوم(٢٥).

ولقد كان يتعرض التجار أثناء رحلاتهم لعدة أخطار:

- **ندرة الماء:** كان المسافر في الصحراء يختار الطريق الذي يتوفر فيه الماء على مسافات متقاربة وكان حسن الوزان قد ذكر: أن بعض الدروب التجارية لم تكن تتوفر على منابع الماء كالخط بين إيولاتن، وتومبوكتو، فلا يوجد إلا بعد مائة أو مائتي ميل، وكذلك الطريق الرابط بين سجلماسة، وتومبوكتو، وكان المسافرون يلجؤون إلى شراء الماء.
- **قطاع الطرق:** كان التجار يتعرضون لمضايقات قطاع الطرق، الذين كانوا ينشطون في المناطق الشمالية خاصة في فصل الشتاء، فمثلاً في الطريق الرابط بين تلمسان، وفاس، كان يكثر فيه قطاع الطرق أغلبهم من الأعراب، وكان ملوك بني عبد الواد يدفعون أموالاً، ويقدمون هدايا كثيرة للقبائل العربية وغير العربية المنتشرة حول طرق القوافل المتجهة نحو الغرب وإلى الجنوب لحراسة الطرق ومهما كانت الجهود التي تبذلها الدولة القائمة لتوفير

الأمن والضرب على أيدي قطاع الطرق إلا أن هذا الأمر صعب التحقيق لطول المسافات وطبيعة المجتمع القبلي، فلا يخلو الأمر من وجود بعض أفراد القبيلة يعشقون الغزو والنهب والسلب.

ولقد كان المسافرون يعتمدون على أنفسهم في حماية قوافلهم بعدة وسائل منها حمل السلاح، والاستعانة ببعض الحراس المسلحين، إلى جانب ذلك كانوا يدفعون أموالاً لشيوخ القبائل التي تعيش في المناطق التي يمرون بها.

ولقد قامت الدولة الزيانية ببناء أبراج المراقبة في النقاط الاستراتيجية من الطرق الشمالية. وكان قد وفّر ملوك مالي، أيضاً الأمن طوال القرن الرابع عشر الميلادي، وهذا بشهادة ابن بطوطة عند رحلته نحو بلاد السودان الذي قال: "فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً أو غاصباً"(٢٦).

رابعاً- المكاييل والموازين والمقاييس المستعملة في المغرب الأوسط والسودان الغربي:

كانت المكاييل والمقاييس المستعملة في المغرب الأوسط والسودان الغربي لا تختلف عن تلك التي كانت موجودة في بقية أنحاء البلاد الإسلامية أو هي مأخوذة عنها ورغم شح المصادر والمكاييل في إعطاء تفصيلات كافية بالسودان الغربي.

* المقاييس والموازين والمكاييل المستعملة بالسودان الغربي:

المقاييس والموازين والمكاييل المستعملة بالسودان الغربي كانت على النحو التالي:

أ- **المقاييس:** كانت المقاييس التي تعارف عليها الناس في مملكة سنغاي بالسودان الغربي وتعاملوا على أساسها(٢٧).

١- **الشبر**: ويساوي الامتداد ما بين الخنصر والإبهام ويساوي تقريباً ٢٣ سنتمتر[٢٨].

٢- **الذراع**: وهو الامتداد ما بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى ويساوي حوالي ٥٠ سم تقريباً.

٣- **الميل**: هو يستعمل في قياس المسافات بصورة خاصة وقد قدر بـ ١٩٢٠ متراً بالتقريب.

٤- الفرسخ: كانت الفرسخ تقاس به المسافات الطويلة وكان يساوي ثلاثة أميال، أي ١٩٢٠×٣= ٥٧٦٠متراً.

ب- **الموازين**: أهم الموازين المتعارف عليها هي:

١- **المثقال**: وكان يعادل وزن ٧٢ من حبات القمح المتوسطة الحجم.

٢- **الدرهم**: وهو يساوي ٧ أعشار الدينار والدينار يساوي ٤٠ درهما.

٣- **الأوقية**: وهي تساوي حوالي ٢٧,٥ غ تقريباً[٢٩].

جـ- **المكاييل**: كانت المكاييل ببلاد السودان عامة وبلاد سنغاي خاصة كالآتي:

١- **المد**: وكان يساوي سعة أربعة ألواح بمجمع اليدين وقدر بـ ٠,٧٥سل بالتقريب.

٢- **الصاع**: وهو يساوي أربعة أضعاف المد أي ما يعادل ثلاثة ليترات تقريباً.

٣- **القنطار**: لقد قدر حسب دائرة المعارف الإسلامية بـ ١٠٠ رطل[٣٠].

٤- **المودي**: وهو يساوي ما يحمله الرجل من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد(٣١).

* المكاييل والموازين والمقاييس المستعملة في المغرب الأوسط:

أ- **الموازين**: تختلف الموازين التي استخدمها سكان المغرب من منطقة إلى أخرى وهي تعتمد في بعض الأحيان على العرف وقد شاع منها:

١- **المثقال**: يعدّ أقدم وحدة للوزن عند العرب، ويقدر المثقال الشرعي بوزن ٧٢ حبة من الشعير المتوسط الحجم(٣٢).

٢- **الدرهم**: كان وزن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه ٤٠ درهماً، وهو على ذلك ٧ أعشار الدينار.

٣- **الأوقية**: وهي تزن ٧ مثاقيل أي حوالي ٢٩,٧٥ غراماً أي ٤,٢٥ غرام (وزن المثقال الواحد × ٧=٢٩,٧٥).

٤- **القيراط**: أصله قراط، ويقدر بنصف دانق، قيمته نصف عشر الدينار.

٥- **الحبة**: كانت الحبة تمثل ٦٠/١ من وزن وحدة الوزن المستعملة أي عشر دانق وهي وزن حبة القمح أو الشعير متوسط الحجم(٣٣)، وتختلف حسب وحدة الوزن المستعملة، فهناك وزن حبة الفضة، وحبة الذهب، وحبة المثقال وحبة الزن الدرهم.

ب- **المكاييل**: كانت المكاييل المستعملة في أسواق المغرب الأوسط هي:

١- **الصاع**: يستعمل لكيل الحبوب ويساوي الصاع الشرعي أربعة أمداد ويختلف حجم الصاع المستعمل في الكيل التجاري من مكان إلى آخر،

ولقد أشار العقباني أن صاحاً كان يستعمل قديماً في تلمسان (يعرف بالتاشفين) عوض بصاع أكبر كان يستعمل في زمانه يعرف بوهران[٣٤].

٢- **المد**: يختلف المد المستعمل في الكيل التجاري من مكان إلى آخر، وهو عند بنو زيان ستون برشالة.

٣- **البرشالة**: كانت تستعمل في كيل الحبوب، وكانت تزن ثلاثة عشرة رطلاً.

٤- **الرطل**: يوزن ويكال، ويقدّر باثنتي عشرة أوقية وقدّر أيام البكري في القرن الخامس للهجري (الحادي عشر الميلادي) باثنتين وعشرين أوقية وفي القرن العاشر للهجري قدّره حسن الوزان بحوالي ٣٤٠ غراماً.

٥- **القنطار**: وهو معيار وزن الذهب أو الفضة وهو يختلف وزنه من مكان إلى آخر.

جـ- **المقاييس**: كانت المساحات في المغرب الأوسط تقاس بالوحدات التالية:

١- **العرصة**: وطول ضلعها خمسة وعشرون ذراعاً.

٢- **المرجع**: وطول ضلعها خمسون ذراعاً.

٣- **الصنج**: ويقدر بمائة مرجع، ويقدر تقريباً أحد عشر هكتاراً.

خامساً- السلع والبضائع المتبادلة بين الإقليمين:

لقد ارتبطت الرحلات التجارية بين عالمين تجاريين هي: العالم العربي الإسلامي والسودان الغربي، وقد كان للمغرب الأوسط دور هام في هذه الرحلات التجارية؛ فقد أدرك حكّام الدولة العبد الوادية، أهمية التبادل التجاري منذ وقت مبكر[٣٥]، لاعتقادهم

أن ثروة الدولة تكمن في امتلاك أكبر كمية من الذهب، فقد حاول الأمير بغمراسن (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٥-١٢٨٣م)، الاستيلاء على مدينة سجلماسة محطة القوافل وبوابة السودان الغربي وقد استولى عليها سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٢٤م، لفترة قصيرة.

ولقد ارتبط سلاطين بني زيان بعلاقات ودية مع سلاطين كانم، وبرنو، وسنغاي، ومالي. وتبادلوا معهم الهدايا والرسائل، وكانت العلاقات متصلة عبر الطرق التجارية، كما ذكرنا من قبل، فقد راسلوا ملوك مالي، كما ارتبط هلال القطلاني، حاجب أبي تاشفين الأول، بالصداقة مع منسا موسى سلطان مالي ٧٠٧-٧١٢هـ/١٣٠٧-١٣٢١م، ٧٣٥هـ/١٣٣٧م، عندما التقى به في موسم الحج.

ولقد تجسدت العلاقات التجارية بين الإقليمين (السودان الغربي والمغرب الأوسط) في تأسيس الأخوة المقري الخمسة لشركة تجارية وتعاملوا مباشرة مع سلاطين مالي. فقد قام الإخوة بتنظيم المبادلات التجارية بين المغرب الأوسط وممالك بلاد السودان الغربي، فقد مهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلاً للرحيل، وراية ترفع عند المسير[٣٦]. لقد اشتغل الأخوة المقري الخمسة بأهم مدن السودان الغربي التجارية، فكان أبو بكر ومحمد بتلمسان في مرسى هنين، يستلمان السلع المستوردة من بلاد الأندلس وأوروبة[٣٧]. وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد، وعلي وهما شقيقاهما الصغيران "بإوالاتن[٣٨]. فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط[٣٩]، والديار وتزوجوا النساء، واستولدوا الإماء..."[٤٠]. وكان الشقيقان الصغيران يقومان بوضع الاتصال بين الأسواق السودانية والمغربية ويبلغان الأخبار عن أسعار السلع، وقد ذكر لنا ذلك المقري وقال: "وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم.."[٤١].

إلى جانب أسرة المقري، اشتهرت تلمسانية أخرى بالتجارة مع بلاد السودان، مثل عائلة العقباني وعائلة المرازقة، وكانت لها علاقات طيبة مع سلاطين الدولة العبد الوادية وسلاطين الممالك السودانية الذي شجعوها على ممارسة التجارة في بلادهم، وقد التقى ابن بطوطة أثناء رحلته، بعدد من التجار التلمسانيين كانوا يقيمون بمالي ذكر منهم محمد ابن الجزولي وصهره الفقيه المقري عبد الواحد شمس الدين بن الفقويش[٤٢]، والشيخ اللبان التلمساني، الذي كان مقرباً من منسى سليمان (١٣٤١، ١٣٦٠م).

وقد استمرت الحركة التجارية نشطة بين بلاد المغرب الأوسط وبين بلاد السودان رغم الأزمة التي عرفتها في القرن الرابع عشر والمنمثلة في تحقيق سلاطين مالي الوحدة السياسية للسودان الغربي الذين سيعملون على الانفلات من قبضة الاحتكار المغاربي[٤٣].

ولقد لعب العرب المقيمون بالمغرب الأوسط من ذوي عبيد الله، من عرب المعقل، وابن عامر يمارسون التجارة مع بلاد السودان فكان ذوو عبيد الله يقومون برحلة، في شتاء كل سنة، من بلادهم الواقعة جنوب تلمسان، فيأخذون محور تلمسان توات والسودان الغربي، ولقد ازدهرت الحركة التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد مملكة سنغاي التي أصبح ملوكها يهيئون الظروف الملائمة لاستقبال التجار ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم، وما ذلك إلا للأهمية الاقتصادية والحضارية التي كانت تنتج عن مجيء التجار بأعداد كبيرة إلى مملكة سنغاي خاصة في عهد الاسقيا الحاج محمد الأول (١٤٩٣هـ/١٥٢٨م)[٤٤].

كانت السلع تعبر الطرق التجارية (الصحراوية) في اتجاهين، من الشمال (المغرب الأوسط) إلى الجنوب (السودان الغربي)، ومن أهم صادرات المغرب الأوسط مواد فلاحية زراعية منها أو حيوانية، ومنسوجات وبعض الصناعات الحرفية.

١- المواد الزراعية:

القمح:

لقد جعلت الظروف الطبيعية من تضاريس ومناخ للمغرب الأوسط وجود إنتاج وفير من الحبوب (القمح) على عكس السودان الغربي الذي كان يفتقد إلى هذه الظروف، فلم يكن القمح غذاءً منتشراً بين الفئات الاجتماعية كلها، بل كان يستهلكه الأثرياء من سلاطين وتجار وغرباء[٤٥]، لأن ثمنه مرتفع وقد بيع في القرن الرابع عشر بمدينة تاكدة، بحساب عشرين مداً من أمدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلاد المغرب[٤٦].

كما كان يصدر المغرب الأوسط نحو السودان الغربي التين المجفف الذي يكثر استهلاكه في بلاد السودان إلى جانب الزبيب وعين البقرة. وقد اشتهرت تلمسان بهذا النوع من الفواكه في تلك الفترة وكان سعرها مماثلاً لسعر القمح أما التمر فكان يصدر بكميات كبيرة نحو ممالك السودان الغربي فيذكر صاحب الفتاش أنه في سنة ١٥٩٤ كان يباع في سوق تومبوكتو كل عشر تمرات من تمر بسكرة، بخمس ودعات[٤٧].

٢- المواد الصناعية:

كانت الأقمشة يصنع قسم منها ببلاد سنغاي، أما القسم الآخر فكان يجلب من بلاد المغرب ومن أوروبة عبر مراسي المغرب، حيث إن التجار الإيطاليين كانوا يردون خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على بلاد الشمال الإفريقي فيبيعون بضائع عدة على رأسها الأقمشة، وكان قسم هام منها يصدر إلى السودان الغربي[٤٨].

وكانت الأقمشة التي تصدر إلى السودان الغربي على نوعين منها التي تصنع في تلمسان، كالمنسوجات الصوفية ويحاك منها البرنس والزربية والكساء، ونسيج القطن حتى أصبح معظم لباس سكان السودان الغربي أيام الأسقيين من الأقمشة القطنية.

وقد اختصت الطبقة الحاكمة في تلك الفترة بنوع من القماش كان يصنع في تلمسان وكانت لحمته من الحرير الطبيعي وسداه من القطن وكان يستعمله التجار والقضاة والأغنياء وكفّنوا به موتاهم(٤٩).

وكانت أسعار الأقمشة في القرن السادس عشر لسنغاي:

- قطعة من ذراع وستة أشبار (ملونة أو بيضاء) تساوي مثقالاً واحداً من الذهب.
- القطعة من أقمشة فارس أو المشرق، قياسها ثمانية أشبار كان سعرها مثقالاً واحداً كذلك(٥٠). وكانت ترد على أسواق السودان الغربي بضائع مصنعة أخرى من أسواق المغرب الإسلامي أو من أوروبة عبر الموانئ المغربية كالأسلحة(٥١) المختلفة للدفاع ولتسليح القوات المحلية كالدروع، والخوذ، والخناجر، والسهام، والتروس، وأقواس النشاب، والبنادق، والسروج والألجمة، والمهاميز وأدوات حديدية أخرى كالقدور، والأمواس، والسكاكين، والإبر، والأواني المنزلية، وأدوات الزينة الجلدية والنحاسية، والنحاس الأصفر، والنحاس العادي، سواء على شكل سبائك، وصفائح، وقوالب، وأسلاك نحاس والكحل، والكبريت، ومعظم هذه الأدوات كانت تأتي من أوروبة وخاصة الجمهوريات الإيطالية(٥٢).

وكانت تشكل العطور نسبة هامة من المواد التي تصدر إلى بلاد السودان الغربي، حيث سيقبل عليها السكان فيشترونها بأثمان مرتفعة، ويجني التجار منها أرباحاً كبيرة، وكان يستعملها في الغالب السلاطين والقضاة والوجهاء والأثرياء الذي كانوا يعطّرون أجسامهم وثيابهم، إذ عزموا على الخروج إلى أماكن العامة، وكانت تشتريها العامة أيضاً خاصة النساء وكانت ترد هذه المنتجات إلى السودان الغربي من أوروبة عن

طريق المغرب الإسلامي خاصة تلمسان التي كانت تصنع بدورها أنواعاً جيدة تستخرج من نبات الخزامى الذي يكثر بها.

وكان التجار يأتون بالعقاقير من مختلف أنحاء بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين وأوروبة ومن تلمسان كانت تأخذ ريقها إلى السودان.

٣- المعادن:

أ- معدن النحاس:

كان النحاس قليلاً ببلاد السودان الغربي، إذ كان يستخرج فقط من مدينة تاكدة(٥٣) ولقد لعب التجار المغاربة دوراً كبيراً في توفير هذه المادة وتزويد بعض الحرفيين الذين يشتغلون بتصنيع النحاس(٥٤) في سنغاي كانت مادة النحاس تمر عبر واحات توات، لتصل إلى أسواق السودان الغربي.

ب- الذهب:

لعل أهم السلع المجلوبة هي مادة الذهب التي كانت تتوفر بغاو، وأدوغست، وغانة، ونقاوة... كانت تجلب هذه المادة على أشكال مختلفة: تبرا، وسبائك، وقطعاً نقدية(٥٥).

ولقد وصف الإدريسي قصر أحد ملوك السودان الغربي المسمى صالح بن عبد الله من أحفاد الإمام علي ابن أبي طالب كرّم الله وجهه، والذي بنى بالتحديد سنة ٥١٠هـ، وبعد وصفه للقصر يقول عن الذهب: "إن له في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلاً من ذهب تبرة واحدة خلقها الله تعالى خلقة تامة من غير أن تسك في نار، أو تطرق بآلة، وقد نقر فيها ثقب وهي مربط لفرس الملك، وهي من الأشياء المغرية التي ليست عند غيره، ولا صحت لأحد إلا له، وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان"(٥٦).

كما يصف البكري مجلس ملك غانة وكيفية تحليه بالذهب إذ يقول: وملكهم يتحلى بحلى النساء في العنق، والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة... ويقول: "إن وراء الملك عشرة من الغلمان يحملون السيوف المحلاة بالذهب"(٥٧).

لقد جازف التجار – وسط الصحراء المترامية الأطراف بما فيها دروب وطرق صعبة وحرارة قاسية وانعدام المياه – وراحوا يبحثون عن مواطن الذهب من أجل اقتناء أكبر كمية ممكنة منه والذي كان نادراً في المغرب وأوروبة وبيعه بأسواق الشمال خاصة المغرب الأوسط وتلمسان، ووهران، هنين...، وكان التجار الأوروبيون من فلورنسا وجينوة، والبندقية، وميورقة، وبرشلونة يأتون بمختلف السلع والبضائع لبيعها واقتناء الذهب.

وما يستنتج أن ذهب السودان الغربي يغذي حاجة عالم البحر الأبيض المتوسط من الذهب بما يقدر بالنصف وكان يصدر قسم كبير منه إما تبراً أو مصنوعاً على شكل خيوط دقيقة، وكان ينقل على ظهر الجمال وقوافل البربر عبر الصحراء إلى بلاد المغرب(٥٨).

جـ- الملح:

كان الملح يأتي في الدرجة الثانية بعد الذهب هذه المادة أساسية في المبادلات التجارية المغاربية السودانية، وقد أشار ابن بطوطة إلى قيمته النقدية في السودان الغربي، "وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به"(٥٩).

ويقول حسن الوزان عنه: "يستخرج من المناجم بحفر سراديب كما يفعل بالرخام ومنه الرمادي والأبيض والأحمر، ويكثر جداً في بلاد البربر ولا وجود له في بلاد

السودان، خصوصاً في إثيوبيا السفلى... ويجمد الملح في الصيف في بعض البحيرات الصغيرة والغدران ببلاد البربر"(٦٠).

كانت مادة الملح تباع بأثمان مرتفعة في السودان الغربي ووقعت مقايضتها بالذهب، وقد أشار ابن بطوطة إلى أن السودانيين كانوا يتزودون بعد عودتهم من تجارتهم بالشمال من ممالح تغازة، لبيعها ببلادهم، فكانت تغازة أكبر منطقة منتجة للملح المصدر إلى بلاد السودان، "وكان يتعامل فيها بالقناطر من التبر"(٦١)، ولقد تراوح سعره ببلاد السودان بين الارتفاع والانخفاض فقد كان حمل من الملح في القرن العاشر الميلادي الذي بلغ في "دواخل بلد السودان وأقاصيه بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار"(٦٢)، وقد أشار ابن بطوطة إلى ثمنه في القرن الرابع عشر "حيث يباع الحمل منه بإيوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً"(٦٣).

د- العبيد:

كان التجار المغاربة يجلبون العبيد نحو المدن الشمالية (المغرب الإسلامي) أكبر أسواق النخاسة التي كانت تنتشر بالسودان الغربي ومن أشهر هذه الأسواق سوق مدينة غاو التي كان بها سوق من أكبر أسواق النخاسة، ولقد كانت حواضر المغرب الإسلامي، تلمسان تونس، طرابلس، فاس... بحاجة إلى العبيد المجلوبين من السودان، فكان العبيد يستخدمون في ميادين مختلفة مثل صناعة واستخراج المناجم كالملح، والنحاس، والزراعة التي كانت تحتاج إلى الأيدي العاملة، وكان العبيد يستعملون في نقل بضائع التجار وحراسة القوافل، ويعملون في القصور وفي الجيش وفي حراسة الملوك.

أما عن ثمن شرائهم فإنه يختلف حسب الأزمان، وحسب الأعمار فالشاب القوي أغلى من الضعيف وكانت أسعار العبيد تختلف من سوق لأخرى، فيذكر ابن بطوطة أنه اشترى بتكدة خادماً بخمسة وعشرين مثقالاً من الذهب(٦٤).

كما بيعت طباخة بمائة قطعة ذهبية في القرن الثاني عشر الميلادي، وبيعت أربعة إيماء في عهد الأمير أبي فارس الحفصي (٧٧٩-٨٣٨هـ/١٣٩٣-١٤٣٤م)، بأربعين دينار[٦٥]، وبيعت بنت شابة في الخامسة عشرة من عمرها، في بداية القرن السادس عشر الميلادي بأسواق غاو بحوالي ست أوقيات من الذهب، وكان الشبان يباعون بنفس الأسعار تقريباً[٦٦]. ولقد بلغ سعر العبد بالدولة الزيانية عشرين ديناراً والأنثى خمسة وعشرين ديناراً.

فكانت تختلف أسعار العبيد حسب تقلبات قانون العرض والطلب، وقد أشار ابن بطوطة إلى غلاء ثمن المعلومات من الخدم وذلك لندرتهن في الأسواق، ولم يكن استرقاق مرتبطاً باللون الأسود، حيث شاهد ابن بطوطة عند أحد الأمراء السودانيين بمدينة توجد شرق تومبوكتو جارية له دمشقية عربية.

لقد كان معظم العبيد الذين يباعون في الأسواق السودانية يجلبون من مناطق الغابات الجنوبية الوثنية إلا أن أعداداً كبيرة منهم أيضاً كانت من ممتلكات السكان العادية.

ومن بين البضائع التي كانت ترد إلى أسواق الشمال خاصة أسواق بني عبد الواد كانت:

١- ريش النعام:

كان لريش النعام رواج كبير في الأسواق حيث إنه كانت تحشى به الأرائك والمخاد في البيوتات والقاعات، كما تتخذ منه مراوح للتهوية أو للزينة، كان تجار المغرب الأوسط يجلبون منه كميات كبيرة من أسواق السودان.

بيض النعام:

كان بيض النعام يتخذ من محه أحد العناصر الهامة في تركيب الأدوية فكانت أثمانه في الأسواق مرتفعة...[٦٧].

٢- العاج:

يعد العاج من البضائع التي وجدت رواجاً كبيراً في أسواق بني عبد الواد التـــي كـــان التجار يجلبون إليها أجود الأنواع بكميات كبيرة.

وكانت تجلب هذه المادة من مناطق الغابات الجنوبية للسودان الغربي حيث يعيش الفيل ووحيد القرن.

وكانت مادة العاج تستعمل في ميادين كثيرة مثل الترصيع[٦٨]، وفي حشوات المنـــابر ويدخل في صناعة الأثاث الفخم، وكان يقبل على شرائه الأوروبيون لاســتعماله فـــي صناعة تحف المعابد والتماثيل، والعصي.

الهوامش

(١) Djehan désangles, remarques critiques sur Hypothèse d'une importation de For [1] africain dans le mande phénico- punique in actes du deuxième congres inter rational d'étude des cultures de la méditerranée occidentale II SNED, Alger, 1978 PP.52.57.

(٢) محمد الشريف، **ابن بطوطة وأزمة التجارة الصحراوية في القرن الرابع عشر**، منشورات مدرسة فهد العليا للترجمة، طنجة ١٩٩٣، ص ١٢٨.

(٣) معروف بلحاح وآخرون، **كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط**، مطبعة الديوان، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٦٦.

(٤) عبد القادر جغلول، **مقدمات في تاريخ المغرب القديم والوسيط**، تـر. فـضيلة الحكيم، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٨٢-٨٨.

(٥) ابن الصغير (كان حياً في أواخر القرن ٣ هـ)، **تاريخ الأئمة الرستمية**، ص٣١، نفسه، ص ٣١-٣٢.

(٦) نفسه، ص ٣١-٣٢.

(٧) معروف بلحاج، مبخوت بوداوية، عبد الحميد حاجيات، **كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر**، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٨) جودت عبد الكريم يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية الوطنية للكتاب**، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٢٩٢.

(٩) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣٢.

(١٠) البكري (أبو عبد الله)، المغرب في **ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، مطبعة الحكومة، الجزائر، ١٨٥٧، ص ١٥٨.

(١١) إبراهيم بهاز، **الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، ط ح، المطبعة العربية، غرادية ١٩٩٣، ص ٢١٠-٢٢٣.

(١٢) **كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر**، مرجع سابق، ص ٧٣.

(١٣) Lombard (M), L'islam dans sa premiere grandeur 1971 P 223.

(١٤) سجلماسة مدينة قديمة، ترجع بعض الروايات بنائها إلى أحد الضباط الرومان، الذي قدم من موريتانيا واستولى على نوميديا بأكملها وزحف بجنوده حتى وصل إلى المكان الذي يعتبر مدخل نهر زيز إلى هذا الإقليم وبنى مدينة "ماسة"، ثم سماها "سجلماسة" التي تعني في اللغة اللاتينية "خاتم النصر"، تقع مدينة سجلماسة في سهل بجانب نهر زيز، ولها أسوار عالية وجميلة ما زالت آثارها قائمة. كانت هذه المدينة زناتية قبل أن يستولي عليها يوسف بن تاشفين، وكانت غنية، انظر مارمول كاربخال، **إفريقيا الجزء الأول والثاني والثالث**، ترجمة حاجي وآخرون مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٤، إفريقية، ص ١٥٣-١٥٤.

وقال ابن سعيد عن سجلماسة وخيرها ما يلي: "وهي كثيرة العمارة كثيرة البستاني، رائعة البقاع، ذات منازل رفيعة، وعمارات متصلة، على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء، ويزيد في الصيف كزيادة النيل، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع عليه كثير الإصابة، انظر القلقشندي، (أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج٥، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٦٣-١٦٤.

(١٥)عبد الحميد حاجيات، **المسالك والدروب في المغرب الأوسط**، المحلة العربية للثقافة عدد ٥ سبتمبر ١٩٨٣، الألسكو، تونس.

(١٦) Peres, les relations entre le ta filet et le soudan, mélanges Emile Félix Gautier tours 1937

(١٧) لقد كانت تتشكل توات من عدة واحات تمتد على هيئة شريط تتوزع فيه القصور والبقع المزروعة على مسافات تقل أو تقصر حسب كثافة الواحات، ويمكن قطع المساقة بين قصر وآخر في أقل من يوم وفي أقصى الحالات في ثلاثة أيام، فكانت واحات توات تشكل في الواقع مراحل تتوفر فيها كل أسباب العيش للقوافل التجارية.

(١٨) محمد أعفيف، **المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب وإفريقية الغربية**، منشورات عكاظ، الرباط، ص ٥٤-٥٨.

(١٩) نفس المرجع، ص ٥٨-٥٩.

(٢٠) لطيفة بن عميرة، **الرحلة التجارية بين تلمسان وممالك بلاد السودان الغربي**، حولية المؤرخ، العدد ٥، جوان ٢٠٠٥، ص ٨٤.

(٢١) محمد أعفيف، المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢٢) لطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص ٨٤.

(٢٣) جودت عبد الكريم، يوسف، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجريين** (٩-١٠م)، ص ٢١٢. انظر أيضاً لطيفة بن عميرة، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢٤) جودت عبد الكريم، مرجع سابق، ص٢١٣.

(٢٥) بشارى لطيفة، **التجارة الخارجية لإمارة بني زيان**، المرجع السابق، ص ٩٧، انظر أيضاً، لطيفة بن عميرة، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢٦) لطيفة بن عميرة، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢٧) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ١٩٨، انظر مبروك مقدم، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ج١، دار الغرب وهران، ٢٠٠٢، ص ٢١٥. انظر أيضاً الشيخ الأمين عوض الله، **تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ص٩٢-٩٣.

(٢٨) الوزان (حسن بن محمد)، **وصف إفريقية**، تحقيق محمد حجي، ج٢، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٩.

(٢٩) زبادية عبد القادر سنغاي، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٣٠) **دائرة المعارف الإسلامية**، ج٢، ١٩٢٧، ص ١٠٨١. انظر زبادية، ص ١٩٩.

(٣١) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص ٩٣.

(٣٢) ابن خلدون (عبد الرحمن)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم...**، ج٧، دار العلم، بيروت، لبنان، ص ٣٢٢.

(٣٣) انظر أيضاً: DHINA, le royaume Abdelouadide a les poque d'Abou - hammou moussa 1 er et d'Abou - tachefm 1 er Alger 1985 P 171.

(٣٤) العقباني التلمساني، **كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق على سنوفي، ص ٢٣٦.

(٣٥) سيد أحمد العراقي، **تجارة القوافل بين الشمال وغرب إفريقية وأثرها الحضاري**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٩٨٤، ص ١٤٧-١٤٨.

(٣٦) المقري (أحمد بن محمد)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، حققه إحسان عباس، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٠٥.

(٣٧) عبدلي الخضر، **الحياة الثقافية**، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣٨) DHINA , Les états, Op.cit P 368

(٣٩) الحوائط: جمع حائط وهو مزرعة النخيل.

(٤٠) المقري، **نفح الطيب**، المصدر السابق، ص ٢٠٥.

(٤١) نفس المصدر، ص ٢٠٥.

(٤٢) ابن بطوطة (محمد بن عبيد الله)، **رحلة ابن بطوطة**، ١٩٨٩، ص ٦٨١.

(٤٣) بشارى طليفة، المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٤٤) عبد القادر زبادية، مملكة، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(٤٥) لطيفة بن عميرة، **الرحلة التجارية بين تلمسان وممالك بلاد السودان الغربي**، حولية المؤرخ العدد الخامس، تصدر عن اتحاد المؤرخين الجزائريين، جوان، ٢٠٠٥، ص ٨٩.

(٤٦) ابن بطوطة، **الرحلة**، المصدر السابق، ص ٦٩٦. انظر أيضاً، عبد القادر زبادية، **المملكة**، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٤٧) كعت (محمود)، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور**، تحقيق هداس باريس، ١٩٨١، ص ٢١٩. انظر أيضاً عبد القادر زبادية، **المملكة**، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٤٨) زبادية، **المملكة**، المرجع السابق، ص ٢٠٥. لطيفة بن عميرة، مرجع سابق، ٩١. انظر أيضاً: جورج مارسي، **تلمسان**، ترجمة سعيد دحماني، دار النشر، التل، البليدة، الجزائر، جوان ٢٠٠٤، ص ١٠٠.

(٤٩) BARGES: Mémoires sur les relations commerciales de Tiemcen avec le Soudan sous le règne des Banizeyan (extrait de la revue d'orient de 1' Algérie et des colonies, B. S juin 1853 Paris 1853, P4

(٥٠) زبادية، **المملكة**، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٥١) كانت أسعار الأسلحة مرتفعة في القرن العاشر للهجري (السادس عشر الميلادي) كان السيف الذي يساوي في أوروبة ثلث دوكا (ثلاثة فرنكات ذهباً)، كان ثمنه هناك (في بلاد السودان) أربع دوكات أو على الأقل ثلاثاً أي ٤٣ فرنكاً ذهباً أو يزيد كما أن أسعار السيوف لم تكن تتجاوز في نمدن المغرب ثلث الأوقية الواحدة كانت تتراوح في بلاد السودان بين ثلاث وأربع أوقيات من الذهب انظر: Coudray, relation commerciale de Tiemcen avec le Soudan , dans bulletin de société de géographique .205 - 204 d'Alger 2 eme année 1887. P 425.

(٥٢) زبادية، **المملكة**، المرجع السابق، ص ٢٢١. انظر أيضاً مبروك مقدم، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقية الغربية خلال القرن ٨-٩-١٠، ج١، دار الغرب، ووهران، الجزائر ٢٠٠٢، ص ٢٠٩.

(٥٣) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٩٧.

(٥٤) أشار ابن بطوطة أنه كان يصنع من النحاس الأحمر قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة بمثقال الذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال. انظر ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٩٧.

(٥٥) Coudray. OP Cit. p 429

(٥٦) الإدريسي، **وصف إفريقية الشمالية، جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق محمد الحاج صادق، ١٩٨٣، ص ٠٧.

(٥٧) البكري (ابن عبيد الله بن عبد العزيز)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، تحقيق دي سلان، ١٩٦٥، ص ١٧٥.

(٥٨) لومبار موريس، **الإسلام في مجلد الأول القرن ٨-١١ م**، ترجمة إسماعيل العربي، م، و، ك، ط، ط١، الجزائر، ١٩٧٩.

(٥٩) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٧٤.

(٦٠) حسن الوزان، **وصف إفريقية**، ج٢، ص ٢٨٠.

(٦١) ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٩٨.

(٦٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٩٧.

(٦٣) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٧٤.

(٦٤) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٩٧. انظر أيضاً: بشارى لطيفة، المرجع السابق، ص ٢٧٤- ٢٧٥.

(٦٥) بشارى لطيفة، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٦٦) نفسه والصفحة عينها.

(٦٧) زبادية، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٦٨) بشارى لطيفة، المرجع السابق، ص ٢٨٤.

قرطبة رائدة الفكر والحضارة في القارة الأوروبية خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

عبد الكريم علي

رئيس تحرير مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق

في الحديث عن مدينة قرطبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، الكثير من الفوائد والمقاصد، فقد شغلت في هذه الفترة مكانة مرموقة، لم تتمكن غيرها من مدن العالم في العصور الوسطى أن تشغلها، فقد كانت عاصمة لأعظم دولة في ذلك العصر، هي

دولة الخلافة الأموية، التي حازت على قصب السبق والريادة والتألق في كل ميادين الحياة العامة، فكانت مدينة العلم (والتقدم والازدهار والتفوق)، اختصرت فيها كل علوم الأرض، ومنها أعيد تصديرها وتوزيعها بسخاء بعد عملية تطوير وتحديث إلى كل بلدان أوروبة بدون استثناء، وكانت مدينة التسامح والإخاء والعلمانية، اجتمع في رحابها ورحاب المدن التابعة لها كل أتباع الديانات السماوية، وشكّلوا نسيجاً إنسانياً متكاملاً، تحكمه وتسيره مشاعر الإنسانية والمحبة والحق في العيش الكريم للجميع بغض النظر عن الجنس واللون والانتماء والتوجه، وكانت مدينة العمران والتشييد والبناء، قام أبناؤها بكل همة وصدق واندفاع ببناء العديد من المنشآت العمرانية، التي ما زال بعضها حتى اليوم ينبض (بكل ألوان الحياة)، وكانت بحق سفيرة متفوقة

للعرب في العصور الوسطى، مثلتهم بكل جدارة وريادة وإتقان، وعكست بكل أمانة ووضوح الوجه الحقيقي للحضارة العربية الإسلامية، التي شغلت مسافة هامة في سلسلة الحضارة الإنسانية المتكاملة.

لقد حدث كل ذلك بقرطبة في الوقت، الذي كان فيه حكامها وسكانها من العرب المسلمين بحاجة ماسة إلى توجيه مزيد من انتباههم، وتخصيص قدر كبير من أموالهم وجهودهم لما يدور حولهم من مؤامرات على وجودهم تقوم به الدول الإسبانية في الشمال والشمال الغربي، وهي دول حملت لواء حركة الاسترداد(١)، وكذلك من خلال التعاون الأوروبي بكل أشكاله مع هذه الدول، وأصبحت قرطبة رغم ذلك دوحة مزدهرة بكل مجالات العلم والثقافة، قلّ نظيرها في العصور الوسطى، ومن هذه الدوحة الطيبة أخذت أوروبة أسس ودعائم نهضتها، هذه النهضة التي ما زالت مستمرة باضطراد حتى اليوم.

ففي المجال العلمي كانت قرطبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي موئلاً هاماً للعلوم بالأندلس، فقد شهدت حركة تعليمية واسعة النطاق، اشتركت فيها السلطات الحكومية إلى جانب الهيئات الخاصة، فكانت أماكن التعليم منتشرة في كل مكان من هذه المدينة، إلى جانب وجود المسجد الأموي الكبير فيها، الذي شغل دوراً كبيراً في هذه المسألة الهامة، يشبه إلى حد كبير ما شغلته المدارس الكبرى في المشرق، التي بدأت تظهر في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كالمدرسة النظامية ببغداد على سبيل المثال، التي كان ظهورها سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م، لذلك فقد حرص الأمراء والخلفاء الأمويون طوال حكمهم على توسعة المسجد الأموي بقرطبة، حتى يتسع للدارسين الذين كانت أعدادهم تتزايد مع مرور الأيام، هذا بالإضافة إلى أن الأندلسيين كانوا يحرصون على إقامة صلاة الجمعة في مسجد واحد بقرطبة هو المسجد الأموي، ذلك لأن المذهب المالكي يحرص على هذا ويؤكد عليه.

إلى جانب المسجد كانت هناك العديد من الكتاتيب المنتشرة هنا وهناك، وكان من أهم الذين اهتموا بهذا المجال الخليفة الحكم المستنصر، الذي كان مهتماً في المجال العلمي، فابتنى بقرطبة سبعاً وعشرين مدرسة، جعل التدريس فيها بالمجان، كما اهتم من ناحية أخرى بإقامة مكتبة كبيرة احتوت كل مصادر العلم والأدب، وبلغ ما فيها من الكتب نحواً من أربعمائة ألف مجلد أو كتاب[٢].

ومن أهم ما كان يدرس في مراكز العلم والثقافة بقرطبة، العلوم الإنسانية والدينية والعلوم التطبيقية وبخاصة علوم الطب والصيدلة والهندسة والزراعة والرياضيات[٣]، وشملت النهضة العلمية الأندلسية جميع الفئات هناك، فقد أقبل الأسبان على الثقافة العربية إقبالاً منقطع النظير، واختلطت العقلية الإسبانية بالعقلية العربية، التي بدأت تزدهر وتتألق منذ عصر الأمراء الأمويين[٤].

ففي مجال الطب كانت بداية الازدهار على هذا الصعيد بمدينة قرطبة في عصر الخلافة، الذي بدأ في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله[٥]، كما ذكر ابن خليل بقوله: "ثم ظهرت دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد فتابعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم، وشحذت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين[٦]".

واستطاع ابنه الخليفة الحكم المستنصر، أن يتابع هذه المسيرة الخيرة، حينما أمر بجلب المؤلفات العلمية المشرقية، حتى ازدانت بها مكتبته الشهيرة، وغدت العاصمة قرطبة، من أعظم مراكز العلم والثقافة في العالم في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[٧]. وفي هذا العصر الميمون ازدهر التأليف وأصبح سمة مرافقة لكل الأطباء تقريباً، ولا بد أن ذلك كان بتأثير الروح العلمية المسيطرة على كل الأجواء، فقد قام الطبيب يحيى بن إسحق بتأليف كتاب في الطب سماه (الأبريسم) في خمسة أسفار، وألّف ابن جلجل إضافة إلى كتابه الشهير (طبقات الأطباء الحكماء) كتاباً سماه (تفسير

أسماء الأدوية المفردة) وهــو تفــسير لمــا ورد فــي مــضمون كتــاب الحــشائش لديسقوريدس[٨]. وقد أَلَّفَ الزهراوي الذي عُدَّ أعظم أطباء عصره بالمطلق ألف كتابــاً هاماً جداً، بلغ عدد أجزائه ثلاثين جزءاً، وأهم هذه الأجزاء الجزء السابع والعشرون، الذي يتحدث فيه الزهراوي عن كيفية تحضير الأدوية، كما يتحدث فيه عن الجراحــة العامة وعن الوسائل والأدوات، التي استخدمها في العمليات الجراحية، وهــو بــذلك يكون أول مؤلّف في تاريخ العالم ظهر في ميدان الجراحة بهــذا المــستوى الرفيــع، وبخاصة في مجال استخدامه لتقانات كانت لا تماثلها تقانات أخرى معاصرة، وبهــذا يكون الزهراوي هو الذي جعل الجراحة علماً قائماً بذاته مستقلاً عن الطب، وأقامهــا على أساس من العلم المتين بالتشريح[٩].

كما اشتهر من الأطباء في عصر الخليفة الحكم المستنصر، الطبيب أحمد بــن يــونس الحراني، الذي كان مختصاً بالطب العام وصنع الأدوية، ويبدو أنــه كــان متــضلعاً وحاذقاً في علومه، ودليل أن الحكم المستنصر جعله طبيب القــصر الخــاص طــوال حياته، وكان إضافة لمعرفته بالطب العام، يعرف طب العيون أي الكحالــة بــصورة جيدة، كذلك فإنه كان يصنع الأدوية بنفسه بقصر الخلافة بالزهراء، واشتهر في مجال الأدوية المفردة والأشربة المختلفة[١٠].

وكان ابن جلجل سليمان بن حسان من مشاهير أطباء هذه الفترة، وذلك لأنه كان خبيراً بالمعالجة والمداواة وتشخيص المرض، عاصر الخليفة المحجور عليه هشام المؤيــد، الذي كان في خدمته في مجال الطب وتعود شهرته في المقام الأول إلى كتابه، الــذي شرح فيه أسماء الأدوية التي وردت في كتاب ديسقوريدس (الحشائش)، وقد ذكر عن نفسه أنه كان له شرف ومعرفة هيولى الطب، الذي هو أصلب الأدوية المركبة، ولــه من الكتب كتاب (تفسير أسماء الأدوية المفردة) من كتاب ديسقوريدس، ألّفه في ســنة ٣٧٢هـــ/ ٩٨٣م، بمدينة قرطبة[١١].

وقد عاصر ابن جلجل عدداً من العلماء الأطباء بقرطبة، اشترك معهم بتعريب كتاب (الحشائش) لديسقوريدس، الذي أرسل نسخة عنه إلى قرطبة الإمبراطور البيزنطي أرمانيوس، كتعبير عن الصداقة مع حكومة قرطبة في عصر الخلافة الأموية، وكانت هذه النسخة مكتوبة باللغة اليونانية، كان معهم الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط، الذي كان الطبيب الخاص للخليفة الناصر لدين الله، وفي الوقت نفسه وزيره الأول الذي كان يقابل رئيس الوزراء في المصطلح الإداري المعاصر، والطبيب محمد الشجار، ومحمد سعيد الطبيب، وكان يساعدهم على ما يبدو في أمور الترجمة إضافة إلى نقولا الراهب، الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي سابق الذكر إلى قرطبة سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م، لمعرفته باللغة اليونانية، كلٍ من عثمان الجزار الملقب باليابسة، ورجل كان يعرف بالبسباسي(١٢).

وقد قدّر لعالم الفلك أن يبدأ مسيرته المتفوقة بقرطبة، على الرغم من المضايقات الكبيرة، التي واجهها المهتمون والمتخصصون بهذا العلم. وقد جاءت المضايقات من رجال الدين الجهلة، الذين حاربوا هذا العلم وبخاصة منه الفرع، الذي ركز على دراسة الأفلاك في السماء ورصد حركاتها ونتيجة لهذا كان الناس يرمون بالزندقة كل من تشجم عناء السير في أوعار هذا الطريق، ومع ذلك فقد كان جمهور الناس يتجاوزون عن العرافين والمنجمين، ومن يستخرجون الفأل والمتنبئين والسحرة وكتاب الطلاسم والأحجية.

ولهذا فقد ندر اشتغال الناس بالعلوم الرياضية بقرطبة فيما عدا قلة قليلة(١٣)، حتى زمان الناصر لدين الله في عصر الخلافة الأموية موضوع هذا البحث(١٤)، حيث ظهر أحمد بن نصر المتوفى سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م، اشتهر أمره من خلال كتابه عن (المسألة المجهولة)، كما ظهر مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن حاتم المتوفى سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م، من أهل قرطبة، الذي انصرف إلى دراسة الفلك والنجوم وعلوم الغيب، فنسبه الناس من جراء ذلك إلى السحر والكذب، وربما جاء ذلك من كونه كان

يتعاطى كتابة الطلاسم والرقا والتعاويذ(١٥).كان من نتائج سياسة التسامح والعناية بالثقافة ورعايتها في عصر الخلافة الأموية، أن ظهرت المدارس بقرطبة واجتمع المشتغلون بكل علم من العلوم بعضهم على بعض، وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه من المهتمين بالدراسة، وكان يحيط نفسه بأهل العلم، وجمع في قصره مكتبة كبيرة زاخرة، واجتهد في الحصول على الكتب اليونانية، وسمح لعلماء الفلك والرياضيات العمل في مجال علومهم وتدريسها لجمهور الدارسين وتطويرها، فظهرت مدرسة الرياضي الفلكي المشهور مسلمة المجريطي المتوفى في سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م، والذي يعدّ من أوائل العلماء بقرطبة وبالأندلس على حد سواء وإمام الرياضيين فيهما، وله الفضل في دخول علوم الفلك والكيمياء إلى الأندلس، لكن معظم اهتماماته كانت بعلم الفلك، فأصبح إمام هذا العلم وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية برصد الكواكب، كما اهتم بدراسة كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي، وله كتاب مميز بعلم العدد يعرف (بالمعاملات) وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج العالم البتاني، وعني بزيج محمد ابن موسى الخوارزمي، ونقل تاريخه الفارسي إلى التاريخ الغربي، وزاد فيه جداول حسنة، وله رسالة في الاصطرلاب إلى غير ذلك. وقد أنجب تلامذة لم ينجب عالم بالأندلس مثلهم(١٦).

وعلى الرغم من اضطهاد المنصور محمد بن أبي عامر لرجال العلوم التطبيقية والفلسفة المتصلة بها، تقرباً إلى الفقهاء وعوام الناس، فقد ظهر بعض العلماء في علم الفلك في عصره، مثل عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد المعروف بالإقليدسي الذي قيل عنه: إنه من المتقدمين المشاهير في الفلك والهندسة، ورحل إلى المشرق وتوفي هناك(١٧)، وسعيد بن فتحون بن مكرم المعروف بالحمّار السرقسطي، الذي كان متمكناً بعلم الفلك بالإضافة إلى المنطق والموسيقى والفلسفة(١٨).

وقد كُتب لقرطبة أن تكون الأرض الطيبة، التي ظهرت فيها الفلسفة العقلانية وانتشرت منها إلى كل المدن والحواضر الأندلسية، ذلك لأن هذه الفلسفة كانت من أهم الفلسفات، التي أينعت ثمراً طيباً في معظم حواضر العالم، لأنها منذ البداية اتخذت لنفسها منهجاً عقلانياً متنوراً، اتسم بالجرأة والوضوح والابتعاد عن المسائل الغيبية، التي لا تلتصق بالواقع والحياة، وقد شقّت هذه الفلسفة العظيمة طريقها بالأندلس نحو النجاح، على الرغم من وقوف رجال الدين المعطِّلين ضدها منذ الوهلة الأولى، بحجة أنها خطر على الشريعة والدين، مع أن معظم فلاسفة الأندلس كانوا من كبار علماء المالكية في مجال العلوم الدينية كافة، وقد حاولوا طوال حياتهم أن تكون فلسفتهم أداة فاعلة للتوفيق بين الدين والفلسفة والعلم.

كان أول ظهور للفلسفة العقلانية بمدينة قرطبة الأندلسية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي موضوع هذا البحث على يد الفيلسوف المتميز ابن مسرة، الذي يعدّ أول من قال بالقدرية(١٩) بالأندلس، أي خلق الإنسان لأفعاله، وأن صفات الله هي عين ذاته، لكن فلسفة ابن مسرة لم توفق، لأن تأخذ طريقها إلى النهاية المفرحة، ذلك لأن رجال الدين وجهوا إليها سهامهم بلا رحمة دون أن يفهموا مقاصدها الإيجابية العامة، بعد أن لاقت قبولاً محترماً في عصر الخليفتين الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر، وقد وقف معاضداً لرجال الدين في حربهم للفلسفة العقلانية بعد موت الحكم المستنصر، الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، الذي حكم الأندلس فترة طويلة، فقام بإحراق كل كتبها التي كانت قد تجمعت بكثرة في خزائن مكتبة الحكم المستنصر، ولم تستطع أفعال المنصور محمد بن أبي عامر الإيجابية على الرغم من كثرتها وأهميتها في حياة الأندلس، أن ترمم ما خربته يداه في الميدان العلمي وبخاصة في ميدان الفلسفة العقلانية، التي كانت تريد أن تزرع في عقول الناس ونفوسهم مبدأ الأخذ بأسباب العلوم، التي تعتمد على التجربة والواقع والعقل، وأن تنزع من عقولهم

ونفوسهم في الوقت ذاته مبدأ التمسك بالمسائل الغيبية المعطلة، وكذلك المسائل الجامدة التي لا تقبل التطور أو التغيير[٢٠].

أما في مجال العلوم النظرية فقد كانت قرطبة من أهم قواعدها في الأندلس، ولكثرة ما كان الأندلسيون يقبلون على هذه العلوم ويشجعونها شعباً وحكاماً، فقد أقبل عـــدد مـــن علماء المشرق على الهجرة إلى قرطبة في عصر الخلافة الأموية بالأندلس، كان مـــن أهمهم أبو علي القالي صاحب كتاب (الأمالي) وصاعد البغـــدادي وغيرهمـــا، ومنـــذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أصبحت قرطبة نداً قويـــاً لحواضر المشرق في كافة العلوم، وأصبح العلماء القرطبيون يوجهـــون فـــي بعـــض الأحيان ملاحظاتهم اللاذعة، ويشيرون بجرأة إلى أغلاط كبيرة وقع فيها علماء كبـــار من المشرق، فقد أشاروا على سبيل المثال لأغلاط وقع بها الفراهيدي في معجم العين، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على المستوى الرفيع، الذي وصل إليه القرطبيـــون في مجال العلوم اللغوية.

وكان لقرطبة دورها الإيجابي الكبير في تطور العمران وهندسة البناء بالأندلس، وكان ذلك من أهم السمات التي تميزت بها حكومة هذه المدينة على الإطلاق، وعلى الـــرغم من أن الأندلس كانت من أحفل البلاد بالعمارة والبنيان، ولا بد أن ذلـــك يعـــود فـــي الأساس إلى التوجه الحضاري، الذي تحكَّم بالمسيرة العربية العامة حتى وقت متقـــدم من العصور الوسطى.

وقد تفوق القرطبيون في هذا المجال إلى حد كبير، وتمثل تفوقهم ببناء عدد من المـــدن ما زال بعضها قائماً حتى الآن وهي من أحسن المدن الأوروبية، هذا بالإضـــافة إلـــى بعض القصور والمساجد، التي تشهد على حـــضارة مبدعـــة ومتقدمـــة، تميـــز بهـــا القرطبيون في هذه الحقبة من الزمن.

وإن ما حدث في عصر الخلافة بقرطبة على صعيد البناء والعمران، هو استمرار طبيعي لما حدث في عصر الإمارة الأموية، حينما أمرت حكومة قرطبة ببناء ثلاث مدن هي (مدريد)، ومرسية، وطلمنكة[٢١]. وهاهي خلافة قرطبة تأمر ببناء أربع مدن على التوالي، كان لها وظائف مختلفة فكانت وظائف عسكرية وتجارية وحكومية، اندثر بعضها وما زال بعضها الآخر يعج بكل ألوان الحياة في إسبانية، من أهم هذه المدن مدينة الزهراء، التي أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي كان في عصره من أعظم ملوك وحكام العالم، مما جعله ينزع إلى تحقيق شيء على الأرض يعكس هذه العظمة، فأمر ببناء مدينة الزهراء لتكون جار الخلافة الجديدة، التي أعلنها بالأندلس[٢٢].

بنيت مدينة الزهراء إلى الشمال من مدينة قرطبة في السفح الجنوبي لجبل عروس على هيئة مستطيل طوله ١٥٠٠م، وعرضه ٧٥٠م، وعلى ثلاثة مسطحات متدرجة في الارتفاع، وتبعد عن قرطبة نحواً من خمسة أميال يجري بينهما نهر الوادي الكبير، الذي تقوم الزهراء على ضفته[٢٣]، وقد احتوت على أبنية وقصور مختلفة للخليفة والوزراء والنساء على هيئة ما كان في قرطبة، وقد اشتهرت مدينة الزهراء إضافة لما تقدم، بأنها احتوت على حديقة للحيوانات، وربما كانت الأولى من نوعها في تاريخ العصور الوسطى، كما اشتهرت بخزانتها العلمية التي أسسها الخليفة المتنور الحكم المستنصر، التي وصفت على أنها من أعظم خزانات الكتب في العالم آنذاك، فقد احتوت على ٤٤ فهرسة في كل فهرسة ٢٠ ورقة، ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط، ساعد على ذلك اهتمام الخليفة المستنصر بالعلم بصورة مميزة عن جميع حكام الأندلس، فقد كان عالماً نبيهاً صافي السريرة، عمل على جلب العديد من المؤلفات العلمية من خارج الأندلس غير مهتم بما يصرف على ذلك من أموال جمة[٢٤]، استمرت عملية البناء فترة طويلة من الزمن، دامت أكثر من خمسة وعشرين عاماً،

وقدّرت النفقة عليها بثلاثمائة ألف دينار في كل عام، أي أن هذه النفقة بلغت في عصر الناصر لدين الله سبعة ملايين دينار ونصف المليون(٢٥).

ومنذ فترة تسعين عاماً مضت، كانت مدينة الزهراء، ما زالت مندرسة بعد ذلك الـذي حصل لها من تدمير في الفتنة، فبدأت الحكومة الإسبانية مشروعاً للبحث والتنقيب عن موقع هذه المدينة معتمدة على ما جاء بشأنها من أوصاف دقيقة في مؤلفـات العلمـاء العرب، وبخاصة كتب الإدريسي الجغرافي الشهير، وقد تمكن المنقبون بقيادة المهندس الإسباني (بلاسكث يوسكو) من اكتشاف بعض أسرار وأعمدة وجدران تتعلق بالمدينـة نفسها أو بالقصور الملكية، التي كانت قد أقيمت فيها، هذا بالإضافة إلى العديـد مـن الأواني الخزفية وبعض الزخارف وقطع الرخام(٢٦). وتعدّ الآثار المكتشفة مـن هـذه المدينة على قلتها عامل جذب كبير لمجموعات سـياحية ضـخمة. تعـوّل الحكومـة الإسبانية على الاعتماد عليها هي وغيرها كمصدر هام من مصادر الـدخل القـومي الأسباني.

وبالجملة فإن مدينة الزهراء الأندلسية من المدن القليلة، التي شيدها العرب بالأنـدلس، وهي إضافة إلى ذلك تعدّ من روائع ما أنتجته الهندسة العربية على الأرض الأوروبية في العصور الوسطى، خططها وأبدعها عقل عربي متحضر في زمن كان فيه العرب، يتطلعون دوماً إلى مجدهم وإنتاجهم العلمي المتميز، بعد أن سيطر تيار العلم وزخمـه على تفكيرهم وعقولهم وتصرفاتهم.

كما اهتمت حكومة قرطبة في عصر الناصر لدين الله ببناء مدينة عسكرية هامة، هي مدينة سالم، التي أدّت مهمة دفاعية متقدمة في مواجهة دولة قشتالة، التي كانـت فـي حالة تطور سريعة نحو تشكيل جبهة قوية من الأسبان، من أجل التخلص من الوجـود العربي بشبه الجزيرة الإيبيرية، وتقع هذه المدينة إلى الشمال من مدينة مدريـد بنحـو ١٥٣ كم، وكانت هذه المدينة في العصر الروماني تعرف باسم أوسـيليس، واسـمها

العربي نسبة إلى سالم بن ورعمال المصمودي المعروف باسم القائد سالم، لكنها في عصر الخلافة تطورت بعناية الناصر لدين الله، حتى أصبحت من أهم ثغور الأندلس، ولاسيما في فترة القائد غالب مولى الناصر لدين الله، الذي أَصبح قائداً لهذه المدينة باعتبارها ثغراً أو رباطاً متقدماً في مواجهة قشتالة، وظل فيها حتى أزاحه الحاجب المنصور بمحمد بن أبي عامر سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م(٢٧). ويبدو أن الحاجب المنصور كان يحب هذه المدينة المثاغرة، لأنه كان من أشهر الذين حكموا الأندلس اهتماماً بالرباط والمثاغرة، فاختار أن يدفن فيها بعد مرضٍ انتابه وهو في طريق عودته من إحدى غزواته في سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م(٢٨).

وبنى الناصر لدين الله مدينة اقتصادية بحرية على الساحل الجنوبي، وهي مدينة المرية، القريبة من غرناطة، يعد بناء هذه المدينة من أهم المؤشرات الواضحة على ازدهار الأندلس في الميدان الاقتصادي في عصر خلافة الأمويين بقرطبة، فقد أصبحت مدينة المرية التي أنجز بناؤها في سنة ٢٣٤٤هـ/ ٩٥٦م، من أهم الموانئ الأوروبية على ساحل البحر المتوسط في مجال التصدير والاستيراد(٢٩)، وازدادت أهمية هذه المدينة مع مرور الأيام، ليس لأنها فقط أهم مرافئ أوروبة، بل لأنها أصبحت مدينة صناعية من الطراز الأول، مما عزز مركزها التجاري بشكل لافت(٣٠).

وكانت مدينة الزاهرة آخر ما أنجزته حكومة قرطبة في ميدان بناء المدن في عصر الخلافة. فقد أمر ببنائها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر بتأثير عقدة النقص عنده، وكذلك حب الظهور والمفاخرة والتشبه بالآخرين، ولاسيما الخلفاء الأمويون، وتقع هذه المدينة إلى الشرق من مدينة قرطبة بنحو ستة كيلومترات، لتكون قاعدة لحكمه تحميه من شرور المعارضة، التي كان على الدوام يتوجس خيفة منها، وقد عاش ومات وهو يعاني من هاجس هذه المعارضة، ذلك لأنه كان يشعر بعدم شرعية حكمه على الإطلاق، لأنه لا يتحدر من العائلة الأموية، وقد أنجز بناء هذه المدينة في

سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨١م، أي بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى الحكم، وقد ضمت هذه المدينة العديد من المنشآت والمرافق على غرار ما كان في مدينة الزهراء، وأقام فيها الحاجب المنصور طوال فترة حكمه، وكذلك ابنه عبد الملك وابنه عبد الرحمن شنجول، حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ومع ذلك فلم تلغ دور العاصمة الأولى قرطبة، وبقيت كما بقيت الزهراء من قبلها عبارة عن قصر كبير للحكم في ضاحية قرطبة الشرقية(٣١)، وقد دمرت هذه المدينة في الفتنة الكبرى بالأندلس التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية نهائياً، ويبدو أن التدمير كان كبيراً وشاملاً، ذلك لأنه أتى على المدينة برمتها، وهذا ما يعكس ضخامة الحقد على المنصور بن أبي عامر وعلى من خلفه من أولاده وأقربائه في الحكم، ولم يتمكن المنقبون والآثاريون، أن يحصلوا على شيء من أساس أو بنيان هذه المدينة كما حصل بالنسبة لمدينة الزهراء، التي اكتشفت مخططها العام وبعض موجوداتها الهامة.

وعلى الرغم من أن حكومة قرطبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لم تعطِ للمسألة الدينية ذلك الاهتمام الكبير، وكانت أقرب إلى العلمانية أو ما يسمى بفصل الدين عن الدولة منه إلى أي شيء آخر، رغم ذلك فإنها صرفت أموالاً طائلة على بناء المساجد، ولاسيما مسجد قرطبة الكبير، الذي أراده الأمويون أن يكون صورة طبق الأصل عن مسجد بني أمية بدمشق(٣٢)، فمن المعلوم أن هذا المسجد بني في سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م، في عصر الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، ومنذ ذلك الحين بدأ الأمراء والخلفاء الذين جاؤوا بعده ببناء زيادات وإضافات، رأوا فيها ضرورة دينية كبيرة، وبخاصة بعد أن ساد المذهب المالكي بالأندلس كمذهب وحيد(٣٣). ويرى فقهاء هذا المذهب أنه لا يجوز للمسلمين أن يصلوا صلاة الجمعة إلا في مسجد واحد ضمن المدينة الواحدة، هذا بالإضافة إلى أن أعداد المسلمين في حالة ازدياد مع مرور الزمن، ولم تنتهِ الخلافة الأموية بالأندلس حتى أصبح مسجد قرطبة من أعظم مساجد الدنيا في العصور الوسطى، من حيث ضخامته واتساعه، ومن حيث رونقه ودقة

صنعته وتنفيذه، وكلفته المادية. ففي عصر الخليفة الناصر لدين الله، وجد أن المئذنة التي بناها الأمير هشام الرضا بدأت بالتصدع، فأمر الناصر لدين الله بإزالتها نهائياً وبنائها من جديد وزيادة ارتفاعها السابق، الذي وصل إلى أربعين ذراعاً فأصبحت ثمانين ذراعاً، وبلغ عدد أدراج كل مطلع حتى نهاية المئذنة مئة وسبع درجات، وحصل ذلك في سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م، لكن الذي حدث في زمن ابنه الحكم المستنصر كان أكبر بكثير، وقد تجسد ذلك بزيادة كبيرة في هذا المسجد في قسمه الجنوبي، وهي زيادة جاءت لتواكب الزيادة الكبيرة في عدد المصلين بهذا المسجد، كما زوده بالماء العذب من عين ماء بجبل قرطبة بواسطة الهندسة المائية، التي كانت متقدمة في هذا العصر، وهي هندسة الفقارات والخطارات، التي كانت على هيئة أنابيب من فخار وغيره(٣٤)، أما الزيادة الكبيرة في المسجد الأموي بقرطبة، فقد نفذها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر في الجانب الشرقي من المسجد، مما اضطره إلى هدم العديد من البيوت في هذه الجهة، بعد التعويض لأصحاب هذه البيوت بما يوازي قيمة بيوتهم، وقد حصلت هذه الزيادة في سنة ٣٨٠هـ/ ١٠٠١م(٣٥). وكان المنصور يريد على الدوام أن يرضي رجال الدين والعامة، لذلك فإن إقدامه على هذه الزيادة المكلفة مالياً، كان من أجل ذلك.

وفي المجال الإداري كانت قرطبة سباقة في التطوير والممارسة العلمية، فعلى الرغم من أسبقية المشرق العربي في قضية ظهور منصب الوزارة فقد سبقت قرطبة كل المدن المشرقية والعالمية في مسألة تعدد الوزراء وتوزيعهم بحسب مهماتهم واختصاصاتهم، ولا بد أن هذا النظام كان متقدما جداً في ذلك العصر، ذلك لأنه يشبه تماماً الأنظمة المعاصرة، فلم تكتفِ الحكومة القرطبية بوزير واحد أو وزارة بعينها، بل قامت بتعيين عدد من الوزراء، يقوم كل واحد منهم بمهمة تختلف عن الآخر، كما هو جارٍ في عصرنا الراهن، وكان هؤلاء الوزراء يحضرون يومياً إلى القصر الحكومي لمعاضدة الخليفة في حل مشاكل الدولة، وكان لهم في القصر جناح خاص

يمارسون فيه نشاطاتهم عُرف ببيت الوزارة[٣٦]، ومن أهم الوزارات التي عُرفت بقرطبة بأسمائها، وزير المالية، ووزير الترسيل، والمكاتبات، ووزير النظر في قضايا وحاجات الناس ومظالمهم، ووزير النظر في شؤون الثغور إلى غير ذلك، وكان يرأس هؤلاء شخص يسمى كبير الحجاب، وهو بمثابة رئيس الوزراء في أيامنا، وكان صلة وصل مستمرة بين الوزراء والخليفة.

والجدير بالذكر أن الوزارة بدءاً من عصر الخلافة بقرطبة لم تعد حصراً على العائلات العربية الأرستقراطية أو العائلات التي كانت من موالي الأمويين فقد شغل الوزارة في عصر الخليفة الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر بعض اليهود، وهو حسداي بن إسحق بن شبروط المتوفى بقرطبة ٣٥٩هـ/٩٧٠م، وقد ساعده للوصول إلى هذا المنصب الرفيع تعمقه في شتى فروع الثقافة العربية، وكذلك التسامح العربي الواسع في عصر الخلافة مع أهل الذمة بشكل عام، فقد تمتع أهل الذمة بحريات واسعة لم يوازيها أية فترة أخرى من فترات السيادة العربية بالأندلس أو في غيرها، وكان هذا اليهودي بمثابة وزير الخارجية بالمفهوم المعاصر، فكثيراً ما كان الناصر لدين الله يشاوره في مسائل الدولة الكبيرة الخارجية منها والداخلية، هذا بالإضافة إلى أنه كان طبيبه الخاص[٣٧].

ولأول مرة في تاريخ العرب في العصور الوسطى، نجحت الوزارة في السيطرة على خلافة الأمويين، حينما سيطر كبير الوزراء بقرطبة محمد بن أبي عامر على شؤون الحكم بعد وفاة الحكم المستنصر، وقاد البلاد باسم الخليفة هشام المؤيد فترة طويلة من الزمن، حاول خلالها خلق نوع من التوازن في المجتمع الأندلسي، كلفه الكثير من الجهد والسهر والمحاباة، مما أدى إلى ضرب الروح العلمية والحضارية، التي كانت في أوج ازدهارها حينما انفرد بحكم الأندلس، فقد اضطر إلى مجاراة رجال الدين في قضايا حساسة، انعكست سلباً على المجتمع العربي في مختلف الحقول، وذلك من أجل أن يقفوا في صفه ويؤيدونه في مسألة اغتصابه لسلطة الخلفاء الأمويين، وهي عملية

جاءت فريدة في تاريخ الحكومات القرطبية، ذلك لأنها عكست تسلط وانتصار الوزارة على الخلافة للمرة الأولى في تاريخ الحكم العربي بالأندلس حتى نهاية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(٣٨).

من ناحية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، تمثل علاسمة العلمانية(٣٩) في العالم، حينما نظر حكامها إلى الناس كافة نظرة واحدة، فقد عاملوا أهل الذمة معاملة طيبة على جميع الصعد، وما حدث بقرطبة في هذا المجال، لم يحدث له نظير في منطقة عربية أخرى من العصور الوسطى، وهذا ما يجعلنا نؤكد فكرة هامة، هي أن حكومة قرطبة العربية، استطاعت أن تتفوق في مسألة تطبيق تعاليم الإسلام الصحيحة، التي تؤكد على التعايش الإنساني والحضاري مع كل الشعوب.

طبق العرب المسلمون بقرطبة جميع الشروط، التي أقرها الشرع الإسلامي، وزادوا على ذلك بإعطاء أهل الذمة حريات واسعة جداً، سمحت لهم بممارسة القضاء على مذاهبهم الدينية والحكم بين المتخاصمين بمقتضى قانون هذه الأديان وتشريعاتها، وهذا لم يحصل له نظير في منطقة خارج قرطبة والأندلس، فقد حكم النصارى في دوائر قضائهم بموجب القانون القوطي وكان قاضيهم يسمى قاضي النصارى العجم، وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي وإداري(٤٠) وكانوا يعينون لهم حكاماً من أبناء جنسهم، عهدوا إليهم بسن الضرائب المطلوبة والإشراف على النظام والأمن في المنطقة، ولم يكونوا يلجؤون للقاضي المسلم إلاَّ في مسائل القتل، فكانوا يقدمون إليه ويعرضون أدلته وكانت المحاكم الذمية تقبل شهادة المسلم على الذمي.

أما في الحالات التي كان الذميون يقدمون على شتم الرسول الكريم (ص) أو التقليل من قدر الدين الإسلامي، فكانوا يحالون إلى القاضي المسلم، ورغم بشاعة جرمهم يعطون فرصة كبيرة للدفاع عن أنفسهم بتوكيل من يدافع عنهم وإجماع الأحكام إلى

درجات حتى لا يظلم أحد منهم، فكان لذلك أثره الإيجابي في نفوس المستعربين، مما جعلهم يخففون من حدة مواقفهم ضد المسلمين(٤١).

وقد عرفت في عصر الخلافة الأموية بقرطبة بعض أسماء القضاة المسيحيين، الذين كانوا على علاقة طيبة مع بعض خلفاء هذه الفترة، نذكر منهم القاضي أصبع بن عبد الله بن نبيل قاضي النصارى في عصر المحكم المستنصر، وأصبع بن سلمة، وهو الذي استعان به المنصور محمد بن أبي عامر سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م، لحل خلاف وقع بين الفونسو وبعض المستنفذين من المسيحيين في جليقية، وقد حلّ الخلاف من قبل القاضي المذكور(٤٢)، ووليد بن خيرون الذي شغل دور المترجم بين الحكم والمستنصر وبين الوفود الأوروبية التي حضرت إلى قرطبة.

وكان القضاة العرب المسلمون، يقفون باحترام بالغ أمام مقدسات المسيحيين ولاسيما حينما كانوا يلجؤون لأخذ اليمين منهم، فقد كانوا يبحثون عن أهم المقدسات المسيحية في البلدان، التي كانوا يعملون فيها من أجل أن يحلف المسيحيون في قضية معينة، فكانوا يخيرون بالذهاب إلى أقدس مركز ديني ومعهم نائب عن القاضي المسلم، يرافقه أحد الشهود فيحلف اليمين وتحلّ المشكلة(٤٣).

وقد برهنت حكومة قرطبة في هذه الفترة الزاهية، على أنها أول عاصمة في عالم العصور الوسطى، استطاعت أن تطبق النظام العلماني بحذافيره، حينما ساوت بين العرب المسلمين وغيرهم في كل المجالات، وبذلك تكون أول من مارس العلمانية في القارة الأوروبية، حينما كان الأوروبيون لا يعرفون سوى التعصب الديني، الذي بدأ باحتقار اليهود وإبعادهم عن المفاصل الهامة في الدولة، ثم طبق على المسلمين فيما بعد، والأمثلة على تطبيق العرب المسلمين لمبدأ العلمانية بقرطبة وغيرها كثيرة جداً، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، أن الوزارة في عصر الخليفة الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر، أُسندتا إلى أحد الشخصيات اليهودية وهو حسادي ابن إسحق

شبروط المتوفى بقرطبة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، كما ذكرنا آنفاً، وقد ساعده في الوصول إلى هذا المنصب الرفيع، التسامح العربي الواسع في عصر الخلافة مع أهل الذمة، الذين أُعطوا حريات واسعة لم توازيها أية فترة أخرى من فترات السيادة العربية بقرطبة أو في غيرها، وكان هذا اليهودي بمثابة الوزير الأول في دولة الخلافة وبمثابة وزير الخارجية بالمفهوم المعاصر، فكثيراً ما كان الناصر لدين الله يشاوره في مسائل الدولة الكبيرة الخارجية منها والداخلية، هذا بالإضافة إلى أنه كان طبيبه الخاص(٤٤).

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على تراث حضاري عربي، تبلور في أجلى وأحسن صورة في دولة الخلافة الأموية بقرطبة، التي كانت تؤمن بحق الحياة للجميع بغض النظر عن الأصول العرقية والانتماءات العقائدية الدينية.

ورغم هذه النظرة الإنسانية المتقدمة من قبل عرب قرطبة، فإنهم للأسف لم يوفقوا بإقناع الآخرين وبخاصة اليهود منهم، أن يعملوا فيها كأن يقوموا على الأقل بشيء من رد الجميل للعرب بالوقوف معهم وقفة صدق وإخلاص، وقد حدث العكس تماماً حينما استغل اليهود وجودهم في أعلى المناصب الإدارية، فأساؤوا للعرب من خلال الوقوف ضد مصالحهم الوطنية والاقتصادية والإنسانية(٤٥).

وقد تمكن الصقالبة(٤٦) نتيجة العلمانية العربية بقرطبة، أن يصلوا إلى حد التدخل في تقرير مصير الحكم بقرطبة والأندلس، ففي أعقاب وفاة الخليفة الحكم المستنصر(٤٧) عيّن الصقالبة خليفة له هو المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهذا يدل بوضوح على علو مكانتهم في دولة الخلافة بقرطبة، وقد حاول رئيس الوزراء آنذاك جعفر بن عثمان المصحفي، أن يجهض ما فعله الصقالبة، لكنه لم يتمكن من ذلك إلا بصعوبة بالغة، حينما حبك مؤامرة دقيقة بالتعاون مع وزير آخر هو محمد بن أبي

عامر ضد مرشح الصقالبة، فقتلوه وعيّنوا بدلاً عنه ابن الحكم المستنصر هشام المؤيد، وهي أول عملية من نوعها يقوم بها الوزراء بالأندلس(٤٨).

لكن أهم نتيجة للعلمانية العربية التي ولدت بقرطبة، لتعم الأندلس برمتها أن مجموعة كبيرة من الأسبان بقرطبة وغيرها، مجموعة عُرفت في تاريخ الأندلس باسم المستعربين، تعاونت مع حكام قرطبة تعاوناً وثيقاً وبخاصة في عصر الخلافة موضوع هذا البحث، ذلك لأنها تمتعت بالحرية الواسعة تحت مظلة العلمانية العربية، التي حافظت على حقوق الناس كافة، وربما أن هذه المجموعة هي الوحيدة من بين سكان الأندلس، كانت قد رفضت كل أشكال التآمر ضد السلطة العربية التي مركزها قرطبة، ذلك لأنها كانت ترى في السلطة العربية مجناً يحميها ويحفظ لها جميع حقوقها(٤٩). أما على الصعيد العسكري فقد سارت حكومة قرطبة نحو تحقيق استراتيجية في كبح جماح النشاط الأسباني في الشمال، وكذلك النشاط النورماندي، وأخيراً الفاطمي بالمغرب الكبير، ففي مجال كبح النشاط الأسباني في الشمال وجهت حكومة قرطبة اهتماماً بالغاً في ضرب التحركات المضادة، التي كانت تصدر عن الدويلات الإسبانية، التي تبلورت على أرض الشمال الأسباني في دويلة قشتالة في وسط شمال الأندلس، ودويلة ليون في الشمال الغربي، ودويلة برشلونة في الشمال الشرقي، وكانت هذه الدول تتعاون وتتحد، حينما تكون دولة قرطبة قوية، وكانت تختلف فيما بينها حينما تضعف دولة قرطبة، لكن هذه الدويلات بقيت في عصر الخلافة الأموية بقرطبة على مبدأ واحد، هو إعلان الطاعة والولاء والتأييد لحكومة قرطبة، وذلك خوفاً من قوة هذه الحكومة وبطشها، فقد تمثلت قوتها في الجيش وفي ميدان العلم والحضارة والتفوق الثقافي بشكل عام، مما جعلها القوة الأعظم في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في العالم برمته، وهذا ما جعل دويلات الشمال الإسباني سابقة الذكر، تلجأ إلى الهدوء وإيقاف كل الأنشطة العسكرية، وهو أمر لم يحصل بهذه الصورة إلا في هذا العصر(٤٩).

ورغم الهزيمة التي لحقت بجيش الناصر لدين الله في موقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م، فقد بقي الإسبان في أماكن بموقعهم واندفاعهم، وتمكنت قوات الناصر لدين الله من تطويع القوى الإسبانية المعارضة برمتها، وسيكون الناصر ومن خلفه في الحكم حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أسياداً لحكام الدويلات الإسبانية وحكاماً فيما جرى بينهم من خلافات في هذه الفترة، كما كانت قرطبة مقصداً للكثير من المرضى في الشمال الأسباني، وشمل ذلك القادة في هذه البلاد مثل شانشو، الذي اشتهر بضخامة جسمه وثقل وزنه، فقد جاء إلى قرطبة للتخلص من سمنته، وحضر من أجل ذلك إلى عيادة الطبيب الناصر لدين الله حسداي بن شبروط اليهودي، الذي تمكن من تشخيص حالته بنجاح، ووضع له الحل المناسب للتخلص من السمنة المفرطة، التي كانت تقلقه، وفي الوقت ذاته حصل على مساعدة عسكرية من قبل الناصر لدين الله، تمكن بواسطتها من إعادة حكمه، الذي كان أخوه قد سلبه منه[٥٠]. وفي مجال كبح جماح النشاط النورماندي، الذي بدأ يظهر في هذا العصر منذ سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م، حينما هاجمت مجموعة من النورمان سرقسطة، ومنذ ذلك الحين بدأ النورمان يهاجمون الأندلس عن طريق الحدود الفرنسية مع إسبانية، ساعدهم على ذلك أنهم كانوا منذ سنة ٣٠٠هـ/٩١٣م، اتخذوا لأنفسهم قاعدة ثابتة في غرب فرنسة في مقاطعة سميت نورماندي نسبة إليهم، وذلك بموافقة من الملك الفرنسي شارل الثالث الملقب بالساذج[٥١]، وشكلت هذه المقاطعة مع الأيام خطراً كبيراً على الوجود العربي بالأندلس لفترة طويلة، ذلك لأنها قامت بعدد من الحملات البحرية والبرية على مناطق هامة بالأندلس.

وفي مجال دفع الخطر الفاطمي عن الأندلس، اتخذت حكومة قرطبة العديد من الإجراءات المناسبة مثل إعلان الخلافة بقرطبة كرد فعل على خلافة الفاطميين بالمغرب الكبير، والعمل باستمرار على تقوية الأسطول البحري حتى يتمكن من مواجهة الأسطول الفاطمي المتمرس[٥٢]، والعمل على تحصين كل البوابات الأندلسية

الجنوبية المواجهة للمغرب الكبير، وشحنها بمزيد من القوات العسكرية المتحفزة، ولاسيما في منطقة طريف، والجزيرة الخضراء، وهي مناطق مواجهة لأهم ثغور المغرب الأقصى كسبتة وطنجة وغيرهما[٥٣]، والعمل على استقطاب زعماء القبائل المغربية، وهي محاولة بالغة الأهمية في سياق الضغط الدائم على الفاطميين في عقر دارهم، وقد نجحت قرطبة باستمالة قبيلة رئيسية إلى جانبها بالإضافة إلى الأدارسة وإمارة ناكور الصالحية في شمال المغرب الأقصى[٥٤]، ثم التعاون والتعامل مع الثائرين المغاربة المحليين، وتأييد برامجهم بغض النظر عن هوية الثوار وعقائدهم، من أجل إضعاف واستنزاف القوة العسكرية الفاطمية والمادية على حد سواء، فأيدوا ودعموا ثورة للخوارج قادها ضد الفاطميين مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي المعروف بأبي يزيد صاحب الأتان سنة ٣٣٣هـ/٩٤٥م، وبقيت قرطبة تدعمها حتى سنة ٣٣٦خ\هـ/ ٩٤٨م[٥٥]. وفي مقابل هذه الإجراءات العسكرية الرادعة، كان لقرطبة علاقاتها الدبلوماسية الخارجية مع بعض القنوات الأوروبية، انطلاقاً من مكانتها الكبيرة كعاصمة لأكبر جولة في العالم في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، ومع ذلك فلم تكن هذه العلاقات تقوم على أسس وطيدة ومبرمجة، بل كانت عبارة عن علاقات هدفها إظهار الود والتعبير عنه من خلال سفارات معينة، كانت تحمل الهدايا لأطراف أوروبية معينة وبالعكس، فقد حمل البيزنطيون إلى الناصر لدين الله العديد من الهدايا عبر سفارات، واستقبلها بقرطبة بمناورات بالغة[٥٦]، كذلك فقد فتحت قناة للاتصال مع أوتو الكبير ملك الفرنجة في عهد الناصر لدين الله، وقد تم الاتصال بين الطرفين بواسطة رسائل متبادلة حول موضوعات كانت ملحة بالنسبة للطرف الفرنجي، ذلك لأن الغزاة الأندلسيين، كانوا قد أقضّوا مضجع الأوروبيين من خلال هجماتهم، التي كانت شبه مستمرة على السواحل الأوروبية، والغزاة الأندلسيون هم مجموعة من عرب الأندلس، كانت لهم بخبرة واسعة في مجال الأعمال البحرية، فاستغلوا ذلك لمهاجمة السواحل الأوروبية من أجل السلب وجمع الغنائم والثروات،

كما كان يفعل النورمانديون وغيرهم، فحاول أوتو الكبير أن يستغل علاقتــه الطيبــة بالخليفة الأندلسي الناصر لدين الله، للتخلص من هؤلاء الغزاة أو على الأقل وضع حد لهجماتهم على السواحل الأوروبية، لكن الناصر لدين الله اعتذر لأوتو الكبير، بأنــه لا يملك أية سلطة على الغزاة الأندلسيين[٥٧]، الذين اختفت أنشطتهم بعد سقوط الخلافــة الأموية بالأندلس.

بقي أن نشير أنه ورغم هذه الإيجابيات، التي حفل بها عصر الخلافة بالأندلس، فإن ما حدث في فترة حكم الحاجب المنصور محمد بن أبي عــامر[٥٨] مــن ســلبيات رغــم إيجابياته كان ضربة قاصمة لإنجازات هذا العصر الميمون، فقد أقدم بوحــشية علــى إحراق محتويات مكتبة الحكم المستنصر من المؤلفات الفلــسفية العقلانيــة والعلــوم المرتبطة بها من رياضيات وكيمياء وهندسة وطبيعة، وما إلى ذلك من علــوم كانــت تسمى في العصور الوسطى، العلوم القديمة أو علوم الأقدمين، وكان يريد في المقــام الأول من هذا العمل المشين، أن يفوز برضا رجال الدين الذين كانــت لهــم مهمــتهم الرئيسة محاربة هذه العلوم تحت حجة باطلة، هي أنهــا تــضر فــي ثوابــت الــدين والشريعة، وبذلك يكون الحاجب المنصور قد جنّد طبقة رجال الدين المتعصبين إلــى جانب مشروعه في الحكم ولكن على حساب استمراريته تقدم الأمــة وتفوقهــا فــي ميادين العلم والحضارة[٥٩].

وبالجملة فقد شهدت الأندلس برمتها في عصر خلافة قرطبة ظاهرة إيجابية، تجــسدت في توفير كل أسباب الرفاهية والطمأنينة، ونعم الناس على اختلاف فئاتهم وأجناســهم بالعدل والمساواة وصيانة الحقوق من خلال قضاء مستقل في كل المقــاييس، وكــان الأندلسيون بعامة يشعرون بالزهو والفخر، لأنهم ينتمون إلى دولة عزيزة الجانب قوية البنيان، لكن كل شيء تغير بسرعة، حينما سقطت دولة الخلافة بالأندلس، ذلك لأن كل الدفاعات العربية بقرطبة وبالأندلس سقطت ولوقت طويل، وأصبح التدخــل الفرنسي

أمراً واقعاً في الحياة الأندلسية، وبخاصة في مناطق الشمال والشمال الغربي، فأخذت تحرض دول هذه المناطق ضد الوجود العربي بالأندلس، من خلال إثارة الحمية الدينية، وقد كان حظ الأسبان في الشمال عظيماً جداً، ذلك لأن سقوط خلافة قرطبة وتجزئة تركتها إلى دول عديدة، ترافق مع وجود حاكم إسباني على رأس الدويلات الإسبانية كان يتميز بالطموح الذي لا يقف عند حد، وهو ألفونسو السادس ملك دولة قشتالة، الذي تمكن من صنع وحدة قوية في الشمال الإسباني، كان قوامها دولة قشتالة، وليون، وبقية الدويلات المجاورة، ثم عزز هذه الوحدة العظيمة باسترجاع طليطلة من العرب سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، وهي ما عرف في المصطلح الحربي بالأندلس بالثغر الأوسط، وكان ذلك ضربة قوية للمشروع العربي بالأندلس ذلك الأمر لم يقتصر على استرجاع طليطلة فحسب، بل شمل ذلك كل المدن التي من حولها، وهي مدينة سالم ووادي الحجارة، ومدريد، وقونكة، وإقليش، وطلبيرة، وغيرها من بلدان، ولأهمية هذا الإنجاز في حياة الاسترداد الإسبانية أُطلق على طليطلة وما حولها من مناطق مسترجعة اسم (قشتالة الجديدة)، وهذا له دلالته الوطنية في صفوف الأسبان، لأن قشتالة القديمة التي كان يحكمها في هذه الفترة الفونسو السادس كانت موئل الحركة الوطنية الإسبانية، وأمل كل الأسبان في أن تستطيع إكمال مسيرة الاسترداد حتى النهاية، وهذا ما حصل في نهاية المطاف.

هكذا كانت حكومة قرطبة وأهلها، التي عاش الجميع فيها عيشة بعدية عن التعصب والتكتل والتقوقع، فأبدعوا في كل مجالات الحياة، وبرهنوا على عظمة الأمة العربية هذه العظمة التي تجسدت في معاملة غير العرب من أسبان ويهود وأوروبيين معاملة توفرت فيها كل مظاهر الاحترام والتقدير الإنساني، بغض النظر عن جنسه ولونه

وعقيدته، ووصلت هذه المعاملة إلى ذروة التطبيق والممارسة على أرض الواقع، في الوقت الذي كانت فيه دولة العرب بقرطبة من أقوى وأزهى وأعظم دولة في العالم بإطلاق، وهي التي زودت أوروبة بكل أسباب نهضتها العلمية والحضارية في مجالات الطب والصيدلة والفلك والهندسة والزراعة والطبيعة والفلسفة والعقلانية والعمران وغير ذلك، فكانت منذ هذه الفترة والفترة أكثر من قرنين، محطة عملاقة لكل المهتمين بالثقافة والفكر، تحولت فيها ثقافة العرب إلى ثقافة عالمية لا بد منها للحياة الإنسانية، كما هو حال الثقافات المتفوقة في عصرنا الحاضر.

الهوامش

(١) حركة الاسترداد هي حركة وطنية إسبانية، بدأت أعمالها ضد الوجود العربي بالأندلس منذ فتح الأندلس حتى نجحت في إنهاء هذا الوجود في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

(٢) المقري، **نفح الطيب**، ج١، تحقيق غسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٨٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٣٩.

(٤) جودت الركابي، **في الأدب الأندلسي**، ط٢، مصر، ١٩٦٦، ص ٦٩.

(٥) **حكم الأندلس من سنة** ٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٣-٩٦٢م.

(٦) ابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق فؤاد سيد، المعهد الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٩٧.

(٧) ابن الآبار، **الحلة السيراء**، ج١، تحقيق حسين مؤنس، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٠٠ ومابعدها.

(٨) ابن جلجل، المصدر السابق، ص ١٠١.

(٩) آنجل جنثالث بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٤٥٦ وما بعدها.

(١٠) ابن جلجل، المصدر السابق، ص ١١٣ وما بعدها.

(١١) ابن أبي إصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج٢، الطبعة الأولى، المطبعة البهية، ١٨٨٢، ص ٤٦.

(١٢) انظر: علي أحمد، **معجم أطباء المغرب والأندلس**، طبعة دمشق، ١٩٩٥، ص ٦٣.

(١٣) كان من هذه القلة مسلم الليثي المعروف بصاحب القبلة، وعباس بن فرناس الذي اهتم بصنع الساعات لمعرفة الوقت وما إلى ذلك.

(١٤) خير الله طلفاق، **حضارة العرب في لأندلس**، طبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٧، ص ١٥٦ وما بعدها.

(١٥) ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس** الترجمة رقم ١٤٢١، آنجل جنثالث، المرجع السابق، ص ٤٤٧ وما بعدها.

(١٦) صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، ص ١٦٩-١٦٩، آنجل جنثالث، المرجع السابق، ص ٤٤٨.

(١٧) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص١٦٧، آنجل جنثالث، المرجع السابق، ص ٤٥٠.

(١٨) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(١٩) القدرية حركة فكرية ظهرت في العصر الأموي، تقول باختصار أن الإنسان قادر على اختيار أعماله، فهو مخيّر لا مسيّر يستطيع أن يختار ما يشاء من أفعاله. وهي أي هذه الحركة أصل المعتزلة، التي تبلورت بشكلها النهائي في العصر العباسي الأول منذ بداية عصر الخليفة المأمون.

(٢٠) أحمد بدر، **المغرب والأندلس**، ص ٤٧.

(٢١) محمود علي مكي، **مدريد العربية**، طبعة وزارة الثقافة بمصر، ص٧٤ ومابعدها.

(٢٢) المقري، **نفح الطيب**، ج١، ص ٥٢٣.

(٢٣) ابن عربي، **محاضرة الأبرار**، ج١، طبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٤هـ، ص ١٤٩، المقري، **نفح الطيب**،ج١، ص ٥٢٣.

(٢٤) ابن الآبار، **التكملة لكتاب الصلة**، ج١، طبعة القاهرة، ١٩٥٦، ص٢٧٦. ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص ٢٣٣. النباهي، **المرقبة العليا**، ص ٧٩.

(٢٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٥، ص٢٦. المقري، **نفح الطيب**،ج١، ص٥٦٤.

(٢٦) أحمد مختار العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، بدون ذكر مكان وتاريخ الطبعة، ص٥.

(٢٧) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص ٤٦٦.

(٢٨) نفذ أكثر من خمسين غزوة في شمال وشمال غرب الأندلس ووصل إلى مواقع لم يصلها عربي قبله أو بعده مثل شنت ياقب.

(٢٩) الإدريسي، **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، طبعة لين، ١٨٦٤، ص ١٩٢. الحميري، **الروض المختار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، ١٩٧٥، ص ٥٣٨.

(٣٠) الحميري، المصدر السابق، ص٥٣٨.

(٣١) ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص . الحميري، المصدر السابق، ص وما بعدها. ابن حزم المصدر السابق.

(٣٢) ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص٧٢ .

(٣٣) بدأت هذه الزيادات منذ عصر هشام الرضا الذي حكم من ١٧٢-١٨٠هـ.

(٣٤) ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص ٨٢. و ٢٣٠. عبد العزيز سالم، **المساجد والقصور في الأندلس**، ص١٩، وما بعدها. حمد ختار العبادي، المرجع السابق، ص٢١٢.

(٣٥) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص٧٦. ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص٢٨٨.

(٣٦) ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص ١٢١.

(٣٧) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٣٨) ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص ٢٨٦.

(٣٩) العلمانية هي نظام يعتمد على فصل الدين عن الدولة، ويعول على مسألة المواطنة، فجميع المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات، بغض النظر عن الدين أو العقيدة أو الجنس.

(٤٠) عمر فروخ، **العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط**، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٨١، ص١٨٤.

(٤١) خير الله طلفاق، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٤٢) النباهي، المصدر السابق، ص٥٦-٥٧. ابن خلدون، **العبر**، ج٢، ص ٣٩٠.

(٤٣) **شجرة النور المزكية**، ص ١٧٧.

(٤٤) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص ٣٠٣-٣٠٤. المقري، **نفح الطيب**، ج١، ص ١٩٩. ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٢٣٩.

(٤٥) ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ق١، ج٢، ص٢٦٦ وما بعدها.

(٤٦) مجموعة من العبيد من أصول أوروبية شرقية،اعتمد عليهم العرب بالأندلس ولاسيما في عصر الخلافة الأموية في مجالات الخدمة العامة، وتطور الأمر إلى أن استخدموهم في القيادة العسكرية والإدارية.

(٤٧) حكم هذا الخليفة من سنة ٣٥٠-٣٦٦هـ.

(٤٨) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٤٤.

(٤٩) استمرت طبقة المستعربين في موقفها المتعاون مع العرب بقرطبة وغيرها حتى وقت متأخر من عصر الموحدين بالأندلس،

(٥٠) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة**، ص ١٥٥ وما بعدها.

(٥١) أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٥٢) العذري، **ترصيع الأخبار**، ص ٧٢ وما بعدها، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٥٣) القاضي النعمان، **المجالس والمسايرات**، ج١، ص ٢٣٠ وما بعدها، ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص ٢٤٧.

(٥٤) الحميري، المصدر السابق، ص ٧٣. المقري، المصدر السابق، ج١، ص١٥٧.

(٥٥) ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج١، ص ٢٥٢. أحمد المكناسين، **المدن الفارسية المندرسة في شمال المغرب**، ص ٤.

(٥٦) ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج٢، ص ٣١٨ وما بعدها.

(٥٧) ابن عذارى، المصدر السابق، ج٢، ص ٣١٣. المقري، **نفح الطيب**، ج١، ص ٣٢٤.

(٥٨) ابن خلدون، **العبر**، ج٤، ص ١٤٣. المقري، **نفح الطيب**، ج١، ص ٣١٢.

(٥٩) حكم كمغتصب للخلافة من سنة ٣٦٧-٣٩٢هـ.

(٦٠) المقري، **نفح الطيب**، ج١، ص ٣٧٢. وما بعدها. ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٥٨ وما بعدها، عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، طبعة القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٨. ابن عذارى، المصدر السابق، ص٣٧٥.

المصادر والمراجع

١- المقري، نفح الطيب، ج١، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

٢- مقدمة ابن خلدون، طبعة بيروت، بدون تاريخ.

٣- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ط٢، ١٩٦٦.

٤- ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، المعهد الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥.

٥- ابن الآبار، الحلة السيراء، ج١، تحقيق حسين مؤنس، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦٣.

٦- آنجل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦٣.

٧- ابن أبي إصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، الطبعة الأولى، المطبعة البهية، ١٨٨٢.

٨- علي أحمد، معجم أطباء المغرب والأندلس، طبعة دمشق، ١٩٩٥.

٩- خير الله طلفاق، حضارة العرب في الأندلس، طبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٧.

١٠- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم.

١١- أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس.

١٢- محمود علي مكي، مدريد العربية، طبعة وزارة الثقافة، مصر.

١٣- ابن عربي، محاضرة الأبرار، ج١، طبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٤هـ.

١٤- ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢.

١٥- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥.

١٦- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، بدون ذكر مكان وتـاريخ الطبعة.

١٧- ابن حزم، جمهرة الأنساب.

١٨- الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأنـدلس، طبعـة لـين، ١٨٦٤.

١٩- الأقطار، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، ١٩٧٥.

٢٠- ابن الخطيب، أعمال الأعلام. دون تاريخ.

٢١- عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٨١.

٢٢- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق١، ج٢.

٢٣- العذري، ترصيع الأخبار.

٢٤- أحمد المكناسين، المدن الفارسية المندرسة في شمال المغرب.

٢٥- ابن خلدون، العبر.

٢٦- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، طبعـة القـاهرة، ١٩٤٩.

ملامح "المدرسة الواقعية" في الفكر السياسي العربي – الإسلامي (ابن المقفع نموذجاً)

الدكتور سمير إسماعيل

قسم الدراسات السياسية

كلية العلوم السياسية

تقديم عام:

إن للشخصية الفكرية الكبرى صيرورة تاريخية وثقافية معقدة، الأمر الذي يجعل منها عالماً متعدد الجوانب والاحتمالات، بمعنى إمكانية اكتشاف وإعادة اكتشاف الأبعاد الدفينة والعميقة في إبداعها النظري وأثرها الفعلي بالنسبة للثقافة وتاريخ الفكر. ولعل عبد الله بن المقفع من بين أكثر الشخصيات بروزاً بهذا الصدد. فقد كان ولا يزال من بين الكوكبة الفكرية التي حاصرها الذوق النقدي بمعاييره الخاصة بحيث رفعها إلى مصاف الأنموذج الكلاسيكي المتميز في تاريخ الأدب العربي والإسلامي. وهي "محاصرة" لم تكن معزولة عن تقاليد التخصص والاحتراف الخاصة آنذاك بفكرة الفنون والعلوم العربية والإسلامية، بمعنى إدراكها لأهميته التاريخية والفكرية بالنسبة لتأسيس الذوق الأدبي الجديد في الحضارة العربية الإسلامية. الأمر الذي أبقى على أهمية وحقيقة الأبعاد الأخرى في إبداعه النظري خارج حدود التداول النقدي العلمي، وبالأخص ما يتعلق منه بدوره الهائل بالنسبة لتأسيس الفكرة السياسية والفلسفة السياسية.

من هنا فإن غاية هذا البحث تتجه إلى الكشف عن حدود المساهمة الفكرية لعبد الله ابن المقفع في تاريخ الفكر السياسي، وبشكل خاص مساهمته الأصيلة في وضع قواعد السياسة العملية، أو ما سيعرف في العصور الحديثة باسم "المدرسة الواقعية" إضافة. إلى ذلك، فإن سياق البحث يفترض بعض الإشارات المنهجية المتعلقة بالتراث السياسي العربي – الإسلامي. فعلى الرغم من وجود عشرات الدراسات المتخصصة في هذا المجال، إلا أنه ما زال حقلاً بكراً للبحث العلمي. خاصة إذا ما عرفنا أنْ كمّ المصادر التراثية التي اعتمدها الباحثون المعاصرون في دراساتهم لا تتعدى في أحسن الأحوال ٦% من مجموع ما تم الكشف عنه حتى الآن من مصادر التراث السياسي العربي الإسلامي[١]. وهذا يعني أن أغلب الدراسات المعاصرة في هذا المجال، تعاني من خللٍ منهجي في كيفية تصديها لإشكاليات الفكر السياسي العربي – الإسلامي، وبالأخص عند تلك الشخصيات التي جرى تصنيفها "النهائي" ووضعها ضمن ميادين استقرت في الوعي التقليدي وارتقت إلى مصاف البديهة. وقد يكون من بين أكثر هذه النماذج "المنهجية" هو الانطلاق من "النموذج الإغريقي" وقياس الإبداع النظري والعملي للآخرين عليه[٢]. حيث يتّم غالباً البحث فيه عن الأفكار والمعالجات والمقولات التي تتماشى مع النسق الإغريقي في العلوم السياسية واعتبار كل ما لا تتوافر فيه خصائص هذا النسق خارج إطار علم السياسة. وذلك إدراكاً لحدود وآثار الاختلاف بين النسقين وضرورة فهم كل منهما في ضوء بنائه الداخلي ومسلماته المعرفية، وهذا ما يفسر برأينا أحد الأسباب العميقة لعدم الاعتراف بمكانة "العلم السياسي" عند ابن المقفع والاكتفاء بتصنيفه في إطار الأدب والبلاغة، أو في أحسن الأحوال إطلاق تعميمات سريعة مثل القول، بأن كتاباته لا تتعدى (أدب النصيحة) أو مرايا الأمراء)، ومن ثم التخلي عن أية محاولة ذهنية نقدية لرؤية موضوعات العلم السياسي في كتاباته[٣].

فإذا كان الفكر السياسي بمعناه العام يرتبط بظاهرة "القوة"، وما يرافقها من تأمل لظاهرة الدولة والسلطة، فإن ما وضعه ابن المقفع بهذا الصدد، يعطي لنا إمكانية القول أنه يمثل حلقة مهمة جداً في تاريخ الفكر السياسي العربي - الإسلامي والعالمي. وأن مجمل كتاباته تنطوي على رؤية أصيلة ترقى إلى مستوى المنظومة الفكرية المتكاملة. وهو ما يسعى البحث للبرهنة عليه.

الفصل الأول: المفاهيم المؤسسة للفكر السياسي عند ابن المقفع:

المطلب الأول- مقدمة عن الطبيعة البشرية:

تبدو العلاقة بين "الفعل السياسي" و"الطبيعة البشرية" موضوعاً شديد الوضوح لدى ابن المقفع. ففي جميع كتاباته نعثر على ربطٍ واضحٍ وجليٍّ بين سلوك البشر وطريقة تعاملهم مع الأشياء والقضايا والظواهر. فإذا كان البعد السياسي يشكل الهاجس الرئيس عند ابن المقفع، فإن من الطبيعي أن تحتل قضية "الطبيعة البشرية" مكانة متميزة في منظومته الفكرية، باعتبار أن البشر في نهاية المطاف هم "مادة" الفعل السياسي وغايته أيضاً. غير أننا لا نعثر عنده على تعريف واضح ومحدد لمفهوم الطبيعة البشرية. وهو ما ينسجم مع صفته كمفكر سياسي واقعي تشكل المعطيات المنجزة والقائمة في العالم الموضوعي نقطة انطلاقه. بحيث لا يتجه إلى البحث عن تفسيرات لاهوتية أو مجردة عن الخير والشر، بل يكتفي بتقرير وتحديد مظاهرهما المختلفة من خلال وصف وتصنيف السلوك الإنساني وبيان انعكاساته وتأثيراته على الشأن السياسي أو متعلقاته الاجتماعية.

وليس مصادفة أن نراه ينظر إلى الإنسان باعتباره "أشرف الخلق" وأنه ليس فيما "خلقه الله شيء أفضل من الإنسان"، لكنه حالما ينتقل إلى عالم المصالح والملكية والسلطة، فإنه يؤكد تباينهم في هذا الشرف. فقد كتب بهذا الصدد مافحواه: إنه "قد يكون في بعض البهائم والطير والسباع ما هو أوفى ذمة من الإنسان، وأشد حفاظاً على

حرمة، وأشكر للمعروف وأقوم منه"(٤). ذلك يعني أنه تناول إشكاليات الخير والشر وغيرهما من وجهة نظر تأثيره الاجتماعي والسياسي. فقضية الشر على سبيل المثال، بالنسبة لابن المقفع ليست قضية جزئية أو شخصية، بقدر ما هي قضية سياسية كبرى. بمعنى ربطه إياها بأثرها المحتمل على تهديد الدولة بالفوضى والاضطراب إذا ما توفرت الظروف المناسبة لانبثاقه، ومن هنا كانت فكرته عن ضرورة أن يتخذ "صاحب السلطان" كل الاحتياطات اللازمة التي تحول دون ذلك. وكتب بهذا الصدد يقول: إنه ما من "أحد له أدنى عقل يفهم هذا ثم لا يحتاط لنفسه منه ولا يعمل لنجاتها ويلتمس الخلاص لها، إلا وهو ضعيف الرأي قليل المعرفة بما عليه وله"(٥).

مما سبق نرى، بأن موضوع "الطبيعة البشرية" شديد الأهمية لفهم العلاقة بين السلطة والرعية. فإذا كان "البشر لا يتقلبون إلاّ في الشر ولا يوصفون إلا به"، وإذا كانت "أهواؤهم متباينة وكل على كل عاد وله عدو ومغتاب وفيه واقع"(٦)، فإن مهمة الحاكم تقوم في القدرة والمعرفة بالأدوات اللازمة التي تمكنه من سياسة الرعية وضبط حركتها بما يؤمن استمرار السلطة وأدائها لمهامها لما فيه مصلحة الجميع. ومع ذلك تجدر الإشارة هنا إلى أن ابن المقفع عندما يضع قواعد السياسة العملية التي يتوجب على صاحب السلطان التقيد بها في إدارة شؤون الدولة، فإنه لا يقوم بابتداع هذه القواعد بقدر ما يقوم باستخلاصها من ميدان الممارسة كما يطبقها الحكام أنفسهم. بمعنى استخلاصها من تأمل الحصيلة الفعلية لتاريخ السلطة السياسي. بعبارة أخرى، اننا نقف أمام ما يمكن دعوته باستخلاص تجارب الواقعية السياسية في تاريخ الدول. وذلك لأن سلسلة الانتصارات الفعلية في التاريخ السياسي للدولة يرتبط ويقترن ويتلازم باعتماد الواقعية في الممارسة، أي كل ما يمكن العثور عليه في تجارب السلطة الناجحة والفاشلة على السواء(٧).

المطلب الثاني: مقولة المصلحة أو معادلة النفع والضرر:

تتخلل فكرة "المصلحة" المنظومة الفكرية السياسية لابن المقفع بكاملها. إذ لا نعثر عنده على أية مقاربة لقضايا الوجود الاجتماعي السياسي، إلا ونجد فكرة المصلحة حاضرة في رؤيته لها. وهذا أمر طبيعي، بل وملازم للواقعية السياسية أيضاً.

تستند فكرة المصلحة عند ابن المقفع على مقدمة مفادها أن الإنسان كائن ذو حاجات، وأنه في سعيه لتلبية احتياجاته يأخذ بما ينفعه ويتجنب ما يضره. وأن عقله يرشده إلى ما هو نافع وما هو ضار، فقد كتب بهذا الصدد بأن: "لكل مخلوق حاجة، ولكل حاجة غاية، ولكل غاية سبيلاً. والله وقّت للأمور أقدارها وهيّأ إلى الغايات سبلها وسبب الحاجات ببلاغها. فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد والسبيل إلى دركها العقل السليم، وإمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر، وتنفيذ الأمور بالعزم"(٨).

ومما هو واضح من كتابات ابن المقفع، أن مقاربته لفكرة المصلحة، إنما تتم من خلال ثلاثة أشياء وهي السلطة والقوة والمال، أي كل ما له علاقة بالمنافع المادية المباشرة، دون أن يعني ذلك تغافله عن المنافع ذات الطابع الروحي. لكنه يجعل من "المنافع الروحية" تابعة للأولى. وهي فكرة مبنية على معايير سياسية بحتة تقول: بأن المنافع الروحية ليست غاية بذاتها إلا بمقدار ما تؤازره وتعضد صاحب السلطان للتمكن من أمره. ذلك يعني أن موضوع المصلحة والنفع والضرر لا يستند في رؤية ابن المقفع إلى قاعدة دينية أو قاعدة أخلاقية إلا بمقدار ما يساهم ذلك في الوصول إلى غايته وتحقيق مصلحته. فعلى الرغم من أننا عثرنا عنده على دعوات متكررة لتمثل نظام قيم محددة في سلوك الإنسان (والسلطان أيضاً) تجاه الآخرين، مما "لا يقوم على ما يضر الناس أو يسوؤهم إلا أهل الخيانة والسفه"(٩)، وما شابه ذلك، إلا أنه لا ينبغي فهم ذلك بمعايير الدعوة الإنسانية المجردة أو حتى الدعوة للامتناع عن الإضرار بالآخرين، بقدر ما هو تحذير شديد من ارتداد فعل "الضر بالناس" على صاحب الفعل

نفسه. وهي الفكرة التي وضعها بعبارة تقول: إنَّ مصلحة العاقل أن يمتنع عن ضررّ الآخرين، لأن في ذلك نفع له، والعاقل من يدرك أن في نفع الآخرين مصلحة له، ومن هنا تأتي ضرورة مبادرته إلى فعل الخير. فالصياد الذي "ينثر الحب للطير، لا يرجو منفعة الطير بل منفعة نفسه" كما يقول ابن المقفع(١٠). وإذا كان مظهر هذه العبارة يبدو كما لو أنه يخاطب الإنسان الفرد في علاقته مع الآخرين، إلا أن المخاطب الحقيقي فيها هو السلطان. وعلى هذا الأخير أن يفعل كل ما بوسعه لجلب النفع له وإبعاد الضرر عنه. فمن مصلحته أن تنقاد الأمور له وأن تدين الرعية بالولاء له. وهذا يتطلب منه أن يؤدي لها كل خير ممكن، لأن في ذلك نفع له، وأن يتجنب كل أذية لها، لأن في ذلك ضرر له. لقد كتب ابن المقفع في مجرى تأسيسه نظرته هذه، بأن: "العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسرّه". وأبرز ذلك من خلال الخطاب الذي كان بيدبا الفيلسوف، يتفوه به أمام دبشليم الملك، مبيناً له مصلحته في سياسة الملك بالمداراة والرفق، والمنافع التي تحصل له: "أيها الملك السعيد... الأولى والأشبه (الأصلح) بك أن تسلك سبيل أسلافك وتتبع آثار الملوك قبلك وتقفو محاسن ما أبقوه لك. وتقلع عمّا عاره لازم لك وشينه واقع بك، وتحسن النظر برعيتك وتسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره ويعقبك الجميل فخره، ويكون ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة"(١١).

مما سبق يبرز السؤال حول وجود قاعدة ثابتة ينبغي على السلطان اتباعها في تقرير ما هو في مصلحته وما هو في غير مصلحته. وما الذي يحدد أن هذا الفعل أو ذلك ضار أم نافع؟ وقد كانت إجابة ابن المقفع تتصف هنا بالواقعية أيضاً. بمعنى تجنبه إطلاق الأحكام المطلقة. فقد كان يعي تغير قواعد السياسة العملية، وتغير مفاهيمها تبعاً لتغير الأوضاع والأحوال. فوقائع وتاريخ السلطة تؤكد هذه النظرة، وعالم المصالح عالمٌ متغير متبدل، وأن ما ينفع السلطان اليوم قد ينقلب عليه ضرراً في يوم آخر.

بينما السبيل إلى درك التغير الحاصل في العالم السياسي، ومعرفة السلوك الصحيح الواجب اتباعه في كل حالة، وتمييز النافع من الضار، ومتى يصبح النافع ضاراً والضار نافعاً، والاحتياط لذلك كله، إنما هي عملية بالغة الدقة والتعقيد، ولا يمكن الإحاطة بكل جوانبها دفعة واحدة. وبالتالي فإنها ينبغي أن تكون مادة للتأمل الدائم والعقل الفاحص والتجربة، مشفوعة بالحذر وحساب دقيق للعواقب والنتائج. آنذاك يصبح "أحق الناس بالتقدير الملك الحليم، العالم بالأمور وفرص الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضا والمعالجة والأناة، الناظر في أمر يومه وغده وعواقب أعماله"(١٣). ولا يغير من هذه الحقيقة تنوع وتعدد التغييرات المختلفة مثل الزهد، والورع، والتقى، التي يمكنها أن تثير الالتباس بهذا الصدد.

فعندما نتتبع ملامح هذه التعابير عند ابن المقفع، فإن مضمونها الفعلي والحقيقي غالباً ما يرتبط بأعقاب إخفاق سياسي يتمثل في عدم القدرة على الوصول إلى السلطة، أو الفشل في المحافظة عليها. آنذاك يصبح اعتزال المجتمع والعزوف عن متع الدنيا والتلذذ بمتعة الروح تعويضاً "وهمياً" عمّا أخفق فيه المرء في عالم المصالح المادية والسياسية. وقد أشار ابن المقفع إلى هذه الحالة بدقة صريحة بقوله: "فإذا رأيت نفسك تصاغرت إليها الدنيا، أو دعتك إلى الزهادة فيها على حال تعذّر من الدنيا عليك فلا يغرنّك ذلك من نفسك على تلك الحال، فإنها ليست بزهادة، ولكنها ضجر واستخذاء وتغيّر نفس عندما أعجزك من الدنيا وغضب منك عليها مما التوى عليك منها"(١٤).

المطلب الثالث- الغاية والوسيلة:

يعرض ابن المقفع قائمة طويلة من القيم الأخلاقية المجردة التي يرى أن على "العاقل" التخلّق بها في سلوكه تجاه نفسه والآخرين، كالصدق والوفاء والحلم والصبر والكرم

والتضحية للصديق ببذل الدم والمال وغير ذلك مما يراه مدعاة للفوز في الدنيا والآخرة[١٥]. لكنه حالما ينتقل من عالم "الخلاق الفردية" إلى عالم السياسة والسلطة والمصالح المادية، فإنه سرعان ما ستكشف بأن "مثال" الأخلاق الفردية يبدو غريباً عن هذا العالم، لا بل قد تتحول القيم الأخلاقية النبيلة إلى مصدر خطر حقيقي يتهدد أصحابها أنفسهم. من هنا مخاطبته العاقل بقوله: "لا تأمن أنفة الملوك إن أعلَمْتَهمْ ولا تأمن عقوبتهم إن كتمتهم ولا تأمن غضبهم إن صدَقتَهم"[١٦]. وإذا كانت القيم الأخلاقية العليا كالصدق والوفاء بالعهد، ضرورية للشخص العاقل في تعامله مع الآخرين فإنها قد تقود الدولة والسلطة إلى الهلاك والدمار. وليست هذه النتيجة اختراعاً لابن المقفع، بقدر ما هي تدقيق وتحقيق للرؤية الواقعية في مجرى تجارب الدول والسلطات وعالم المصالح. وأن ما فعله ابن المقفع بهذا الصدد، لا يتعدى كونه سجل لنا ما رآه قائماً بالفعل من "قواعد السياسة العملية"، التي يمارسها الناس من أجل الوصول إلى السلطة أو الحفاظ عليها.

ومن هنا، فليس دقيقاً ما ذهب إليه البعض في وصفهم لنظام القيم عند ابن المقفع بالانتهازية والازدواجية[١٧]. فابن المقفع، يتطلع إلى تطابق النظر والعمل، والأخلاق والسياسة في شخصية رجل السياسة والسلطان. وأنه من الأفضل لو استطاع أن يحمل كل القيم الإنسانية النبيلة وأن يتبع الوسائل الأخلاقية الشريفة في سلطانه، فهذا غاية ما تصبو إليه الرعية وتسمو نحوه الإنسانية. غير أن ابن المقفع يرى أن ذلك صعب التحقيق، بل يكاد يكون مستحيلاً ما دام عالم السلطة هو عالم الحذر والريبة والدسيسة والفتنة، وما دام السلطان محاطاً بكل صنوف الطامعين والحاقدين والمتآمرين. وهنا ينبغي للسلطان أن يختار الوسائل التي تعود عليه بالنفع وتحفظ سلطته ويتجنب منها ما يضر بقاء السلطة وقوتها، دون النظر إلى طبيعة ما تحمل هذه الوسائل بذاتها من طبيعة خيّرة أو شريرة بل بما تؤديه من فعالية في خدمة الغاية النبيلة التي هي السلطة. لقد وضع ابن المقفع هذه الفكرة من خلال العبارة التي قالت بها والدة الملك

بعد أن قتل أحد أصدقائه ومستشاريه: "إن كنت ترى أن لك في قتله فرجاً لا ينبغي لك أن تحزن"[١٨]. فمنطق السلطة حسب ابن المقفع- يقتضي من السلطان أن يعـرف أن الأعمال الخيرة لا تقاس هنا بمقدار توافقها مع المثل الأخلاقية العليا، بل بمقـدار مـا تقود إلى النجاح في الوصول إلى الغاية المرجوة. انطلاقـاً مـن أن "خيـر الأعمـال أحمدها عاقبة"[١٩]. وهو ما يرتب على العاقل "أن ينظر فيما يؤذيه وفيما يـسره"[٢٠]. وأن يدرك أنَّ نبل الغاية يضفي الفضيلة على السلوك المتبع لبلوغها أياً كان، "فإنه من احتمل مشقة يرجو نفعها ونحى عن نفسه الأنفة والحمية ووطنها على الـصبر حمـد غبّ رأيه" ولو أن رجلاً حمل عدوه على عنقه وهو يرجو هلاكه وراحته منـه لكـان ذلك عنده خفيفاً هيناً"[٢١]، وأن "العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذي يخاف من عدم تحمله الجائحة على نفسه وقومه لم يجزع من شدة الصبر عليه لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة وكثير الخير، فلم يجد لذلك ألماً ولم تكره نفسه الخضوع لمن هـو دونه حتى يبلغ حاجته وعاقبة صبره"[٢٢]. فالوسيلة المنافية لما هو متعارف عليه مـن مفاهيم وقيم أخلاقية، تتحول إلى وسيلة مشروعة إذا كان في استخدامها منفعة، كـأن يُضحي بإحدى الشخصيات الكبرى في المجتمع في حالات معينة بغية تفـادي خطـر يتهدد النظام.

من هنا قوله: "إذا عرف الملك أن أحد رعيته قد ساواه في المنزلة والحال فليـصرعه، فإن لم يفعل به ذلك كان هو المصروع"[٢٣]. بل قد تتطـور الأمـور إلـى التنكيـل بالمرجعيات الاجتماعية الدينية والفكرية إذا ما عملت على التدخل في شؤون الـسلطة وتأليب الرأي العام. وبهذا الصدد يخاطب دبشليم الملك بيدبا الفيلسوف بعد أن تكلم هذا الخير بكلام لا يجرؤ عليه أحد حول مفاسد السلطة: "ما أجد في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك، فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رُمْتَ أنت من الملـوك إذا أوسعوا لهم في مجالسهم، ثم أمر أن يقتل ويصلب"[٢٤].

يتضح مما سبق أن ابن المقفع يرى أن لا وجود للشر الخالص، أو الخير الخالص في الواقع السياسي، فكلّ عمل -كما يرى- يحتوي بذاته على عناصر خيّرة أو شريرة، والعبرة في النتائج. وكتب بهذا الصدد يقول: بأن "صاحب العمل وإن قصر به القول في مستقبل الأمر كان فضله بيّناً واضحاً في العاقبة والاختيار". لكن عليه أن "يدبز الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها، فما رجا أن يتم له منها أقدم عليه وما كان يتعذر عليه منها انصرف عنه ولم يلتفت إليه"[٢٥].

ومن الممكن تدقيق هذه الفكرة من خلال تحليلنا لمواقف ابن المقفع من قضايا العهود والمواثيق، بصفتها إحدى القضايا التطبيقية لعلاقة الوسيلة بالغاية وكيفية تعامل الملوك معها. إذ يرى ابن المقفع أن الوفاء بالعهود والمواثيق إنما يحدده بشكل أساس مقدار النفع أو الضرر الذي يترتب على الالتزام أو النكوث بها. ويسرد لنا على ألسنّة بعض الحيوانات حكاية[٢٦] تبدو رموزها شديدة الوضوح والدلالة، فرغم أن الأسد (=الملك) يدرك أنه "لم يتصدق متصدق بصدقة هي أعظم أجراً ممن آمن نفساً خائفة وحقن دماً مهدوراً"، إلا أن حقائق الواقع التي تخضع لمعالجة النفع والضرر، ستدفع به إلى التضحية بعهوده ومواثيقه، ما دام يجد في ذلك مخرجاً له من أزمة تتعرض لها السلطة.

ويتضح من سياق هذه الحكاية أن الملك قد نزلت به حاجة اقتضت منه نقض العهد. غير أنه لم يكن قادراً على التظاهر بإعلان ذلك، فلجأ إلى إخفاء الأمر وإعلان عكسه تماماً، وأيضاً لا يجوز له مباشرته بنفسه ولا أن يأمر أحداً بتنفيذه صراحةً. لأن في ذلك اتهام للملك، وهذا أمر غير جائز، إذاً عليه البحث عن مبررات نقض العهد، وهو ما قام به أحد أعوانه عندما قال "نحتال له بحيلة لنا وله فيها صلاح وظفر". فنقض العهد وإهلاك صديق وسيلة غير شريفة. وبمعايير الأخلاق المجردة فإن الخيانة "شر ما عمله الإنسان"[٢٧]، ولكن الغاية نبيلة إذ فيها "صلاح وظفر" وخروج من "المصيبة" التي وقع فيها السلطان والرعية، حينذاك يصبح غير الشريف من الناحية الأخلاقية،

شريفاً ومشروعاً من الناحية السياسية. وهنا تمثّل واضح لمقولة: "أفضل الأعمال أحمدها عاقبة" حتى ولو تجاوز الأمر حدودها الضيقة، وامتدت التضحية لتشمل الجماعة ذاتها من أجل مصلحة الملك".

تبقى مسألة نرى ضرورة الإشارة إليها، ولو بشكل سريع، فماذا لو أن السلطان اعتمد في إدارة شؤون الدولة وسياسة الرعية على الوسائل المشروعة أخلاقياً ورفض ما دونها؟ سؤال مهم يجيب عليه تاريخ الفكر السياسي والفلسفة السياسية بصيغتين مختلفتين. الأولى مثلها خط سقراط وأفلاطون وفحواها التطابق بين الأخلاق والسياسة. أما الثانية فهي التي يمثلها ابن المقفع في عصره، وميكافيلي في العصور الحديثة[٢٨]. وخلاصة الصيغة الأخيرة أنه رغم جاذبية الوسائل الأخلاقية في سياسة الرعية، إلا أن ما هو ثابت في تاريخ السلطة الفعلية، هو أن من اعتمد هذه الصيغة سوف يكتشف، ولكن بعد فوات الأوان، وانهيار كل شيء أن "الدنيا مملوءة بالآفات والشرور"[٢٩]، وأنه ليس شيء أقل من شكر الإنسان"[٣٠]، وأن أخلاق الحاكم ومناقبه المثالية لن تنفعه بشيء عند أول أزمة يتعرض لها. إذ سرعان ما تنفض الرعية عنه وتنقلب ضده لتلتحق بخصومه وأعدائه! وهي نتيجة وضعها ابن المقفع في فكرة تقول، بأن :"الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون في أمورهم... فالأمين منهم غير متحفظ من إتيان الخيانة... وذوي الدين عير متورّع عن تفريط الفجرة والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر. يتناقضون البناء ويتراقبون الدول... ومولعون في الرخاء بالتحاسد وفي الشدة بالتخاذل"[٣١].

مما سبق يبدو واضحاً أن ابن المقفع ينظر إلى الرعية باعتبارها لا تقيم وزناً للمثل العليا إلا بمقدار توافقها مع مصلحتها المباشرة، وأنه بمجرد زوال المصلحة تغدو الأخلاق بلا معنى، عندئذٍ تنقلب الرعية إلى من تجد عنده القوة والمنفعة وتميل إلى من يمتلكها وتدافع عنه، بل وقد تقتل حكامها وأنبياءها إذا تطلب الأمر ذلك!

المطلب الرابع: الحظ أو (القضاء والقدر):

يدل العلم السياسي على أن ظهور متغير جديد على معادلة القوة في العالم السياسي يؤدي إلى تغير في مجريات الأحداث ونتائجها. وقد عبّر ابن المقفع عن هذه الفكرة من خلال ما أسماه في غير مكان من كتاباته بعبارة القضاء والقدر. وإذا كان ابن المقفع قد رأى أن على "الإنسان العاقل" أن يصدق بالقضاء والقدر ويعلم أن ما كتب سوف يكون، فإن حقيقة رؤيته بهذا الصدد لا علاقة لها بالرؤية اللاهوتية والإيمان الديني. غير أن ابن المقفع لم ينظر إلى هذه القضية بمعيار واحد، ومن ثم لم يحصر فهمه إياها ببعد واحد. وقد رصدنا من خلال تتبعنا لهذه الفكرة في كتاباته صنفان من القدر. وتتعلق نتائجه بالإدارة الإنسانية. فإذا كان البشر لا يستطيعون أن يحولوا دون وقوع القدر، إلا أن بمقدورهم أن يخففوا من آثاره السلبية، لا بل وأن يحولوا نتائجه لمصلحتهم. والمسألة هنا مرهونة بالإنسان ذاته. وكتب ابن المقفع بهذا الصدد يقول، بأن: العاقل هو الذي "يجمع مع التصديق بالقدر الأخذ بالحزم والقوة لعل ما يستسلم له لا يكون مقدوراً عليه"[٣٢]. وأضاف أيضاً قوله بأنه "لا ينبغي للعاقل أن يركن إلى القدر فيتكل عليه ما يجب عليه من السعي والعمل لصلاح معاشه". وإذا ما فعل القدر فعله فليس هو الذي فعل بل "نحن فعلنا ذلك بأنفسنا". وقد كنا "له علة وسبب"[٣٣]. ويقدم لنا ابن المقفع توصيفاً لحالة حظ سيء قاد القدر صاحبها إليها وما يجب عليه أن يفعله للتخلص من الهلاك الذي ينتظره، فيذكر على لسانه: "هذا بلاء قد اكتنفني وشرور تظاهرت عليّ ومحن قد أحاطت بي، وبعد ذلك فمعي عقلي فلا يفزعني أمري ولا يهولني شأني ولا يلحقني الدهش ولا يذهب قلبي شعاعاً فالعاقل لا يفرق (لا يخاف) عند سداد رأيه ولا يعزب عنه ذهنه على حال"[٣٤].

أما الصنف الثاني الذي يتحدث عنه ابن المقفع في كتاباته، فهو القضاء والقدر الذي لا مجال فيه للإرادة الإنسانية، حتى ولو فعلت كل ما هو مطلوب منها. فهو أقرب إلى القوة العاتية التي لا يمكن لأحد أن يحول بينها وبين مبتغاها فلا ينفع معها عقل أو

حذر أو حيلة. وفي هذه الحالة فإن الإنسان "وإن اجتهد في التوقي
يخاف منها على نفسه من الهلاك، لم يغنِ عنه شيئاً". غير
ملامح النزعة الجبرية الساذجة، كما يمكن أن يوحي
غيرها مما يتردد في كتاباته. وذلك لارتباط هذه ال
لحتمية فساد الأشياء والبشر والمجتمعات والدول
ملازم لطبيعتها، وإذ يبدأ سريان قانون الفساد على
إيقافه حتى يصل إلى نهايته، عندئذٍ يموت القديم ليحل م
وقد عبر ابن المقفع عن هذه الفكرة بشكل واضح في كتا
قال، بأنه "لا يزال الرجل مستمراً ما لم يعثر، فإن عثر مرة واحد
لجّ به العثار، وإن مشى في حَددٍ لأن هذا الإنسان موكل به البلاء، فلا
تصرف وفي تقلب لا يدوم له شيء ولا يثبت معه، كما لا يدوم لطالع النجوم طل
ولا لآفلها أفوله، ولكنها في تقلب وتعاقب، فلا يزال الطالع يكون آفلاً والآفل
طالعاً"(٣٥).

المطلب الخامس: معادلة الدين والسياسة:

ليس من مهام هذا البحث التصدي للنوازع الإيمانية المتعلقة بما يسمى بحقيقة أو عدم حقيقة إيمان ابن المقفع، وذلك لما فيها من نزوع لا علاقة له بالعلم ومتطلباته وشروطه. وإذا كانت هذه المقدمة تختلف عما هو سائد في أغلب الكتابات التي تناولت إيمان ابن المقفع (من حيث التجريم أو التبرئة)، فإن ما لا شك فيه، أن موضوع الدين وما يتصل به من قضايا الورع والتقوى والإيمان بالله واليوم الآخر ما شابه ذلك قد احتل موقعاً لا يمكن إغفاله في مختلف كتبه ورسائله. وإذا كان من السهولة العثور على "اضطراب" أو "حيرة" في تناول هذه الموضوعات، فإن من الخطأ إخضاع ذلك لمسلمات "العقل الإيماني". فابن المقفع ليس فقيهاً أو عالم دين أو صاحب طريقة أو مذهب. كما أنه ليس واعظاً أو داعية دينياً. ولكنه مفكر عقلاني يعبر عن جموح العقل

في مجرى إجابته على الأسئلة المتعلقة "بالحقائق الأبدية" التي يقدمها الدين. بعبارة أخرى إن الرجوع إلى القضايا الدينية أو تناولها كانت مجرد جزء من تأمله الفكري لإشكاليات الوجود السياسي والتاريخي، كما في قوله: "كلما تحرّزت من تصديق ما لا يكون ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في تهلكة، عدت إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عند أحد في كلمته جواباً فيما سألته عنه فيها. ولم أرَ فيما كلموني به شيئاً يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه"(٣٦). من هنا طول تقلبه- كما يروي ذلك على لسان برزويه. بحيث نسمعه يقول بأنه: كلما همت نفسه بالركون إلى "يقين" سرعان ما يجد أن ليس "لها على الثبوت طاقة"(٣٧). ففكر أن عمره قد يفنيه في التردد، وهو ما سيحول بينه وبين القيام بأعمال أكثر نفعاً. من هنا استنتاجه القائل: "كنت أعمل أموراً محمودة أرجو أن تكون أصلح الأعمال. ولعل ترددي شغلني عن خير كنت أعمله فيكون أجلي دون ما تطمح إليه نفسي ويطلبه أملي"(٣٨). وحالما يصل ابن المقفع إلى هذا المنعطف الحاسم نراه يستبدل قلق اليقين بيقين الواقع. وهي الصيغة التي تكشف أولاً وقبل كل شيء عما يمكن دعوته بملامح النزعة الواقعية في الموقف من الدين. وهو ما عبر عنه بصيغة يمكنه الاطمئنان إليها بعد ما رآه من قواسم مشتركة بين معطى العقل ومعطى الدين. وكتب بهذا الصدد يقول: "فلما خفت من التردد رأيت أن لا أتعرض له ولا لما أتخوف منه المكروه. واقتصرت على كل شيء تشهد به العقول وتتفق عليه أهل الأديان ويرى أنه صواب وحق"(٣٩). فالدين أحد مكونات الوعي الإنساني ولا يمكن القفز من فوق هذه الحقيقة. وإن الشك بأسسه المعرفية من وجهة نظر الواقعية السياسية لا يقدم عملية، إذ هو "أفضل المواهب التي وصلت من الله إلى خلقه وأعظمها منفعة"(٤٩). وإن تاريخ السلطة يبرهن على حيوية وأهمية المنظومة الدينية في الممارسة السياسية، وفي الوسائل التي تتبعها السلطة لتثبت أركانها أو الوصول إلى غايات محددة. وضمن هذا السياق ينبغي فهم واقع حضور الدين في منظومة ابن المقفع. بعبارة أخرى، إن الدين بالنسبة لمنظومته

الفكرية السياسية ليس غاية بذاتها، بقدر ما هو تعبير عن إدراكه الدقيق لفعاليته العملية في منظومة السلطة. فإذا كانت "أفضل الأفكار أكثرها نفعاً" حسب المنهجية الواقعية لابن المقفع، فإن لجوء السلطة إليه في خطابها وممارستها للوصول إلى غاياتها وأهدافها يصبح أمراً معقولاً ومقبولاً لحد ما. وقد أورد ابن المقفع في كتاباته العديد من الإشارات العميقة حول هذا الموضوع نذكر منها على سبيل المثال:

- اعتبار كتمان المعلومات التي تضر بالسلطة ذنباً يعاقب عليه الشخص يوم القيامة عندئذٍ يتحول الدين إلى وسيلة فعالة التأثير على ضمائر الناس لنقل خبايا الأمور إلى السلطان، وإلا فإن "من اطلع على ذنوب المذنبين فكتمها عن السلطان فلم يعاقبوا على ذنوبهم عوقب يوم القيامة"(٤١).
- استخدام الدين كوسيلة من وسائل الضغط المعنوي على مرتكبي الأفعال التي تؤثر على استقرار السلطة وأدائها لمهامها وذلك بإقناعهم أن "من اقترف خطيئة أو إثماً ثم أسلم نفسه إلى القتل من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك عفا الله عنه وأنجاه في الآخرة من عذاب النار"(٤٢). مع الإشارة إلى أن "نجاة" الآخرة لا تعني عفو السلطة عنه – كما هو واضح من سياق العبارة المذكورة أعلاه!!
- إنّه من المفيد أن تعمد السلطة إلى اتهام من تجرأ عليها بالكفر، مما يضفي على عقابها شرعية دينية أيضاً، انطلاقاً من أن "الملك حقيق أن لا يتساهل مع من سعى به... وإنه لا ينبغي أن يراجع في أمر الجريء على الغدر الذي لا يوقن بالآخرة وينبغي أن يجزي بعمله"(٤٣).
- إن دفاع السلطة عن بقائها هو فعل يستحق التضحية، ومن الحكمة أن يُرفع هذا الفعل إلى مرتبة العبادة. يقول ابن المقفع على لسان إحدى شخصيات (كليلة ودمنة) "ما أرى إلا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال، فإنه ليس للمصلي في

صلاته ولا للمحتسب في صدقته ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه إذا كانت مجاهدته على الحق"(٤٤).

- إن استخدام السلطة لفكرة القضاء والقدر يضفي على وجودها شرعية تستمد عناصر قوتها من مصدر إلهي. يقول ابن المقفع على لسان ملك في حفل تتويجه: "إنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه، فإن الذي منحني الله هيأه لي إنما كان بقدرٍ ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد. وما كنت أرجو أن أصيب هذه المنزلة، وما كنت أؤمل أن أكون بها. فساقني القضاء إلى أن اعتززت بقدر من الله"(٤٥).

غير أن رؤية ابن المقفع لفاعلية الدين وإمكانية استخدامه في العمل السياسي قد قرنها بالحذر من مسألتين: الأولى وهي استخدام الدين للوصول إلى غايات دنيئة. وقد مهّد لحديثه عن هذا الموضوع بعبارة تقول أن "شر الملوك المخادع"(٤٦). ثم يروي لنا بلغة رمزية سلوك الزهد الذي يتبدى فيما أسماه بعبارة ساخرة "حكومة الصوّام القوّام" التي يمثلها السنور الذي يتظاهر بالعيش "متعبداً يصوم النهار ويقوم الليل كله ولا يؤذي دابة ولا يُهرق دماً"(٤٧)، حتى إذا أنس المخدوعون بكلامه عن التقى والحق والزهد بالدنيا والعمل الصالح "أقبلا عليه ودنوا منه فوثب عليهما فقتلهما"(٤٨). أما المسألة الثانية فخطورة الاستعانة بطبقة رجال الدين الذين تضررت مصالحهم من جراء السياسات المتبعة. فهؤلاء إذا ما تمكنوا من معرفة أسرار السلطة، فإنهم سوف يعملون على استغلالها للإطاحة بها. تماماً كما فعل رجال الدين البراهمة مع الملك إيلاذ(٤٩). فبعد أن أطاحت السلطة بمواقعهم السابقة، نجحوا في كسب ثقتها، فقربتهم منها، فاستغلوا مكانتهم الروحية في الوصول إلى غاياتهم الدفينة، بينما تقتضي الحكمة العملية – في رأي ابن المقفع – أن تتصرف السلطة مع هؤلاء بحذر شديد كما في قوله: "فأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك. واعلم أن البراهمة إنما قالوا ما قالوا لأجل

الحقد الذي بينك وبينهم لعلّهم يهلكونك، وأظنك لو قبلت منهم ظفروا بك وغلبوك على ملكك فيعود الملك إليهم كما كان"[٥٩].

مما سبق نستطيع التوصل إلى أن ابن المقفع قد قارب الدين من مستويين مختلفين: الأول ويتعلق بالأساس المعرفي للدين، وفيه نلحظ أنه رغم إلحاحه الشديد على إخضاع "الحقائق الدينية" لمبضع العقل من أجل الوصول إلى اليقين بها، إلا أن مسعاه في هذا الاتجاه يتوقف – كما رأينا- عند حدود التسليم بما اعتبره قاسماً مشتركاً بين العقل والدين. أما المستوى الثاني فيتعلق بالبعد الواقعي للدين، وفيه نلمس مسعى ابن المقفع لبيان الصيغ المختلفة التي يتم فيها استخدام الدين كوسيلة "نافعة" للوصول إلى غايات سياسية محددة.

وإذ بدت هذه المسألة شديدة الحساسية والأهمية في ظل دولة الخلافة الإسلامية، فإن ابن المقفع قد بلور رؤيته تجاهها في وقت مبكر. إذ رأى ضرورة التفريق بين الديني والدنيوي، أو بين الدين والسياسة، على اعتبار أن لكل منهما مجاله وحدوده وأدواته أيضاً. "فمن أراد أن يبصر شيئاً من علم الآخرة، فبالعلم الذي يعرف به ذلك، ومن أراد أن يُبصر شيئاً من أمر الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه"[٥١].

ومما له أهمية هنا التداخل بين الدين من جهة وتفسيره من جهة أخرى، وبالتالي ضرورة الفصل بينهما. وكتب ابن المقفع يقول، بأنه "قد يشتبه الدين والرأي في أماكن" و"لولا تشابههما لم يحتاجا إلى الفصل". بل نراه يقول: "إن الدين يسلم بالإيمان وأن الرأي يسلم بالخصومة". من هنا جاء تحذيره الشديد كما في قوله: "من جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً، ومن جعل الدين رأياً فقد صار شارعاً، ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له"[٥٢].

وإذا كانت مقاربة المستويين السابقين قد جرت أساساً ضمن سياق عام ومجرد، أي افتراضية متخيلة تم التعبير عنها في (كليلة ودمنة) على ألسنّة الحيوانات والطيور،

فإنه حالما ينتقل إلى مقاربة إشكالية الإسلام في واقع دولة الخلافة الملموس، سرعان ما ينبّه إلى خطورة التيارات الفقهية والكلامية التي تبني قولها بهذا الصدد "بناءً معوجاً". فيعرض لأفكارها ويناقشها. فقد ذهب فريق منهم إلى القول: "لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق... فإن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهل أن يقصى وإن أمرنا الإمام بطاعة الله فهو أهل بأن يطاع". ويعارض ابن المقفع هذا الرأي بقوله: "إذا كان الإمام يعصى في المعصية وكان غير الإمام يطاع فالإمام ومن سواه على حق الطاعة سواء. وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلع الطاعة، لئلا يكون للناس نظائر ولا يقوم بأمرهم إمام ولا يكون على عدوهم منهم ثقل"[٥٣]. ثم يعرض ابن المقفع لرأي فريق آخر يقول: "بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته، ولا يكون أحد منا عليهم حسيباً، فهو ولاة الأمر وأهل العلم ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم". ويرى ابن المقفع أن "هذا القول ليس بأقل ضرراً في توهين السلطان وتهجين الطاعة من القول الذي قبله، لأنه ينتهي إلى الفظيع المتفاحش من الأمر في استحلال معصية الله جهاراً صراحاً"[٥٤].

لقد عارض ابن المقفع الآراء السابقة من خلال بلورة مواقف فكرية سياسية واضحة. فرأى أن الذين قالوا أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق قد أصابوا في هذا الجانب بينما أخطئوا في "تعطيلهم طاعة الأئمة وتسخيفهم إياها". وفي الوقت ذاته يقول: "أصاب الذين أقروا بطاعة الأئمة لما حققوا منها، ولم يصيبوا فيما أبهموا من ذلك في الأمور كلها"[٥٥].

لقد رأى ابن المقفع، أن الإقرار بعدم الطاعة للإمام في معصية الله يجب أن يوضع ضمن سياقه الصحيح، وأن لا يفهم فهماً خاطئاً يؤدي إلى تعطيل مبدأ الخضوع للسلطة. فإذا كان الإمام لا يطاع في المعصية، فإن ذلك يقتصر على "الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً"[٥٦]. ولو أن الإمام نهى عن الصلاة والصيام والحج أو منع الحدود وأباح ما حرّم الله لم يكن له في ذلك أمر"[٥٧]. أما غير

ذلك، مما له علاقة بالشأن السياسي، وإدارة الدولة، فلحكمة إلهية، ليس لأحد حق التدخل فيه لأنه من اختصاص السلطة دون غيرها[٥٨]. وقد عبر ابن المقفع عن هذه الفكرة بقوله: "أما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره، فإن ذلك في الرأي والتدبير، والأمر الذي جعل الله أزِمَّته وعُراه بأيدي الأئمة ليس لأحد فيه أمر ولا طاعة". ثم ينتقل إلى تحديد أبرز الجوانب التي تستلزم أن لا يطاع بها أحد غير الإمام مثل "الغزو والقفول"، والجمع والقسم (=السياسة المالية)، و"الاستعمال والترك" (=السلطة الإدارية)، وإمضاء الحدود والأحكام على "الكتاب والسنة" (= السلطة القضائية)، و"محاربة العدو ومخادعته، والأخذ للمسلمين والإعطاء عليهم" (=السياسة الخارجية). انطلاقاً من أن "هذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة. وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام، ومن عصى الإمام فيها أو خذله فقد أهلك نفسه"![٥٩].

من كل ما سبق، يبدو لنا أن جوهر نقاش ابن المقفع، إنما ينحو باتجاه تخليص الدنيوي من الديني، أي السياسة من الدين عبر تحديد مجال كل منهما. وإذا كان تأسيسه لها يولد في بعض جوانبه صيغة الإقرار بضرورة التوازن بين الديني والدنيوي، أو الدين والسياسة، بحيث لا يستحوذ أحدهما على الآخر، فإن حقيقة التوازن في منظومته الفكرية السياسية تقوم بوضع الأسس التي تسمح للسلطة ليس فقط باحتكار الشأن السياسي، بل والقدرة الدائمة على حصول الشرعية الدينية لسياساتها ووجودها أيضاً، وفي هذا الجانب تكمن أحد الأبعاد العميقة لمكانة وأهمية ابن المقفع في تاريخ الفكر السياسي.

الفصل الثاني: فلسفة السلطة وإصلاح الدولة:

على الرغم من المكانة التي يحظى بها موضوع السلطة في منظومة ابن المقفع إلا أنها تغيب بصورة مباشرة عن تأمله الفلسفي، بمعنى تأصيلها وتأسيسها النظري. إلا

أن هذا "الخلل" يزول حالما يجري النظر إلى هذه القضية من زاوية المنهجية الواقعية لفلسفته السياسية، وذلك لأن تناول القضايا السياسية بالنسبة لابن المقفع عادة ما تتوافق مع الأهداف العملية التي يسعى إليها، أي وضع أسس السياسة العملية الواجب اتباعها للوصول إلى غايات محددة. وقضية السلطة من بين أهمها أو أكثرها أهمية بهذا الصدد، لاسيما وأن "الملك عزيز ومن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه" كما يقول ابن المقفع[٦٠]، ويتطلب ذلك من الحاكم إدراك القواعد التي تساعده على إدراك مختلف شؤون الدولة بالشكل الذي يؤدي إلى استقرار سلطته وازدهارها، بحيث نرى ابن المقفع يقول: بأن من يتدبر هذا الكتاب (كليلة ودمنة) ويعمل فيه بإحالة رأيه ثم فكر فيه كان ممكناً للمراتب العظام والأمور الجسام[٦١].

وليس هناك شك أن ابن المقفع متحيز تماماً للدولة فيما ذهب إليه من آراء وما طرحه من تصورات للمحافظة عليها وبيان أسباب قوتها وضعفها. وهو في ذلك كله، لم يسعَ إطلاقاً لصنع قواعد السياسة من سماء الفكر المجرد، وإنما من وقائع الدولة وتاريخها السياسي. فالدولة واقع قائم، بل هي لا تتمظهر في ميدان الوقائع الملازمة للقوة، فانتصار الأقوى هو "حقيقة" التاريخ الإنساني، وابن المقفع يدرك هذه الحقيقة ويسعى إلى الإمساك بها من خلال استجلاء أشكالها العديدة والمتنوعة، بل يذهب إلى إمكانية رؤية معادلة القوة قائمة حتى في أتفه الأشياء وأحقرها، الأمر الذي يبرز أهمية العقل في تحويل معادلات الضعف إلى معادلات قوة.

بصيغة أخرى، لم يكن ابن المقفع فوضوياً كما ذهب إلى ذلك البعض[٦٢]، بقدر ما كان مفكراً سياسياً واقعياً يضع جانباً أوهام الفضيلة المجردة التي أسّس بعض الفلاسفة نظرتهم إلى الدولة المثالية. من هنا توجيه جل اهتمامه صوب الواقع كما هو من أجل استعمال القواعد العملية والضرورية التي تقود إلى النجاح.

المطلب الأول: أشكال السلطان أو أنواع الحكم:

قد يبدو هذا العنوان غريباً بالنسبة لتناول الإبداع النظري لمفكر ينتمي إلى تقاليد الفكر السياسي الشرقي (العربي – الإسلامي)، التي تتميز بوجود دولة مركزية وسلطان آمر ناهٍ من جهة، ورعية خاضعة من جهة ثانية. فإذا كانت التقاليد الإغريقية قد عرفت في مجرى تطورها التاريخي ثلاثة أشكال أساسية للحكم هي الملكية والأرستقراطية والديمقراطية، فإن تطور التقاليد الشرقية قد سار في اتجاه آخر مختلف. وبغض النظر عن تباين وتنوع الاجتهادات التي حاولت تفسير هذا الاختلاف، إلا أننا نستطيع القول: بأن التقاليد السياسية الشرقية قد اكتشفت في طبيعة النظام الملكي ذاته قابليته للتكيف مع مختلف صيغ الحكم الصالحة أو الفاسدة. بحيث يكون الحكم صالحاً أو فاسداً بمقدار تجاوبه أو عدم تجاوبه مع مصالح وتطلعات الجماعة التي يحكمها، وأدائه السليم لوظائفه التي تحقق هذه الغاية.

وحالما تأخذ المسألة هذا المسار في التقاليد السياسية الشرقية، يصبح موضوع الحكم أو شكل الحكم (حسب التقاليد الإغريقية) غير ذي شأن، فسواء حكمت الأغلبية أم الأقلية أم الفرد، وسواء كان نظام الحكم ديمقراطياً أم أرستقراطياً أم ملكياً، فإن كل الصيغ السابقة تتساوى من حيث المبدأ في قابليتها للصلاح والفساد[٦٣].

وإذا كان تاريخ الفكر السياسي الغربي من هيرودتس إلى العصور الحديثة قد درج على اعتبار الملكية بصيغتها الشرقية "الأنموذج الأعلى" للاستبداد والأكثر بشاعة لنظام الحكم الفاسد، فقد ذهب في الوقت نفسه إلى اعتبار أن التجربة الإغريقية هي فقط من أبدعت نماذج الحكم الصالحة! أما في الواقع، فإن التجربة التاريخية الملموسة (لا المجردة أو المتخيلة) لأنظمة الحكم المختلفة التي عرفتها التجربة الإغريقية، لا تقدم لنا أفضلية عملية بهذا الصدد على ما يسمى بالنموذج الشرقي[٦٤]. ولا يعني ذلك الدفاع عن "الاستبداد الشرقي:" بقدر ما أن هذا التصور لا يحلّ الإشكالية الجوهرية

والخلل الذي لازم أنظمة الحكم المختلفة سواء بصيغتها الإغريقية أو الشرقية. وهي الرؤية التي حددنا ملامحها آنفاً بقولنا: إن نظام الحكم يكون صالحاً أو فاسداً بمقدار تجاوبه أو تعارضه مع مصالح وتطلعات الجماعة السياسية المعنية، وأدائه السليم لوظائفه المختلفة التي تؤدي إلى تحقيق هذه الغاية. الأمر الذي يعطي لنا إمكانية رؤية مؤشرات الصلاح والفساد في التقاليد السياسية الشرقية ونموذجها الملكي، كما نراه لدى نظيراتها الإغريقية ونماذجها الأساسية: الملكية، والأرستقراطية، والديمقراطية.

وبناءً على ما سبق، فإن التقاليد السياسية الشرقية والعربية الإسلامية على وجه الخصوص، قد نظرت إلى شكل الحكم من زاوية عملية بحتة. وفي هذا يكمن سبب عزوفها عن الجدل النظري في أشكال الحكم المختلفة، وعلى الطريقة الإغريقية. فقد انطلقت من المقدمات السابقة التي أتينا عليها، وتوصلت بخبرتها التاريخية إلى استنتاج عملي أسست عليه مقولاتها بهذا الخصوص. بمعنى النظر إلى نظام الحكم من زاوية صلاحه أو فساده وأن "الملكية بصيغتها الشرقية" تمتلك القدرة والقابلية للتكيف مع مختلف صيغ الحكم الصالحة والفاسدة.

وقد كان ابن المقفع مدركاً لهذه الفكرة، بل واستند عليها في بناء رؤيته عن نظام الحكم، وقد بدا ذلك واضحاً وجلياً في عدم اكتراثه بتحليل عمل وطبيعة أنظمة الحكم المختلفة على الطريقة الإغريقية، بل انصب اهتمامه على طبيعة السياسة العملية التي تمارسها السلطة والغايات التي تسعى إليها ووسائل تحقيقها.

حقيقة أن التصنيفات المختلفة لأنظمة الحكم، التي يمكن استخلاصها من كتابات ابن المقفع، ليست شيئاً آخر سوى الصيغ الواقعية الملموسة التي يمكن أن يتمظهر فيها النظام الملكي. وتجدر الإشارة إلى أننا في تتبعنا لكل النماذج الملكية التي يعرض لها ابن المقفع، لم نلحظ ما يشير إلى أفضلية صيغة على أخرى، إلا بمقدار ما يبرهن أي منها على قدرته العملية في الحفاظ على السلطة من الأخطار الخارجية والفتن

الداخلية، وكذلك في قدرته على اتباع أفضل الوسائل في سياسة الرعية وحماية مصالحها الأساسية، بما يضمن ولاءها للسلطة، وعموماً يمكننا الحديث عن خمسة تصانيف للنظام الملكي، هي:

التصنيف الأول: ويستند على قاعدة من يتخذ القرار في النظام الملكي. وفي هذا الصدد لاحظنا أن ابن المقفع يتناول نموذجين: **الأول** وهو نموذج الملكية الفردية حيث السلطة كلها في يد ملك يحيط به معاونون يهابونه ويتملقونه وهو ما يبدو واضحاً في باب (الأسد والثور) حيث يبرز الملك "مزهواً متكبراً منفرداً مكتفياً برأيه"(٦٥). أما **الثاني** فهو نموذج الملكية المقيدة، وفيه نرى الملك ملتزماً بآراء أركان سلطته بحيث تتحول وظيفته إلى مجرد الإشراف على السياسات والخطط التي يقترحونها عليه. وهو ما يمكن رؤيته بوضوح في باب (البوم والغربان)، حيث يجتمع الملك مع وزرائه لاتخاذ القرار المناسب حول قضية مصيرية تهدد أمن الدولة. وبعد أن يتم عرض السياسة التي ينبغي للملك اتباعها يخاطبه أحد وزرائه بالقول: "إني قد فرغت مما كنت أريد قوله، ولم يبقَ إلا أن تسمع وتطيع. فقال الملك: أنا والجند تحت أمرك فاحتكم كيف شئت"(٦٦).

التصنيف الثاني: ويستند على القاعدة التي تحرك الملكية في علاقتها مع الرعية. وفيه نعثر على ثلاثة نماذج للملك، وهي: مُلك دين، ومُلك حزم، ومُلك هوى. **فالنموذج الأول** ومحركه الدين. حيث يعطي ابن المقفع للدين معنى أقرب ما يكون إلى إطار تعتمده السلطة لضمان مصالح العامة وبلوغ الرضى بها وإقرار النظام في المجتمع. وأما ملك الدين فهو الذي يقيم للرعية دينهم، ويعطيهم الذي لهم ويلحق بهم الذي عليهم، بحيث يرضيهم ذلك وينزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم(٦٧). أما **النموذج الثاني** ومحركه الحزم، فإنه يعتمد القوة والعنف. ومع أن ابن المقفع ينظر إلى استخدام القوة بقدر كبير من الرهافة والحساسية، إلا أنها تفقد

معناها عندما تصبح القوة وسيلة للحفاظ على النظام. عندئذٍ يغدو استخدام القوة أمراً تفرضه الضرورة، رغم ما قد يولّد هذا الاستخدام من استنكار أو نقد. ومع أن هذا النموذج لا يسلم من الطعن والسخط، إلا أنه لن يضر طعن الضعيف مع حزم القوي، كما يقول ابن المقفع(٦٨). أما **النموذج الثالث** (مُلك الهوى) فقوامه الشهوة والغريزة، وقد خصه ابن المقفع بعبارة "أما ملك الهوى، فلعب ساعة ودمار دهر"(٦٩). وذلك لما فيه من مقدمات توفر إمكانية القتل والسرقة والسفالة وعدم التدين، ومن ثم دمار الدولة.

التصنيف الثالث: ويقوم على أساس التفريق بين سلطان قديم وسلطان حديث النشأة. ويبدو لنا أن الغاية من هذا التفريق تتجه إلى تحذير السلطان القديم من ترهل السلطة وضعفها، وما ينتج عن ذلك من صعود قوى فتية من داخل السلطة ذاتها فتعمل على استمالة القوة الأساسية في الدولة (الجيش) إلى جانبها. وما إن يتم لها الأمر حتى تنقض على السلطة القائمة فتحل مكانها(٧٠). لقد عبر ابن المقفع عن هذه الفكرة بصيغة مجازية، لكنها شديدة الوضوح، في باب (القرد والغيلم) حيث يبدو الملك فاردين وقد طال به العمر حتى بلغ الهرم، فوثب عليه قرد شاب من أهل بيته، فقال للقردة: لقد هَرِم هذا وليس يقوى على الملك ولا يصلح له. ومالأه على ذلك جنده. فنفوا القرد القديم، وملّكوا الشاب(٧١). كما يحتوي هذا التصنيف على تحذير السلطان الحديث النشأة من الاستكانة إلى نشوة الانتصار ومخاطرها، من هنا قول ابن المقفع: "فإذا كان سلطانك عند جده دولة، فرأيت أمراً استقام بغير رأي وأعواناً أجزوا بغير نيل، وعملاً أنجح بغير حزم، فلا يغرّنك ذلك ولا تستنيمن إليه. فإن الأمر الجديد، ربما يكون له مهابة في أنفس أقوام وحلاوة في قلوب آخرين، فيعين قوماً على أنفسهم ويعين قوماً بما قبلهم ويستتب ذلك الأمر غير طويل، ثم تصير الشؤون إلى حقائقها وأصولها. فما كان من الأمور بني على غير أركان وثيقة ولا دعائم محكمة أو شك أن يتداعى ويتصدع"(٧٢).

التصنيف الرابع: ومعياره الزمن الذي يتفاعل به الحاكم والمحكوم تبعاً لصلاح وفساد كل منهما. يقول ابن المقفع بهذا الصدد: "أما سؤالكم عن الزمان فإن الزمان الناس، والناس رجلان: والٍ ومولى عليه"(٧٣). وبناءً على ذلك يرى أن "الأزمنة أربعة على اختلاف حالات الناس" وهي: أخْيَر الأزمنة: وهو ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية. "ويحدد ابن المقفع سمات الصلاح لكل منهما: فالحاكم يؤدي إلى الرعية حقهم في الرد عنهم والغيظ على عدوهم والجهاد من وراء بيضتهم والاختيار لحكامهم، وتوعية صلحائهم والتوسعة عليهم في معايشهم، وإفاضة الأمن فيهم، والمتابعة في الخلق لهم، والعدل في القسمة بينهم والتقوية لأودهم، والأخذ لهم بحقوق الله عزّ وجلّ عليهم أما صلاح الرعية فأن تكون "مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في أمره والصبر عند مكروه طاعته، والمعونة له على أنفسهم والشدة على من أخلّ بحقه وخالف أمره غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم ولا لابسين عليه أحداً". أما الزمن الذي يلي "خيار الأزمنة" فهو الزمان الذي يصلح الإمام نفسه ويفسد الناس". ويرى ابن المقفع أن "لا قوة بالإمام مع خذلان الرعية ومخالفتهم وزهدهم في صلاح أنفسهم، على أن يبلغ ذات نفسه في صلاحهم، وذلك أعظم ما تكون نعمة الله وحجة الله على الرعية بواليهم، فبالحري أن يؤخذوا بأعمالهم وما أخلقهم أن لا تصيبهم فتنة أو عذاب أليم". أما الزمن الثالث فهو الذي يظهر فيه "صلاح الناس وفساد الوالي". ويفسر ابن المقفع رأيه بهذا الزمن مقارنة بالذي قبله بقوله: "إنّ لولاة الناس يداً في الخير والشر ومكاناً ليس لأحد، وقد عرفنا فيما يعتبر به أن ألف رجل كلهم مفسد وأميرهم مصلح أقل فساداً من ألف رجل كلهم مصلح وأميرهم مفسد". أما أكثر الأزمان شراً فهو "ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية"(٧٤).

التصنيف الخامس: ويمثل في وعي ابن المقفع نظام الخلافة الإسلامية باعتباره نموذجاً خاصاً ينبغي التعامل معه بطريقة مختلفة لاعتبارات واقعية صرفة أهمها أنه صيغة الحكم الذي حملته دولة الخلافة العربية الإسلامية إلى حدود انتشارها المعروفة وفرضته عليها. وبغض النظر عن البعد الديني الذي تضمنه مفهوم الخلافة، وإقصائه لأشكال أنظمة الحكم الأخرى وحلوله مكانها، إلا أن تطوره التاريخي قد برهن على انحلال "الملكية" بصيغتها الشرقية في كل مكوناته السلطوية الملموسة، وهو ما جرى تحسسه في الوعي السياسي والديني العربي الإسلامي بعبارة تحول الخلافة إلى مُلك عضوض". وإذا كان المتكلمون والفقهاء قد نظروا إلى الخلافة أو الإمامة باعتبارها "موضوعة الخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[٧٥]، واجتهدوا في الحدود القصوى لوضع النواظم والضوابط الشرعية والدينية لها، بينما جنح "الفلاسفة المسلمون (من الكندي إلى ابن رشد مروراً بالفارابي وابن سينا) نحو بناء تصورات متخيلة عما يجب أن تكون عليه الدولة[٧٦]، فإن ابن المقفع، قد اختطّ طريقاً مختلفاً.

فهو لم ينظر إلى نظام الخلافة من حيث شرعيته أو أهميته الدينية، ولم يسعَ باتجاه البرهنة على ضرورته أو مدى اتفاقه أو انحرافه عن المثل العليا للدين الإسلامي. بل نظر إليه من زاوية واقعية صرفة. فلم يرَ فيه ما يشير إلى فرادته، ما دام يأخذ بقواعد السياسة العملية ذاتها التي تأخذ بها أنظمة الحكم الأخرى، ويمكن لنا الذهاب أبعد من ذلك لنرى أن المخاطب الحقيقي في كل كتاباته لم يكن سوى نظام الخلافة الإسلامية. غير أن خطابه لم يكن موحداً، بل جرى على مستويين مختلفين: الأول، وقدم فيه رؤيته لقواعد السياسة العملية التي استطاع استخلاصها من عالم السياسة الواقعي. وعبر عن ذلك بلغة مجازية حذرة في (كليلة ودمنة)، بحيث يغدو الكلام موجهاً، ولكن بطريقة غير مباشرة، إلى نظام الخلافة دون أن يسميه تصريحاً أو تلميحاً، أما في المستوى الثاني، فإن الخطاب يتوجه بشكل مباشر إلى الخليفة العباسي، حيث يقدم له رؤيته لإصلاح نظام الخلافة بالإضافة إلى أفكار أخرى تتعلق بالسلوك السياسي

ووسائل المحافظة على السلطة وغير ذلك. مع ملاحظة أن ابن المقفع يأخذ بالاعتبار حساسية ومخاطر اللغة السياسية التي لا تتوافق في إطارها العام مع البنية الثقافية والدينية لدولة الخلافة. وقد عبر ابن المقفع عن هذا المستوى في رسائله السياسية الأخرى وبالأخص في (رسالة الصحابة) و"الدرة اليتيمة) و(الأدب الكبير)، و(الأدب الصغير).

المطلب الثاني: ابن المقفع وإصلاح نظام الدولة (الخلافة):

يحتل المثقف مكانة مرموقة جداً في كل كتابات ابن المقفع. ويبدو واضحاً أن رهانه الحقيقي على إصلاح النظام السياسي، وهو مشروط بالدور الذي يمكن أن يلعبه المثقف في التأثير على وعي الطبقة الحاكمة بأهمية الإصلاح وضرورته. وليست القضية هنا مجرد دعوة أخلاقية نبيلة لاتباع سياسات عقلانية محددة، فهذا الجانب - على أهميته- لا قيمة له عند ابن المقفع إلا بمقدار ما يؤدي إليه من نتائج عملية نافعة للنظام السياسي ذاته. فالقضية لا تخرج عن إطار "معادلة النفع والضرر" باعتبارها إحدى المحددات المركزية لرؤيته السياسية الواقعية. وبهذا المعنى، فإن الإصلاح الذي يدعو إليه المثقف ويحث عليه السلطة، يغدو مطلوباً لا لذاته، بل لمنفعته بالنسبة لبقاء النظام السياسي واستقراره واستمراره أيضاً.

غير أن هذه المقدمة، وإن كانت شديدة الوضوح بالنسبة للمثقف، فإنها في الإطار العام، ليست كذلك بالنسبة للسلطة. فالسلطة غالباً ما تنظر إلى الأفكار الإصلاحية من منظورها الضيق، بل ويمكن أن ترى فيها خطراً حقيقياً يتهددها. ومن هنا ضرورة لجوء المثقف إلى "ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور" وأن تنصرف همته إلى "دفع المخوف لاستجلاب المحبوب"[٧٧]. والقضية هنا لا تقوم في دعوة المثقف إلى تلمس الخلاص الفردي بالعزوف عن الشأن العام، فقناعة ابن المقفع لا قيمة للعلم بمعزل عن العمل الإنساني. ونعثر على ذلك في صيغ مختلفة في أغلب

كتاباته، كما نراها على سبيل المثال في قوله: "إن العلم لا يتم إلا بالعمل، وإنما صاحب العلم يقوم به لينتفع به وإن لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً"(٧٨). لهذا نراه يدعو إلى تلمس المداخل الصحيحة واعتماد الحجة والعقل

لإقناع السلطة بضرورة وأهمية الإصلاح، وأن قيامها به إنما يصب في مصلحتها، لا بل ويضمن بقاءها واستمرارها أيضاً. وهذا بالضبط ما يسعى ابن المقفع إلى القيام به في ظروف دولة الخلافة العربية الإسلامية.

لقد نظر ابن المقفع إلى سلطة الخلافة القائمة، على أنها سلطة فاسدة، ظالمة، وغير قادرة على إدارة شؤونها وأداء مهامها الخليقة بها. وفي الوقت ذاته تطلع إلى إعادة بنائها وفق قواعد جديدة تعيد الاعتبار للدولة بصفتها مؤسسة إنسانية صرفة، وللعلم السياسي بصفته علماً عملياً يهدف إلى تنظيم وإدارة الشأن العام وفق مقتضيات المصلحة والعقل. وإذا كانت هذه الفكرة تشكل الهاجس الخفي في مشروع ابن المقفع الإصلاحي، فإن اصطدامه مع البنية الاجتماعية السياسية والدينية لدولة الخلافة العربية – الإسلامية سوف يكون أمراً محتماً.

لقد وعى ابن المقفع هذه الحقيقة وأدرك أن سلطة الخلافة سوف تنظر إلى أفكاره الإصلاحية بصفتها أفكاراً خطرة تهدد وجودها. غير أن ذلك لم يمنعه من الاقتناع بإمكانية التأثير فيها. فاعتمد صيغتين لخطابها، الأولى وهي الصيغة غير المباشرة كما نراها على لسان بيدبا الفيلسوف في خطابه للسلطة الفاسدة ممثلة بدبشليم الملك، وفيها يطرح ملامح رؤيته للدولة والسياسة وفق قواعد العقل ومقتضيات المصلحة. وقد عبر عنها باستخدام الرموز والإيحاء بها حيناً آخر. أما الصيغة الأخرى، فهي الصيغة المباشرة لأنها جاءت محدودة بهامش الحرية التي تسمح بها علاقته مع سلطة الخلافة العباسية.

المطلب الثالث: دور النخبة الفكرية في إصلاح السلطة:

"إذا كان للملوك فضل في مملكتها، فإن للحكماء فضلاً في حكمتها أعظم"[٨٩]. وليست القضية هنا مفاضلة بين الحاكم والمثقف أو بين القوة والعقل لترجيح أحدهما على الآخر، فهذا النوع من التفضيل بين الأشياء لا معنى له في العالم الواقعي إلا بمقدار ما يكشف عن ضرورة أحدهما للآخر. ففي (يتيمة السلطان) يبلور ابن المقفع هذه القضية بصيغة سؤال يجيب عنه بحكاية مجازية يعرض فيها لافتراق وتناقض كل من الدولة والعقل في الصفات والخصائص والغايات[٧٩]. فإذا كانت الدولة هي "القوة والصولة والغلبة"، فإن العقل هو العلم والبصر والوقار و[به] قوام العالم وتمام أمور الدنيا". ولكن ابن المقفع لم يرَ أياً منهما إلا أن يجتمعا ويصيرا شيئاً واحداً"[٨٠]. بعبارة أخرى، إذا كانت الدولة هي القوة، فإن القوة يمكن أن تصاب بالسكر والجنون والتوحش، عندئذٍ تصبح الدولة مجرد آلة لا تنتج غير الشرور والانحطاط والرذيلة. ولن يكون هناك خروج من هذه الحالة المدمرة، إلا بلجم العقل للقوة، وإعادة تنظيمها، وأنسنتها في إطار جديد يسمح بإقامة التوازن بين المجتمع والدولة، بما يضمن أداءهما لوظائفهما بشكل سليم. وهذا يبرز لنا نقطة الذروة في مشروع ابن المقفع الإصلاحي: إقامة الدولة على أساس جديد يستمد شرعيته من العقل وحده دون أي مصدر آخر.

لقد رأى ابن المقفع أن تحول الدولة إلى نظام يضبط إيقاعه العقل، هو السبيل الوحيد لتجاوز حالة الفوضى التي تنذر بها القوة، وهو ما رآه حداً يفصل بين الدولة الصالحة والدولة الفاسدة. عندئذٍ تتحول القوة إلى فضيلة مطلوبة وضرورية للدولة، بحيث لا تقل أهمية عن فضيلة العقل.

لقد راهن ابن المقفع على قدرة المثقف في عقلنة القوة. وقدّم في (كليلة ودمنة) نموذجاً افتراضياً لحوارات متخيلة، تشمل الكتاب كل، بين العقل (ويمثله بيدبا الفيلسوف) وبين القوة (ويمثلها دبشليم الطاغية)، عرض فيها حصيلة تفاعلهما على مستوى الدولة

والمجتمع. وقدّم في سياق ذلك نماذج غاية في التنوع لأشكال السلوك السياسي، الذي تمارسه السلطة الصالحة والسلطة الفاسدة تجاه قضايا محددة تمس الشأن العام مبيناً في الوقت ذاته الآثار والنتائج التي تترتب على كل سلوك. وهي دعوة صريحة حيناً ومبطنة حيناً آخر للمحافظة على السلطة بتجنب السياسات الضارة وإتيان السياسات النافعة التي يقتضيها العقل.

فإذا كان الحفاظ على السلطة وحمايتها هو الهاجس الأساس لمن يتولونها، فإن خطاب بيدبا الحكيم يصب في الاتجاه ذاته، بل ويشكل أحد هواجسه الكبرى. وهو ما يمكن اعتباره نقطة الارتكاز الكبرى التي استند عليها من أجل "إغواء" دبشليم – الطاغية بقدرة "العقل" على الوصول إلى أفضل النتائج على هذا الصعيد. والرسالة واضحة ويجب فهمها بشكل جيد: "فالملك عزيز" ومن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه، بكل الوسائل الممكنة، ولكن ينبغي الحذر الشديد، انطلاقاً من أن بعض هذه الوسائل مدمرة وبعض الحيلة مهلكة". وهنا تبدو قدرة العقل حاسمة في اختيار أفضل السياسات التي تؤدي إلى بقاء السلطة واستمرارها. غير أنه إذا كان "أحق ما يحفظ به الملك ملكه [هو] الحلم وبه تثبت السلطنة"، فإن ما ينبغي فهمه أن العقل هنا، ليس عقلاً أخلاقياً يقوم على التمييز بين الخير والشر وفق منظور مثالي مجرد، بل هو عقل عملي نفعي خالص تتحدد أساليبه وتقوم أحكامه وفق قاعدة النفع والضرر. وهو الأمر الذي يجدر بالسلطان فهمه جيداً والعمل بمقتضاه.

ومن هذا المنظور يستمر بيدبا في "إغواء" دبشليم الطاغية وإقناعه بقدرة العقل على إعادة النظر بسياسته لما في ذلك من خير مشترك له ولرعيته. وحالما يستيقظ دبشليم من سكرة السلطان "تفكر وارعوى وقال في نفسه: الواجب أن أسمع كلامه وأنقاد لما يشير إليه". حينذاك يبدأ بيدبا بعرض خلاصة رؤيته وحكمته حول مختلف قضايا الدولة والسلطة وكل ما يتصل بهما من وسائل وغايات وسياسات[٨١]. وقد حدد بيدبا مهمته منذ البداية بمنتهى الوضوح عندما اعتبر السلطة فاسدة، وأن دبشليم "إذ طغى

وعبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم"، فكر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه ورده إلى العدل والإنصاف. فجمع لذلك تلامذته وقال أتعلمون ما أريد أن أشاوركم فيه؟ اعلموا أني أطلت الفكرة في دبشليم وما هو عليه من الخروج من العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية. ونحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العمل، ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزمنا وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا إن كنا في أنفس الجهال أجهل منهم وفي العيون أقل منهم"[٨٢].

فما هي خيارات بيدبا للوصول إلى غايته؟ يبدو واضحاً أن فكرة التغيير التي يطرحها ابن المقفع من خلال نموذج بيدبا، لا تتضمن إطلاقاً الدعوة إلى القوة أو العنف أو الاستعانة على السلطان الفاسد بالغير. إذ "لا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا. ولو ذهبنا نستعين بغيرنا لما تهيأت لنا معاندته. وإن أحسّ منا بمخالفته وإنكارنا سوء سيرته كان في ذلك بوارنا"[٨٣].

حقيقة أننا نلمس من خلال محاورة بيدبا مع تلامذته موقفاً حاسماً من دعواتهم إلى العزوف عن الشأن العام، ودعوتهم إياه بالتأني و"التعقل" وترك الأمر بسبب خطورته وعدم جدواه، ووجد ذلك تعبيره في قوله لهم: "ليس الرأي عندي الجلاء عن الوطن"[٨٤]. وبقوله: "لقد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم وقد سمعت مقالتكم وتبيّن لي نصيحتكم والإشفاق عليّ وعليكم. غير أني قد رأيت رأياً وعزمت عزماً"[٨٥].

لقد كان ابن المقفع مقتنعاً بالدور الحاسم الذي يمكن أن يؤديه المثقف في إصلاح السلطة. وأسّس قناعته هذه على تلك المقدمة التي اشرنا إليها في غير مكان من هذا البحث وتتلخص في أن إقناع السلطة بالإصلاح ينبغي أن يمر عبر إقناعها بأن ذلك مصلحتها أيضاً. وهذا بالضبط ما سعى إلى البرهنة على نتائجه عبر تصويره لما آلت إليه أحوال مملكة دبشليم الذي ما إن "ارعوى" و"تفكر" واستجاب لنداء العقل، و"مضى

على ما رسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل في الرعية" حتى صلحت أحواله واستقامت سلطته فرغبت إليه الملوك الذين كانوا في نواحيه وانقادت له الأمور على استوائها وفرحت به رعيته وأهل مملكته"[٨٦]. وهو الأمر الذي حدا بابن المقفع لافتراض أن "الواجب على الملوك أن تعظوا بمواعظ العلماء"، وأن "الواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها وتأديبها بحكمتها وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم ليرتدعوا عما هم عليه في الاعوجاج والخروج عن العدل"، وإيقاظهم في سِنَةِ سكرتهم، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد على صحتها أو ردها إلى الصحة"[٨٧].

حقيقة إن ابن المقفع، لم يكتفِ، على لسان بيديا، بإبراز محاسن الإصلاح بالنسبة للسلطة فحسب، بل ولجأ إلى تقديم عشرات الصيغ التي حاول من خلالها البرهنة على أنه إذا كان يبدو للبعض نجاعة سياسات الظلم والتهور والبطش والاعتداء وغير ذلك من السياسات الفاسدة في حفظ السلطة وحمايتها، فإن ذلك لا يعدو كونه عابراً ومؤقتاً أو "لعب ساعة ودمار دهر". ووجد ذلك تعبيره في مختلف الأحكام التي يطلقها ابن المقفع على سياسة السلطة السائرة في هذا المنحى مثل قوله "شر الملوك المخادع الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته" و"الجاهل المغتر من استعمل في أموره البطر"[٨٨]. وكذلك في قوله: "من عرف فضل قوته على الضعفاء فاغتر في ذلك بالأقوياء قياساً على الضعفاء كانت قوته وبالاً عليه"[٨٩]، و"من أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له"، و"لا يقدم على طلب ما يضرّ الناس وما يسوؤهم إلا أهل الجهالة والسفه"[٩٠]، و"قبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء"[٩١]، وغير ذلك.

وبغض النظر عن القيمة الأخلاقية الواضحة في الحكم على أنواع السلوك الفاسد، فإن القضية في أبعادها العميقة ليست مجرد دعوة أخلاقية للتخلي عنها، بقدر ما هي تحذير شديد من نتائجها. وقد عرض ابن المقفع على لسان بيدبا الكثير من نماذج هذه السياسات اللاعقلانية وآثارها المدمرة ليس على بقاء السلطة واستمرارها فحسب، بل

ولما فيها من أثر على دمار الدولة نفسها[٩٢]. وهذه الفكرة بالذات هي التي راهن بيدبا على تأثيرها في إيقاظ مليكه من سكرته لكي يحسن النظر بالرعية ويسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعده ذكره ويعقبه الجميل فخره ويكون ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة[٩٣]. وليس خافياً أن الدور الذي لعبه بيدبا مع مليكه دبشليم، هو عين الدور الذي اعتقد ابن المقفع بإمكانية لعبه في ظروف الخلافة العباسية. غير أنه كان يعي تماماً أن مشروعه الإصلاحي مرهون باستجابة الخليفة له، وهذا بدوره مرهون بصحوته من "سكر السلطان"، وهو ما دفع ابن المقفع حياته ثمناً له.

المطلب الرابع – إصلاح الخلافة ومهمة بناء مؤسسة الدولة:

وصل العباسيون إلى السلطة بانقلاب عسكري دموي، وأوغلوا في العنف والمراوغة وإرهاب الناس دون أن يستند ذلك كله إلى أساس ركين من التغيير الاجتماعي الفاعل،. وبالتالي لم تكن حوارية بيدبا الحكيم مع دبشليم الطاغية سوى الصيغة التي ابتكرها ابن المقفع لإقناع الخليفة العباسي بالإصلاح وأهميته. "فالملك عزيز ومن ظفر به فليحسن الحفاظ عليه"، إلا أن الاعتماد على القوة وحدها غير كافٍ لنجاح هذه المهمة النبيلة لأنها تحول الدولة إلى "شر لا خصب فيها ولا أمن". فإذا كانت الدولة قوة فهي أيضاً في القلب، ومن غير المسموح به المساس بها. ولكن ذلك يقتضي أداءها لوظائفها وتحولها إلى أداة للسلم والحياة والاجتماعية ومصدراً للخير والطمأنينة والرضى. إذ "لا خير في الأمن إلا مع السرور"[٩٤]، والملك الذي ليس "في ملكه قرة عيون رعيته فمثله مثل زنمة العنز يمصها الجدي وهو يحسبها حلمة الضرع فلا يصادف فيها خيراً"[٩٥].

إن الفكرة التي أراد ابن المقفع التأسيس لها تقوم في دفع السلطة العباسية للتجاوب مع متطلبات الدولة لكي يكون للحكم الجديد شرعيته، وإلا فإنه لا شيء يمكنه أن يميز

الحكم الجديد عن أسلافه الأمويين. فالخلافة في حالة فوضى، بينما مصلحة الكل تقتضي بأن تتحول إلى أداة للضبط الاجتماعي ونظام الإدارة وتوزيع الخير العام.

وبناء على هذه المقدمة، يصبح من الضروري فهم مضمون (رسالة الصحابة) وأفكارها الإصلاحية ضمن إطار رؤية ابن المقفع للدولة بصفتها مؤسسة تتكامل فيها السلطة والمجتمع في تفاعل تبادلي خلاق يقود إلى توازن اجتماعي واستقرار سياسي بما يسمح لكل منهما أداء دوره الخاص به. وحقيقة إن التغيرات التي يقترح ابن المقفع ضرورة إجرائها على مستوى المفاصل الرئيسة في دولة الخلافة الإسلامية كالجيش والقضاء والخراج وغير ذلك، ليست مجرد تدابير عابرة مرتبطة بتحولات المرحلة الانتقالية لدولة الخلافة، بل وتمتد في مراميها البعدية لتشكل إطاراً منظومياً يتجاوز بنية الدولة القائمة على القبيلة والعرق والشخصانية إلى الدولة بصفتها مؤسسة ونظاماً. وفي هذه النقطة تبدو إحدى مآثر ابن المقفع في الفكر السياسي العربي الإسلامي.

*** إصلاح المؤسسة العسكرية:**

على الرغم من أن دولة الخلافة العربية الإسلامية كانت عسكرية بالأساس إلا أن مستوى تنظيمها العسكري لم يبلغ نظيره لدى الإمبراطوريات الأخرى التي احتكت معها. وقد كانت قوة جيشها تتأتى بشكل أساسي من التجارب الحربية للعرب الأوائل وشجاعتهم، ومن إيمانهم بالعقيدة التي يدافعون عنها. ومنذ عهد الأمويين خضع الجيش لتأثيرات عرقية كبرى عندما ربطوها بأهل الشام. ومع وصول العباسيين إلى السلطة بالاعتماد على قوة المعارضين الخراسانيين، بدت المكونات العرقية للجيش مصدراً من مصادر الصراع التي تهدد وحدة الدولة واستقرارها. وإذا أخذنا بالاعتبار أن جيش دولة الخلافة قد ارتكز على بعد عقيدي يوجب على كل مسلم الدفاع عن دينه وأرضه، وأن إجراءات تعبئته وحشده ارتبطت إلى حد بعيد بعفوية ظرفية مشحونة بدافع

إيماني، فإن متطلبات الدولة تقتضي الانتقال بالجيش من صيغته القبلية والعرقية إلى جيش الدولة، ومن صيغته العفوية إلى صيغة الاحتراف.

لهذا نرى ابن المقفع يضع إصلاح الجيش في مقدمة خطته الإصلاحية التي تقدم بها إلى الخليفة المنصور وطالبه فيها بإصدار قانون أو نظام خاص بالجند يحيط بكل ما يتعلق بواجباتهم وحقوقهم ويكون ملزماً لكل قادته للعمل بمضمونه. وكتب بهذا الصدد يقول: "لو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يعملوا فيه أو أن يكفوا عنه، بالغاً في الحجة قاصراً عن الغلو، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دهماءهم ويتعهدوا به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس، لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً وعلى من سواهم حجة وعند الله عذراً". ويرى ابن المقفع من أشد المخاطر التي يجب التنبيه عليها أن يكون في صفوف الجيش "أخلاط من رأس مفرط غال وتابع متحيّر شاك"، وأن الوضعية الاعتبارية للجيش تقتضي وحدته الفكرية وبناء عقيدته القتالية بما يضمن ولاءه المطلق للدولة، كما في قوله: "فمن يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والمسيرة فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلاً"(٩٦).

وبما أن قوة الجيش تحدد قوة الدولة وفساده لها، فإن ابن المقفع يتقدم بمجموعة من المقترحات العملية التي تعزز خصوصيته ومكانته ومنها:

١- الفصل بين الجندي ومصادر الثروة، بحيث "لا يولى أحد منهم شيئاً من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم ويخونه عنهم لأنهم أهل ذلة ودعوى وبلاء، وإذا جلبوا الدراهم والدنانير أُجروا عليها، وإذا وقعوا في الخيانة صار كل أمرهم مدخولاً نصيحتهم وطاعتهم. فإن حيل بينهم وبين وضعه أخرجتهم الحمية مع أن ولاية الخراج

داعية إلى ذلّ وعقوبة وهوان. وإنما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف"[٩٧].

٢- تحسين الظروف المعاشية للجنود وتأمين متطلباتهم وفق نظام محدد، يتولاه ديوان خاص بهم يحمل أسماءهم ويضمن حصولهم على مرتباتهم بشكل دوري ومنظم بحيث "يوقت لهم أمير المؤمنين وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له.. ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء والشكاوى". ومما يجب الانتباه إليه قضايا "التضخم" وغلاء المعيشة وانعكاسات ذلك على حياة الجند. إذ "يحتاج الجند اليوم إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر". وضرورة أخذ ذلك بالاعتبار لجعل مرتباتهم تتناسب مع ارتفاع الأسعار. ويرى ابن المقفع أنه "من حسن التقدير" أن تلجأ الدولة إلى إقامة مراكز خاصة تمد الجنود بما يحتاجونه بأثمان معتدلة "فيشتروا بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير". وتفادياً لغلاء الأسعار وتقلبها، وأثر ذلك على معيشة الجند، يقترح ابن المقفع أن يتم صرف المرتبات على قسمين: قسم عيني وآخر نقدي. فيتجنبون بذلك أيضاً التباطؤات الإدارية لخازن بيت المال، "فلو أن أمير المؤمنين خلّى شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علفاً وأعطوه بأعيانه، فإن قوّمت لهم قيمة فخرج ما خرج على حسابه قيمة الطعام والعلف لم يكن في أرزاقهم لذلك نقصان عاجل يستنكرونه وكان ذلك مدرجاً لثباتهم في نزالهم العدو، وإنصاف بيت المال من أنفسهم فيما يستبطئون. مع أنهم إذ زاد السعر أخذوا بحصتهم من فضل ذلك[٩٨].

٣- إنصاف الجنود باحترام كفاءتهم وخبراتهم واعتماد ذلك أساساً للتعيين في المواقع القيادية. إذ "إن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم.

فلو التمسوا وصنّعوا كانوا عدة وقوة، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة"(٩٩).

٤- التربية للجند و"تعهد أدبهم في تعلّم الكتاب والتفقه في السنّة والأمانة والمتباينة لأهل الهوى. وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم"(١٠٠)، وغير ذلك.

* إصلاح السياسة الضريبية (الأرض والخراج):

يبيّن العلم الاقتصاد حقيقة الارتباط الوثيق بين استقرار الدولة ونموها، وبين نظامها الضريبي أو سياستها المالية. وإذا كان البعض قد ذهب إلى اعتبار تطور تاريخ الضريبة في الإسلام أحد المؤشرات الكبرى على تطور فكرة الدولة في المجال العربي الإسلامي(١٠١)، فإن ما ذهب إليه ابن المقفع على صعيد ضبط السياسة الضريبية وفق قواعد محددة وضبطها بالقانون، يعد شرطاً رئيساً لتكامل رؤيته لمؤسسة الدولة. فالضريبة (الخراج) ليست غنيمة أو سلباً تمارسها السلطة وفق تقلبات الهوى وأمزجة وجشع السلطان، بل هي ضرورة قصوى لتمكين الدولة من إدارة مواردها وإعادة استثمارها بشكل سليم، من هنا تبرز الحاجة الملحة لوضع القوانين واللوائح الخاصة بها بما يؤدي إلى تحسّس نتائجها بالنسبة لاستقرار وتوازن المجتمع وحثّ طبقة الفلاحين والطبقات الأخرى على النشاط الاقتصادي.

يبدأ ابن المقفع حديثه عن موضوع الخراج بتعداد مساوئ النظام المالي المتبع. وقد ذكرنا سابقاً ما رآه من علاقة بين نمو نزعات الخيانة والسفالة وكثرة المظالم وبين تكليف الجند بأعمال الجباية، إلا أن القضية لا تقتصر على هذا الجانب، بل تشمل كل الجوانب الأخرى أيضاً ومن ذلك:

١- الفوضى الشاملة التي يتصف بها: "أمر الأرض والخراج". فلا سجلات تحصي المال ولا قاعدة تحدد مقدارها ولا قانون للمحاسبة، وإن أجسم ذلك

وأعظمه خطراً وأشده مؤنة وأقربه من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير على الرساتيق والقرى، فليس للعمال أمر ينتهون إليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأنقون لها في العمارة ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم(١٠٢).

٢- عدم أهلية وكفاءة العمال القائمين على الخراج. فسيرتهم "الأخذ بالحذق والعنف وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة"(١٠٣).

٣- ومن مساوئ النظام القائم أنه يفرض الضريبة على "من زرع، ويترك من لم يزرع، فيعمر من عمَّر، ويسلم من أخرب، ومع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن ثبت ولا علم وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض"(١٠٤). لهذا يقترح ابن المقفع على الخليفة البدء بمسح الأرض وفرض الخراج المناسب عليها وأن يُعمل "رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك، وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل بوظيفة قد عرفها وضمنها. ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها(١٠٥). وعلى الرغم من أن هذا "رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر" ولم نره من أحد قبله من تخيّر العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال لهم، إلا أن ابن المقفع يرى في ذلك "صلاحاً للرعية، وعمارة للأرض وحسماً لأبواب الخيانة وغشم العمال"(١٠٦).

* مؤسسة القضاء أو وحدة التشريع:

تعدّ المسألة القانونية واحدة من أعقد الإشكاليات الكبرى في التاريخ العربي الإسلامي. بل ويمكن الذهاب إلى حد افتراض أن اختلاف الأحكام القانونية وتعارضها باختلاف الأمصار والولايات شكل بطريقة أو بأخرى أحد الأسباب العميقة لتشرذم وتفكك دولة الخلافة لاحقاً. وقد شكلت وحدة القانون وانتظام المجتمع وفق نظام موحد للعدل أحد

الهواجس الكبرى في رؤية ابن المقفع لإصلاح نظام الخلافة. وبغض النظر عما ذهب إليه بعض المعاصرين من افتقار ابن المقفع للأصالة[١٠٧] في دعوته لوحدة القضاء والتشريع، فإن من الأهمية التاريخية والمنهجية أن ننظر لدعواه هذه بصفته مفكراً سياسياً أصيلاً يمتلك رؤية منظومية حول الدولة بصفتها مؤسسة متكاملة وتشكل وحدة قوانينها أحد الشروط الرئيسة لوحدتها.

لقد حذر ابن المقفع من الاستمرار بالنظام القضائي المعمول به في دولة الخلافة. إذ لم يرَ فيه نظاماً بل فوضى عارمة تكتنف أحكامه التي يصدرها القضاة، بحيث "بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال"[١٠٨]، ووصل التناقض في القضية الواحدة والمدينة الواحدة حداً مروعاً بحيث "يستحلّ الدم والفرج بالحيرة، وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة، فيستحل في ناحية منها ويحرم من ناحية أخرى"[١٠٩]. وذلك تبعاً لمرجعية القاضي وحكمه. وكان القضاء قد شهد تطور مدرستين متعارضتين للتشريع في الإسلام. مدرسة تأخذ بالسنة، ومدرسة تأخذ بالرأي أو العقل. وهؤلاء وأولئك مخطئون في رأي ابن المقفع. أما خطأ القاضي الذي يأخذ بالمدرسة الأولى ويدعي لزوم السنّة فإنه "يجعل ما ليس له سنّة سنّة حتى يبلغ به ذلك أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول أريق فيه دم كان على عهد رسول الله (ص) أو أمة الهدى من بعده. وإذا قيل: أي دم سفك على هذه السنّة التي تزعمون؟ قالوا: فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء". وأما خطأ مدرسة الرأي فلأنهم يبقون كذلك مختلفين يعمل كل منهم ويبلغ به "أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك، وإمضائه الحكم عليه، وهو مقر أنه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة"[١١٠]. بصيغة أخرى، تبدو مسألة الأحكام القضائية ومرجعياتها التشريعية المتباينة، وكأنها تعمل بشكل مستقل خارج تدخل الدولة، بينما بناء الدولة يقتضي أن تتكامل سلطتها ووظائفها

بحيث تشمل القضاء والتشريع أيضاً. ولهذا يجب البدء بجمع سائر الأحكام القضائية والبت في تناقضاتها أولاً، ثم وضع قانون عام لها باعتماد حكم واحد في كل قضية يلتزم به كل القضاة بمختلف أصقاع الدولة ثانياً، ولو "رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه بكتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويعزم له، وينهي عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتاباً جامعاً لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة إجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من إمام آخر الدهر"(١١١).

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن ابن المقفع، إذ طرح في (رسالة الصحابة) المبدأ العام المنظم لمؤسسة القضاء والتشريع فإنه حجب في الوقت ذاته موقفه العقلي من الأساس المعرفي والديني لفلسفة ومرجعية التشريع الإسلامي، ولم يكن ذلك برأينا سوى عقلانية عملية حذرة، تأخذ بالاعتبار البنية الإيديولوجية والدينية لدولة الخلافة وتنطلق منها، دون أن يعني ذلك بأي حال غياب فكرة إخضاع القضاء والتشريع لمرجعية العقل وحده دون غيره في كتاباته الأخرى(١١٢).

الخاتمة:

لقد حاول الباحث فيما سبق، أن يسلط الضوء على بعض جوانب "العلم السياسي" لدى عبد الله بن المقفع، وأن يبرهن على محورية هذا العلم في كتاباته المختلفة، إلا أنه ينبغي الإقرار بالصعوبات المنهجية التي تحول دون تكامل البحث للوصول إلى نتائج نهائية على هذا الصعيد.

فنحن لسنا أمام نص مباشر في "علم السياسة" بل أمام نص مركب متعدد المداخل وتختلط فيه الحكاية والبلاغة والأدب والحكمة والفلسفة بالسياسة. الأمر الذي يفرض

علينا تفكيك النص المقفعي وإعادة صياغته وبنائه للوقوف على مكونه السياسي. ومن جهة ثانية يذهب الباحث إلى افتراض صعوبة منهجية أخرى، يمكن ملاحظتها في هيمنة النموذج الإغريقي في علم السياسة والخضوع لها. وبهذا المعنى فإن إشكالية النص السياسي عند ابن المقفع هي جزء من إشكالية أكبر مرتبطة باعتماد مؤرخي الفكر السياسي للنص المعرفي والمنهجي الإغريقي وتطوره اللاحق داخل البنية الأوروبية، كنسق علمي وحيد في علم السياسة. وسوف تترتب على هذا الأمر نتائج خطيرة جداً، من قبيل الحضارة العربية الإسلامية لم تعرف في تاريخها الطويل بحثاً متصلاً بالظاهرة السياسية. وأن هذه الظاهرة لا موقع لها إطلاقاً في بنيتها[١١٣]، أو في أحسن الأحوال الذهاب إلى اعتبار ما يمكن رؤيته من فكر سياسي عربي إسلامي، لا يعد كونه مترجماً أو منقولاً عن أصول يونانية!![١١٤].

ومن هنا الأهمية العلمية والعملية لتخليص التراث السياسي العربي الإسلامي من "شرك" الرؤية المركزية الأوروبية، كشرط أساس لإعادة النظر بهذا التراث بصفته نسقاً معرفياً ومنهجياً آخر له خصوصيته التاريخية والثقافية ومرجعيته القيمية وأدواته المفاهيمية وغاياته النهائية التي يختلف بها عن نظيره الإغريقي.

وبناءً على ما سبق، فإن إخضاع ابن المقفع لمعايير الرؤية المركزية الأوروبية "ونموذجها الإرشادي" في علم السياسة، سوف يحوّل الرجل إلى مجرد "كاتب سلطاني" لا تتعدى مهمته تقديم النصائح والوعظ للحكام، وعلى خلاف ذلك يذهب الباحث إلى توفر كتابات ابن المقفع على رؤية فكرية متقدمة حول مختلف قضايا السياسة العملية التي يتطلبها منطق السلطة ذاته. ومن قبيل ذلك: الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها والعلاقة بين مكوناتها المختلفة، ومعايير اختيار الأعوان والوزراء، والالتزام بالمواثيق والعهود والنكث بها، وأهمية المال وعلاقات الصداقة والعداوة والثواب والعقاب والحرب والسلم، ووسائل استمالة الرعية.

غير أن رؤية ابن المقفع لهذه الجوانب العملية في سياسة السلطة، لم تكن مجرد انعكاس لرؤيته الذاتية، أو تعبير عن موقفه الشخصي والأخلاقي، بل تعبيراً موضوعياً عن حقيقة ممارسات السلطة (أية سلطة)، كما اختبرها وعرفها في واقعها التاريخي الملموس، وهو ما سمح له باكتشاف القواعد التي تقوم عليها هذه الممارسات، كقاعدة النفع والضرر، الغاية والوسيلة، العقل والقوة...، أي المحددات الكبرى لملامح ما أسميناه في بداية البحث "بالمدرسة الواقعية" في الفكر السياسي العربي الإسلامي.

وبغض النظر عن حداثة هذه التسمية، وما نلحظه من ميل عام لدى مؤرخي الفكر السياسي العالمي لربط نشوء هذه المدرسة وإرجاع قضاياها ومفاهيمها وأسسها المعرفية إلى نيقولا ميكافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧). إلا أن قراءاتنا لابن المقفع كشفت وبجلاء أنه قدم على هذا الصعيد إسهاماً مبكراً وريادياً ينبغي عدم إهماله في تاريخ الفكر السياسي العربي الإسلامي والعالمي أيضاً.

الهوامش

(١) حول هذا الموضوع، يمكن العودة إلى: محمد نصر عارف، في مصادر التراث الإسلامي **(دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل)** منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (٧) ، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٤، ص ٣٩. أيضاً ص ٥٧ وما بعدها. وما تجدر الإشارة إلى أن الباحث المذكور، توصل من خلال دراسة ميدانية على وجود (٣٠٧) مصادر تراثية مباشرة في علم السياسة كما عرفها المسلمون، منها (١٠٥) كتب مطبوعة، (١٢٧) كتاباً مخطوطاً محدد المكان، و(٧٥) مصدراً لم يستطع الوصول إلى تحديد أماكنها بعد إثبات وجودها التاريخي. ذات المعطيات السابقة، ص ٥٩-٦٩.

(٢) ومن الممكن هنا الاستشهاد بالفكرة التي يطرحها هادي العلوي بهذا الصدد. بمعنى أننا نستطيع رؤية الأبعاد النقدية والتاريخية الدقيقة في موقفه من علوم المسلمين السياسية، إلا أنها تعاني أيضاً من ضعف بهذا الصدد. فقد كتب العلوي بهذا الصدد يقول: بأن "الفلسفة التي وفرت معاجلة حيوية للسياسة عند الإغريق، لم توفر على يد المسلمين وأن حيوية الفكر السياسي في الإسلام، وإنما يقع خارج الفلسفة وبالأخص في إطار الفقه وعلم الكلام والتاريخ: انظر هادي العلوي، الأعمال الكاملة الجزء الأول **خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الإسلام**، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٤، الطبعة الرابعة، ص ١١٣-١١٤. ويفسر العلوي اشتمال المؤلفات السياسية الإسلامية على صنفين عريضين فقط هما الأحكام السلطانية (أي كل ما يعرض للوجه القانوني للدولة)، والدهائيات (أي فن الحكم) وخلوها -على عكس المؤلفات الإغريقية من الشروح المختصة بفلسفة الدولة من اعتبارهم علم السياسة علماً عملياً بحثاً لا يطلب لذاته بل لمنفعته. ولذا كان من الطبيعي أن يكون الموضوع الرئيس لهذه المؤلفات محدداً بالقواعد التي

يتعين الاهتداء بها في إدارة شؤون الدولة. وبناء على ذلك، فقد قسم المسلمون علم السياسة إلى أربعة فروع أبعاده العملية – النفعية لديهم. وهي علم أدب الملوك وهو معرفة الأخلاق والملكات التي يجب أن يتحلى بها الملوك لتنظيم دولهم. والثاني علم أدب الوزارة وموضوعه أوصاف الوزراء وقوانين الوزارة والثالث علم الاحتساب، ويشمل النظر في أمور أهل المدينة وتطبيق القوانين المقررة اصطلاحاً أم شرعاً. أما الفرع الأخير في علم السياسة فهو علم قادة الجيوش. انظر هادي العلوي، المرجع نفسه، ص ١٠٦.

(٣) من المفارقات التي تستحق الانتباه أن مؤرخي الفكر السياسي يتعاملون مع التراث اليوناني بمنطق آخر. إذ يتم النظر إلى المحاورات والمسرحيات والأسفار والأساطير بصفتها أشكالاً أدبية للتعبير عن العلم السياسي عند الإغريق. انظر على سبيل المثال: جورج سباين، **تطور الفكر السياسي**، الجزء الأول، ترجمة راشد البراوي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، الصفحات ١٤، ٢٧، ٢٨، ٢٩،٣٤. وانظر أيضاً: أرنست باركر، **النظرية السياسية عند اليونان**، ترجمة لويس اسكندر، منشورات مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٨٥-٩٢.

(٤) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، دار الجيل، بيروت ٢٠٠٦، الطبعة الثالثة، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٧٥.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٨٧.

(٧) حول هذا الموضوع، انظر، مصطفى بيتي، **جذور الميكافيلية في كليلة ودمنة**، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٠،ص ١٩.

(٨) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ص١١.

(٩) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠.

(١٠) المصدر السابق، نفسه، ص ١٩٣.

(١١) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥.
(١٢) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.
(١٣) المصدر السابق، نفسه، ص ١٠٣.
(١٤) المصدر السابق، نفسه، ص ٩٨.
(١٥) المصدر السابق، نفسه، ص ٩٦.
(١٦) انظر محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٨٤-١٨٥.
(١٧) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(١٨) المصدر السابق، نفسه، ص ١٣٤.
(١٩) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.
(٢٠) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠.
(٢١) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.
(٢٢) المصدر السابق، نفسه، ص ١٣١.
(٢٣) المصدر السابق، نفسه، ص ١٦.
(٢٤) المصدر السابق، نفسه، ص ١٥١.
(٢٥) انظر النص كاملاً في، ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤-١٥٤.
(٢٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٧٨.
(٢٧) قد يكون مفيداً أن نلفت الانتباه إلى الإشارة الذكية التي يوردها مصطفى سبيتي في مقارنته بين ميكيافيلي وابن المقفع، حول التطابق بينهما في مقولة: "الغاية تبرر الوسيلة" التي أسسا عليها بناءهما السياسي. إلا أن الفارق الوحيد بينهما هو أن ميكيافيلي لم يميز بين الأهداف الوضيعة والأهداف النبيلة. فاعتبر أن مجرد تحقيق الهدف بوسيلة معينة يعطيها صلاحها وجدواها وضرورتها، بينما اقتصر

ابن المقفع على أن صلاح الوسائل فقط إذا حققت أهدافاً نبيلةً. انظر، مصطفى سبيتي، **جذور الميكافيلية**، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦. حقيقة لسنا نميل إلى هذا النوع من المقارنات، خاصة وأن الغاية منها البرهنة على مكانة أحد رموز التراث العربي الإسلامي من خلال إيجاد نظير له في الثقافة الأوروبية، وبالتالي فإن قيمة ما عند المفكر العربي يتحدد بوجوده في الفكر الأوروبي. وهي نزعة استشراقية تقيس كل شيء بمعايير الغرب.

(٢٨) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.

(٢٩) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٠٦.

(٣٠) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩-٣٠.

(٣١) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٦١.

(٣٢) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٦٠.

(٣٣) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٥٠.

(٣٤) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.

(٣٥) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩.

(٣٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٨٩.

(٣٧) المصدر السابق، نفسه، ص ٨٩-٩٠.

(٣٨) المصدر السابق، نفسه، ص ٨٩.

(٣٩) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣.

(٤٠) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥.

(٤١) المصدر السابق، نفسه، ص ١٦٩.

(٤٢) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٧٤.

(٤٣) المصدر السابق، نفسه، ص ١٤٧.

(٤٤) المصدر السابق، نفسه، ص ٣١٥.

(٤٥) المصدر السابق، نفسه، ص ٢١٥.

(٤٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٢١٦.

(٤٧) المصدر السابق، نفسه، ص ٢١٧.

(٤٨) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٨١-٣٠٣.

(٤٩) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٨٧.

(٥٠) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.

(٥١) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٤.

(٥٢) ابن المقفع، **رسالة الصحابة، في: آثار ابن المقفع**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٤٨.

(٥٣) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٤٨.

(٥٤) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٤٨.

(٥٥) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٤٨.

(٥٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٤٩.

(٥٧) يرى ابن المقفع أن الله إذ "جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين: "الدين والعقل فإن حكمته اقتضت أن يكون الدين لـ "معرفة الهدى" التي لم يكن بمقدور عقولهم الوصول إليها لولا نعمة الله عليهم بالدين. واقتضت حكمته أن لا يتضمن الدين أسباب صلاح المعاش" بسبب التغير المستمر في أحوال البشر. فأناط تدبير ذلك "إلى الرأي وجعل الرأي إلى ولاة الأمر ليس للناس في ذلك الأمر شيء، يذهب ابن المقفع إلى القول: "لو أن الدين جاء من الله لم يغادر حرفاً من الأحكام والرأي الأمر وجميع ما هو وارد على الناس وجار فيهم مذ بعث الله رسوله (ص) إلى يوم يلقونه إلا جاء فيه بعزيمة لكانوا قد كلفوا غير وسعهم فيضيق عليهم دينهم وأتاهم ما لم تسمع أسماعهم لاستماعه ولا قلبوهم لفهمه ولحارت عقولهم وألبابهم التي امتن بها عليهم. ولكانت لغواً لا

يحتاجون إليها في شيء كما قال عباد الله المتقون: وما كنا لنهتدي لولا أن هداني الله" انظر، **رسالة الصحابة،** مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٥٨) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٤٩.

(٥٩) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤.

(٦٠) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٦٣.

(٦١) انظر المقدمة التي كتبها البرفسور ك. تيتيه لكتاب "**الدولة والأخلاق السياسية**" لحميد الدليمي، ترجمة محمد أسليم نسخة إلكترونية متوفرة على موقع http://www.aslimnet.net.

(٦٢) قد يكون مهماً أن نشير إلى ما ذهبت إليه التقاليد السياسية الإغريقية التي رأت أن كل نظام حكم صالح له شكل فاسد ينحرف إليه بالضرورة. بحيث تنحرف الملكية نحو الاستبداد، الأرستقراطية نحو الأوليغارسشية، والديمقراطية نحو الغوغاء.

(٦٣) على الرغم من الأهمية المنهجية لهذا الموضوع إلا أنه يخرج عن حدود هذا البحث، غير أنه يمكن الإشراة بهذا إلى الخصوص إلى أننا نلحظ ميلاً واضحاً لدى مؤرخي الفكر السياسي (لأسطرة) الحالة الإغريقية ورفعها إلى مستوى "المطلق" باعتبارها نموذجاً عبقرياً فريداً، بل "ومعجزة" للعقل الإنساني أيضاً. وحالما يأخذ التقييم هذا المنحى، تبدو بقية التجارب الإنسانية (الشرقية في الحالة المعنية) لا معنى لها، إلا من حيث "تمثلها" لكل ما هو رديء ودوني ومنحط. ولا يعني هذا الاستنتاج، بأي حال، الانتقاص من أهمية ومكانة التقاليد الإغريقية في تاريخ الفكر السياسي العالمي، فهذا ما لا يستقيم ومعايير الحق والحقيقة، بل المراد هنا الدعوة على تخليصها من "القداسة" التي أحيطت بها وردّها إلى حدودها التاريخية والواقعية الملموسة، وهو ما يعني ضرورة النظر إلى نظمها السياسية المختلفة من زاوية الممارسة العملية أيضاً آنذاك سوف يبدو لنا أن

أشكال الحكم المختلفة والمتعاقبة في التجربة السياسية الإغريقية لم تتعدَ في ممارستها العملية حدود علاقات القوة الملازمة لأي مجتمع سياسي آخر، وأنها في صيرورتها التاريخية إذ أنتجت صيغ الحكم التي تجاوبت فيها مع مصالح الجماعة السياسية، فإنها في الوقت ذاته أنتجت كل الصيغ القهرية الأخرى التي تمثّل فيها كل ما يمكن أن نراه منحطاً ولا إنسانياً في التجربة الشرقية أيضاً!.

(٦٤) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.

(٦٥) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٢٨.

(٦٦) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.

(٦٧) المصدر السابق، نفسه، ص ٧٣.

(٦٨) المصدر السابق، نفسه، ص ٧٣.

(٦٩) قد يكون مناسباً الإشارة هنا إلى ما يذهب إليه بعض علماء السياسة المعاصرين من حتمية ملازمة صعود النخب السياسية وسقوطها. انظر على سبيل المثال: ت. بوتومور، **النخبة والمجتمع**، ترجمة جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٠.

(٧٠) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥.

(٧١) ابن المقفع، **الأدب الصغير والأديب الكبير**، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤.

(٧٢) ابن المقفع **الدرة اليتيمة، في آثار ابن المقفع**، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص ٢٦٦.

(٧٣) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٧٤) أبو الحسن الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، منشورات مصطفى البابا الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٥.

(٧٥) أنطون مقدسي، **ابن خلدون والسياسة العربية**، المعهد العالي للعلوم السياسية، دمشق، ١٩٨٠، ص ٣.

(٧٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٧٢.

(٧٧) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٠.

(٧٨) انظر النص كاملاً في: عادل العوا، **الفضائل العربية**، دار الفاضل، دمشق، ٢٠٠٤، ص ١٤٠-١٤٣.

(٧٩) المصدر السابق، نفسه، ص ١٤٠-١٤١.

(٨٠) لا يتسع المجال هنا لعرض كافة جوانب هذه الفكرة بكل تفصيلاتها وبياناتها، فقد قدم ابن المقفع على لسان بيدبا، كل ما رآه ضرورياً وواقعياً من قواعد السياسة العملية التي ينبغي اتباعها وتلك التي ينبغي الحذر منها أو الابتعاد عنها. وإذا كنا قد تعرضنا في بداية البحث إلى بعض مرتكزات هذه الفكرة، فإن ابن المقفع قد فصّب (إلى حدود الإدهاش) حتى في أدق القضايا التي تهم "رجل الدولة". سواء على صعيد تثبيت السلطة أو سياسة الدولة والرعية. وسوف نكتفي هنا بإيراد نماذج لبعض قضايا السياسة العملية كما طرحها ابن المقفع على لسان بيدبا في "كليلة ودمنة" على دبشليم الملك. ومن ذلك على سبيل المثال:

- احتياطات الأمن: "ينبغي للملك أن" لا يطلع أحداً على مواضع سره. [و] أن يتحفظ من عدوه في كل شيء حتى في الماء الذي يشربه ويغتسل به والفراش الذي ينام عليه، ولا يأمن على نفسه إلا الثقة الأمين السالم الباطن والظاهر ويكون بعد ذلك كله على حذر منه. لأن عدوه لا يتوصل إليه إلا من جهة ثقاته. فربما كان أحدهما لعدوه صديقاً فيصل العدو إلى مراده منه". ابن المقفع **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص٢٢٩.
- لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة: إن المودة والعداوة لا تثبتان على حالة أبداً وربما حالت المودة إلى العداوة وصارت العداوة ولاية صادقة. المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٩. فالعاقل يصالح عدوه إذا

اضطر إليه ويصانعه ويظهر له وده ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بداً ثم يعجل الانصراف عنه حين يجد إلى ذلك سبيلاً" المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٥. ذلك أن العاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة معه [و] إذا زالت الحاجة التي حملته على ذلك زالت صداقته فتحولت وصارت إلى أصل أمره، ص ٢٥٤.

- طبقات الناس التي ينبغي للملك إقصاءها: "لا ينبغي للملك أن يطمئن إلى من عاقبه أشد العقوبة من نزعه عن عمله أو أخذ ماله بغير ذنب أو من كان للكرامة لأهلاً فلم يعرف له ذلك ولم يعطه ما هو أهل له أو كان مظلوماً ولم ينظر في أمره أو كان من أهل الطمع فلم يصب ما يرجوه منه أو كان بين قوم قد اجترموا جريمة هو منها بريء فأخذ هو بها من بينهم وخلى سبيلهم. المصدر السابق نفسه ص ٢٤٤.
- أهمية المال في الوصول إلى الغايات: "المال جُعل قوة وزيادة في الرأي والتمكين" المصدر السابق ص ١٩٧. وما ينبغي فهمه أنه ليس "الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال" المصدر السابق نفسه ص ١٩٨. و"أن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه وأهل وده ومقتوه ورفضوه وأهانوه" المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٨.
- تجنب الحرب والمغامرات غير المحسوبة: "ابق على عدتك وعيالك ولا تحملهم على العناء، فإنه ليس من السياسة أن يرمي الملك بعدته في التهالك المتلفة والمواضع المجحفة" و"لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه وهو يستطيع غير ذلك بما استطاع من رفق وتمحُّل" المصدر السابق نفسه، ص ٧١.

- إشغال الخصوم ببعضهم البعض: فـ "العاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضا ظفراً حسناً. ويرى اشتغال بعض أعدائه ببعض خلاصاً لنفسه ونجاة" المصدر السابق، ص ٢٢٢.
- تجنب الأشياء التي تهدد السلطة ومعالجة ما يظهر منها: "ذلك أن السلطان يؤتى ويفسد أمره من قبل ستة أشياء الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخرق" المصدر السابق نفسه ،ص ١٢٣-١٢٤.
- سياسات العقاب: "إن ذي الرأي من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه. ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة. فلذنب العلانية عقوبة العلانية ولذنب السر عقوبة السر" المصدر السابق نفسه ص ١٣٦. و"إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر، ومن إذا تضرع إليه وسئل العفو فلم يرحم ولم يعفُ فقد غدر. المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٢.
- إقصاء من يخشى تطلعه إلى السلطة ولو كان من المقربين: "فإن العاقل لا يرحم من يخافه. وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ثم قربه وأدناه لما يعلم عنده من الغناء والكفاءة. المصدر السابق نفسه، ص ١٥٩.
- العفو عن الجرائم الصغيرة: "فقد أمر العلماء بالعفو عن الجاني والصفح عن المذنب ولكنهم نهو عن اغتفار الجرم العظيم والذنب الكبير". المصدر السابق نفسه، ص ١٦٥.

(٨١) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(٨٢) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٦.

(٨٣) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٥.

(٨٤) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٩.

(٨٥) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٩.

(٨٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٤٠.

(٨٧) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥.

(٨٨) المصدر السابق، نفسه، ص ٢١٤.

(٨٩) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٦٦.

(٩٠) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٥٧.

(٩١) يقدم ابن المقفع مثل (ملك النيل ونقب الرياح) نموذجاً شديد الوضوح عن الآثار المدمرة لنتائج السياسات اللاعقلانية والمتهورة على السلطة والدولة، فبعد أن أقدمت السلطة على سد النقب الذي تهب منه الريح بالحطب والجارة، جفت الأشجار ونشفت المياه ويبست كل خضراء في الجبل، وتماوتت المواشي وسائر الحيوانات، ووقع الوباء في الناس، وهلك خلق كثير، فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد فوثب من بقي منهم ممن به رمق وتجمعوا إلى باب الملك فقتلوه ووزيره وأهله ولم يبق منهم أحد، ثم مضوا إلى ذلك النقب فقلعوا الحجارة وطرحوا في ذلك الحطب في الناب فالتهب. ثم إن الريح خرجت بحمية شديدة فطرحت النار في سائر البلاد. فلم يبقَ مدينة ولا قرية ولا حصن ولا شجرة إلا أحرقته النار. انظر، ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، دار الأندلس، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤، ص٣٠٤.

(٩٢) ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، دار الجليل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.

(٩٣) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٥٥.

(٩٤) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٣٣.

(٩٥) ابن المقفع، **رسالة الصحابة في آثار ابن المقفع**، مصدر سبق ذكره، ص٣٤٧.

(٩٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٠.

(٩٧) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥١.

(٩٨) المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٠.

(٩٩) ابن المقفع، **رسالة الصحابة في آثار ابن المقفع**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٠.

(١٠٠) انظر على سبيل المثال، حمدي الدليمي، **الدولة والأخلاق السياسية**، مرجع إلكتروني، سبق ذكره.

(١٠١) ابن المقفع، رسالة الصحابة في آثار ابن المقفع، مصدر سبق ذكره، ص٣٥٩.

(١٠٢) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٨٥.

(١٠٣) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٨٥.

(١٠٤) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٨٥.

(١٠٥) المصدر السابق، نفسه، ص ٢٨٥.

(١٠٦) يرى طه حسين أن هذه الفكرة التي يعنى الناس بها الآن لم يبتدعها ابن المقفع بل هي أثر من آثار الثقافة اليونانية" فقبل ابن المقفع نشر جوستنيان قانونه وهو مجموعو من القوانين الرومانية" انظر، طه حسين، **من حديث الشعر والنثر**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٣٦، ص ٧٣. بينما يميل فريق آخر إلى القول: إن هذه الفكرة – لم تكن من خلق ابن المقفع – فهي أثر من آثار ثقافته الفارسية قبل كل شيء. انظر عبد اللطيف حمزة، **ثلاثة شخصيات في التاريخ** – الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٩٩. وقد ذهب فريق ثالث إلى القول بالأساس الإسلامي لهذه الفكرة ورآها مجسدة في أفعال الصحابة وعمر بن عبد العزيز،. انظر حسين علي جمعة، **ابن المقفع بين حضارتين**، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، دمشق، ٢٠٠٣، ص ١١٧.

(١٠٧) من المعروف تاريخياً نشأة مدرستين متعارضتين للتشريع الإسلامي الأولى مدرسة المدينة أو مدرسة الحجاز التي وقفت عند حدود النص ورفضت اتباع الرأي لما فيه من "أخذ بالهوى والغرض، وبالتالي إدخال في دين الله ما ليس منه". انظر سهيل زكار، **في التاريخ العباسي والأندلسي السياسي والحضاري**، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٣، الطبعة السابعة، ص ٣٦٩. أما المدرسة

الأخرى فهي مدرسة الرأي أو مدرسة العرق وترى أن "النصوص تتناهى ولكن الوقائع لا تتناهى وتزداد يوماً بعد يوم وتتنوع، وذلك كان لا بد من استعمال التفكير وإعمال العقل في النظر والاستنتاج الفقهي مع المراعاة التامة لروح الشريعة الإسلامية" .انظر سهيل زكار، المرجع السابق نفسه، ص ٣٨٧.

(١٠٨) ابن المقفع، **رسالة الصحابة في آثار ابن المقفع**، مصدر سبق ذكره، ص٣٥٣.

(١٠٩)المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٤.

(١١٠)المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٤.

(١١١) تكاد تخلو كتابات ابن المقفع من أدنى إشارة إلى ما يفيد ميله إلى قيام القضاء وأحكام التشريع إلى المرجعية الدينية على العكس تماماً. إذ يحفل كليلة ودمنة بإشارات عميقة إلى كمرجعية العقل والتجربة الإنسانية دون غيرهما من ذلك ففي باب "الفحص عن أمر دمنة" يمكن لنا العثور -على سبيل المثال- إلى إجراء محاكمة كاملة تبدأ من الشك بالمتهم فاعتقاله، وصولاً إلى مواجهته بالأدلة والشهود فعقابه، وما تخلل ذلك كله من إشارات إلى هيئة المحكمة، والتستر على الجريمة، وشهادة الزور، وحق المتهم في الدفاع عن نفسه، وصفات القاضي، وعدم الحكم بالظن... وغير ذلك من القضايا والإجراءات الأخرى التي يمكن أن تثيرها محاكمة مدينة "معاصرة" انظر، **كليلة ودمنة**، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢. وما بعدها.

(١١٢) انظر، محمد عراف، **في مصادر التراث السياسي الإسلامي**، مرجع سبق ذكره، ص ٧٣.

(١١٣) نظر، عبد الرحمن بدوي، **الأصول اليونانية للنظريات الإسلامية السياسية**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٤، ص ٧٢.

الملامح الاقتصادية في اليمن من خلال كتاب "السلوك في طبقات العلماء والملوك" للجندي ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م*

الدكتورة غيداء خزنة كاتبي

قسم التاريخ

الجامعة الأردنية

إن أكثر كتب التراث تحوي معلومات اقتصادية قد تختلف في طبيعة المادة التي توردها، من مبادئ الفكر الاقتصادي وأسسه، أو من ممارسات التاريخ الاقتصادي. ولما كانت أكثر عناوين الكتب التراثية، سواء كانت تاريخية أو فقهية أو جغرافية أو كتب تراجم أو حديث أو تفسير، لا تدل على محتواها أو على مجال الإفادة منها، والمعلومات الاقتصادية فيها تأتي عرضاً في الغالب، وفي نطاق موضوعات خارج حقل الاقتصاد،فإن هذا يتطلب الاهتمام بدراستها وتحليلها بدقة للوصول إلى الإشارات الاقتصادية فيها.

يعد كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك، للقاضي بهاء الدين محمد بن يوسف ابن يعقوب الجندي، من المصنفات الهامة في تاريخ اليمن، شكلت مادته أساساً هاماً

* الجندي، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ٢ج، مكتبة الإرشاد، ط٢، صنعاء، ١٩٩٥م.

لدراسات تالية ،فأخذ عنه الكثيرون من أمثال الخزرجي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م) وابن الديبع (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) والسخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م).

واعترف الكثير من المؤرخين والباحثين بجهود الجندي وأهمية كتابه، ومع أهمية تلك الإشارات فإنها لم تخرج في معظمها عن الإشادة بالجندي وبعلمه الشمولي من خلال كتابه السلوك، وخلت من أية إشارة إلى المفاهيم والمصطلحات الاقتصادية ودلالاتها العامة.

وتحاول هذه الدراسة من خلال قراءة متأنية لكتاب السلوك، رصد الإشارات التي تتعلق بموضوعات في الاقتصاد الإسلامي والنظم المالية ، والتعريف بمواضعها في الكتاب، ليسهل الرجوع إليها، وبخاصة بأن عنوان الكتاب خارج حقل الاقتصاد، كما أن المعلومات الاقتصادية فيه ، تأتي عرضاً ضمن الحديث عن تراجم الفقهاء والملوك.

ويفترض ابتداء قبل استطلاع الملامح الاقتصادية في الكتاب، التعريف بصاحب الكتاب.

الجندي، النشأة والثقافة:

هو أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي[١]السكسكي[٢] الكندي، ولقب بالقاضي، لتوليه القضاء[٣].

ولد الجندي في جند، ونشأ في أسرة علم ساهمت في تشكيل ثقافته الأولى، فكان والده من أكبر شيوخه في الفقه والتاريخ[٤]، رحل به إلى المراكز العلمية الهامة في اليمن، كمدينة تعز[٥] وزبيد[٦]، فأفاد من علمائها، كما أفاد من الفقهاء والعلماء في أرجاء اليمن المختلفة، إضافة إلى أخذه من علماء العالم الإسلامي الوافدين إلى اليمن في تلك الفترة[٧].

وكانت "الجند" بحد ذاتها مورداً للعلماء ومقاماً للملوك[٨]، وهذا مما هيأ للجندي بيئة علمية مناسبة، ساهمت هي الأخرى في تشكيل ثقافته.

وتعددت مساهمات الجندي الثقافية، والإدارية ذات الطابع الديني، فعمل مدرساً في المدرسة المظفرية في تعز سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م[٩]. ومدرساً في مدرسة عبدالله بن عباس في جند، وتدعى أيضاً المدرسة العباسية[١٠].

وكلف الجندي بحسبة عدن بين سنة ٦٨٦هـ-٧٢٦هـ/١٢٨٧-١٣٢٥م وقام بعمله بهمة، رغم أن الكثيرين حذروه من مخاطر الطريق، وفي ذلك يقول الجندي: "وذكروا لي أن جماعة نهبوا وقتلوا فلم التفت على ذلك"[١١]، كما كلف الجندي بحسبة زبيد في سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م[١٢]، إضافة إلى توليه وظيفة القضاء أيضاً، وهي من الوظائف ذات الثقل الاجتماعي والديني الكبيرين[١٣].

والجدير بالملاحظة أن الجندي عاش في فترة اتسمت بعناية الملوك بالعلماء والفقهاء، فكانوا يمتثلون بأقوالهم ونصائحهم، وقد يأخذون بآرائهم درءاً للمفاسد وجلباً للمصالح. وقد عاصر الجندي عددا من ملوك دولة بني رسول[١٤]، كالملك المظفر يوسف بن عمر (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٤م)، وابنه عمر بن يوسف (ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، والملك المؤيد داوود بن يوسف بن عمر (ت٧٢١هـ/١٣٢١م)، والملك المجاهد علي بن المؤيد (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) الذي كانت وفاة الجندي في عهده، في سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، و قيل في سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م[١٥].

مصادر الجندي:

اشتهر الجندي بكتابه السلوك، الذي جمع فيه تراجم معظم فقهاء اليمن[١٦]، فعد من ثقات مؤرخي اليمن[١٧]، بل شيخ المؤرخين في عصر بني رسول، وحجة علم التاريخ فيه[١٨].

وقد نحا **في كتابه** الذي رتبه على الطبقات، منحى ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨١م) في كتابه وفيات الأعيان، واستعان به في تراجم العلماء من غير أهل اليمن(١٩).

واعتمد في تراجم المتقدمين من فقهاء اليمن ،من ظهور الإسلام إلى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، على كتاب شيخه الفقيه أبي حفص عمر بن علي بن سمرة الجعدي، مع ما أضاف إليه الجندي من معلومات أخذها عن شيوخه الآخرين فأعطت المؤلف قيمة إضافية(٢٠).

وأفاد الجندي من كتاب تاريخ اليمن، أو تاريخ صنعاء، لأبي العباس احمد بن عبدالله الرازي، في التراجم حتى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، كما أفاد من كتاب تاريخ صنعاء لاسحق بن جرير الصنعاني(٢١).

وتأثر الجندي بشيخه أبي الحسن الاصبحي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، وكان من علماء اليمن البارزين، ويأتي إسناده عنه بقوله" سمعت شيخي أبا الحسن الاصبحي"، و"أخبرني شيخي أبو الحسن الاصبحي"(٢٢).وأفاد من شيخه الفقيه عثمان بن محمد الشرعبي فيما يخص فقهاء تعز(٢٣).

وتأثر الجندي بوالده كثيراً،فنقل عنه كثيراً من المعلومات المتعلقة ببعض التراجم، في الفقه والتاريخ(٢٤). كذلك ساعده تطوافه العلمي بين مراكز العلم في تعز و زبيد، في الاطلاع على فكر تلك المراكز وعلومها(٢٥).وسهل قيامه بأعمال الحسبة الالتقاء بالعلماء في أنحاء اليمن، وأضاف إضافة نوعية إلى تحصيله العلمي وفي ذلك يقول الجندي: "فرأيت أني آتي لهم على ما تحققته من نقل بعضهم، اجتمعت به في عدن أيام كنت بحسبتها"(٢٦).

واتجه الجندي في ترتيب كتابه على نهج شيخه أبي الحسن الاصبحي، فكان في قسمين؛ القسم الأول: تراجم علماء اليمن والفقهاء. والقسم الثاني: طرفٌ من أخبار الملوك إلى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م. بدءاً بسيرة الرسول (ص)، ثم ذكر من دخل اليمن

من الصحابة والتابعين، ثم الخلفاء والأمراء إلى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م(٢٧)وفي ذلك يقول الجندي: "وانقضى ذكر من تحققته أهلاً للذكر من علماء اليمن في غالب بلادها... وذلك من وقت ظهور الإسلام إلى عصرنا سنة أربع وعشرين وسبعمائة، ومضى من ذكر الملوك أيضاً إلى آخر المائة الثالثة، وواجبت تكميل ذلك بذكر من قام من أول المائة الرابعة إلى عصر سنة أربع عشر وسبعمائة وذلك على طريق الإيجاز والاختصار"(٢٨).

وقد جاء أسلوب الجند ي سرداً متصلاً لتراجم العلماء وسير الملوك، دون فصول أو أبواب، مع ما اتصف به من دقة في ضبط الإعلام والمواقع الجغرافية، مما جنبه الوقوع في الزلل في الغالب.

الملامح الاقتصادية في الكتاب:

يتضمن كتاب السلوك إشارات اقتصادية كثيرة في حقول واضحة في الاقتصاد، يتصل بعضها بالزراعة والأرض، وبعضها بالصناعة والتجارة،كما يتصل بعضه الأخر بالموارد المالية،إضافة إلى موضوعات اقتصادية أخرى تتعلق بالنقود والدواوين ومستوى المعيشة وغيرها.

الزراعة/ الأرض:

تعدُّ الأرض أهم حقل للإنتاج، وشروط استغلالها يعتمد عادة على مكانة الأشخاص ومراكزهم. وقدم الجندي في معرض حديثه عن فقهاء اليمن، معلومات عن الملكيات الزراعية في اليمن، وعمل بعض الفقهاء بالزراعة، إضافة إلى إشارات عن أنواع المزروعات، ووسائل الري.

فيذكر مثلاً أنه كان لقوم من أهل صنعاء، أرضاً في البادية يزرعونها(٢٩)، ثم يذكر أنه كان لبعض الفقهاء أراض مزروعة تدر عليهم المال الكثير، كأرض يزيد بن عبدالله

ابن جعفر بن إبراهيم(٣٠)، وأرض سيف السنة أبي الحسن احمد بن محمد بن عبدالله ابن يوسف السكسكي(٣١)، وأرض أبي الخطاب عمر بن سعيد بن محمد الربيعي في السحول(٣٢) والشوافي(٣٣)، وأرض أبي بكر بن محمد بن ناصر الحسين الحميري(٣٤). وأرض أبو عبد الله محمد بن عمر الكلاعي الذي قال عنه الجندي: "كان رجلاً مباركاً يزرع أرضاً يملكها..."(٣٥) كما كان للفقيه أبي الفتوح صبح الأصبحي أرضاً يزرعها(٣٦).

ويذكر الجندي أيضاً أنه كان للفقيه العتيق أبي بكر بن الفقيه محمد بن القاضي عمر الهزار أرضاً تعرف بوادي سخمل(٣٧)، وهو من أودية اليمن المشهورة شرقي زبيد(٣٨)، كما كان لعلي بن اسعد بن سليم العسقي(٣٩)،وليحيى بن سالم بن سليمان الشهابي الكندي(٤٠)(ت ٦٧٠هـ/١٢٧١م)، وللفقيه أبي بكر بن مبارز الشاوري (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) (٤١)، وللقاضي ابن مياس (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)(٤٢) أراضٍ ذات حاصل جيد، هذا إلى جانب إشارة بأن الفقيه علياً بن مسعود كان يزرع حول داره(٤٣).

وتضمن كتاب الجندي إشارات إلى عمل بعض الفقهاء بالزراعة، منهم: محمد بن سعيد القريظي(٤٤)، ومحمد بن مسعود بن سعد بن شكيل(٤٥)، والفقيه أبا السمو العلا بن عبدالله بن محمد الحميري(٦٨٠هـ/١٢٨١م) (٤٦)، والفقيه سعيد بن اسعد بن علي الحرازي (ت ٧٠٧هـ/١٣٠٧م) (٤٧)، وأبا الحسن علياً بن اسماعيل بن عبدالله (ت ٧١١هـ/١٣١١م) (٤٨)، وعبدالرحمن بن القاضي صالح بن الفقيه إبراهيم(٤٩).وعمل أولاد الفقيه احمد بن حمزة بن علي بن حسين السكسكي بالزراعة(٥٠). كما كان ابن الفقيه نعمان بن زيد حراثاً، صاحب زراعة(٥١).

وضمن الجندي كتابه، إشارات إلى بعض المزروعات، كالموز(٥٢)، والنخيل(٥٣)، وقصب السكر(٥٤)، والعنب(٥٥)، إضافة إلى إشارات عن الري بما فيها الإمطار(٥٦)، والآبار(٥٧)، والسدود(٥٨).

أما الأرض وأصنافها، فمع قلة الإشارات إليها والتي تناولت صنفين من الأراضي هما: أراضي الإقطاع، وأراضي الوقف، فإنها تعطي فكرة عن نطاق الملكيات، وعلى الأهمية المعطاة للأرض من قبل الأمراء والأشراف، واتجاه القضاة نحو تملك الأراضي، فأسهموا في توسيع نطاق الأراضي المزروعة.

أراضي الإقطاع:

الإقطاع كما يقول الخوارزمي(ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) " أن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبتها" أي أن الأرض تصبح ملكاً لصاحبها،وتمنح من الخلفاء / السلاطين، ولا يفرض هذا الإقطاع أي مسؤولية على صاحبه[٥٩]. و الإقطاع في العرف المملوكي لا دخل له بحقوق الملكية وأحكام الوراثة، إذ كان المقطع يحل محل السلطان ليتمتع بإيراداته وغلاته، ثم يؤول إلى السلطان بعد انتهاء مدة الأجر، أو الموت[٦٠].

تضمن كتاب السلوك، إشارات متعددة إلى أقطاعات منحت لبعض الفقهاء في تلك الفترة، فقد وردت إشارات إلى إقطاع الملك المنصور للفقيه احمد بن يحيى بن محمد إقطاعات كثيرة[٦١]، و إقطاع الفقيه أبي بكر محمد بن أبي بكر بن علي بن محمد ابن إبراهيم بن سعيد بن قيس الهمذاني(ت٥٧٧هـ/١١٨١م) أقطاعات كثيرة أيضاً[٦٢].

واقطع الملك المظفر، الأستاذ مختص بن عبدالله الملقب بنظام الدين (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، والذي أنشأ المدرسة النظامية بزبيد، إقطاعا كبيراً[٦٣].واقطع موزع[٦٤]، وظفار[٦٥] لابنه الواثق بن المظفر في سنة(٦٩٠هـ/١٢٩١م). وهناك إشارات إلى إقطاع الأمير محمد بن نجاح المظفري(ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) فيقول الجندي "كان أميراً كبيراً صاحب طبلخانه[٦٦] وإقطاع جيدة"[٦٧]، وهناك إشارات إلى إقطاع عمر ابن يوسف بن منصور[٦٨]، وإقطاع ابن عجيل[٦٩]، وإقطاع الأمير أبي زكريا في المهجم[٧٠]، وكانت المهجم إقطاعا للمظفر بن الملك المنصور[٧١]، أما أبين[٧٢] فكانت إقطاعاً لعمر بن الدويدار[٧٣].

ووردت إشارات إلى أقطاعات المظفر لبني فيروز(اكراد) في إب[٧٤]، لقاء ما يقدمون له من خدمات[٧٥]، وإقطاع صنعاء لمحمد بن حسن أسد الدين[٧٦]، ثم لسنجر الشعبي[٧٧]والي حصن تعز.

أراضي الوقف:

وتضمن كتاب السلوك، إشارات متعددة إلى الوقف أيضاً.و الوقف بعامة، نوع من أنواع التصرف في الملك الشخصي، يحوله الواقف إلى مال شبه عام، وهو لغة الحبس والمنع[٧٨]، حبس عين الوقف سواء كانت عقاراً، أي أرضاً- وهذا هو الأصل في الوقف[٧٩]- أو منشأة عقارية. وتسبيل[٨٠]المنفعة، أي صرفها لجهات الوقف[٨١]، فيخصص ريعها لإعمال البر والخير، أو للإنفاق على الواقف ثم على أولاده وفقاً لشروط الواقف نفسه[٨٢].

فقد خصص بعض الملوك والأمراء أوقافاً جيدة على المدارس والمساجد التي ابتنوها. فيذكر أن المنصور (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) بنى ثلاث مدارس في زبيد ومسجداً، وقف عليها وقفاً جيداً[٨٣]. أما المظفر(ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م) -وكان يتورع عن أموال الوقف- فقد وقف وقفاً جيداً على مدرسة تعز[٨٤]، وأوقف الأمير محمد بن نجاح المظفري (ت ٧١٢هـ/١٣١٢م)أوقافاً كثيرة بتعز والجند[٨٥].

وثمة إشارات إلى أوقاف بدر الدين ابن أخ أسد الدين، وفخر الدين ابن أخ المظفر[٨٦]، والمعز بن طغتكين الذي أوقف وادي الضباب جنوب غرب تعز، أوقافاً على مدرسة اشتراها[٨٧].

ويظهر من المعلومات الخاصة بالوقف في هذا الكتاب، أن الفقهاء، والولاة، ونساء الملوك، قد ضاهوا الملوك في أعمال الخير، فأسسوا المدارس والمساجد ووقفوا عليها أوقافاً جزيلة.

فقد وقف ميكاييل بن أبي بكر، والي جند، وقفاً جيداً[٨٨]على مدرسة بناها، ووقف الفقيه أبو اسحاق إبراهيم بن سليمان بن محمد بن عجلان ضيعته وكتبه على طلبة العلم[٨٩]، كما وقف الزنجبيلي، خان البر، على مسجد بناه في عدن[٩٠]. ووقف هارون بن أبي بكر بن مبارز الشاوري أرضاً على مدرسة في المسجد[٩١]، وبنى عبدالوهاب العريقي بحصن الظفر[٩٢] مدرسة وقف عليها أوقافاً جزيلة[٩٣]. وبنى أبو عبدالله محمد ابن عمر (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م) مدرسة وقف عليها وقفاً جيداً[٩٤]، كما بنى سليمان ابن محمود بن أبي الفضل الشيرازي (ت٧٢٠هـ/١٣٢٠م) مسجداً بعدن، وقف عليه أوقافاً كثيرة[٩٥]. وبنى محمد بن عيسى بن مطير مدرسة، وقف عليها وقفاً[٩٦].

ووقف الفقيه أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن بَّطال الركبي (نسبة إلى قبيلة الركب، من الأشاعرة) [٩٧]كتبه وبعض أرضه على المدرسة التي كان يدرس بها[٩٨]، وأوقف الفقيه الوعلاني وقفاً جيداً على جامع بتربة وعلان[٩٩]، كما وقف علي بن محمد بن غليس أوقافاً بوصاب[١٠٠] وحسن[١٠١]، ووقف مختص ابن عبدالله نظام الدين ،وقفاً جيداً على مسجد جند[١٠٢]ووقف فاخر وهو خادم نجمية ابنة علي بن رسول وقفاً على مدرسة بذي السقال[١٠٣]. وأوقف بنو فيروز (أكراد) وهم أهل فراسة وشجاعة، ويميلون إلى العبادة والتصوف، أوقافاً عديدة على مدارس عدة، والجدير بالذكر أن بني فيروز كانوا مقربين للملك المظفر وموالين له[١٠٤].

وترد إشارات إلى أوقاف نساء الملوك والأمراء، كأوقاف الحرة مريم زوج الملك المظفر، على المدارس في زبيد[١٠٥]، وذي عقيب[١٠٦]، وأوقاف نجمية وهي ابنة علي ابن رسول، في سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م باسم زوجها الأمير نجم الدين بن أبي زكريا[١٠٧]. وهناك إشارة إلى وقف امرأة كانت ماشطة للحرة، توفيت ولا وارث لها فأوصت بدارها مدرسة وأوقفت عليها أرضاً كانت لها[١٠٨].

وترد إشارات إلى تخصيص بعض الواقفين أوقافاً على ذريتهم[١٠٩]، ولكنها إشارات قليلة. فقد ذكر الجندي وقفاً ذرياً لعثمان بن محمد بن علي، إذ كانت له أرض يستعين بها على حاله، فأوقفها على ذريته[١١٠].

أما بخصوص النظر في أمر الأوقاف، فيذكر الجندي أنها كانت للحكام ابتداء[١١١]، ولقاضي القضاة أيضاً الذي كان يفصل في قضايا الناس وترتيب أهل الوقف[١١٢]، ثم انتقل النظر في الأوقاف إلى أرباب الديوان حتى سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م[١١٣].هذا إلى جانب إشارة تلفت الانتباه بأن الملك المظفر ألزم أحد التجار النظر في وقف عدن... وكان يكتفي بما يأتيه[١١٤].

الصناعات والحرف:

تصنف الصناعات وفقاً لأهميتها إلى: صناعات أساسية وأخرى ثانوية. وقدم الجندي إشارات إلى بعض الصناعات آنذاك كصناعة السيوف والدروع[١١٥]، والصناعات النحاسية[١١٦]، والحديدية[١١٧]، والذهبية[١١٨]، وصناعة الأدوية[١١٩]، ومواد التجميل كالكحل[١٢٠]، وصناعة الحبر[١٢١]، وصناعة الصابون[١٢٢]، وصناعة السكر[١٢٣]، والصناعات النسيجية[١٢٤]

وارتبطت بالصناعات مهن وحرف صارت ملازمة لها، كمهنة الخياطة والحياكة[١٢٥]، والغزل، فقد ذكر أن الشيخ أبو بكر محمد بن ناصر الحميري كان لا يلبس إلا ما يغزله حريمه من قطن[١٢٦]. إضافة إلى مهن أخرى أشار إليها الجندي من خلال التراجم، كمهنة الطب الذي برع فيها محمد بن عبد الرحمن، فكان عارفاً بها[١٢٧].ومن المهن العطارة[١٢٨]، والقصاب[١٢٩] والنجار[١٣٠]، والزجاج[١٣١]، والبناء[١٣٢]، ومهنة الرعي[١٣٣].

التجارة:

ينظر إلى التجارة ابتداء نظرة تقدير، لعمل الرسول(ص) وخلفائه الثلاثة بالتجارة، وبعض الصحابة والتابعين[١٣٤].

قدم الجندي في حقل التجارة معلومات عن عمل بعض الفقهاء بالتجارة وورعهم[١٣٥]، وعن مواد التجارة (صادرات)[١٣٦]، و(واردات) [١٣٧]، وعن أسعار بعض المواد[١٣٨] وارتباطها بالخصب والجدب[١٣٩].

وأشار الجندي إلى نمو الحركة التجارية في أنحاء الجزيرة العربية[١٤٠]، وانتعاش التجارة الخارجية أيضاً[١٤١]، مع إشارة إلى اعتراض اللصوص وقطاع الطرق والشفاليت[١٤٢] للقوافل التجارية، كما حصل في سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م وسنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م[١٤٣].

وقدم الجندي معلومات عن الأسواق[١٤٤]، وهي جزء حيوي في التجارة، فأشار إلى سوق تعز[١٤٥]، وسوق ذي المنارة مثلاً [١٤٦]وسوق المجمع[١٤٧] بالقرب من وصاب، وسوق السبت في زبيد[١٤٨]، كما أشار إلى دار الضرب بزبيد[١٤٩]، وربط ما بين ضرب السكة وبين النفوذ[١٥٠]، وردت إشارات إلى متولي ضرب السكة[١٥١]، والعملات المستعملة من دنانير[١٥٢]، ودراهم، كالدرهم الغزالي نسبة إلى الفقيه محمد ابن علي الذي يعرف بابن غزال، وكان من الفضة الخالصه[١٥٣]. وإشارات إلى أوزان ومكاييل متداولة آنذاك مثل: أوقية[١٥٤]، واذهاب[١٥٥].

الموارد المالية:

تعددت موارد الدولة المالية، ويمكن تصنيفها ضمن مجموعتين، المجموعة الأولى؛ تشمل موارد الزكاة والجزية والخراج، والمجموعة الثانية تشمل موارد المكوس والمصادرات.

المجموعة الأولى:

ترصد الزكاة من الأموال المرصدة للنماء، وقد تناولت كتب الفقه مقدار ما يفرض على الأموال وعروض التجارة والسائمة، بالتفصيل، وقد تضمن كتاب الجندي إشارات إلى مقدار زكاة بعض الفقهاء وصدقاتهم[١٥٦].

أما الجزية[١٥٧]، وتؤخذ من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومن المجوس، وتجبى مرة واحدة في السنة من العقلاء والبالغين من الذكور، وقد بين الجندي إن يهود كانوا يقيمون في جند وتعز، دفعوا الجزية[١٥٨].

وترد لدى الجندي إشارات إلى الخراج، وهي ضريبة تجبى من الأراضي التي فتحت عنوة، وصارت وقفاً للمسلمين[١٥٩].

ويذكر أبو يوسف أن ارض اليمن ارض عشر، وكل ارض اسلم عليها أهلها، هي أرض عشر فيقول" وأما أرض الحجاز ومكة والمدينة وأرض اليمن وأرض العرب التي افتتحها رسول الله-ص- فلا يزاد عليها ولا ينقص منها..." [١٦٠]، ولكن يبدو أن حاجات الدولة للصرف على المرافق المختلفة[١٦١]، تطلب فرض ضريبة على أصحاب الأرض، عرفت بضريبة الخراج،وقد أشار الجندي إلى فرض الخراج في الفترات المختلفة، ففي حديثه عن أحداث سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م، يذكر الجندي أن بني معن كانوا يدفعون خراج عدن للسلطان بمقدار مائة ألف دينار سنوياً[١٦٢]. وفي حديثه عن الفقيه ابن سعد بن أبي بكر أبو الفتوح، يذكر الجندي أنه كانت له أرض عليها خراج [١٦٣]. ويذكر أيضاً خلال حديثه عن أبي الحسن علي بن مهدي ، وقصته مع الحرة أم السلطان الفاتك، أنها أطلقت له في سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م خراج أرضه وأرض من يلوذ به من قريب[١٦٤]. ويبدو أنه كان هناك إعفاءات من هذه الضريبة (مسامحات) أحياناً[١٦٥].

المجموعة الثانية:

وترد لدى الجندي إشارات متفرقة إلى موارد الدولة غير الشرعية[١٦٦]، كالمصادرات مثلاً، وتعني انتزاع أموال كبار رجال الدولة، وأملاكهم، ودورهم، كنوع من المحاسبة المالية[١٦٧].

وقد تعددت إشارات الجندي إلى تلك المصادرات، ومن أبرزها مصادرة قاضي القضاة محمد بن أبي بكر بن الفقيه محمد بن القاضي عمر الهزار في سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م) [١٦٨]، كذلك مصادرة القاضي محمد بن الفقيه أبي بكر، يعقوب بن احمدبن يعقوب في سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م) [١٦٩]ومصادرة الفقيه يحيى بن سالم بن سليمان بن الفضل الشهابي الكندي (ت ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) بما قيمته اثنا عشر ألف دينار[١٧٠]، ومصادرة الفقيه أبي بكر الملقب بالفخر[١٧١].

وترد إشارات إلى موارد غير شرعية أخرى مثل المعونة، وهو مال معلوم غير الخراج استحدثه السلطان أبا منصور (ت٦٤٧/١٢٤٩م) على الناس، وألغاه الملك المظفر في سنة ١٥٧هـ/١٢٥٨م [١٧٢].

أما الدواوين المالية والعاملين بها، كبيت المال[١٧٣]، وديوان الخراج بتهامة[١٧٤]، ودار الرزق[١٧٥] فقد وردت إشارات متفرقة عنها، إضافة إلى إشارات لكاتب خزائن المؤيد سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[١٧٦]، وكاتب الخزانة في تعز سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م[١٧٧] والجمكدار[١٧٨]، وشاد الدواوين[١٧٩]، وناظر الرعية[١٨٠].

مستوى المعيشة:

تضمن الحديث عن مستوى المعيشة، إشارات إلى أرزاق الفقهاء ورواتبهم[١٨١]، يفهم منها أن بعض الفقهاء كانوا أصحاب ثروة[١٨٢]، ولكن بالمقابل وردت إشارات إلى ديون كانت على بعض الفقهاء، أثقلت كاهلهم[١٨٣]. إضافة إلى إشارات متفرقة عن الأسعار[١٨٤]، والأعطيات، والهدايا[١٨٥]، والمهور أيضاً[١٨٦]، تعطي ملامح جيدة عن مستوى المعيشة في عصر المؤلف.

الهوامش

(١) الجندي: نسبة إلى جند وهي بلدة مشهورة من أعمال تعز، سكنها الكثير من الفقهاء والعلماء المحققين كطاووس وزيد بن عبدالله، وأبو عبدالله محمد بن عمر بن جعفر ابن فليح الكلاعي الحميري، الجندي، **السلوك**،٢/٥٧، الزركلي، **الإعلام**، ١٥١/٧، اليماني، مجموع، ١٩٤/١.

(٢) السكسكي: السكاسك هم أهل مخلاف الجند، وهم قبائل تسكن الجهة الغربية من حضر موت، والسكاسك هو ابن أشرس بن ثور وهو كنده بن عفير بن عدي بن زيد بن كهلان بن سبأ، وبه سمي مخلاف السكاسك، انظر الهمداني، الإكليل من أخبار اليمن وانساب حمير، ج٢ ١٨٧/٢٧. راضي دغفوس، اليمن في عهد الولاة، ص٤٢، ص ٤٩. وكان الرسول(ص) قد أرسل إلى جند معاذ بن جبل، أما أبو بكر فقد عين ابن أبي ربيعه المخزومي على مسجد جند، وفي خلافة علي، ثم تعيين سعيد بن سعد بن عبادة. انظر: راضي دغفوس، **اليمن في عهد الولاة**، ص٥٠، ٥٢، ٥١ ، ٦١، Geddes,C-i,Al-Djanadi, E.I(2) vol 2,p441.

(٣) الجندي، **السلوك** ٥٤/١ (مقدمة المحقق).

(٤) الحبشي، **حياة الأدب اليمني**، ص ١٢٤.

(٥) تعز: بالفتح ثم الكسر، بلدة مشهورة من مدن اليمن: في الجنوب الغربي من صنعاء، بالقرب من الجند، وتعرف بدمشق اليمن في الثمار والأنهار والازدهار، وكانت محل إقامة بني رسول ملوك اليمن. بامخرمة الحميري، النسبة، ص ١٥٨، وانظر، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٣٤/١، اليماني، **مجموع**، ١٤٥/١.

(٦) زبيد: بفتح أوله وكسر ثانيه، اسم واد به مدينة يقال لها الحصيب، ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلا به. وينسب إلى المدينة جمع كثير من العلماء. ياقوت

الحموي، **معجم البلدان** ١٣١/٣ وانظر: الحميري، **الروض المعطار**، ٢٨٤-٢٨٥. بامخرمة الحميري، **النسبة**، ٣٢١/١، اليماني، **مجموع** ٣٨٠/١-٣٨١.

(٧) ابن الديبع، **قرة العيون** ج١ ط ١٨(مقدمة المحقق) علي عبدالكريم بركات، **الكتابة التاريخية والمؤرخون في اليمن**، ص١٤٢.

(٨) الجندي، **السلوك**، ٥٢١/١.

(٩) الحبشي، **حياة الأدب اليمني**، ص ١٢٤-١٢٥.

(١٠) الجندي، **السلوك**، ٤٣٨/٢، الاكوع، **المدارس الإسلامية في اليمن**، ص١٧٣.

(١١) الجندي، **السلوك**، ٢٢٤/٢، ٢٨٢، ٤٢٦، الحبشي . حياة الأدب اليمني في ص ١٢٤-١٢٥.

(١٢) الجندي، **السلوك**، ٣١٦/٢، الحبشي، **حياة الأدب اليمني** ص١٢٤-١٢٥، وانظر الزركلي، **الأعلام**، ١٥١/٧.

(١٣) الحبشي، **حياة الأدب اليمني**، ص١٢٤-١٢٥.

(١٤) دولة بني رسول: قدم بنو رسول اليمن ضمن الحملة الأيوبية التي قادها سيف الإسلام طغتكين سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، وأسندت إليهم العديد من المناصب الإدارية والعسكرية، حتى وصلوا إلى أعلى المراكز في عهد الملك المسعود. انظر: محمد بني يحيى الفيضي، **الدولة الرسولية في اليمن**، ص ٣٩.

(١٥) الجندي،**السلوك**، ٢٨/١، كحاله، **معجم المؤلفين**، ١٤١/١١،علي عبدالكريم بركات، **الكتابة التاريخية والمؤرخون في اليمن**، ص١٤٧، محمد بن يحي الفيفي، **الدولة الرسولية في اليمن**، ص ٥٢-٥٤.

(١٦) السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ**، ص.٢٨٧

(١٧) الزركلي، **الإعلام**، ١٥١/٧، ابن الديبع، **قرة العيون** ج١ ص ١٨ (مقدمة المحقق)، أيمن فؤاد السيد، **مصادر تاريخ اليمن**، ص١٤٠.

(١٨) الحبشي، **حياة الأدب اليمني** ص ١٢٢، ١٢٤.

(١٩) الحبشي، **حياة الأدب اليمني**، ص١٢٦-١٢٧.

(٢٠) حاجي خليفة، **كشف الظنون** ٢/٩٩٩.

(٢١) السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ**، ص٢٨٧، (انظر، الجندي، السلوك، ١/٣٤٥، ١،٤٣٧.

(٢٢) السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ** ، ص٢٨٧، وكان من علماء اليمن البارزين، ويأتي إسناده عنه كالتالي" سمعت شيخي أبا الحسن الاصبحي، وأخبرني شيخي أبو الحسن الاصبحي، انظر، الجندي، **السلوك**، ١/٣٤٥، ١/٤٣٧.

(٢٣) الحبشي، **حياة الأدب اليمني** ، ص١٢٦-١٢٧، الاكوع، **المدارس الإسلامية في اليمن**، ص١٣٧.

(٢٤) الحبشي، **حياة الأدب اليمني** ص١٢٤.

(٢٥) الحبشي، **حياة الأدب اليمني** ص١٢٤، علي عبد الكريم بركات، **الكتابة التاريخية والمؤرخون في اليمن**. ص١٤٢.

(٢٦) الجندي، **السلوك**، ٢/٤٤٥.

(٢٧) أيمن فؤاد السيد، مصادر تاريخ اليمن ص١٤٠، الحبشي، **حياة الأدب اليمين** ص١٢٤.

(٢٨) الجندي، **السلوك**، ٢/٤٧٦ (مقدمة المحقق).

(٢٩) ن.م، ١/١٠٣.

(٣٠) ن.م، ١/٢٦٢-٢٦٦.

(٣١) ن.م ١/٣٢١.

(٣٢) السَّحول: بلد من أعمال إب، وهي من أخصب بلاد اليمن. انظر: اليماني، **مجموع**، ٣/٤١٧-٤١٨.

(٣٣) الشوافي: مخلاف من بلاد إب. اليماني، **مجموع**، ٣/٤٥٨ وانظر: الجندي، **السلوك**، ١/٤٤٧.

(٣٤) الجندي، **السلوك** ٩٦/٢.

(٣٥) ن.م، ٥٨/٢.

(٣٦) ن. م ٧٨/٢.

(٣٧) وادي سخمل: واد مشهور في بلاد وصاب، ومياهه تسيل في وادي زبيد، اليماني، **مجموع**، ٤١٨/٣.

(٣٨) الجندي، **السلوك**، ١٢٠/٢.

(٣٩) ن.م، ١٥٣/٢.

(٤٠) ن.م، ١٧٢/٢.

(٤١) ن.م، ٢٠٠/٢.

(٤٢) ن.م، ٢٢٢/٢.

(٤٣) ن.م، ٣٤٠/٢.

(٤٤) ن.م، ٤٤١/٢.

(٤٥) ن.م، ٤٣٩/٢، ٤٦٠. وانظر: البريهي، **طبقات**، ص ٣٣٤.

(٤٦) الجندي، **السلوك**، ٨٩/٢.

(٤٧) ن.م، ٩٠/٢.

(٤٨) ن.م، ٤٤/٢.

(٤٩) ن.م، ٣٢٨/٢.

(٥٠) ن.م، ٨٦/٢.

(٥١) ن.م، ٩٤/٢.

(٥٢) ن.م، ٢٣٤/١.

(٥٣) ن.م، ٣٣٤/١، ١٤٣/٢-١٤٤.

(٥٤) ن.م، ٤٢٥/١.

(٥٥) ن.م، ٣٦٧/١.

(٥٦) ن.م، ١٦٤/١، ٣٢٦/٢.

(٥٧) ن.م، ١٦٦/١، ١٨٤، ١٨٥، ٤٧٩/٢.

(٥٨) ن.م، ٤٤٩/١، ٥٤٩/٢.

(٥٩) الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ص ٣٩.

(٦٠) حسان حلاق، **المعجم**. ص٢١.

(٦١) الجندي، **السلوك**، ٤٠١/١، ٤٠٢.

(٦٢) ن. م، ٤٥١/١.

(٦٣) ن.م، ٤٣/٢، ٤٥.

(٦٤) موزع: بفتح الزاي، موضع باليمن، وأنها من مدن تهائم اليمن. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٢٢٠/٥، اليماني، **مجموع**، ٧٢٤/٤.

(٦٥) ظفار: اسم مشترك بين محلات كثيرة، أشهرها ظفار حمير عاصمة ملوك حمير. ابن الفقيه، **البلدان**، ص ٩١-٩٢.

(٦٦) طبلخانة، دار الطبول، مصطلح مملوكي للدلالة على مخازن الطبول المعدة لنوبة المواكب السلطانية. حسان حلاق، **المعجم**، ص ١٤٥.

(٦٧) الجندي، **السلوك**، ١٢٩/٢، ٦٠٧.

(٦٨) ن.م، ٥٥٧/٢.

(٦٩) ن.م، ٢٩٩/١.

(٧٠) المّهْجم: من أعمال زبيد، وتشكل حداً بين عمل تهامة واليمن. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٢٢٩/٥، الأدريسي، **نزهة المشتاق**، ٥٥/٣، اليماني، **مجموع**، ٧٢٥/٤. وانظر: الجندي، **السلوك**، ٣٢٩/٢.

(٧١) الجندي، **السلوك**، ٥٤٤/٢.

(٧٢) ابين: مخلاف مشهور شرقي عدن، اليماني، **مجموع**، ٥٥/١.

(٧٣) عن الدويدار، انظر: حسان حلاق، **المعجم**، ص ٩٦، وانظر: الجندي، **السلوك**، ٥٤٤/٢.

(٧٤) إب: مدينة في الجنوب الغربي من صنعاء، ترتفع عن سطح البحر ألفي متر. اليماني، **مجموع**، ٣١/١.

(٧٥) الجندي، **السلوك**، ٥٤٧/٢.

(٧٦) ن.م، ٥٤٢/٢.

(٧٧) ن.م، ٥٤٦/٢

(٧٨) الخصاف، كتاب أحكام الوقف، ص١٩-٣٣، المرداوي، **الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف**،٣/٧، الهيثمي، **تحفة المحتاج بشرح المنهاج**،ج٣١٥/٢، الكتاني، نظام الحكومة النبوية،ج٤٠١/١.

(٧٩) المرغيناني، الهداية،ج٢٥٩/٢.

(٨٠) التسبيل، السبل، الطريق، وسبل ضيعته، جعلها في سبيل الله.. ابن منظور، **لسان العرب** ج٣٢٠، ١١.

(٨١) الخصاف، **كتاب أحكام الوقف**، ص٣٨-٥٤، الحجاوي، **مختصر**، ص١١٢-١١٤.

(٨٢) عليش، **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك**، ج٢٤١/٢، ٢٤٨، وانظر عن شروط الواقف مثلاً: الجندي، **السلوك**، ١٦٩/٢، ٣٤٥.

(٨٣) الجندي، **السلوك**، ٥٤٣/٢.

(٨٤) ن.م، ٢٩١/١، ٥٥١، ٥٥٢، وانظر: بامخرمة اليماني، **النسبة**، ص ١٥٨.

(٨٥ الجندي، **السلوك**، ١٢٩/٢.

(٨٦) ن.م، ٥٤٨/٢، ٥٦٢/٢.

(٨٧) ن.م، ٣٦/٢.

(٨٨) ن.م، ٧١/٢.

(٨٩) ن.م، ١١٥/٢.

(٩٠) ن.م، ٥٣٤/٢.

(٩١) ن.م، ٢٠١/٢.

(٩٢) حصن الظفر: من أعمال صنعاء. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٦١/٤.

(٩٣) الجندي، **السلوك**، ٢٠٧/٢.

(٩٤) ن.م، ١٢٥/٢-١٢٦، ١٢٩.

(٩٥) ن.م، ٤٢٦/٢.

(٩٦) ن.م، ٣٤٥.

(٩٧) اليماني، **مجموع**، ٣٧٠/٢.

(٩٨) الجندي، **السلوك**، ٣٩٩/٢-٤٠١.

(٩٩) ن.م، ٤٠٨/٢.

(١٠٠) وصاب: بلد في الغرب الجنوبي من صنعاء، وتقسم إلى قسمين وصاب العالي ووصاب السفلي. أما ياقوت فيذكر أن وصاب جبل في اليمن، يحاذي زبيد، فيه عدة قرى وحصون. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٣٧٨/٥، وانظر: بامخرمة الحميري، **النسبة**، ج٥٨٢/١. اليماني، **مجموع** ، ٧٦٧/٤-٧٦٨.

(١٠١) الحسن، جبل وقيل رملة لبني سعد. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٢٦٠/٢، الجندي، **السلوك**، ٩٢/٢.

(١٠٢) الجندي، السلوك، ٤٤/٢.

(١٠٣) ن.م، ٢٥٣/٢.

(١٠٤) ن.م، ١٦٤/٢.

(١٠٥) ن.م، ٨٢/٢.

(١٠٦) ذي عُقيب: بضم العين وفتح القاف، من قرى ناحية ذي جبلة وأعمال إب. انظر عنها، الجندي، **السلوك** ٤٠٥/١. وانظر اليماني، **مجموع**، ٦٠٧/٣.

(١٠٧) الجندي، **السلوك**، ٢/٢٥٢-٢٥٣.

(١٠٨) ن.م، ٢/٦٦.

(١٠٩) ن.م، ٢/٩٦-٩٧.

(١١٠) ن.م، ٢/٩٦-٩٧.

(١١١) ن.م، ٢/١٢١، ٥٥٥.

(١١٢) ن.م، ٢/١٣١.

(١١٣) ن.م، ٢/٩٦-٩٧.

(١١٤) ن.م، ٢/٢٢٤.

(١١٥) ن.م،١/٢١٢.

(١١٦) ن.م، ١/٢٢٢.

(١١٧) ن.م، ١/٢٤٦، ٢٧٧٧، ٣٥٧،

(١١٨) ن.م، ١/٢٩٨.

(١١٩) ن.م، ١/٢١١، ٤١٨، ٤٢٢.

(١٢٠) ن.م، ١/٤٦٠.

(١٢١) ن.م، ١/٣٩٩-٣٤٠، ١/٤٢٥، ٢/٤١٤.

(١٢٢) ن.م،٢/ ٣٧٠.

(١٢٣) ن.م،١/ ٤٢٥، ٢/٤١٤.

(١٢٤) ن.م، ١/٤٥٢، ٢/٣٥٤.

(١٢٥) ن.م،١/٣٩٤، ٢/٣١٨،٦٨.

(١٢٦) ن.م، ٢/٦٨، ٢٥٢، ٣٥٣.

(١٢٧) ن.م، ٢/٣٧٥.

(١٢٨) ن.م، ٢/٣٣، ١١٠، ٤٢٢، ٤٢٧.

(١٢٩) ن.م، ٢/٣٥٥.

(١٣٠) ن.م، ٢/٤١٤.

(١٣١) ن.م،٢/٣٥٥.

(١٣٢) ن.م،٢/٢٠٦.

(١٣٣) ن.م، ٢/٣٥٦.

(١٣٤) ن.م، ١/٧٢، ٧٤، ١٢٣، عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، ص ١١٩.

(١٣٥) الجندي، **السلوك**، ١/٢٠٣/٣، ٢/٦١، ٧١، ٤٠٢، ٤٢٦، ٤٣٩، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٨.

(١٣٦) ن.م، ١/٢٧٨.

(١٣٧) ن.م، ١/٢٨٠.

(١٣٨) الجندي، السلوك، ١/١٦٥، ١٨٧، ٢/١٩٤، ٤٠٥.

(١٣٩) ن.م، ١/١٨٧.

(١٤٠) ن.م، ١/١١٢-١١٣.

(١٤١) ن.م، ١/٤٤٣، ٤٥٥، ٢/٤٣٤.

(١٤٢) الشفاليت: هي من شفلوت، وهم اللصوص وقطاع الطرق، يترقبون الفرصة للانقضاض على السرقة. انظر: الجندي، **السلوك** ٢/٥٦١.

(١٤٣) الجندي، **السلوك**، ٢/٤٠٦، ٢/٥٦١، ٢/٦٠٩.

(١٤٤) ن.م ١/٤٠٨، ٢/٦٨.

(١٤٥) ن.م ٢/٩٨.

(١٤٦) ن.م ٢/٤٣٤.

(١٤٧) ن.م، ٢/٥٩٥.

(١٤٨) ن.م، ٢/٥٥٠.

(١٤٩) ضرب السكة: السكة هي الحديدة التي يطبع عليها الدرهم، ولذلك سميت الدراهم المضروبة بالسكة. وهي الختم على الدنانير المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات. ابن خلدون، **تاريخ**، ٢٧٥/١.
(١٥٠) الجندي، **السلوك**، ٥٥/٢.
(١٥١) ن.م، ٥٠٨/٢.
(١٥٢) ن.م ٢٨٧، ٣٧٥، ٤٢٧، ٣٢١/٢
(١٥٣) ن.م، ٥٥/١، ٨٨.
(١٥٤) الأوقية: وحدة وزن تساوي ٤٠ درهم وتساوي ٢٠٠غم في بلاد الشام حسان حلاق، المعجم، ص ٢٩.
(١٥٥) أذهاب، مكيال معروف عند أهل اليمن، الزبيدي، تاج العروس، ٤٥٥/٢.
(١٥٦) الجندي، السلوك، ٤٢٣٢٤٣/٢، ٤٢٤، ٥١٣، ٥١٤، ٥٢٩، ٥١٠، ٥٥٨.
(١٥٧) ن.م ١٧٣/٢.
(١٥٨) ن.م، ١٧٣/٢.
(١٥٩) عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، ص١٧٨.
(١٦٠) أبو يوسف الخراج، ص ٥٨.
(١٦١) الجندي، **السلوك**، ١٤٧/١، ١٨٧، ٣٢١، ٨٧/٢، ٣٣٩، ٤٧٧، ٤٩٣.
(١٦٢) ن.م، ٤٩٣/٢، ٥٠١.
(١٦٣) ن.م، ٧٩/٢.
(١٦٤) ن،م، ٥١٦/٢.
(١٦٥) ن.م، ٢٣٥/١، ٣٣٩/٢.
(١٦٦) ورد تعبير مكوس / ضرائب غير شرعية في معرض حديث الجندي عن خفارة الحرة علم (ت ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) لحماية الحجاج من المخاطر والمكوس.انظر: الجندي ، **السلوك** ٥٠٨/٢
(١٦٧) أسامة احمد حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن**، ص١٦١-١٦٢.

(١٦٨) الجندي، **السلوك** ٢/١٤٤–١٤٥.

(١٦٩) ن.م ٢/٣٧١.

(١٧٠) ن.م، ٢/١٧٢.

(١٧١) ن.م، ٢/٤٣٠.

(١٧٢) ن.م، ٢/٥٤٤، ٥٥٠.

(١٧٣) ن.م، ١/١٩٨.

(١٧٤) ن.م، ١/٢٥٨.

(١٧٥) ن.م، ١/٣٦٦.

(١٧٦) الجندي، السلوك، ١٢٦.

(١٧٧) ن.م، ٢/١٤٤–١٤٥.

(١٧٨) الجمكدار: تطلق على الموظف الخاص بديوان السلطان لتوزيع الرواتب على مماليك السلطان. حسان حلاق، المعجم، ص ١٦٧.

(١٧٩) شاد الديوان: مصطلح يطلق في العهد المملوكي على مفتش وظيفته استخلاص أموال الدواوين، ويكون في العادة مرافقاً للوزير. حسان حلاق، **المعجم**، ص ١٢٣. وانظر: الجندي، **السلوك**، ٢/٥٢٢، ٢/٤٣٨.

(١٨٠) عن ناظر الرعية: انظر. حسان حلاق، **المعجم الجامع**، ص ٢١٨. وانظر: الجندي، ٢/٣٥٩.

(١٨١) الجندي، **السلوك** ٢/٤٢٩، ٤٣٨.

(١٨٢) ن.م، ٢/١٧٥.

(١٨٣) ن.م، ٢/ ٣٠، ٧٠، ٩٧، ١٨٧، ١٩٣، ٥٢٣، ٥٣٣، ٥٣٤

(١٨٤) ن.م، ١/١٦٤، ١٨٧، ٢/٣٠٩، ٦٠٧.

(١٨٥) ن.م، ١/٩٨، ١٥٢، ١٦٨، ٢/ ٥٥٢.

(١٨٦) ن.م، ٢/٤٩٢.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

١- الأدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣مج، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ت.

٢- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) المقدمة، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٩٩٢.

٣- بامخرطة الحميري، جمال الدين عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م) النسبة إلى المواضع والبلدان، ٢ج، مركز الوثائق والبحوث ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٤.

٤- البريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن (ت ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، د.ت.

٥- الجندي، القاضي أبي عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي السكسكي الكندي(ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، ٢ج ، مكتبة الإرشاد، ط٢، صنعاء،١٩٩٥م.

٦- الحجاوي ، موسى بن احمد بن موسى (ت ٩٦٨هـ/١٥٦٠م) مختصر المقنع، الرياض، المؤسسة السعيدية ، القاهرة، مطابع الدجوي، ١٩٨١

٧- الحميري، محمد عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥.

٨- الخصاف، احمد بن عمرو(ت ٢٦١هـ/٨٤٧م) كتاب احكام الوقف، مطبعة ديوان عموم الاوقاف المصرية، القاهرة، ١٩٠٤م.

٩- الخوارزمي، محمد بن يوسف بن احمد(ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)، مفاتيح العلوم، تحقيق ابراهيم الابياري، ط١، دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٩٨٤م
١٠- ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٣هـ/١٥٣٦م)، كتاب قرة العيون بأخبار اليمن الميمون،٢ج،حققه وعلق عليه محمد بن علي الاكوع، ج١، المطبعة السلفية، ج٢، مطبعة السعادة، القاهرة،١٩٧٧.
١١- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، تاج العروس، تحقيق علي الهملالي، الكويت، ١٩٦٦.
١٢- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانزروزنتال، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.
١٣- عليش، أبو عبدالله محمد بن احمد (ت ١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك ، ٢ج، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٨م.
١٤- المرداوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان(ت ٨٥٥هـ/١٤٨٠م)، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، ١٢ج تحقيق محمد حامد الفقي، ط١، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥-١٩٥٨م
١٥- المرغيناني، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٥٩٣هـ/١١٩٦م) ، الهداية، شرح بداية المبتدى، ٤ج، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.د.ت.
١٦- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ١٥ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.
١٧- الهمداني، الحسن بن احمد بن يعقوب(ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) الاكليل من اخبار اليمن وانساب حمير،٢ج، نسخه وحققه محمد بن علي الاكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٠م

١٨- الهيثمي، شهاب الدين احمد بن محمد بن علي (ت ٩٧٤هـ/١٥٦٦م)، تحفة المحتاج بشرح المنهاج، ٤ج، المطبعة الوهبية، مصر،١٨٦٥م.
١٩- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان. ٥ ج، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
٢٠- أبو يوسف ، القاضي يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) ،كتاب الخراج، نسخة مخطوط في الخزانة التيمورية، مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

المراجع:

- الاكوع، اسماعيل بن علي، المدارس الاسلامية في اليمن، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة الجيل الجديد، صنعاء ١٩٨٦م.
- أسامة احمد حماد، مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي، عصر دولة بني أيوب وبني رسول، مركز الإسكندرية للكتاب، ط١، ٢٠٠٤م.
- أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ في اليمن في العصر الإسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٤م.
- الحبشي، عبدالله محمد، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ط٢ وزارة الإعلام والثقافة ، اليمن، ١٩٨٠م.
- حسان حلاق وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الإيوبية والمملوكية والعثمانية، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩.
- راضي دغفوس، اليمن في عهد الولاة، منشورات الجامعة التونسية، تونس،١٩٧٩م
- الزركلي، خير الدين، الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٦، ٢٠٠٥م
- عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤م

- علي عبد الكريم بركات، الكتابة التاريخية والمؤرخون في اليمن في عصر الدولة الرسولية(٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩- ١٤٥٤م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عدن ،٢٠٠٦.
- الكتاني، محمد بن عبدالحي، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية،٢ ج، بيروت.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين،١٣ ج ، مطبعة الترقي، دمشق،١٩٥٨م
- محمد بن يحي الفيفي، الدولة الرسولية في اليمن، (دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية ٨٠٣-٨٢٧هـ/١٤٠٠-١٤٢٤م، الدار العربية للموسوعات، ط١، بيروت، ٢٠٠٥م .
- اليماني، محمد بن أحمد الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ٤.مج، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، ط٢، صنعاء، ١٩٩٦.

الدوريات الأجنبية:

- Geddes, C. Al-Djanadi, E.I(2), vol(2), P: 441

المجتمع الإسلامي في بلاد الشام خلال العصر الأيوبي رؤية من خلال رحلة ابن جبير

الدكتور عيسى محمود عسود العزام

أستاذ مشارك في التاريخ والحضارة الإسلامية

الأردنية قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم والآداب

جامعة العلوم والتكنولوجيا

المقدمة:

تهدف الدراسة إلى رسم صورة للمجتمع الإسلامي في بلاد الشام من خلال الإشارات التي ذكرها ابن جبير في رحلته، الذي يعد شاهد عيان على حقبة حرجة من تاريخ أمتنا الإسلامية، وهي مايعرف بالحروب الصليبية، فقد زار المنطقة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧هـ/١١٧١م_٥٨٩هـ/١١٩٣م)، وأعطى وصفاً دقيقاً لمجمل أوضاع المنطقة، والدراسة تناولت بعض معالم الحياة الاجتماعية، كفئات المجتمع، وعاداته، وتقاليده، والمرافق والخدمات العامة، وعلاقة المسلمين بعضهم مع بعض، وعلاقاتهم مع المسيحيين، فضلاً عن بعض معالم الحياة الاقتصادية والعلمية،

ولم أتحدث عن الإفرنج في بلاد الشام وعلاقتهم مع المسلمين لأن هذا الموضوع تم معالجته في بحث آخر.

ومشكلة الدراسة تهدف إلى رسم صورة واضحة للمجتمع الإسلامي في بلاد الشام في العصر الأيوبي من خلال رحلة ابن جبير المغربي الذي يعد شاهد على العصر، وذلك من خلال الإجابة على الأسئلة التالية خلال الدراسة:

١-كيف كانت أوضاع المجتمع الإسلامي في بلاد الشام خلال العصر الأيوبي، وما هي فئات المجتمع، وكيف كانت علاقاتهم بعضهم مع بعض، ودورهم في الجهاد ضد الغزو الإفرنجي.

٢- كيف كان التوزيع المذهبي للمجتمع خلال العصر الأيوبي.

٣- ما هي ابرز عادات وتقاليد المجتمع.

٤- كيف كانت أحوال المجتمع الاقتصادية والعلمية.

٥- ماهي المرافق والخدمات العامة للمجتمع .

أما الإجراءات التي اعتمدها الباحث في الدراسة، فهي منهج البحث والتحليل التاريخي، وذلك من خلال جمع المعلومات والبيانات حول الموضوع من خلال مشاهدات الرحالة ابن جبير المغربي المعاصر لموضوع الدراسة، مع دراسة المصادر التاريخية والمراجع والدراسات الحديثة والمتعلقة بنفس المجال. وقد تم جمع المعلومات والبيانات وتحليلها من كتاب رحلة ابن جبير ثم مقارنتها مع المعلومات الواردة في بعض المصادر المعاصرة، ومن ثم قام الباحث باستنتاج واستنباط بعض النتائج التي تم تلخيصها في نهاية البحث.

ابن جبير

الرحالة ابن جبير هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الكناني الأندلسي، ولد في بلنسية[(١)]، سنة 540هـ/ ١١٤٥ونشأ فيها، ثم ارتحل إلى غرناطة ودرس فيها العلوم الدينية واللغوية، وأتقنها حتى عد من كبار علماء الأندلس في اللغة والفقه،

وكذلك نبغ في الأدب والشعر، ووصف بأنه "كان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً"[٢]. وبرزت شهرته في التاريخ من خلال كتابه "تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار" المعروف برحلة ابن جبير، سجل فيه مذكراته اليومية للبلاد التي زارها، والتي شملت بلاد المغرب المغربي، ومصر، وبلاد الشام والحجاز، والعراق، وبعض جزر البحر المتوسط، وقد أعطى معلومات دقيقة عن الأماكن الدينية، والمقدسة، والأسواق، والمارستانات، والخانات، والتجارة، والطرق، وبعض المحاصيل الزراعية، والعادات والتقاليد، والمرافق العامة، وسرد لنا في رحلته، يوماً فيوماً، مختلف طوارئ جولته، والمصاعب التي عاناها، والمخاطر التي تعرض لها، وبشكل عام الرحلة غنية بالمعلومات عن مجمل الأوضاع الحضارية للبلاد التي زارها.

وقد استغرقت رحلته عامين وثلاثة أشهر ونصف[٣]، بدأت في شوال سنة ٥٧٨هـ/ ١١١٢م، وانتهت في محرم سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، وتوفي سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م.

وسأتحدث عن موضوع الدراسة على النحو التالي:

أولاً: فئات المجتمع الإسلامي في بلاد الشام:

١- السلطان ورجال الدولة

تحدث ابن جبير عن السلطان الملك العادل صلاح الدين الأيوبي غير مرة في رحلته، وأشاد بعدالته وحلمه ودوره في الدفاع عن الإسلام والمسلمين أمام الغزو الإفرنجي المحتل لجزء من بلاد الشام، وفي ذلك يقول: "ومآثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ومقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة"[٤]، وذكر في مكان آخر" وكان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل الذي شمل البلاد عدله، وسار في الآفاق ذكره"[٥]، وشأنه في الملوك كبير[٦]"وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر"[٧].

وكان السلطان وكثير من رجال دولته من الطائفة الصوفية السنية[٨]، وكان يقيم السلطان في قلعة دمشق التي تقع في الجهة الغربية من المدينة، وبها جامع السلطان، وعلى مقربة منها من جهة الغرب خارج المدينة "ميدانان كأنهما مبسوطان خزاً لشدة خضرتهما، وعليهما حلق، والنهر (بردى) بينهما، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما... يخرج السلطان إليهما ويلعب فيهما بالصوالجة[٩]، ويسابق بين الخيل فيهما،... وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعبة بالصوالجة"[١٠].

كذلك أشاد ابن جبير بأمراء الدولة لدورهم في الجهاد في سبيل الله، وبناء المساجد والمدارس والأربطة، وكانوا يوقفون عليها من الأوقاف ما يكفي لسد حاجتها[١١].

٢-التجار والأعيان

أشار ابن جبير إلى فئة التجار ودورهم في الحياة الاجتماعية والسياسية في الدولة لثرائهم الكبير، ومكانتهم المتميزة عند رجال الدولة، فكبار التجار تميزوا بالأمانة والثقة والحرص على مصلحة الدولة والمجتمع، لذلك كانوا يقومون بكثير من أعمال البر منها فداء الأسرى المغاربة الذين قدموا إلى الشرق لجهاد الغزو الإفرنجي، وذكر ابن جبير رجلين من كبار تجار دمشق وأغنيائهم، كانا لهما تجارة واسعة في الساحل الشامي المحتل من قبل الإفرنج فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وكانا ينفقان قسماً كبيراً من أموالهما لفداء الأسرى [١٢].

كذلك كان للأعيان -وهم وجوه المجتمع- دور بارز في الحياة العامة، فكانوا يشاركون في الاحتفالات والأعياد والمآتم[١٣]، فضلاً عن مساعدة الغرباء المنقطعين عن بلادهم وأهلهم، وقد أشار ابن جبير إلى أحد أعيان دمشق ويدعى أبي الربيع سليمان ابن إبراهيم بن مالك الذي كان له مكانة مرموقة عند السلطان ووجوه الدولة لدوره في إيواء الغرباء "وهو متسم بالخير ومرتسم به، وهو متعلق بسبب من أسباب

البر في إيواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، يسبب لهم وجوه المعايش من إمامه في مسجد أو سكن بمدرسة تجري عليه فيها النفقة أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى إليه فيها رزقه أو حضور في قراءة سبع، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه، ويجري عليه ما يقوم به من أوقافه، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه "[١٤].

٣- الحضر:

وهم سكان المدن والقرى الذين كانوا يعملون بالتجارة والزراعة والصناعة[١٥] وحسب ما يتضح من إشارات ابن جبير أن نشاط الحضر تركز في دمشق وحلب وحمص وحماه، وأنهم تميزوا بالشجاعة، والكرم، والتدين، وحبهم للخير، وكان لهم دور فاعل في مقاومة الغزو الإفرنجي، فذكر أن أهل مدينتي حلب وحمص موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو[١٦]، وكذلك سكان دمشق وحلب وغيرها من المدن الشامية[١٧]. كما كان سكان الحضر يقومون بإحياء الأعياد والاحتفالات في مدنهم وقراهم، ولهم بعض النشاطات اليومية، فبعض سكان دمشق كانوا يجتمعون في صحن الجامع الأموي مساء كل يوم" وفيه مجتمع أهل البلد، وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية، تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب من باب جيرون إلى باب البريد، فمنهم يتحدث مع صاحبه، ومنهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحلل من ذهاب ورجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداء مثل ذلك"[١٨]. كذلك كان سكان الحضر يخرجون للنزهة إلى الأنهار والبرك والبساتين، ولهم عاداتهم وتقاليدهم التي سأتحدث عنها لاحقاً.

من جهة أخرى لقد كان للغزو الإفرنجي على بعض المدن والقرى آثار وخيمة على سكانها وبخاصة من الناحية الاقتصادية، لأن الإفرنج كانوا كثيراً ما يعترضون قوافل التجارة ويهاجمون الأراضي الزراعية ويخربونها، ويحرقون محاصيلها الزراعية،

لإلحاق أكبر الخسائر بالمسلمين، وهذا ما ذكره ابن جبير فيما يتعلق بمدينتي حمص وقنسرين، فمدينة حمص أسواقها كاسدة وعمارتها بالية، وفي ذلك يقول: "وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء، خلقة الأرجاء، ملفقة البناء، لا إشراف لآفاقها، ولا رونق لأسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها"(١٩). بينما يذكر أن مدينة قنسرين "خربت وعادت كأن لم تَغْنَ بالأمس، فلم يبق إلا آثارها الدارسة، ورسومها الطامسة "(٢٠).

٤ –البدو:

وهم سكان البادية الذين ينتقلون من مكان إلى آخر بغية الكلأ والماء، ويمارسون حرفتي الرعي والتجارة، وانتشر البدو في حمص ونواحيها، وحوران المرج والغوطة(٢١)، وأشار ابن جبير إلى أن بدو الشام تميزوا بالكرم "ولو لم تكن بهذه الجهات الشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ولاسيما أهل باديتها"(٢٢). ولكن بعض الجماعات البدوية كانت تخرج عن طاعة الدولة وتعترض القوافل التجارية، لذلك لجأت الدولة إلى كسب ود بعض القبائل من خلال إقطاعها الأراضي الواسعة(٢٣).

٥ –المغاربة:

تحدث ابن جبير عن أوضاع المغاربة في بلاد الشام والذين قدموا إليها خلال عصر الحروب الصليبية بغية الجهاد في سبيل الله أو طلب العلم والمعرفة أو لممارسة بعض المهن كالزراعة والتجارة والصناعة.

فهناك أعداد ضخمة من المغاربة شاركوا كمتطوعة في الجيوش الإسلامية لقتال الإفرنج منذ عهد السلطان نور الدين زنكي (٥٤١هـ/١١٤٦م- ٥٦٩هـ/١١٧٣م) ووقع عدد كبير منهم في الأسر، لذلك فإن بعض أثرياء المسلمين وأمرائهم كانوا

ينفقون المال الكثير فداء لهم [٢٤]، فالسلطان نور الدين زنكي أنفق اثني عشر ألف دينار لفدائهم[٢٥].

وبعض المغاربة قدم إلى بلاد الشام لطلب العلم أو التعليم، ففي الجامع الأموي هناك زاوية للمالكية في الجانب الغربي يجتمع فيها الطلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم[٢٦]، كذلك كانت هناك حلقة للتدريس لأحد فقهاء الأندلس يعرف بالمرادي[٢٧]، وفي الجامع بعض المرافق للمغاربة ولها أوقاف معلومة" ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة"[٢٨]. ففي الجانب الغربي من الجامع إحدى صوامع المسجد كانت كالبرج المشيد، تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة يسكنها الغرباء[٢٩]، ومرافق الغرباء في دمشق أكثر من أن يأخذها الإحصاء وبخاصة لحفاظ القرآن الكريم وهذا ما أثار دهشة ابن جبير "فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة فأولها فراغ البال من أمر المعيشة.... فهذا المشرق باب مفتوح ، لذلك فأدخل أيها المجتهد بسلام..... ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها مبادرة إلا أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ولاسيما أهل باديتها فإنك تجد من بادر إلى بر الضيف وكفي بذلك شرفاً لها"[٣٠].

كذلك كان كثير من المغاربة يعمل في وظائف الدولة أو في الزراعة أو في الحمامات أو الطواحين أو كفالة الصبيان وغيرها، ولاسيما أنهم اشتهروا في الشام بالصدق والأمانة[٣١]، ويذكر ابن جبير أن أحد أعيان دمشق كان مهمته إيواء المغاربة وتأمين السكن لهم أو العمل أو التعليم[٣٢].

٦-المرأة:

كان للمرأة وبخاصة نساء رجال السلطة الأيوبية دور بارز في الحياة العامة خلال العصر الأيوبي، فبعضهن كن يأمرن ببناء المساجد والأربطة والمدارس من مالهن الخاص، وفي ذلك يقول ابن جبير: "ومن النساء الخواتن ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو

مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف"[٣٣]. كما كن يساهمن في فداء الأسرى من الإفرنج "فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل"[٣٤].

وكان للمرأة دورها في العادات والتقاليد الاجتماعية، مثل استقبال الحجاج، فيذكر ابن جبير أن الحجيج الدمشقي عند وصولهم إلى دمشق كان يخرج الناس رجالاً ونساءً لاستقبالهم "يصافحونهم ويتمسحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة فأخبرني من أبصر كثيراً من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز، فإذ غَصَّ الحاج منه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركاً بأكل الحاج له ودفعن له عوضاً منه دراهم"[٣٥].

ثانياً: التوزيع المذهبي للمجتمع الشامي:

يذكر ابن جبير أن أغلب سكان الشام على المذهب الشيعي "وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السّنيين بها، وقد عمروا البلاد بمذاهبهم"[٣٦]، غير أن هذه الرواية لا نجد لها أي تأييد في المصادر الإسلامية المعاصرة له، بل الحقيقة أن أغلب المجتمع الشامي كانوا على المذهب السني على الرغم من محاولات الفاطميين نشر التشيع فيه. ويبدو أن نفوذ بعض الفرق الشيعية كالإسماعيلية، والدرزية، والنصيرية المنتشرة في شمال الشام وجبل لبنان قد تعاظم أثناء زيارة ابن جبير، فأشكل الأمر عليه فاعتقد أنهم يشكلون أغلب المجتمع الشامي.

ثالثاً :العادات والتقاليد:

وصف ابن جبير بعض عادات وتقاليد المجتمع الشامي التي شاهدها، فقد انتقد بشده عاداتهم في السلام لكونها أشبه بالركوع لقينات النساء، ولرقيق الإماء في أسواق النخاسة وفي ذلك يقول: "وإذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم

برسم الخدمة، كناية عن السلام...... وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال"(٣٧)، ولعل انتقاد ابن جبير هذا النوع من السلام لأنه لم يعتده في الأندلس وسائر بلاد المغرب، لكنه أثنى على عادات المصافحة في أعقاب أداء صلوات الجماعة ولاسيما إثر صلاتي الفجر والعصر وعند رؤية الأهلة كهلالي شعبان ورمضان "وإذا سلم الإمام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره، فيتفرقون عن مجلس مغفرة، بفضل الله عز وجل.... ويدعو بعضهم لبعض"(٣٨).

وتعجب من طريقة المشي عند السكان صغاراً وكباراً " أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة ...... ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطاً في الأعضاء، وراحة في الإعياء، والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سنناً "(٣٩).

ومن عادات سكان الشام الوقوف يوم عرفة في المساجد على إثر صلاة العصر متوجهين إلى الله تعالى بالدعاء والبركة، ساعة وقوف حجاج بيت الله الحرام بعرفات، بمكة المكرمة فلا يزالون واقفين داعين متضرعين إلى الله تعالى حتى غروب الشمس "فيبقوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات، وداعين إلى الله عز وجل في أن يوصلهم إليها، ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك"(٤٠).

وتعجب ابن جبير من تعظيم سكان الشام لحجاج بيت الله الحرام، فعند قدوم الحجيج يخرج السكان نساء ورجالاً لاستقبالهم والتبرك بهم "فهم يتمسحون بهم عند صدورهم

ويتهافتون عليهم تبركاً بهم... يصافحونهم ويتمسحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة "[٤١].

كذلك يذكر أن سكان الشام يحتفلون بليلة النصف من شعبان وليلة السابع والعشرين من رمضان بكثرة إشعال القناديل في المساجد[٤٢]، كذلك يذكر أن كل من يرتاد الجامع الأموي للصلاة يتبرك بمصحف الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه المحفوظ في خزانة الجامع" وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه"[٤٣].

وتحدث عن عادات سكان الشام في الجنائز، فذكر أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرؤون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية، ويصلى على الجنائز في المساجد، ثم يوارى المتوفى مثواه الأخير بدفنه في التربة، أما مجالس العزاء فبعضها كانت تقام بالقرب من المساجد ففي دمشق بعض مجالس العزاء كانت تقام في البلاط الغربي من صحن الجامع الأموي بإزاء باب البريد، ويكثر في تلك المجالس الصلاة وقراءة آيات من القرآن الكريم، فضلاً عن دروس الوعظ والإرشاد في أمور الدين والدنيا، وبعد ذلك يقدم العزاء لذوي المتوفى[٤٤].

رابعاً: الحياة الاقتصادية:

تعد الزراعة الركيزة الرئيسة للاقتصاد الشامي، وبخاصة أن معظم الأراضي الشامية خصبة، وعرفت بلاد الشام نوعين من الزراعة: الزراعة البعلية التي تعتمد على مياه الأمطار، والزراعة المروية التي تعتمد على الري بحكم تعدد الأنهار: كالفرات، والعاصي، وبردى، ونهر الأردن، لذلك أشار ابن جبير إلى ازدهار الزراعة في بلاد الشام[٤٥]، فعلى طول الطرق بين المدن الشامية البساتين الخضراء، فضلاً عن زراعة مختلف الحبوب، والمحاصيل الزراعية، والفواكه، والخضروات، فحلب وشمال الشام

اشتهرت بزراعة القطن، والزيتون والدخن، والجوز، واللوز، وقصب السكر، والكروم، والفستق، وسائر الفواكه(٤٦).

وقد وصف الزراعة في معرة النعمان بقوله: "وهي سواد كلها بشجر الزيتون، والتين، والفستق، وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً"(٤٧). ووصف جبل لبنان بقوله: "وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة "(٤٨).

كذلك اشتهرت منطقة حمص وحماة بالزراعة، وبخاصة الأعناب، ولاسيما أنه يمر منها نهر العاصي" وبخارج هذه البلدة (حماة) بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجيرات الأعناب وفيه المزارع، والمحارث وفيه منظرة انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطي النهر (العاصي)" (٤٩).

ووصف مدينة دمشق بأنها جنة المشرق وعروس المدن "قد تجلت بأزاهير الرياحين وتجلت فيه حلل سندسية من البساتين"(٥٠)، قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نظرته اليانعة قيد النظر"(٥١). وكانت حوران والبثنيه معدناً للحبوب وخاصة القمح (٥٢). أما بعلبك فقد كانت كثيرة الغلال وافرة الفواكه، بل كانت معدناً للأعناب(٥٣). وتضاهي دمشق في خيراتها(٥٤)، ولم يتحدث ابن جبير عن الزراعة في فلسطين ومدن الساحل الشامي لكونهما خاضعتين للاحتلال الإفرنجي، ولم يقم بزيارة مدينتي عكا وصور.

كذلك اشتهرت بلاد الشام بالكثير من الصناعات منها صناعة الزيت الذي انتشرت معاصره في جميع أنحاء الشام(٥٥). وكذلك بصناعة الصابون(٥٦)، وصناعة السكر الذي انتشرت زراعته في منطقة غور الأردن، ومدن الساحل الشامي، وحلب(٥٧). وصناعة الوراقة وخاصة في دمشق وحلب وطبرية(٥٨). وصناعة المنسوجات،

فدمشق كانت من أكبر مراكز النسيج والأقمشة، وبخاصة الحريرية منها المزينة بالنقوش والرسوم[٥٩]. واشتهرت حلب بنسيج الثياب القطنية والديباج[٦٠]، كذلك اشتهرت الشام بصناعة الأخشاب، والزجاج، والخزف، وبعض الأسلحة، فضلاً عن صناعة المواد الغذائية: كالزبيب، والجبن، والعسل، والتمور، وماء التفاح، والقمر الدين، والزبيب، والدبس، والخل[٦١].

أما بالنسبة للتجارة، فقد كانت نشطة جداً فحركة القوافل التجارية من مصر إلى دمشق عبر بلاد الإفرنج مزدهرة، على الرغم من شدة الحروب بين الطرفين، وكذلك التجارة بين دمشق وعكا، وفي ذلك يقول ابن جبير: "واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج (المحتلة من المسلمين) غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض والاتفاق بينهم، والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيالمن غلب"[٦٢] لأن مصلحة كلٍ من المسلمين والإفرنج استمرار التجارة العالمية.

خامساً: الحياة العلمية:

تحدث ابن جبير عن نشاط الحركة العلمية في بلاد الشام خلال العصر الأيوبي، لاهتمام السلطان صلاح الدين الأيوبي بالعلم والمعرفة، ونشر المذهب السني، فقد انتشرت المدارس في معظم المدن الشامية، فمدينة حلب كان بها نحو أربع أو خمس مدارس، منها مدرسة للحنفية غرب جامع حلب "وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً، ولها طيقان يتصل بعضها ببعض"[٦٣].

وفي حماة تم تأسيس ثلاث مدارس منها مدرسة للحنفية[٦٤]. وفي حمص أقيمت مدرسة[٦٥]. وفي دمشق أقيمت مدرسة للشافعية عرفت بالمدرسة الناصرية[٦٦]، وأخرى للمالكية عرفت بالمدرسة الصلاحية[٦٧]، فضلاً عن المدرسة النورية الكبرى[٦٨]. وأوقف

السلطان صلاح الدين الأيوبي لكل مدرسة أوقافاً تقوم بها وبساكنيها من الطلبة والعلماء والملتزمين بها(٦٩).

كذلك تحدث عن نشاط الحركة العلمية في المساجد وبخاصة في الجامع الأموي الذي كانت تعقد في الحلقات العلمية باستمرار صباحاً ومساءً، يحضرها جمع عظيم من الطلاب والعلماء والفقهاء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وبالجامع المكرم عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عند ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة، فقد وجدت زاوية للمالكية، وأخرى للحنفية، وزاوية للمغاربة، وخصص إجراء معلوم لكل من الطلبة والمدرسين من خلال الأوقاف الخاصة بالجامع(٧٠).

ويؤكد أن التعليم في المساجد لم يكن حصراً على الطلاب الكبار، وإنما شمل الصبيان أيضاً، فقد وجد نوعين من التعليم: تعليم جماعي، وتعليم فردي لمراعاة الفروق الفردية بين الصبيان، وكانت طريقة تعليم الصبيان تعتمد على التلقين، فيذكر أنه على أثر الانتهاء من قراءة سبع من القرآن الكريم يومياً بعد صلاة الفجر (من سورة الكوثر إلى الخاتمة) يستند كل معلم إلى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن الكريم، ولكل من الصبيان والمعلمين جراية معلومة، كذلك يؤكد أنه وجد في دمشق دار للأيتام لها وقف كبير: "وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم ما يقوم به ينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم "(٧١).

سادساً : المرافق والخدمات العامة:

١- البيمارستانات:

تحدث ابن جبير عن العديد من البيمارستانات التي تم إنشاؤها في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، ففي مدينة حلب وجد مارستان(٧٢). وآخر في مدينة حماه(٧٣). وآخر في حمص، وكذلك وجد في دمشق بيمارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما

وأكبرهما كما يذكر ابن جبير، وجراية كل بيمارستان كل يوم خمسة عشر ديناراً، ولكل منهما قومه لديهم سجلات خاصة بأسماء المرضى، وما يحتاجون إليه من الأدوية والأغذية، ويحضر الأطباء يومياً لتفقد أحوال المرضى(٧٤).

٢- الحمامات العامة:

اشتهرت بلاد الشام بكثرة حماماتها العامة، فذكر ابن جبير أن في مدينة دمشق مائة حمام "وبهذا البلد أيضاً مائة حمام وفي أرياضها يجري الماء فيها كلها"(٧٥). وكذلك وجد في حلب وحماة الكثير من الحمامات(٧٦)، وعم إنشاء الحمامات في مختلف المدن والقرى، وقد نص ابن جبير على ذلك بصراحة بقوله: "وبقرية النيرب (قرية قرب حلب) حمام وأكثر قرى هذه البلدة فيها حمامات(٧٧).

وكانت الحمامات العامة تفتح أبوابها بعد صلاة الفجر، وتخصص الفترة الصباحية حتى الظهر للرجال، وبعد صلاة الظهر إلى المغرب للنساء، ووجد في الحمامات موظفون يقومون على خدمتها كتنظيفها وحفظ ثياب من يرتادها(٧٨).

٣- الأسواق:

اشتهرت مدن الشام بتعدد أسواقها، وبنشاط الفعاليات التجارية فيها، وقد تناول ابن جبير الأسواق في العديد من المدن الشامية، ونبدأ بدمشق التي تعد مصر الشام، فأكثر أسواقها مسقوفة، وبها سوق على طول البلد مكشوف(٧٩)، وهي فائقة الجودة والتنظيم وخاصة قيسارياتها(٨٠)، التي كانت تشبه الفنادق "وليس في المشرق بلدة تداني دمشق في حسن أسواقها"(٨١). وتميزت أسواق دمشق بأنها متخصصة ومسقوفة وأرضها مفروشة(٨٢)، وهي من "أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً"(٨٣).

أما مدينة حلب فقد كانت أسواقها حسنة وفنادقها وقياسرها كثيرة(٨٤)، وقد وصفها ابن جبير بقوله: "وأما البلد فموضوعه ضخم جداً، حفيل التركيب بديع الحسن، واسع

الأسواق، كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة "(٨٥).

واشتهرت أعمال حلب بأسواقها المتخصصة وتجارتها الرابحة، فأسواق معرة النعمان كانت كثيرة (٨٦) زاخرة بالبضائع(٨٧)، وكذلك مدينة حماة تميزت بكثرة خيراتها ورخص أسعارها وبتعدد أسواقها التي كانت جامعة لجميع الصناعات والتجارات " وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم"(٨٨)، أما مدينة حمص فقد كانت أسواقها كاسدة لا رونق لها(٨٩). وذلك لشدة تعرضها للغزو الإفرنجي(٩٠).

٤- الخانات والقياسر:

تحدث ابن جبير عن كثرة الخانات في بلاد الشام، والتي كانت منازل للتجار، وكانت حصينة جداً كالقلاع ولها أبواب حديد، ففي طريقه من حلب إلى حماة نزل بخان كبير يعرف بخان التركمان، وثيق الحصانة، ووصف الخانات بقوله: "وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة، وأبوابها حديد، وهي من الوثاقة في غاية، ثم رحلنا من هذا الموضع وبتنا بموضع يعرف بتمني في خان وثيق على الصفة المذكورة "(٩١)، وعندما وصل قرب مدينة حماة ذكر أن "ربضها كبير فيه الخانات....... وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجاته إلى أن يفرغ لدخول المدينة "(٩٢).

وفي رحلته من حمص إلى دمشق وصف العديد من الخانات ، ففي قرية تعرف بالقارة قرب حمص أقيم فيها " خان كبير كأنه الحصن المشيد في وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض من عين على البعد "(٩٣).

وعلى طريق حمص- دمشق شيد السلطان صلاح الدين الأيوبي خان في غاية الحصانة وصفه ابن جبير بقوله "وهو في نهاية الوثاقة والحسن، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم في تشييدها، وفي هذا الخان ماء

جار يتسرب إلى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سرب في الأرض"(٩٤). كما نزل ابن جبير في خان آخر قبيل وصوله إلى دمشق(٩٥).

كما تحدث عن وجود القياسر في بعض المدن الشامية وبخاصة في حلب ودمشق، والقياسر كانت كالفنادق الضخمة تحتوي على حوانيت ومخازن ومساكن للتجار، فقد وصف قياسر دمشق بقوله: "هي مرتفعات كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور وكل قيسارية منفردة بطبتها وأغلاقها الجديدة"(٩٦).بينما وصف قيسارية حلب بقوله: "وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرم، لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي الرياضية، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة، وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش، وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر "(٩٧).

الخاتمة:

يستخلص من الدراسة مايلي:

١- إن المجتمع الإسلامي في بلاد الشام كان لهم دور فعال في الجهاد في سبيل الله ضد الغزو الإفرنجي، وفداء الأسرى، وأن معظم فئات المجتمع ساهمت في بناء الدولة ومؤسساتها

٢- أن معظم فئات المجتمع كانوا على المذهب السني، ومع ذلك وجدت بعض الفرق الشيعية وبخاصة في شمال الشام وجبل لبنان كالإسماعيلية والدرزية والنصيرية، وانتاب العلاقات السنية الشيعية بعض التوتر أحياناً على الرغم من الغزو الإفرنجي.

٣- وصف ابن جبير بعض عادات وتقاليد المجتمع الإسلامي وخاصة عاداتهم في السلام، والمشي، وترتيب الجنائز، والاحتفال بيوم عرفة وبعض المناسبات الدينية.

٤- ازدهرت الحياة الاقتصادية للمجتمع على الرغم من الصراع الإسلامي الإفرنجي، فالتجارة بين مصر وبلاد الشام عبر البلاد المحتلة من قبل الإفرنج في الشام لم تنقطع، والأسواق عامرة، والخانات على طول طرق التجارة .

٥- الحركة العلمية في بلاد الشام كانت نشطة سواء في المساجد وخاصة الجامع الأموي أو في المدارس الشافعية والمالكية والحنفية التي كثرت في مدن الشام الرئيسة: كدمشق وحلب وحمص، بحيث كانت الشام مقصداً للطلاب والعلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

٦- ازدهر في بلاد الشام إنشاء المرافق والخدمات العامة للمجتمع من قبل الدولة ورجالاتها كالبيمارستانات، والمدارس، والخانات، والأسواق، والقياسر، والحمامات العامة.

الهوامش

(١) بلنسية، كوره ومدينة مشهورة في الأندلس، وهي شرق قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار، وتعرف بمدينة التراب، وتتصل بها مدن تعد في جملتها . ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص٤٣٠.

(٢) الخطيب، لسان العرب(٧٧٦هـ /١٣٧٤م) **الإحاطة بأخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ١٩٧٤م، ج٢، ص٢٣٠.

(٣) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م): **تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار المعروف برحلة ابن جبير**، طبعة لجنة تحقيق التراث، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م. ص٢٨٤.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٦

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٥

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٢

(٧) **المصدر نفسه**، ص ١٣

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٣١

(٩) عن اللعب بالصوالجة انظر : **ابن جبير، رحلة**، ص ٢٣٥.

(١٠) ابن جبير، **رحلة** ص ٢٣٥-٢٣٩.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٣.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٣.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٤١.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٥، لم تذكر المصادر أي معلومات عن أبي الربيع سليمان بن إبراهيم

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٢-٢٤٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٨

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٨-٢٥٠

(١٨) ابن جبير، رحلة، ص ٢١٥

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٨-١٠٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

(٢١) المصدر نفسه، ص٢٠٦ .

(٢٢) المصدر نفسه ص٢٣٣.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٢٠٦ .

(٢٤) المصدر نفسه ،ص ٢٥٣

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

(٢٧) لم أعثر على أسمه أو تاريخ ولادته أو حياته من المصادر التاريخية .

(٢٨) ابن جبير، رحلة ص ٢٢٠.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٢- ٢٣٣

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٣

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٣

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٧

(٣٧) ابن جبير، رحلة، ص٢٤٢.

(٣٨) **المصدر نفسه**، ص٢٤٣.

(٣٩) **المصدر نفسه**، ص٢٤٢.

(٤٠) **المصدر نفسه**، ص٢٣٨.

(٤١) **المصدر نفسه**، ص ٢٣٣.

(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ٢١٩.

(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ٢١٧.

(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١، ٣٢٥، ٢٣٤.

(٤٦) لمزيد من المعلومات انظر: ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت بعد ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) **صورة الأرض**، ليدن، بريل، ط٢، ١٩٦٧م، ص ١٧٨، ناصر خسر، أبو معين الدين القبادياني المروزي (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) **سفر نامة**، ترجمة احمد خالد البدلي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م ، ص ٤٠، ياقوت،**معجم البلدان**، ج٢، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٤٧) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٠٥.

(٤٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٣٤.

(٤٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٥٠) **المصدر نفسه**، ص ٢١٠.

(٥١) **المصدر نفسه**، ص ٢١١.

(٥٢) المقدسي،شمس الدين أبو عبدا لله محمد بن احمد البشاري (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٩م) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بريل، ط٢، ١٩٦٧م،، ص١٦٠.

(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ١٦٠، ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٧٥.

(٥٤) ابن بطوطة، **رحلة**، ج١، ص ١٠٠.

(٥٥) ناصر خسرو، **سفر نامة**، ص ٥٣.

(٥٦) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ١٨٠.

(٥٧) **المصدر نفسه**، ص ١٨١.

(٥٨) **المصدر نفسه**، ص ١٨٠-١٨١؛ ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٤٣.

(٥٩) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ١٨١.

(٦٠) ياقوت، **معجم**، ج٢، ص ٢٧٦.

(٦١) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ١٨٠-١٨١.

(٦٢) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٤٤.

(٦٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٤

(٦٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٧

(٦٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٩

(٦٦) ابن مماتي، أسعد بن المهذب بن أبي مليح، الأيوبي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) **كتاب قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الزراعية الملكية، مصر، ١٩٤٢م، ص ٧٦.

(٦٧) ابن شداد: عزالدين أبو عبد الله محمد بن علي الحلبي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق)** تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦م، ص ٢٤٤.

(٦٨) ابن جبير، **رحلة**، ص٢٣٣.

(٦٩) **المصدر نفسه**، ص ٢١٥-٢٢٠.

(٧٠) لمزيد من المعلومات انظر: **المصدر نفسه**، ص ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣٢.

(٧١) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٤.

(٧٢) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٠٧

(٧٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٩

(٧٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٣٠

(٧٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٢

(٧٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٥

(٧٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٤.

(٧٨) **المصدر نفسه**، ص٢٢٥.

(٧٩) المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص ١٥٦-١٥٧؛ ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٣٦.

(٨٠) وصف ابن جبير القياسر بقوله: "هي مرتفعات كأنها الفنادق متفقة كلها بـأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بضيتها وإغلاقها الجديدة ويبدو أن القياسر مجموعة من المباني العامة تحتوي على مخازن وحوانيت ومصانع وربما مساكن للتجار، ابن جبير، **رحلة**، ص٢٣٦، حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م، ص٦١٩.

(٨١) ابن بطوطة، **رحلة**، ص ٢٢٣.

(٨٢) الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة، لبنان، بيروت، ١٩٧٥، ص٢٣٨.

(٨٣) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٣٦.

(٨٤) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٧٧.

(٨٥) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٠٣.

(٨٦) الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٥٥.

(٨٧) ناصر خسرو، **سفر نامة**، ص ٤٠.

(٨٨) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٠٧؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، ص٤٠٩.

(٨٩) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٩٠) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٨

(٩١) **المصدر نفسه،** ص ٢٠٥

(٩٢) ابن جبير، **رحلة،** ص ٢٠٧

(٩٣) **المصدر نفسه،** ص ٢٠٩

(٩٤) **المصدر نفسه،** ص ٢٠٩-٢١٠

(٩٥) **المصدر نفسه،** ص ٢١٠

(٩٦) **المصدر نفسه،** ص ٢٣٦

(٩٧) **المصدر نفسه،** ص ٢٠٣-٢٠٤.

المصادر والمراجع

أولاً :المصادر

١-ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م): **تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار المعروف برحلة ابن جبير**، طبعة لجنة تحقيق التراث، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

٢-الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة، لبنان، بيروت، ١٩٧٥.

٣-ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م) **صورة الأرض**، ليدن، بريل، ط٢، ١٩٦٧م .

٤-الخطيب، لسان العرب(٧٧٦هـ /١٣٧٤م) **الإحاطة بأخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ١٩٧٤م.

٥-ابن شداد: عزالدين أبو عبد الله محمد بن علي الحلبي (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق)** تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦م.

٦-المقدسي،شمس الدين أبو عبدا لله محمد بن احمد البشاري (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٩م) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بريل، ط٢، ١٩٦٧م.

٧-ابن مماتي، أسعد بن المهذب بن أبي مليح، الأيوبي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) **كتاب قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الزراعية الملكية، مصر، ١٩٤٢م.

٨- النوبختي، الحسن بن موسى (ق ٣ هـ/٩م) فرق الشيعة، منشورات دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٤م .

٨- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحمــوي (ت ٦٢٦هـــ/ ١٢٢٨م): **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م.

٩-ناصر خسر،أبو معين الدين القبادياني المروزي (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م) **سفرنامة**، ترجمة احمد خالد البدلي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م .

ثانيا :المراجع

١-حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م.

٢-طقوس، محمد، **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيـــرة**، دار النفائس، بيروت، ١٩٩١.

الدور الحضاري للمرأة في بلاد الشام
في العصرين الأيوبي والمملوكي

الأستاذة الدكتورة شكران خربوطلي
قسم التاريخ
كلية الآداب
جامعة دمشق

مقدمة:

شغلت الأحداث الجسام عقول المؤرخين، وأفكارهم، وراحوا يسطرون مشاهداتهم، ومروياتهم عن بطولات الخلفاء والسلاطين، والحكام الذين تتابعوا على حكم بلاد الشام، وأثروا في أحداثها السياسية والعسكرية.

ولم يحظ التاريخ الحضاري بكبير اهتمام منهم، حيث كانت ترد إشارات عفوية لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا تفي بالمطلوب، على الرغم من أن الأحداث الجسام السياسية والعسكرية، لم تكن لتبصر النور لولا متانة الفكر الذي خطط لها.

ومن البديهي أن يوجد ترابط بين الجوانب العسكرية والسياسية والفكرية، فأي خلل بالجانب الفكري ينعكس سلبياً على الجانب السياسي والعسكري.

وقد أدرك ذلك نور الدين محمود بن زنكي الذي استأثر بحكم دمشق وصرف همه إلى إنشاء المدارس، وتابع الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، فسارعوا إلى الجهاد في الوقت

الذي شغفوا فيه بالعلم والأدب وتشجيعه، فلم تنحصر شهرتهم في الدفاع عن البلاد الإسلامية، وتوحيدها، وتحرير ما اغتصب منها فقط إنما كانت شهرتهم أكثر فأكثر باهتمامهم بالعلم والعلماء، وما قدموه في هذا الجانب الهام من حياة دولتهم حيث غدت الروح السائدة فيها روح الثقافة والعلم.

لقد عملوا على تنشيط العلم، وعززوا مكانته في البلاد قاطبة حتى لم يكن يضاهيهم في عصرهم في هذه الناحية أحد، وقد بالغوا بإكرام العلماء، وشيدوا لهم المدارس والمعاهد، فوفد العلماء من كل قطر وناحية إلى هذه البلاد التي راجت فيها بضاعتهم[١].

وترجع الروح العلمية ونشاطها وسيادتها في المرحلة المدروسة إلى أن حكامها أنفسهم كانوا علماء، وأن كثيرا منهم لهم مؤلفات متنوعة في العلوم والفنون، وقل منهم من لم يكن شاعرًا أو لم يقل الشعر [٢].

لقد اهتم الزنكيون والأيوبيون ومن بعدهم المماليك بأمر الثقافة ونشرها في أرجاء البلاد، وأخص بالذكر منهم صلاح الدين الأيوبي والمعظم عيسى....كان كلما سمع بعالم ممتاز زين له المجيء إلى بلاده وحقق له رغباته، وكان يغدق على المدرسين، ويوسع الرزق على القائمين بشؤون الثقافة حتى صارت أرزاق أرباب العمائم إقطاعاً ورواتبا تتجاوز مئتي ألف دينار، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار[٣]، ولم يقتصر ذلك على السلاطين إنما تعداهم إلى نسائهم، وتعدى ذلك المرأة الحاكمة إلى الكثيرات من النساء اللواتي سيعمل البحث على رصد بعضهن.

إن وطننا العربي يعيش في هذه الآونة مرحلة من مراحل تاريخه الطويل تتمثل بمحاولة الدول الاستعمارية السيطرة على الفكر والغزو الثقافي بعد النيل من وحدته الوطنية، وتفتيته داخلياً.

وعلى هذا فإن الخوض في موضوع فكري واجب وطني وقومي في هذه المرحلة يتطلب صبرا وأناة ومتابعة لكل صغيرة وكبيرة، فالتاريخ له صفة الاستمرار، والحاضر يبنى على الماضي، ومن حقنا أن نأخذ الدروس والعبر لبناء مستقبل عربي يليق بشعبنا، وما أنجزه هذا الشعب على المستويات كافة السياسية والحضارية. أضف لذلك أن هذا الميدان واسع جداً لذا وانسجاماً مع عنوان البحث فسيقتصر الحديث عن الجانب الذي يتعلق بالمرأة، ودورها الحضاري في العصرين الأيوبي والمملوكي كأنموذج للدراسة.

من إسهامات المرأة العلمية:

احتلت المرأة مكانة عالية في مجتمعها الذي قدّرها وشملها برعايته وعنايته، فأثبتت أنها أهل لذلك، حيث خاضت معترك الحياة بميادينها المختلفة مشاركة بذلك في بناء مجتمعها بشتى الطرق والوسائل التي أتيحت لها.

وكان أبرز ميدان وضح فيه نشاطها وحيويتها الميدان العلمي وعلى الأخص العلوم الدينية، كما سيتضح من خلال البحث، حيث أقبلت على تلقي العلم والبحث عنه، وأسهمت بنصيب كبير في العملية التعليمية للنساء بصفة خاصة، والرجال بصفة عامة، وحضرت المجالس العلمية وشاركت فيها في أمكنة منفردة عن الرجال[٤] ورحلت في طلب العلم وأجيزت وأجازت.

والمتتبع للإشارات التي وردت في المصادر يدرك مدى المشاركة التي قامت بها المرأة في هذا المجال، فكثيراً ما نقرأ عبارة سمعت عن علماء أجلاء، وسمعت عن فلان [٥] وسمع عنها، وروى عنها وقرأ عليها، ودرست على جملة من العلماء الأعلام[٦] واجتمع عليها الطلبة، وتردد إليها كثير من الطلبة، وتزاحم عليها الطلبة وكنت ممن حمل عنها [٧].

هذه العبارات على الرغم من تداخلها وتشابهها، بل وتطابقها أحيانا تدل دلالة واضحة على النشاط العلمي للمرأة، خاصة وأن كل عبارة منها قيلت عن عشرات من النساء، كذلك توضح العبارات السالفة مختلف السبل والوسائل التي اتبعتها المرأة في أخذ دور المرأة في الحياة الفكرية تماشياً مع تعاليم الإسلام والدعوة إلى طلب العلم الموجهة إلى النساء والرجال معا، وقوله تعالى(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٧) مكرر، روى البخاري في صحيحه أن بعض النساء قلن للنبي صلى الله عليه وسلم (غلبنا الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن) (٨).

ثم كانت زوجاته صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته مرجعاً لمسائل الدين والفقه، وكان بيت كل واحدة منهن مدرسة يجتمع فيها طلاب العلم والحديث فيأخذون عنهن أحكام الشريعة وغيرها من العلوم(٩) كعائشة وأم سلمة.

وفي العصور الإسلامية التالية مارست المرأة دورها العلمي بحرية وفعالية فلم تكن في منأى عن ساحة النشاط العلمي، بل تلقت نصيبا وافرا من العلم والمعرفة، ولم يميز بين الرجل والمرأة في ميدان الحياة الفكرية، فنالت المرأة مكانة مرموقة بمشاركتها الفعالة في النشاطات العلمية.

المرأة وعلوم الدين:

حرصت النساء على تلقي هذا العلم ودراسته وفهمه ثم تقديمه للآخرين وتخرجت المرأة آنذاك من بيوت علمية عريقة، وكانت الكثير من النساء من عائلات معروفة يشار إليها بالبنان حيث عدت المرأة في العصر الأيوبي والمملوكي في صفوف العلماء الأفذاذ وغدت تلك العالمة الحجة الثقة التي يقصدها طلبة العلم والمعرفة الذين صاروا من كبار العلماء ومشهوريهم كالحافظ الذهبي وتقي الدين السبكي وابن عساكر.... وقد

ذكر الحافظ الذهبي(ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) أنه تلقى العلم على عدد من النساء زاد على المئة[١٠].

ومنهن الشيخة العابدة زينب مكي بنت علي بن كامل الحراني (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م) ولشهرتها ازدحم عليها الطلبة وعلمت الكثيرين[١١] أمثال أحمد بن إدريس بن يحيى ابن يونس المارداني (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م) ومحمد بن أحمد بن ابراهيم بن الزبير الغرناطي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) وعلي ابن محمد بن يحيى بن أسعد الواسطي (ت٧٥٨هـ/١٣٥٦م) [١٢].

ومنهن العالمة المسندة زينب بنت سليمان بن إبراهيم بن رحمة الأسعردي (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥م) أخذت العلم من كثير من علماء عصرها وسمعت منهم الأحاديث الصحيحة، وتعلمتها، وبلغت مرتبة علمية جعلتها قبلة الكثير من طلاب العلم أمثال مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي(ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) [١٣] وتزخر كتب التراجم بذكر النساء اللائي خرجن الكثير من العلماء، عندما أكدت المرأة تفوقها، وتصدرت لتدريس علوم عصرها أسوة بالرجال العلماء، وتأتي في مقدمة هؤلاء قطلو ابنة سيف الدين فقد كانت من مسندات الشام. وفاطمة بنت سليمان بن عبد الكريم الأنصاري (ت٧٠٨هـ/١٣٠٨م) كانت عالمة بالحديث دمشقية أخذت عن أبيها وغيره وأجازها معظم علماء الشام والعراق والحجاز وفارس في عصرها[١٤]. والشيخة العابدة المسندة فاطمة ابراهيم بنت محمود جوهر (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، التي درست صحيحي البخاري ومسلم على العلماء ثم روته عدة مرات، وبلغ من مكانتها العلمية أن قصدها كبار العلماء، وممن تلقى العلم عنها العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي [١٥].

ولقد أتقنت الشيخة المفتية زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية (ت٧١٤هـ /١٣١٤م) الفقه وغوامضه الدقيقة، وأحكامه الخلافية فقد بحثت مع العلماء في مسائله جنبا إلى جنب وعظت في دمشق ثم انتقلت إلى القاهرة وكانت

تصعد المنبر فتعظ النساء وتؤثر فيهن الأمر الذي جعل صلاح الدين الصفدي يقول عنها (وزخرت علوم بحورها وماجت فلو عاينتها لقربت من الشيخ تقي الدين في تفضيلها) [١٦].

وكذلك حدثت وفقهت ست الوزراء أم عبد الله بنت القاضي شمس الدين عمر (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م)، وسمع منها خلق كثير حتى وصفت بمسندة العصر [١٧].

وأيضاً عائشة ابنة الصارم السنجارية الأصل الدمشقية المنشأ التي سمع منها الأئمة كابن حجر [١٨].

وتفردت الشيخة الصالحة زينب بنت أحمد بن عمر (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م) في وقتها وحدثت في دمشق، والمدينة، ومصر، والقدس [١٩].

ولقد نالت زمردة بنت أبرق (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م) زوجة العالم النحوي الشهير أثير الدين أبي حيان الغرناطي دور علمي بارز، فقد تعلمت على جماعة من العلماء ثم حدثت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحصلت زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المعروفة ببنت الكمال (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) على الإجازات من بغداد وحلب والشام والاسكندرية والقاهرة، وقد ذكر صلاح الدين الصفدي أنها أجازته وكان الطلبة يتزاحمون عليها، فتقرؤهم الكتب المشهورة التي تستغرق أحيانا أكثر النهار [٢٠].

وكذلك قدمت عائلة ابن دقيق العيد العلمية رقية بنت تقي الدين محمد بن علي بن وهب ابن دقيق العيد القشيري (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م) وهي عالمة محدثة منحت الطلاب الإجازات الكثيرة.

وأقبلت مؤنسة بنت صبيح بن عبد الله (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)على العلم حتى أجيز لها بالتحديث، وظلت تحدث حتى وفاتها بالقاهرة [٢١].

ولقد اجتهدت أم الخيرستيتة بنت تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) فقد اجتهدت في طلب العلم وسمع منها العلماء وحدثوا عنها في حمص وغزة[٢٢]. وكانت عالمة تقية، ومن تلاميذها أبو حامد بن ظهيرة، فقد أجازته فحدث عنها.

ولقد كان لابنة القاضي علم الدين صالح واسمها آلف حلقة رتبت فيها قراء يقرؤون عندها الحديث والتفسير، وتردد إليها كثير من طلبة العلم[٢٣].

وكذلك أسماء بنت الفخر حيث كانت تلقن النساء القرآن الكريم وتعلمهن العلم[٢٤]،هذا عدا الوعظ الذي كانت تقوم به بعض الشيخات في بعض الرباطات حيث تقوم الشيخة بوعظ النساء وتذكرهن وتفقههن كفاطمة بنت عياش الواعظة التي كان لها باع طويل في دراسة الفقه[٢٥] وقد أثنى عليها العالم الجليل ابن تيمية [٢٦].

ولقد ذكرت تذكار باي خاتون ابنة السلطان الظاهر بيبرس، بأنها امرأة صالحة تقية محبة للخير مقربة للفقراء وأخصهن النساء الصالحات وقد وصفت بأنها فقيهة وافرة العلم زاهدة واعظة تنقلت بين الشام ومصر وانتفع بعلمها كثير من النساء[٢٧] حتى أنها بنت لهن رباطا سمته رباط البغدادية (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) على اسم الشيخة الصالحة زينب بنت أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية السالفة الذكر وقد ذكره المقريزي حيث قال (ومابرح إلى وقتنا يعرف سكانه من النساء بالخير وله دائما شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن) [٢٨].

وينقل لنا ابن الحاج خبراً يعطي صورة تظهر تعلم النساء على الرجال حين ذكر عالماً كان يقيم درساً في أحد المساجد قال(يجتمع إليه الناس لسماع الكتب فيه، ثم تأتي النساء أيضاً لسماعها، فيقعد الرجال بمكان والنساء بمقابلتهم) [٢٩].

ومن بين الشهيرات فاطمة ابنة الشيخ الإمام المحدث جمال الدين الأنصاري الدمشقي حيث وصفت بأنها من العالمات الفاضلات المحدثات الصادقات في الرواية، أخذت الحديث عن والدها، ومن أجلاءِ عصرها، وقد أخذ الحديث عنها جملة[٣٠].

ويروى أيضاً أنه كان للعالم المصري أحمد بن سليمان القاهري (ت٨١٩هـ/١٤١٦م) مجالس في الفقه والترغيب في طلب العلم، وذكر الحلال والحرام وأنه أنشأ جامعا بقرية المقس وصار يعظ ويعلم الناس.

ولا يغيب عن الذهن أنه أحيانا كانت زوجة العالم تبلغ عنه أحكام الشرع للنساء عموماً، ولبعض الرجال خصوصاً، ومن وراء حجاب كما فعلت أنس ابنة عبد الكريم التي سمعت عن زوجها وحدثت...وقرأ عليها الفضلاء[٣١].

وقد عد البعض أن من حقوق الزوجة على زوجها طلب العلم، تطلبه من زوجها، وإن لم يفعل خرجت بدون إذنه وخاصة في أمور الدين[٣٢].

أضف لذلك فقد كان الفقه من بين العلوم التي وجدت اهتماما من قبل نساء العصر وأجدن فيه إجادة طيبة، إذ ذكر عن فاطمة ابنة الإمام المهدي أحمد بن يحيى أن لها مع والدها مرافعات في مسائل كثيرة، وقيل إنها ترجع إلى نفسها في استنباط الأحكام. وكان زوجها الإمام المطهر يرجع إليها فيما يشكل عليه من مسائل وإذا ضايقه أحد التلاميذ في بحث دخل عليها فتفيده بالصواب[٣٣].

أضف لذلك فكثير من النساء نلن إجازات علمية على يد علماء أجلاء وكثيرا ما تتردد عبارة وأجاز لها شيوخ كبار [٣٤] وأجاز لها علماء أجلاء وأجاز لها الأفاضل[٣٥] ومنهن من لديها أكثر من إجازة كأم يحيى قمر ابنة الموفق، فقد شاهد السلامي عندها إجازة أعطيت لها في٦٦٩هـ/١٢٧٠م والأخرى في عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م من قبل فريق آخر من العلماء[٣٦] ويبدو أن نوال الإجازة كان يتم إما باللقاء والمناقشة أو بالمراسلة، فشمس الملوك ابنة ناصر الدين أجازت للسخاوي رغم عدم لقائه معها[٣٧] وهذا واضح من تلك

العبارات سالفة الذكر لأنها تشير إلى أكثر من عالم، وربما كان هؤلاء يعيشون في بلدان متفرقة تطرق البحث للحديث عنهن في فقرة سالفة.

المرأة والأدب:

كان الأدب من ضمن العلوم التي عملت فيها المرأة في هذا العصر فقد كان لها مشاركة في نشاطات الأدب والشعر، فكان بينهن الشاعرات والأديبات مثل تقية ابنة أبي الفرج التي فاقت الرجال ولها باع طويل في الأدب (٣٨). وكذلك عائشة بنت يونس الباعوني التي ذكر عنها بأنها فاقت الخنساء في عصرها، ووصفها عبد الغني النابلسي بأنها فاضلة الزمان وحليفة الأدب في كل مكان ووصفها غيره بأنها ربة الفضل والأدب ولها ديوان شعر بديع في المدائح النبوية، ومن تأليفها مولد جليل للنبي صلى الله عليه وسلم، ولها قصيدتها البديعة ولها عليها شرح بديع سمته الفتح المبين في مدح الأمين(٣٩).

وهناك فاطمة بنت الخشاب التي كانت شاعرة مجيدة، ولها قصائد مطولة عاصرت الصفدي في القرن السابع الهجري، وراسلها العلامة ابن فضل الله، ولم يخاطبها إلا بما يوافق العلماء الأعلام،ونذكر من بينهن أيضاً الشاعرة المبرزة ستيتة التي كتبت قصيدة إلى السخاوي وأخرى إلى قاضي مكة ، ولها مكاتبات إلى جماعة من الأدباء، واستمرت على نظم الأدب ومدح أرباب الرتب حتى توفيت عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م(٤٠) ويذكر أن السخاوي شبهها بالخنساء، وقال عنها (ولها براعة في النظم وكانت فريدة فيما استعملت عليه، أما مؤنسة ابنة الشيخ محمد البيطار ذكر أن لها أشعار كثيرة) (٤١) سمعها أكابر العلماء في عصرها.

المرأة والطب:

ونجد مشاركة المرأة في مجال الطب فوالدة المؤرخ تقي الدين المقريزي أسماء بنت محمد بن عبد الرحمن بن علي بن الصائغ (ت ٨٠٠هـ/١٣٩٧م) كانت تصف للناس دواء للصداع ويذكر عنها ابنها أنها وصفته مرارا عديدة فما أخطأ(٤٢).

الرحلة في طلب العلم:

لم تكتف المرأة بالعلم والتعلم، بل قامت برحلات متعددة إلى أماكن كثيرة لطلب العلم حينا، ولنشره أحياناً أخرى، وقد ورد في الفقرات السالفة إشارات إلى ذلك، ونورد الآن أسماء البعض منهن مثل عائشة ابنة علي ابن محمد فقد زارت القدس والخليل وحدثت هناك، وسمعت وأخذ عنها الأعيان (٤٣).

وفاطمة بنت عياش التي انتقلت بين دمشق والقاهرة وتفقهت بين مختلف المدن والقرى والأقطار.

ولقد ذكر أنهن كن يلتقين برجال العلم والأدب وطلابه للدرس والمناقشة ولكن من وراء حجاب(٤٤).

المرأة وإنشاء المؤسسات العلمية:

بذلت المرأة علمها ومالها لتسهم في ازدهار الحياة الفكرية فهي لم تقبع في بيتها، أو تقف شاهدة عيان على أفعال غيرها، بل شاركت في رعاية العلم وإقامة مؤسساته، وذلك فيما يشكل مؤشراً صادقاً على مدى التقدم والحرية والانفتاح السائد في المجتمع آنذاك مقارنة بما كانت تعانيه المرأة في أوربة في العصور الوسطى من ظلم وجهل وتخلف.

وقد شاركت المرأة في تشييد المدارس والجوامع والخوانق والربط، فقد ذكرت كتب التراجم والتاريخ والتربية تسع عشرة مدرسة أسستها النساء ما بين (٥٢٦هـ/١١٣٢م) و(٦٦٠هـ/١٢٢٢م) في دمشق مما يؤكد أنها بنيت في فترة لم تتجاوز القرن والربع، وهي كثيرة إذا ما عرفنا أن هذه الفترة قد بني فيها أكثر من مئة وستون مدرسة أنشئت في دمشق، والقدس وطرابلس ومصر وحلب وحماة.

فالمدرسة الخاتونية البرانية وكانت للأحناف صاحبتها زمرد خاتون بنت جاولي ابن عبد الله الحجة شمس الملوك، وأخت الملك دقاق زوجة نور الدين الشهيد.

وكانت زمرد هذه قد سمعت الحديث واستنسخت الكتب وحفظت القرآن(٥٥).

وبداخل مدينة دمشق أنشأت عصمة الدين خاتون، بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين الشهيد ثم زوجة صلاح الدين المدرسة الخاتونية الجوانية وكانت للفقه الحنفي، وبنت أيضاً رباطاً.

وممن درس في هذه المدرسة والد ابن شداد حجة الإسلام وفخر الدين الجواري، والقاضي عز الدين السنجاري، وكمال الدين عبد اللطيف، والبرهان بن الموفق مسعود ابن شجاع الحنفي، وابن عطاء، وابن أبي جرادة، والرومي والصفدي(٤٦).

وأما عصمة الدين مؤنسة خاتون فقد بنت المدرسة القطبية مدرسة الست جليلة الكبرى، وهي ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد (ت٥٧٧هـ/ ١١٨١م) كانت حافظة للحديث سمعته من الحافظ أبي العباس الظاهري، وخرج لها جزءا، وكانت عاقلة دينه فصيحة لها أدب وصدقات كثيرة(٤٧).

وأنشأت الخاتون ست الشام زمرد ابنة الملك الأفضل نجم الدين أيوب أخت الملك العادل سنة٥٨٢هـ/١١٨٦م المدرسة الشامية البرانية، وممن درس فيها تقي الدين ابن الصلاح، وشرف الدين بن زين القضاة، وابن عصرون، والجيلي، وشمس الدين ابن الشيرازي والمقدسي والفارضي وابن قاضي شهبة وشهاب الدين الزهري، وتقي الدين السبكي.

وبمقابل البيمارستان النوري بدمشق أنشأت المدرسة الشامية الجوانية وكانت جرمانا من جملة وقفه(٤٨).

وبداخل باب النصر أنشأت الست عذراء بنت نور الدين شاهنشاه بن أيوب أخي صلاح الدين المدرسة العذراوية.

ولا تزال المدرسة الماردانية في ساحة الجسر الأبيض ملاصقة له، وتعرف اليوم بجامع الماردانية على نهر ثورا وفيها مدفن بني المؤيد، وقد أزيل المدفن مؤخرا، وقد أنشأتها في العهد الأيوبي عزيزة الدين أخشاخاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين، وممن درس فيها الصدر الخلاطي، وابن التركماني، وقاضي بيسان، وشرطت على مدرسها ألا يدرس بغيرها.

وبزقاق الصخر إلى الشرق من قصر الضيافة عند مدخل دمشق الغربي مقابل التكية السليمانية، بنت الخاتون خطى الخير ابنة ابراهيم بن عبد الله زوجة شاهنشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأيوبي المدرسة الفروخشاهية، وكانت للأحناف والشافعية.

وعن الشيخة الصالحة فاطمة بنت عياش بن أبي الفتح يقول ابن كثير: وكانت من العالمات الفاضلات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنكر على أهل البدع وغيرهم، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال، وكانت تحضر مجالس الشيخ الفقيه ابن تيمية... وكان يثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم..وهي التي ختمت نساء كثيرات القرآن الكريم، (ت٧١٤هـ/١٣١٤م) ومن بين النساء اللائي أسهمن في العملية التعليمية ستيتة ابنة الأمير سيف الدين التي أمرت بإقامة تربة، وفيها مسجد، وإلى جانبها رباط للنساء، ومكتب للأيتام وفيها صدقات وبروصلات وقراء (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) [٤٩].

وهناك أيضاً بركة خاتون والدة السلطان الأشرف شعبان التي حجت في عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م وأسست مدرسة سميت مدرسة أم السلطان، وعملت بها درسا للشافعية، ودرسا للحنفية وبقيت مدة يجتمع فيها الطلبة والمدرسون يدرسون فيها جميع العلوم [٥٠]، وجعلت على بابها حوض للسبيل، وقيل إنها رتبت بها دروسا للمذاهب

الأربعة وحضوراً في كل يوم للصوفية، ومكتباً للأيتام"٥٩"، وكذلك طيطلغى زوجة السلطان أزبك فقد أقامت المدارس والمساجد والمارستانات(٥١).

وفاطمة ابنة الشيخ الإمام المقري التي أقامت المدارس والمارستانات والتكايا وأوقفت لها أوقافا(٥٢).

أما آلف ابنة القاضي علم الدين صالح فقد رتبت قراء يقرؤون غندها الحديث والتفسير، وتردد إليها كثير من الطلبة (٥٣).

ونذكر أيضاً خوندتتر بنت السلطان محمد بن قلاوون حيث أنشأت المدرسة الحجازية(٥٤)، وجعلت بها درسا للفقهاء الشافعية ودرسا للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة ورتبت لها إماما يقيم بالناس الصلوات الخمس، وجعلت بها خزانة كتب وأنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن ليلا ونهارا، وجعلت بجوار مدرستها مكتبا لعدة من أيتام المسلمين، وعينت لهم مؤدبا يعلمهم القرآن الكريم وأجرت عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة ومبلغا من الدراهم، ويقام لكل منهم بسكوتر للشتاء والصيف، وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف(٥٥).

وهناك عدد كبير من المدارس أسهمت في بنائها النساء لا مجال لحصرها بسبب كثرتها ولأن المجال لا يتسع لذلك.

هذا ولا يسعنا قبل ختم هذه المساهمات من ذكر أن هذه الشريحة الفاضلة من النساء لو لم يملكن قدراً كبيراً من الثروة لما استطعن القيام بمثل تلك المشروعات.

أضف لذلك إن التوسع في إنشاء المدارس في حد ذاته جاء مظهرا قويا لرقي الحياة الفكرية بشكل عام.

خاتمة:

أخيراً إن التاريخ الماضي لا معنى له إن لم نتعظ به، ونعتبر ونحن اليوم بأمس الحاجة لمفكرين يقودون الأمة نحو بر الأمان. وقد أثبت التاريخ ارتباط النهضة العربية بالتطبيق الصحيح لتعاليم الدين الإسلامي، ومن ثم لابد أن تكون الحلول نابعة من واقع حياتنا وعقيدتنا وأن تكون بعيدة عن تجارب الغرب التي أثبتت زيفها وخداعها.

ومن هنا يقع على عاتق مفكري الأمة واجب كبير وهو إبراز ما قدمته الحضارة العربية الإسلامية في مختلف عصورها المشرقة من أجل تنوير البشرية، وتحقيق مأْتَمَنَهُ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

الحواشي

(١) السبكي: **طبقات الشافعية**، ج ٤ص٣٢٩،دهمان: **في رحاب دمشق** ص٢٦٠..

(٢) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج١ص٣١٥،ابن الأثير: **الكامل** ج١٢ص١٨٣، زيدان: **تاريخ آداب اللغة**ج٣ص١٠.

(٣) ابن عنين: **ديوان ابن عنين** ص١٣، ابن الأثير: **الكامل** ج١٢ص١٨٣

(٤) ابن الحاج: المدخل ج١ ص٢٧٠-٢٧١.

(٥) الشوكاني: **البدر الطالع** ج٢ ص٣٢٥ ، السلامي: **الوفيات** ج٢ ص ١٩٧-٣٠٣-٣٠٤-٣١٨-٣٧٣.

(٦) السخاوي: **الضوء** ص ٨-١٢-٧٨-٨١-١٠٦ ، العاملي: **الدر المنثور** ص٣٩٢-٣٩٣.

(٧) السخاوي: **الضوء** ص١٤-١٨ ، ابن حجرذ: الدرر ج٢ ص ٢٠٩- ٢١٠.

(٧) مكرر سورة الآية

(٨) ابن حجر العسقلاني: **الفتح الباري كتاب العلم** .

(٩) غنيمة: **تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى** ص٣٠١.

(١٠) الذهبي: **معجم شيوخ الذهبي** صفحات متعددة.

(١١) الذهبي: **العبر** ج٥ ص ٣٥٨، ابن العماد: **شذرات الذهب** ج٧ ص٧٠٦.

(١٢) ابن حجر: **الدرر** ج١ ص١٠٩ ، ج٣ ص ١٩٦-٣٩٢-٣٩٣، السخاوي: **الضوء** ص ٢٤-٦٧.

(١٣) الصفدي: **أعيان العصر** ج٢ ص ٣٨٩-٣٩٧، الصفدي: **الوافي** ج١٥ ص ٦٧.

(١٤) الخربوطلي: **مدارس** ص١٤٧.

(١٥) ابن حجر: **الدرر** ج٣ ص٣٠١ ، الصفدي: **أعيان العصر** ج٤ ص٢٦.

(١٦) الصفدي: **أعيان العصر** ج٤ ص٢٨-٢٩، المناوي: **الكواكب الدرية** ج٣ ص٤٨.

(١٧) الصفدي: **أعيان العصر** ج٢ ص٣٩٨-٣٩٩،الصفدي: **الوافي** ج١٥ص١١٧ ابن حجر: **الدرر** ج٢ ص٢٢٣-٢٢٤

(١٨)السخاوي: **الضوء** ص١٢-٧٣-٧٨-٨١.

(١٩) الصفدي: **أعيان العصر** ج٢ ص٣٨٩، الصفدي: **الوافي** ج١٥ ص٦٦.

(٢٠) الصفدي: **أعيان العصر** ج٢ ص٣٩٠،الصفدي:**الوافي** ج١٥ص٦٨،ابن حجر: **الدرر** ج٢ص٢١٠.

(٢١) ابن حجر: **الدرر الكامنة** ج٥ص١٥٦.

(٢٢) ابن حجر: **أنباء الغمر** ج١ص١١٧، ابن حجر: **الدرر** ص٢١٩-٢٢٤، السلامي: **الوفيات** ج٢ص٣٨٧-٣٨٨.

(٢٣) السخاوي: **الضوء** ص١٨.

(٢٤) ابن حجر: **الدرر** ج١ ص٣٦٠.

(٢٥) الشوكاني: **البدر الطالع** ص٣٤.

(٢٦) ابن حجر: **الدرر** ج٣ ص٣٠٧-٣٠٨، العاملي: **الدر المنثور** ص١٠٥-١٠٦.

(٢٧) السخاوي: **الضوء** ص٢، العاملي: **الدر المنثور** ص١٠-١٠٦.

(٢٨) المقريزي: **العقود الفريدة** ج٢ ص٤٢٧-٤٢٨.

(٢٩) ابن الحاج: **المدخل** ج٢ ص٢١٩.

(٣٠) السخاوي: **الضوء** ص١٢-٧٣-٧٨-٨١.

(٣١) الصفدي: **أعيان العصر** ج٢ ص٣٨٧،الصفدي: **الوافي** ج١٥ص٦٦.

(٣٢) ابن الحاج: **المدخل** ج١ ص٢٧٠-١٧١.

(٣٣) الشوكاني: **البدر الطالع** ص٣٤.

(٣٤) السلامي: **الوفيات** ج١ ص٤٨٥-٤٨٦.

(٣٥) السخاوي: **الضوء** ص٢-١٠-١٢-٧٢.

(٣٦) السلامي: **الوفيات** ج١ ص٨٥-٨٦.

(٣٧) ابن حجر: **الدرر** ج٢ ص٢٠٩-٢١٠.

(٣٨) العاملي: **الدر المنثور** ص١٠٩.

(٣٩) العاملي: **الدر المنثور** ص٢٩٣-٣٠٣.

(٤٠) الشوكاني: **البدر الطالع** ج٢ ص٢٥٠.

(٤١) السخاوي: **الضوء** ١٠٧-١١٢، الشوكاني: **البدر الطالع** ج٢ ص٢٥-٢٦.

(٤٢) المقريزي: **الدرر** ج٢ص٤٧٩-٤٨٠،ابن حجر: **إنباء الغمر** ج٣ص٤١٨.

(٤٣) العاملي: **الوفيات** ص ٢٩٣-٣٠٣.

(٤٤) السخاوي: **الضوء** ص٢٢.

(٤٥) الخربوطلي: **مدارس** ص١٢٤-١٢٤.

(٤٦) ابن شداد: **الأعلاق الخطيرة** ج٢ص٢٠٥، العلموي: **تنبيه الطالب** ص٨٧-٨٨، النعيمي: **الدارس** ج١ ص٥٠٧-٥١.، بدران: **منادمة الأطلال** ص١٦٩، شميساني: **مدارس** ص٧٦-٧٩، الخربوطلي:**مدارس** ص١٢٧.

(٤٧) الخربوطلي: **مدارس** ص١٢٧-١٢٨.

(٤٨) علموي: **مختصر الدارس** ص٤٦-٤٨-٥٠.

(٤٩) ابن كثير: **البداية والنهاية** ج١٤ ص١٠١.

(٥٠) العاملي:**الدر المنثور** ص٩٤-٩٥.

(٥١) كحالة: **أعلام** ج١ ص١٠٨.

(٥٢) العاملي: **الدر المنثور** ص٣٦٦.

(٥٣) السخاوي:**الضوء** ص١٨.

(٥٤) المقريزي: **المواعظ والاعتبار** ج٢ ص٣٨٢.

(٥٥) ابن إياس: **بدائع الزهور** ص.٩١

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير: (علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين)، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٩٨٢م.

٢- الأدفوي: (جعفر بن ثعلب بن جعفر)، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، تحقيق محمد صالحية، الكويت، دار العروبة، ط١، ١٩٨٨م.

٣- ابن إياس: (محمد)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، بولاق، مصر ١٩٨٣م.

٤- بدران: (عبد القادر)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، دمشق ١٩٨٦م.

٥- ابن الحاج: (أحمد بن علي)، المدخل، دار الفكر.

٦- ابن حجر: (أحمد بن علي)، إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦م.

٧- ------- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢ ١٩٦٦م.

٨- -------- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة.

٩- الخربوطلي: (محمد عيد كمال الدين)، مدارس أنشأتها نساء في العالم العربي الإسلامي، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.

١٠- ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت ١٩٦٩م.

١١- دهمان: (محمد أمين)، في رحاب دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢م.

١٢- الذهبي: (محمد بن أحمد بن عثمان)، العبر في حوادث من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت دار المطبوعات والنشر ١٩٦٠م.

١٣- --------معجم شيوخ الذهبي ، دون تاريخ طبعة.

١٤- زيدان: (جرجي)، تاريخ آداب اللغة ، دون طبعة.

١٥- السبكي: (تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب)، طبقات الشافعية الكبرى ١٩٠٦م.

١٦- السخاوي: (محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة.

١٧- السلامي: (تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع)، الوفيات، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٢م.

١٨- ابن شداد: (محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٦م.

١٩- شميسابي:(حسن)، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، بيروت، دار الآفاق الجديدة ، ط١، ١٩٨٣م.

٢٠- الشوكاني: (محمد بن علي)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق حسين العمري، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.

٢١- الصفدي: (خليل بن ايبك)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق محمد أبو زيد وآخرون، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.

٢٢- -------الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتا ينر، ط٢، ١٩٦٢.

٢٣- العاملي: (زينب)، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، تحقيق منى الخراط، بيروت، مؤسسة ريان، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٤- العلموي: (عبد الباسط)، تنبيه الطالب وإرشاد الدارس، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٤٧م.

٢٥- ابن العماد الحنبلي: (عبد الحي)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار المسيرة، ١٩٧٩م.

٢٦- ابن عنين: (شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن نصر بن مكارم الأنصاري الدمشقي)، ديوان ابن، طبع المجمع العلمي والأدبي.

٢٧- غنيمة: (محمد عبد الرحيم)، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان، دار الطباعة المغربية ١٩٥٣م.

٢٨- كحالة: (عمر رضا)، أعلام النساء، دمشق، المكتبة الهاشمية ١٩٤٠م.

٢٩- المقريزي: (أحمد بن علي)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد كمال الدين علي، بيروت، عالم الكتب، ط١ ١٩٩٢م.

٣٠- النعيمي: (عبد القادر بن محمد)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، دمشق مطبعة الترقي ١٩٤٨م.

الرحلة في العصر المملوكي الأول ابن رشيد السبتي (ت ٧٢١ هـ =١٣٢١م) أنموذجاً

الدكتور عمار محمد النهار

قسم التاريخ

جامعة دمشق

ـ تمهيد:

تشكل الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الإسلامي في مختلف عصوره، فلقد رحل المسلمون لأسباب كثيرة، لزيارة مهبط الوحي وأداء فريضة الحج، ولطلب العلم لانتشار مراكز العلم في العالم الإسلامي، ورحل قوم للتجارة حيث كانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ورحل آخرون كرسل متنقلين بين الملوك والأمراء، بالإضافة إلى رحلة الساعين للرزق أو المغامرين.

وتمثلت الفائدة من هذه الرحلات في قيام الكثير من أصحابها بتدوين أخبار أسفارهم وتنقلاتهم، فذكروا المدن التي نزلوا فيها، والمسافات التي قطعوها، ووصفوا البلاد وزرعها، وأتوا على وصف حياة السكان فيها مدحاً أو ذماً.

ولقد حث الدين الإسلامي الحنيف المسلمين على النشاط والحركة والتنقل، قال الله تعالى: ((فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله))(١).

وهذا ما حفّز المسلمين على أن يجوبوا العالم طولاً وعرضاً، من شرق آسيا إلى مجاهل

إفريقيا، وحتى إلى أمريكا شمالها وجنوبها، فأضافوا إلى محصول المعرفة الجغرافية إنجازات حققت قفزات إكسيرية في هذا الميدان من المعرفة.

وقد ألهمت فريضة الحج وزيارة بيت الله الحرام الجغرافيين المسلمين وضع مؤلفات جغرافية جامعة في أحسن المسالك، ووصف المدن والمواقع والأماكن لتأمين وصول الحجيج من كل فج عميق إلى مكة المطهرة بيسر وأمان.

وكما أدى اشتغال المسلمين بالتجارة في المحيط الهندي وشرق إفريقيا والبحر المتوسط وأوروبا إلى ازدياد معارفهم وخبراتهم الجغرافية والملاحية حيث لم يمض على وفاة رسول البشرية ﷺ مائة عام حتى صار العرب المسلمون القوة البحرية العظمى في العالم، فقد استطاعوا بناء أسطول ضخم في فترة زمنية قياسية، مكنتهم من السيادة على البحر المتوسط من شرقه إلى غربه منهين بذلك السيادة البيزنطية على هذا البحر.

وأصبحت الدولة الإسلامية دولة واسعة الأطراف بفضل الفتوحات التي كانت عاملاً من عوامل تقدم معلومات العرب الجغرافية، حيث أحوجتهم إلى معرفة البلاد المفتوحة وشعوبها وكل شيء عنها.

وقد أملت عالمية الرسالة الإسلامية على المسلمين أن يرحلوا في اتجاه بلدان الشرق الأقصى، فاكتشفوا جزيرة مدغشقر في المحيط الهندي، كما توغلوا في الأراضي السودانية التي تقع إلى الجنوب من نطاق الصحراء الكبرى، وأحرزوا السبق في اختراق مناطق الاستبس الأوروبية ووصلوا إلى الأراضي الروسية والبولندية، حيث استطاعوا في فترة زمنية قياسية أن يجعلوا من أنفسهم فرساناً في البر والبحر في آنٍ واحد.

أولاً ــ أبرز رحّالة العصر المملوكي المعاصرون لابن رشيد:

من يقرأ التاريخ الإسلامي يجد كثرة بأسماء الرحّالة والرحلات، ولما كان حديثنا عن ابن رشيد السبتي والذي عاش في العصر المملوكي، فلابد من ذكر أشهر رحّالة ذلك العصر.

حيث نمت وترعرعت في عصر دولة المماليك جميع الأنماط الجغرافية المعروفة لنا تقريباً، ويصدق هذا بصورة خاصة على نمط الموسوعات الذي بلغ أوجه في بداية القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي، كما وتطورت الجغرافية الإقليمية الإدارية في أوساط عمال دولة المماليك، وقدمت الجغرافية الإقليمية نمط (الخطط)، الذي بلغ ذروته في مصنف المقريزي الشهير(٢).

وكان وراء تقدم علم الجغرافية في ذلك العصر أسباب وعوامل عديدة، ويأتي في مقدمتها حرية التنقل التي أدت إلى تعزيز الرغبة الملحة في طلب العلم، فقام العلماء بتبادل الزيارات مع بعد المسافات، مما أدى إلى توسيع المعارف بعد أن دوّن هؤلاء كتاباتهم عن البلدان التي ارتحلوا إليها، وعزز هذه التنقلات العامل الديني المتمثل بأداء فريضة الحج، الذي اتصف بمظهر فكري تجلى بتعرف الحاج على البلدان التي يمر بها ويصفها، ويضاف إلى ذلك عوامل أخرى منها اتساع نطاق التجارة، وتنقل التجار الذي أفرزه الموقع المهم لدولة المماليك بين البلدان آنذاك، ومنها الحروب المستمرة التي أنتجت احتكاكاً مباشراً مع مختلف المناطق.

فأول رحّالة نلتقيه في العصر المملوكي هو محمد بن محمد بن علي العبدري (ت بعد عام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠م)، وقد خرج مع أبيه لتأدية فريضة الحج عام ٦٨٨ هـ =١٢٨٩م من شمال إفريقية، وتوقف في أثناء ذلك وقفات طويلة في المدن الكبرى، ومن مصر رافق قافلة الحج، ثم رجع إليها من طريق فلسطين، فأمضى بعض الوقت في القاهرة والإسكندرية(٣).

وأتى بعد العبدري محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن رشيد الفهري السبتي (ت ٧٢١ هـ =١٣٢١م) وقام برحلة دوّنها في كتاب سمّاه «ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين ومكة وطيبة»، وقد خصصنا هذا البحث له.

وجاء بعد ابن رشيد الرّحالة خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي (كان حياً عام٧٤٠ هـ = ١٣٣٩م)، وقام برحلة صنّفها في كتاب «تاج المفرق في تحلية أهل المشرق»، وذكر عنها محمد بن عبد الله لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤م) ما يلي: «حجّ وقيّد

رحلته في سِفر وصف فيه البلاد ومن لقي»[٤].

وقصد في هذه الرحلة الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة الأماكن المقدسة.

ونصل إلى الرحالة المشهور ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد ابن إبراهيم (ت ٧٧٧ هـ=١٣٧٥م)، الذي زار في رحلته الشهيرة بلدان العالم وخاصة القاهرة المملوكية والإسكندرية ودمياط وأسوان، ووصف ما شاهد فيها من مدارس وجوامع، وحدثنا عمن التقاه فيها من علماء وأعيان، وسجّل ذلك في كتاب شهير عُرف بـ «تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»[٥].

ولم يخف عن المؤرخ ابن خلدون أمر هذا الرحّالة، فذكره في مقدمته قائلاً: « وذلك أنه ورد من المغرب رجل من مشيخة طنجة يُعرف بابن بطوطة، كان رحل منذ عشرين عاماً قبلها إلى المشرق، وتقلّب في بلاد العراق واليمن والهند، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان، وكان يُحدّث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض»[٦].

ويذكر كراتشكوفسكي رحّالة آخر هو أبو عمر عبد الله بن رشيد النشريسي، وقد قام برحلة طويلة امتدت بين ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤م، و٧٠٠ هـ = ١٣٠٠م، وبدأها من غرناطة، وزار خلالها شمالي افريقية ومصر والشام، ووصف كل ذلك في أجزاء خمسة كونت رحلته التي ذكر فيها العلماء المقيمين في المواضع التي زارها، ووصف المكتبات ودور العلم المختلفة، وتضمن الجزء الثالث منها الحديث عن علماء الإسكندرية والقاهرة بين عامي ٥٨٥ ــ ٧٠٠ هـ = ١١٨٩ ــ ١٣٠٠م، وذلك عندما كان النشريسي نفسه مقيماً في مصر[٧].

وبرزت في ذلك العصر الرحلة في طلب العلم ، وساعد على ذلك حرية التنقل بين مدن دولة المماليك ومناطقها وكذلك مع بلدان العالم ، فلم أجد ما يدل على مانع يحول دون تنقل الأفراد ولاسيما أصحاب العلوم، وهذه السهولة في التنقل أدت بطريقة أو بأخرى إلى التفاعل والاحتكاك بين مختلف علماء الأمصار، وإلى انتقال العلوم مع حامليها من مكان إلى آخر، فانتشرت العلوم السائدة آنذاك في كل أطراف الدولة، ومن النادر ــ إن لم أبالغ ــ أن نجد عالماً

من العلماء قد أقام في موضع واحد، فالسفر والترحال كان عنواناً بارزاً لعلماء ذلك العصر، وإن تعددت أغراضه فإنَّ أولها كان السعي لطلب العلم أو تعليمه، وتمتلئ كتب تراجم القرنين السابع والثامن الهجريين = الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بالأمثلة على ذلك [٨].

ولقد أشار ابن خلدون إلى فضل الرحلة في طلب العلم، فذكر «أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم»[٩]. فكان هذا أحد الأسباب المهمة التي دفعت العلماء للتنقل والرحلة في طلب العلم.

ومما يدل على تنقل أعيان ذلك العصر لختلاف مكان ولادة كثير منهم عن مكان وفاتهم؛ كأبي حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م) الذي وُلد في غرناطة وتوفي في القاهرة[١٠]، وابن خلدون الذي وُلد في تونس وتوفي في القاهرة[١١].

وممن ارتحل أيضاً محمد بن إبراهيم بن خلكان (ت ٦٨١هـ = ١٢٨٢م) الذي خرج من دمشق متوجهاً إلى الديار المصرية، فسكنها وتأهل فيها واشتغل فيها بالعلوم[١٢]، وبعد زمن عاد إلى الشام، فتكلم فيه شعراء الشام شعراً، منه قولهم:

أنقت الشام سبع سنين جدباً غداة هجرته هجراً جميلاً

فلما زرته من أرض مصر مددت عليه من كفيك نيلاً[١٣]

والفقيه سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري (ت ٧١٦هـ = ١٣١٦م) عمل في بغداد ودمشق، ثم سافر إلى مصر وأقام في القاهرة، وترك في قوص من صعيد مصر خزانة كتب من تصانيفه[١٤].

ومن الأندلس رحل أحد كبار علمائها محمد بن أحمد القرطبي، فاستقرَّ في مصر حتى توفي في صعيدها عام ٦٧١ هـ = ١٢٧٢م[١٥]. وكذلك رحل إلى مصر عالم النحو وإمام القراءات محمد بن عبد الله بن مالك (ت ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م) صاحب الألفية المشهورة[١٦].

ومن دمشق وصل إلى مصر العديد من علماء آل قدامة، وهم أسرة فلسطينية الأصل، سكنوا الصالحية المجاورة لدمشق، فاستقر بعضهم في القاهرة، ووصل بعضهم الآخر إلى منصب قاضي القضاة أو شيخ الشيوخ فيها ، وجميع هؤلاء عملوا في التدريس في مساجد دمشق والقاهرة والإسكندرية [١٧].

ثانياً ــ ابن رشيد السبتي ورحلته الحجازية

١ــ اسمه ونسبه و نشأته:

على الرغم من ورود تراجم كثيرة له في المصادر إلا أن ذلك لم يتجاوز الإشارات المقتضبة، مع العلم أن هذه الأخبار المختصرة تدل في مجملها على أنه عالم متمكن يحتل مكانة مرموقة بين أهل عصره.

فهو: محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسن ابن محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، من أهل سبتة في المغرب، يكنى أبا عبد الله ويُعرف بابن رشيد[١٨].

وُلد ابن رشيد في سبتة عام ٦٥٧هـ = ١٢٥٨م[١٩] ونشأ فيها، ودرس العلوم على علمائها[٢٠]، ثم ارتحل طلباً للعلم ولأداء فريضة الحج، فارتحل إلى فاس واطلع فيها على المذهب المالكي، ثم رجع إلى سبتة وتصدر فيها لتدريس الفقه، ثم ارتحل إلى تونس ودرس فيها أصول اللغة وأصول الفقه، ثم سافر إلى الإسكندرية، ومن هناك توجه لأداء فريضة الحج فوصل مكة والمدينة، ثم غادرها إلى مصر[٢١].

وبعد هذه الرحلة الطويلة رحل ابن رشيد إلى الأندلس عام ٦٩٢هـ = ١٢٩٢م، وعقد فيها مجالس العلم، كما وصل إلى غرناطة وأقام فيها وتسلم خطابة جامعها[٢٢]، ثم عاد ثانية بعد ذلك إلى فاس التي توفي فيها عام ٧٢١هـ = ١٣٢١م[٢٣].

٢ـ حياته العلمية:

تزخر حياة ابن رشيد بكثير من المشاهد العلمية، بدءاً من تعلمه على مشايخه، ثم ارتحاله إلى بلدان المغرب والمشرق في رحلته المسماة (ملء العيبة) التي تحفل بكثير من النشاطات والفعاليات العلمية، وانتهاءً بتصديه لتدريس العلوم في البلدان التي أقام فيها، يضاف إلى هذا وذاك أنه ترك لنا آثاراً علمية جليلة اشتملت على عدد من المؤلفات.

تلقى ابن رشيد العلم على عشرات العلماء، في بلده سبته أولاً، ثم في أثناء رحلته التي تصطبغ بالصبغة العلمية من أولها إلى آخرها، فقد كان ينهل العلم من علماء كل بلد ينزل فيه، وفي كل مكان منه، في المدرسة والجامع والمنزل والدكان، فدلّ ذلك على حرصه الصادق في طلب العلم، وعلى تحمله وإرادته الصلبة في سبيل الوصول إلى أهدافه.

ومن مشايخه في سبتة عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبد الله، أبو الحسن بن أبي الربيع الإشبيلي (ت ٦٨٨هـ = ١٢٨٩م) قرأ عليه النحو وأخذ عنه القراءات[٢٤]، وابن أبي الربيع هذا هو إمام أهل النحو في زمانه، ولد عام ٥٩٩ هـ = ١٢٠٢م، وجاء إلى سبتة لمّا استولى الفرنج على إشبيلية، ومن مصنفاته: شرح الإيضاح، والملخص، والقوانين في النحو[٢٥].

ومن العلماء الذين أخذ عنهم ابن رشيد في رحلته: أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر محب الدين الطبري المكي (ت ٦٧٤هـ = ١٢٧٥م) شيخ الحرم وحافظ الحجاز، المدرس والمفتي والمصنف[٢٦]. وأحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري، النحوي واللغوي والمقرئ (ت ٦٩١هـ = ١٢٩١م)[٢٧]. ومحمد بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن النحاس الحلبي المصري (ت ٦٩٨هـ = ١٢٩٨م) شيخ الديار المصرية في علم العربية، ومدرّس التفسير في الجامع الطولوني والمدرسة المنصورية[٢٨].

وأخذ عن محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن دقيق العيد القشيري (ت ٧٠٢هـ=١٣٠٢م) الفقيه و المفتي، وقاضي الديار المصرية[٢٩]. وعن علي بن عبد المحسن بن أحمد بن محمد

الحسيني الغرافي (ت ٧٠٤هـ = ١٣٠٤م) شيخ الإسكندرية ومحدّثه[٣٠]. وعن فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي (ت ٧١١هـ = ١٣١١م) المحدثة[٣١]. وعن عبد الله ابن منصور بن علي الإسكندراني المعروف بالمكين الأسمر (ت ٦٩٢هـ = ١٢٩٢م) شيخ القراء في الإسكندرية[٣٢]. وعن غير هؤلاء العلماء في مختلف الأمصار[٣٣].

ولم يكتف ابن رشيد بتلقي العلم؛ بل عمل على تعليمه للناس، فقد كان يعد من علماء عصره البارزين الذين أخذ عنهم الناس، فكان مقرئ غرناطة وخطيبها[٣٤]، تصدر في بلده سبتة لتعليم العلوم عامة وتدريس الفقه خاصة[٣٥]، ولما تولى الإمامة والخطابة في جامع غرناطة أقام دروساً لشرح الحديث النبوي ومصطلحه[٣٦] فعُرف عنه تبحره في علوم الرواية والإسناد[٣٧]. وقد قال العلماء في حقه: «الخطيب المحدث المتبحر بعلوم الرواية والإسناد، كان رحمه الله فريد دهره عدالة وجلالة، وحفظاً وأدباً، وسمتاً وهدياً، واسع الأسمعة، عالي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث، قيماً عليها بصيراً بها، محققاً فيها، ذاكراً فيها للرجال، جمّاعة للكتب، محافظاً على الطريقة، مضطلعاً بغيرها من العربية واللغة والعروض، فقيهاً أصيل النظر، ذاكراً للتفسير، ريّان من الأدب، حافظاً للأخبار والتواريخ، مشاركاً في الأصلين، عارفاً بالقراءات»[٣٨].

ولابن رشيد تصانيف كثيرة في علوم الحديث وعلومه، وفي النحو، وفي علوم الدين، على أن أهم تآليفه كتابه التاريخي «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة»[٣٩] جمع فيه أخبار رحلته المشهورة .

وأما تصانيفه الأخرى، فهي «تلخيص كتاب القوانين لابن الربيع» في النحو، و«حكم الاستعارة» و«إفادة النصيح في رواية الصحيح» و«المحاكمة بين الإمامين»[٤٠] و«إيضاح المذاهب فيما يطلق عليه اسم الصاحب» و«ترجمان التراجم على أبواب البخاري»[٤١] و«فهرست مشايخه» و«مقدمة المعرفة في علو الإسناد والصفة» و«الصراط السوي في اتصال سماع جامع الترمذي» و«جزء فيه حكم رؤية هلال شوال ورمضان»[٤٢] و«مسألة

العنعنة»[٤٣]، بالإضافة إلى عدد من الخطب والقصائد النبوية والمعلقات البديعية[٤٤].

وتدل أقوال العلماء فيه على تقديرهم له، كما تشير إلى مكانته الجليلة بين أهل عصره، فقالوا عنه: «كان ورعاً مقتصداً منقبضاً عن الناس ذا هيبة ووقار، يسارع في حوائج الناس بجلب المصالح ورد المفاسد، يؤثر الفقراء والغرباء والطلبة، لا تأخذه في الله لومة لائم»[٤٥]، «كان فاضلاً سريّاً حسن الأخلاق»[٤٦]، «قدم غرناطة فأقام بها خطيباً معظماً مقبول الشفاعة»[٤٧]، و«استقر بمدينة فاس، معظماً عند الملوك والخاصة، معروف القدر عندهم»[٤٨].

٣ـ رحلة ابن رشيد و الجانب العلمي فيها:

كان لرحلة ابن رشيد؛«**ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة**» هدفان واضحان؛ الأول: ديني يقصد منه الحج وزيارة الأماكن الحجازية المقدسة والحرمين الشريفين، والثاني علمي يبتغي فيه لقاء العلماء من الحفاظ والمحدثين والمسندين والمتكلمين والنحاة والأدباء وغيرهم.

فقرأ عليهم، وسمع منهم، وحصّل الإجازات الكثيرة على أيديهم، ويظهر جلياً اطلاع ابن رشيد على كثير من المؤلفات المتوافرة آنذاك، حيث وثّقها لنا في كتاب رحلته، كثيراً من أحاديث النبيﷺ، وزار الكثير من المؤسسات العلمية من مدارس ومساجد وربط وخانقاوات وزوايا، وتجاوزها إلى بيوت العلماء وحوانيتهم، ولم يتردد عن زيارتهم في أماكنهم الخاصة والأخذ عنهم، وهذا ما يبرز أهمية هذه الرحلة المدونة، التي جعلت من ابن رشيد شاهداً على الحركة الفكرية في البلدان التي مر بها في النصف الثاني من القرن السابع الهجري = الثاني عشر الميلادي، ولاسيما مصر التي تجوّل فيها كثيراً، وكتب عنها وعن علمائها تفصيلاً، وزار مراكزها العلمية، في طريق الذهاب، ثم عند إيابه إلى بلده، فجاءت المعلومات أوثق.

وقد ذكرت العلماء الذين لقيهم ابن رشيد وأخذ عنهم، في مصر والإسكندرية وتونس والحجاز وروداً وصدوراً فقد تجدد لقاؤه بكثير من العلماء الذين كان قد لقيهم عند الورود.

وتزخر هذه الرحلة بكثير من الوثائق العلمية المهمة، ففيها كثير من الإجازات العلمية، والأحاديث النبوية، وفيها مادة فقهية وأخرى أدبية، وفيها ذكر لعدد كبير من الكتب العلمية.

أما الإجازات فهي كثيرة، حيث أجاز لابن رشيد عدد من علماء الأمصار التي زارها، وذكر ابن رشيد نصوص تلك الإجازات ونوع العلم المجاز له فيها(٤٩). وسمع ابن رشيد مئات الأحاديث، ودونها بأمانة، فذكر سند الحديث برواته متصلاً إلى النبي ﷺ، وروى أحاديث قدسية وأحاديث قولية وفعلية عن رسول الله ﷺ، فضلاً عن الآثار الواردة عن الصحابة الكرام من أقوال وأفعال(٥٠).

واشتملت الرحلة على مادة فقهية غنية متنوعة، ومنها الفقه المستخلص من الأحاديث الكثيرة، بالإضافة إلى المادة الفقهية الخاصة بمناسك الحج منذ دخول الأراضي المقدسة، من ذكر زمزم ومنى وعرفة ورمي الجمار والنبح والحلق والطواف، إلى زيارة المسجد النبوي وزيارة الصحابيين أبي بكر وعمر، وزيارة البقيع(٥١).

وذكر مئات المؤلفات في مختلف أنواع العلوم والفنون، في الحديث وعلومه، وفي علم القراءات، وعلم التفسير، وأصول الفقه، وعلوم اللغة العربية، والأدب والشعر، والمعاجم، والتاريخ والسيرة النبوية، والفلك(٥٢).

ونقف في هذه الرحلة على مادة شعرية غزيرة، حتى إن أحدهم وصف مجلدات ملء العيبة بأنها «ديوان كبير لم يسبق إلى مثله»(٥٣)، ويدل ذلك على ولع ابن رشيد بالشعر، وقد ارتجل هو نفسه شعراً في غير ما موضع، ومن ذلك قوله:

إذا نال من عرضي حسود يغض بي ... فأجزيه إعراضاً يزيد شجاه

أزيد على الإغضاب حلماً كعنبر ... يزيد على الإحراق طيب شذاه(٥٤)

وقوله:

ومرعى خصيب في جديب ربوعها ألا فاعجبوا للخصب في منزل جدب[٥٥]

كما روى كثيراً من الأشعار عن غيره من الشعراء، فتارة كان يذكر مقتطفات، وتارة أخرى يروي قصائد بأكملها[٥٦]، ويضاف إلى ذلك المادة الأدبية الجمَّة المتمثلة بالنصوص والحكم وأقوال الأدباء والفقهاء والعلماء والخلفاء والأمراء وما شابه ذلك[٥٧].

وبما أن أحد أهداف رحلة ابن رشيد كان علمياً، فقد تردد إلى الكثير من المراكز العلمية في المدن والمناطق التي مر بها، وشهد نشاطها الفكري، وشارك في فعالياتها في كثير من الأحيان، فذكر لنا المراكز العلمية التي وصل إليها في مصر وأفاد منها، وهي: الجامع الأزهر، وجامع ابن طولون، جامع عمرو بن العاص؛ الذي شاهد فيه حلقات دراسية، وقرأ فيه على العلماء وأجازوه، ودار الحديث النبيهية بالإسكندرية؛ وقرأ فيها الحديث على الغرافي، والمدرسة الفاضلية، والمدرسة الكاملية، والمدرسة الزكوية، ومدرسة الأبزاري، والمدرسة الظاهرية، ومدرسة الحديث الكاملية، والمدرسة الطيبرسية، ودرس في جميع هذه المدارس على علمائها ومدرّسيها، والمدرسة الصالحية؛ التي التقى فيها بمحمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد القشيري؛ وقد حفّ به جمع من الطلاب، والرباط الجمالي، والرباط الناصري، والمشهد الحسيني، والتقى بالمكين الأسمر وبالقماح في حوانيتهم[٥٨].

ولم يكن الجانب الجغرافي الذي عهدناه في كثير من الرحلات ذا أهمية بالغة في هذه الرحلة؛ لأن اهتمام رحّالتنا كان منصبّاً على الجانب العلمي، فقد كان يبحث عن الرواية والاتصال بالعلماء والقراءة عليهم والسماع منهم والحصول على الإجازات الخاصة والعامة[٥٩]؛ ومع ذلك يمكننا أن نرصد القليل من الجوانب الجغرافية، وذلك عند ذكر ابن رشيد للأماكن التي كان ينزل بها أو يصل إليها، ووصفه لجبل عرفة والكعبة المشرفة[٦٠].

ونلاحظ من خلال هذه الرحلة أن ابن رشيد كان يتحرى الدقة العلمية؛ فهو لم يذكر حديثاً أو شعراً أو رواية إلا سلسل للباحث سند الرواة حتى يصل إلى أصحابها؛ ولاسيما عند ذكره لأحاديث النبي ﷺ، ويضاف إلى ذلك تحرّيه الدقة في الأخبار، وتوثّقه من صحيحها وضعيفها،

والأمثلة على ذلك عديدة؛ نذكر منها أنه لم يلتق عن أحد المشايخ إلا حديثاً واحداً، وعلل ذلك بقوله: «وهو شيخ في أخلاقه شكاسة وكبر وعدم فهم»[٦١]، وفي موضع آخر يقول: «قوله سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة غلط، وإنما هو إحدى وثمانون، نصّ عليه غير واحد»[٦٢].

وعلّق على مجموعة من الأحاديث فقال: «أكثر هذه الأحاديث التي أوردها ضعيفة وبعضها بحيث لا يعرج عليه، وإن صحّ بعضها فمن طرق غير هذه»[٦٣]، وعن دقّة تدوينه للأحاديث قال: «هذا أول حديث في الجزء، وسمعت عليه الجزء بجملته، وذلك في رابع شهر صفر وجدته في موضع آخر خامس صفر ... وعين اليوم بأنه الاثنين ... فإذا كان الاثنين فهو الرابع لا محالة، لأنا رأينا الهلال ليلة الجمعة، والظاهر أن تاريخ المصريين كان مخالفاً لرؤيتنا»، ثم يذكر: «ولم أستطع كتبه لرمد أصابني في الصحراء، منّ الله بالشفاء منه، فعلّقت منه هذا الحديث وأنا شاك»[٦٤].

وكان ابن رشيد حريصاً على ذكر تواريخ مسيره، فذكر مثلاً تاريخ رحيله من الإسكندرية ووصوله إلى مصر، وذكر تاريخ خروجه من دمشق متوجهاً إلى مدينة النبي ﷺ، وذكر تاريخ وصوله إلى مصر عند الصدور ونزوله بها[٦٥].

٤ــ ابن رشيد وابن بطوطة:

تُظهر رحلة ابن رشيد أحوال البلدان التي مرّ بها في النصف الثاني من القرن السابع الهجري = الثالث عشر ميلادي، في حين تُظهر رحلة ابن بطوطة أحوال البلدان التي مرّ بها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري = الرابع عشر ميلادي، ومن الممكن القول إن الرحلتين تكملان بعضهما زمنياً، وتقدمان للباحث ــ إن غاص في أعماقهما ــ صورةً عن الأحوال العلمية في مصر؛ وهذا ما يهمنا هنا من هاتين الرحلتين، وقد أشرت إلى هذا في مواضع عديدة ومتفرقة من هذا البحث.

وإذا أردنا المقارنة بين أهداف الرحّالتين في رحلتيهما؛ نجد أنهما التقيا في الجانب الديني، وتباينا في الجانب العلمي، فقد أراد ابن بطوطة تحقيق هدفين، الأول ديني يتمثل في زيارة الأماكن

المقدسة وأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ [٦٦]، والثاني استكشافي علمي؛ أي أنه لم يكن علمياً بحتاً، وإنما قام ابن بطوطة بمسح ما يستطيع من العالم وساعده على ذلك ما اتصف به من شدة الملاحظة، فكان يصف كل ما يشاهد، وكان اتصاله بالعلماء اتصالاً عادياً وسطحياً.

ونشد ابن رشيد في رحلته تحقيق هدفين أيضاً؛ الأول ديني أيضاً وهو تأدية فريضة الحج وزيارة مكة والمدينة[٦٧]، والثاني علمي وهو الجانب المهم في رحلته، فلئن كان ابن بطوطة قد ركّز على المشاهدات والأماكن والعادات والتقاليد والطقوس والأعياد وما شابهها، فإن ابن رشيد قد وجه اهتمامه إلى الاتصال بالعلماء والحفّاظ والمحدّثين والمسندين والأخذ عنهم، فحفلت مجلدات رحلته بتراجم كثيرة لمن لقي من العلماء، وبالإجازات والأحاديث والكتب العلمية وزيارة المؤسسات العلمية، فاتصال ابن بطوطة بالعلماء قليل جداً مقارنة باتصالات ابن رشيد، ولم يهتم ابن بطوطة بذكر الإجازات والكتب العلمية؛ فكان يكتفي بذكر أسماء العلماء وألقابهم وبعض صفاتهم، بينما كان ابن رشيد يستفيض في الترجمة فيهم، مع ذكر علومهم ورواياتهم في الحديث النبوي ومكانتهم العلمية.

ونستطيع القول إن ابن بطوطة كان جغرافياً بالدرجة الأولى، ويشهد على ذلك المستشرق الجغرافي الروسي كراتشكوفسكي، حيث يقول: «ومهما اختلفت الآراء فيه ـ يعني ابن بطوطة ـ فإنه من المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية، أي أنه لم يكن ناقلاً اعتمد على كتب غيره، بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيراً من الأقطار، و قد جاوز تجواله مقدار مئة وخمس وسبعين ميلاً»[٦٨]. و في المقابل يمكن القول إن ابن رشيد كان صاحب منهج علمي من الدرجة الأولى في رحلته.

ومن المهم الإشارة إلى عمر الرحّالتين عندما خرجا في رحلتيهما؛ لم يزد ابن رشيد على سبعة وعشرين عاماً، (ولد عام ٦٥٧هـ = ١٢٥٨م، وارتحل عام ٦٨٣هـ = ١٢٨٤م)، وكذلك بدأ ابن بطوطة رحلته في ريعان شبابه، (ولد عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٣م، وارتحل عام ٧٢٥هـ = ١٣٢٤م)، فهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، وبما أن الرحلة تتطلب قوة الجسم

والإرادة فهذا متوافر في هذه السن.

وبالحديث عن خط مسير الرحّالتين نجد أن الطريق كان موحداً في بداية المسير بين الاثنين، ولكنهما يفترقان بعد الأراضي الحجازية، فبينما تابع ابن بطوطة رحلته الطويلة، عاد ابن رشيد من الطريق نفسه الذي سلكه في الذهاب.

خرج ابن رشيد من مسقط رأسه سبته في المغرب العربي عام ٦٨٣هـ =١٢٨٤م، ثم أقام بالمرية، ثم توجه إلى تونس عن طريق بجاية، وتحول منها إلى الإسكندرية ثم مصر والقاهرة التي بلغها في رجب من عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥م، ومنها انتقل إلى دمشق والبلاد الشامية متوجهاً عن طريقها إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة، وبعد قضائه للمناسك رجع ابن رشيد إلى ديار مصر والإسكندرية مرة ثانية في عام ٦٨٥هـ = ١٢٨٦م، ومنها ركب البحر إلى طرابلس الغرب فالمهدية في ديار إفريقية في ربيع الأول من ذلك العام، و بلغ تونس في ربيع الثاني، وأقام فيها إلى أن اتجه إلى بونه ومنها إلى مالقة ورندة والجزيرة الخضراء حتى انتهى إلى سبتة في جمادى الثانية عام ٦٨٦ هـ = ١٢٨٧م(٦٩).

وخرج ابن بطوطة من طنجة مبتدئاً رحلته في يوم الخميس من شهر رجب عام ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥م، وسلك طريقاً يمر بتلمسان ومليانة والجزائر وقسنطينة وسوسة وصفاقس وطرابلس ومسراته وسرت حتى وصل الإسكندرية، ومن الإسكندرية سار إلى القاهرة وانتقل منها إلى الصعيد ثم عاد إلى القاهرة، ثم سافر منها إلى الشام وفلسطين، ثم إلى عرفات حيث وقف فيه عام ٧٢٦ هـ = ١٣٢٦م، ومن مكة اتجه نحو العراق وزار بلاد الأعاجم قبل أن يقوم بحجته الثانية في عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧م، وبعد إقامته عامين في مكة سافر في رحلة جديدة عام ٧٢٩هـ = ١٣٢٩م من جدة إلى جنوب الجزيرة العربية، ومن هناك إلى إفريقيا الشرقية، وعاد منها إلى الخليج العربي، وقصد مكة مرة ثالثة، ثم زار آسيا الصغرى وبلاد القرم وتركيا وأقام في القسطنطينية، ومن هناك ركب البحر الأسود إلى مرسى سينوب، ثم عبر الفولجا إلى جنوب روسيا.

وبعد ذلك أقام في خوارزم وبخارى وسمرقند وترمذ وتجول في أفغانستان، ثم وصل إلى الهند وأقام فيها عامين، ثم سافر إلى جزر نيبة (المالديف) ثم اتجه إلى جزيرة سرنديب (سيلان – سريلانكا) ثم إلى الهند، ثم إلى جزيرة سومطرة قبل أن يسافر إلى الصين، ثم عاد ابن بطوطة إلى الجزيرة العربية عن طريق سومطرة، ونزل بظفار عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧م، و بعد رحلة في مصر والشام قام بحجته الرابعة، ثم عاد إلى بلده مخترقاً بلدان الشمال الإفريقي، ودخل فاس في شعبان عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩م، و بعد أن أقام فيها مدة رجع إلى الأندلس، وبعد إقامة قصيرة رجع إلى بلدان السودان حتى وصل إلى ضفاف نهر النيجر، وهناك وصل إليه أمر السلطان يدعوه فيه إلى العودة لبلده، و لما استقر به المقام في فاس أمر بكتابة رحلته[٧٠].

وبذلك تكون رحلة ابن بطوطة أوسع صقعاً وأطول زمناً من رحلة ابن رشيد التي شملت بقعة معينة واستمرت زمناً قصيراً مقارنة برحلة ابن بطوطة.

عندما وصول ابن رشيد مصر كانت تحت حكم السلطان المنصور قلاوون، بينما كانت عندما وصلها ابن بطوطة تحت حكم ابنه الناصر محمد بن قلاوون، وتميز ابن بطوطة من ابن رشيد بأنه قدم لنا شيئاً من سيرة الناصر محمد وعدداً من إنجازاته الكثيرة[٧١]، ويتشابه الرحّالتان بأنهما دخلا مصر في أزهى أيامها في عصر المماليك، فكلا العصرين – عصر قلاوون وعصر ابنه الناصر محمد – كان عصر ازدهار وقوة ورقي لما قام به الاثنان من أعمال جليلة، ولما تحقق في عصريهما من انتصارات مهمة.

وفيما يتعلق بكتابة كل من الرحلتين، فإن ابن رشيد قد كتب رحلته بنفسه[٧٢]، وأما ابن بطوطة فإنه لم يكتب شيئاً من رحلته، وإنما الذي حدث أن السلطان أبا عنان[٧٣] طلب منه سرد أحداث رحلته؛ وأوكل مهمة تدوينها إلى ابن جزي الأديب[٧٤]، ويبدو أن هذا الأمر كان السبب في الشك في مصداقية رحلة ابن بطوطة.

٥ـ ابن رشيد و البلوي:

تبين لنا أن رحلة ابن رشيد تُظهر أحوال البلدان التي مرّ بها في النصف الثاني من القرن السابع الهجري = الثالث عشر ميلادي، وأما رحلة خالد بن عيسى البلوي (كان حياً عام ٧٤٠هـ = ١٣٣٩م) المسماة «تاج المفرق» فإنها تُظهر أحوال البلدان التي زارها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري = الرابع عشر ميلادي[٧٥]، أي أنها جاءت متزامنة تقريباً مع رحلة ابن بطوطة.

ويتفق البلوي مع ابن رشيد في هدف الرحلة، فالهدف العلمي كان واضحاً في رحلة البلوي، كما في رحلة ابن رشيد، يشهد على ذلك شغف البلوي بلقاء كبار علماء الحديث والأدب، وتعرفه عليهم واتصاله بهم وأخذه عنهم، مع ذكره لأسمائهم وألقابهم ومصنفاتهم، ونسخه لعدد من كتبهم، وهذا يؤكد أنه كان طالب علم ومعرفة[٧٦].

ويلتقي الرجلان كذلك في الهدف الديني، فكما أراد ابن رشيد زيارة مكة والمدينة وتأدية فريضة الحج، كذلك رحل البلوي لتأدية فريضة الحج[٧٧]، وبذلك امتزج الهدفان العلمي والديني في كلتا الرحلتين، وهذه سمة من سمات العصور الإسلامية حيث كان يرتبط طلب العلم بأركان الدين.

وأما عمر البلوي عندما بدأ رحلته فكان يقارب الثالثة والعشرين، (ولد كان عام ٧١٣هـ = ١٣١٣م تقريباً، وبدأ رحلته عام ٧٣٥هـ = ١٣٣٤م)[٧٨]، وعمره هذا يقارب عمر ابن رشيد وعمر ابن بطوطة عند خروجهما في رحلتيهما، وهذا ما يؤكد أهمية أن يكون الرحّالة في مقتبل عمره وفي ريعان شبابه ليحتمل مشاقّ الرحلة الطويلة.

بدأت رحلة البلوي من خروجه من بلده قتورية في يوم الأحد السابع من جمادى الأولى عام ٧٣٥ هـ = ١٣٣٤م، ثم وصل إلى الجزائر، ثم تونس التي غادرها في ١٧ربيع الثاني عام ٧٣٧ هـ = ١٣٣٦م، ومرّ في عدة مدن حتى وصل إلى الإسكندرية فالقاهرة التي دخلها في ١٣ رجب عام ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م، ثم خرج من القاهرة في ٢٨ رجب من العام نفسه إلى

مدن فلسطين، ثم وصل إلى المدينة المنورة، وخرج منها إلى أن وصل إلى مكة المكرمة في ٥ ذي الحجة عام ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م، ثم قفل راجعاً ثانية إلى المدينة المنورة، ثم إلى مدن فلسطين، ثم إلى مصر والإسكندرية، ثم غادرها في شوال عام ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م، ومرّ بتونس ثم الجزائر عام ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩م، إلى أن بلغ بلده قنتورية(٧٩).

وهكذا فقد مرّ البلوي في كثير من البلدان التي مرّ فيها ابن رشيد، وتقاربت المدة التي استغرقتها رحلتاهما. وكتب البلوي ـ كما فعل ابن رشيد ـ رحلته بنفسه، ثم تناقلها الناس عنه، ثم بدا له أن يكتبها مرة ثانية، وعرضها على أصدقائه من العلماء فقرظوها، ثم احتفظ بها حفيده ونشرها من جديد(٨٠). وتقدم أن المنصور قلاوون كان يحكم مصر عند وصول ابن رشيد إليها، في حين كان يحكمها ابنه الناصر محمد عند وصول البلوي إليها(٨١)، وهو من كان يحكمها أيضاً عندما وصل إليها ابن بطوطة.

وبالإضافة إلى هذه الاتفاقات الكثيرة بين الرحّالتين، فإنهما اتفقا كذلك في الدقة والأمانة، فقد تميز البلوي بالاهتمام بالرواية، إذْ كان حريصاً على ذكر الرواة المشهورين بالصدق والأمانة، ولذلك فهو يسلسل السند حتى يرجع بالمرويّ إلى الأصل، ويعتمد على فن الرواية في أخذه للحديث وأخذه للقراءات وروايته الشعر، ولذلك كله كانت رحلته ذات قيمة كبرى من الناحية التاريخية والأدبية والاجتماعية والعلمية فقد كان يسجل مذكراته بضبط تام ودقة، ولا يعتمد على ذاكرته بذلك(٨٢).

فهذه رحلة ابن رشيد وما حفلت به من مشاهد علمية ودينية، أعطتها أهمية كادت تفوق أهمية رحلة ابن بطوطة، فهي تحتاج منّا إلى وقفات مطولة توازي أهميتها في أدبنا الديني والعلمي.

حواشي البحث

(١) **سورة الجمعة** : الآية (١٠) .

(٢) انظر كراتشكوفسكي (إغناطيوس): **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر. صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م، ص: ٥٠٧. مقبل(فهمي): دور العرب في اكتشاف العالم الجديد: دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م: ٣٥-٤٧. جوهر (دلال): جغرافية العالم الإسلامي، دمشق، مطبعة الصباح، ١٩٩٢م، ص: ١٤، ١٥. كحالة(عمر): **التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية**، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٩٧٤م،ص٢١٥، ٢١٦.

(٣) كراتشكوفسكي: المرجع المتقدم، ص: ٣٩٨.

(٤) ابن الخطيب (محمد بن عبد الله): **الإحاطة بأخبار غرناطة**، تح: محمد عبد الله عنان، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة، ط٢، ١٩٧٣م، ج١، ص:٥٠٠، ٥٠٢. وانظر حاجي خلفية (مصطفى القسطنطني): **كشف الظنون**، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م، ج٥، ص: ٣٤٣، كحالة: **معجم المؤلفين**، بيروت، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص: ٦٦٨.

(٥)ابن بطوطة (محمد بن عبد الله): **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار)**، تح: عبد الهادي النازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م، ج١، ص: ١٦٩ وما بعدها. وانظر كراتشكوفسكي: المرجع المتقدم، ص: ٤٥٦، ٤٥٧.

(٦)ابن خلدون (عبد الرحمن): **تاريخ ابن خلدون مع المقدمة**، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٨م، ص: ٢٢٧، ٢٢٨.

(٧) كراتشكوفسكي: المرجع المتقدم، ص: ٤٠٠. وقد حاولت كثيراً أن أحظى بكتاب هذه الرحلة ولم أوفق لذلك.

(٨) انظر الصفدي: (خليل بن أيبك): **أعيان العصر وأعوان النصر**، تح: محمد أبو زيد وآخرون، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.، وابن حجر: (أحمد بن علي): **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م.

(٩) ابن خلدون: **المقدمة**، ص٧٤٤.

(١٠) انظر الكتبي: (محمد بن شاكر): **فوات الوفيات**، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج٤، ص٧١ـ ٧٩، ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٥، ص٧٠ـ ٧٦.

(١١) انظر ابن حجر: **إنباء الغمر بأبناء العمر**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦م، ج٥، ص٣٢٧ـ ٣٣٢، السخاوي: (محمد بن عبد الرحمن): **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، بيروت، دارمكتبة الحياة، ج٤، ص١٤٦.

(١٢) اليونيني (موسى بن محمد): **ذيل مرآة الزمان**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢م، ج٤، ص١٤٩، ١٥٠.

(١٣) الكتبي: **فوات الوفيات**، مج١، ص١١٠، ١١١.

(١٤) ابن شطي: **مختصر طبقات الحنابلة**، ص٥٩، ٦٠.

(١٥) المقري التلمساني: (أحمد): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شرح وضبط وتعليق مريم الطويل، يوسف طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٥م، ج٢، ص٤٢٠، ٤٢١، وانظر الصفدي: المصدر المتقدم، ج٢، ص١٢٢، وابن العماد: المصدر المتقدم، مج٧، ص٥٨٤، ٥٨٥.

(١٦) المقري التلمساني: المصدر المتقدم، ج٢، ص٤٣٢ـ ٤٣٥، ابن العماد: (عبد الحي أحمد): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م ، مج٧، ص٥٩٠، ٥٩١.

(١٧) انظر مصطفى (شاكر): **مدينة للعلم**، آل قدامة والصالحية، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩٧م، ص٧، ٦٤ــ ٦٦.

(١٨)الصفدي (خليل بن أيبك): **الوافي بالوفيات**، اعتناء هلمــوت ريتــر، دار فرانــز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م، ج٤، ص: ٢٨٤، ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج ٣، ص: ١٣٥.

(١٩) ابن الخطيب: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ١٤٣، ابن حجر: **الدرر الكامنــة**، ج٤ ص: ٢٢٩، ٢٣٠، السيوطي (عبد الرحمن): **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى، ط١، ١٩٦٤م، ج ١، ص: ١٩٩.

(٢٠) ابن الخطيب:المصدر المتقدم، ج ٣، ص: ١٣٦، ابن فرحــون (إبــراهيم): **الــديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تح: محمد الأحمــدي، القــاهرة، دار التراث، ج ١، ص: ٢٩٧.

(٢١) الصفدي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص: ٢٨٤، ٢٨٥، ابن حجر: المصدر المتقــدم، ج ٤، ص: ٢٣٠.

(٢٢) ابن الخطيب: المصدر المتقدم، ج ٣، ص: ١٣٧، ابن فرحون: المصدر المتقــدم، ج ١، ص: ٢٩٧.

(٢٣) ابن الخطيب: المصدر المتقدم، ج ٣، ص: ١٤٣، ابن فرحون: المصدر المتقــدم، ج ١، ص: ٢٩٨، السيوطي: المصدر المتقدم، ج١، ص: ٢٠٠.

(٢٤) ابن الخطيب: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ١٣٦.

(٢٥) السيوطي: بغية الوعاة، ج٢، ص: ١٢٥، ١٢٦.

(٢٦)ابن رشيد (محمد بن عمر): **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبــة فــي الوجهــة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، تح: محمد الحبيب بن خوجة، تونس، الشركة

التونسية للتوزيع، ١٩٨١م، ج٥، ص: ٢٣٣، الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، دار إحياء التراث العربي، ج ٤، ص: ١٤٧٤، السبكي (عبد الوهاب بن علي): **طبقات الشافعية الكبرى**، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، **الجيزة**، هجر للطباعة، ط٢، ١٩٩٢م، ج ٨، ص ١٨، ١٩.

(٢٧) ابن رشيد: المصدر المتقدم،ج٢، ص: ٢٠٩، السيوطي: المصدر المتقدم، ج١، ص: ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢٨) ابن رشيد: المصدر المتقدم، ج٣، ص: ١٠٧، الذهبي (محمد بن أحمد): **العبر في خبر من غبر**، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م، ج٥، ص: ٣٨٩، ابن العماد: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، مج٧، ص: ٧٧٢.

(٢٩) ابن رشيد: المصدر المتقدم، ج ٥، ص: ٣٢٥، الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج ٤، ص: ١٩٣ـ ٢٠٩، السبكي: **طبقات الشافعية**، ج ٩، ص: ٢٠٧ـ ٢٤٩.

(٣٠) ابن رشيد: المصدر المتقدم، ج٣، ص: ٥٣، الذهبي: **معجم شيوخ الذهبي**، تح: روحية السيوفي، بيروت، دار الكتب العلمية،ط١، ١٩٩٠م، ص: ٣٥٦، ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج ٣، ص: ٨٥، ٨٦.

(٣١) ابن رشيد: المصدر المتقدم، ج ٥، ص:٢١، ابن حجر: المصدر المتقدم، ج ٣، ص: ٣٠١، ابن العماد: المصدر المتقدم، مج ٨، ص: ٥٢.

(٣٢) ابن رشيد: المصدر المتقدم، ج ٣، ص: ٢٧، ابن الجزري (محمد بن محمد): **غاية النهاية في طبقات القراء**، نشره ج برجستراسر، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٣٣م، ج ١، ص: ٤٦٠، الذهبي: **العبر**، ج ٥، ص: ٣٧٦.

(٣٣) للاطلاع على مزيد من العلماء الذين تعلم عليهم ابن رشيد انظر **رحلته ملء العيبة**، ج٢، ص: ١٢٧، ١٧٣، ٢٠٩، ٢٩٥، ٣٢١، ٢٧٧، ج٣، ص: ١٥، ٢١، ٢٧، ٩٩، ١٠٧، ١٣٧، ج٥، ص: ٢١، ٢٦، ٣٧، ١٤٥، ٢٣٣، ٢٠٥، ٣٣٥.

(٣٤) ابن الجزري: **غاية النهاية**، ج٢، ص: ٢١٩.

(٣٥) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص: ٢٨٥.

(٣٦) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص ٢٣٠.

(٣٧) ابن فرحون: **الديباج المذهّب**، ج١، ص: ٢٩٧.

(٣٨) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٣، ص: ١٣٥، ١٣٦. وانظر القول نفسه مع بعض الاختلافات البسيطة عند ابن فرحون: المصدر المتقدم، ج١، ص: ٢٩٧، ٢٩٨.

(٣٩) الصفدي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص: ٢٨٥، ابن الخطيب: المصدر المتقدم، ج٣، ص ١٣٧.

(٤٠) الصفدي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص: ٢٨٥، حاجي خليفة: **كشف الظنون**، ج٦، ص ١٤٤.

(٤١) ابن حجر: المصدر المتقدم، ج٤، ص: ٢٣٠، حاجي خليفة: المرجع المتقدم، ج ٦، ص١٤٤.

(٤٢) الصفدي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص: ٢٨٥.

(٤٣) حاجي خليفة: المرجع المتقدم، ج٦،ص: ١٤٤.

(٤٤) الصفدي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص: ٢٨٥، ابن حجر: المصدر المتقدم، ج٤، ص ٣٠.

(٤٥) ابن حجر: المصدر المتقدم، ج ٤، ص: ٢٣٠، والقول للذهبي ونقله ابن حجر.

(٤٦) الصفدي: المصدر المتقدم، ج٤، ص: ٢٨٥.

(٤٧) الصفدي: المصدر المتقدم، ج٤، ص: ٢٨٥.

(٤٨) ابن الخطيب: المصدر المتقدم، ج ٣، ص: ١٣٦.

(٤٩) انظر عن هذه الإجازات ابن رشيد: **ملء العيبة**، ج ٢، ص: ٤١٩ــــ ٤٢٦، ج٣، ص: ٧، ١٥، ١٩، ٢١، ٢٧، ٣٧، ٤٣، ٥٧، ٩٩، ١٩١، ٢٦٧، ٢٨٣، ٢٨٧، ج٥، ص: ٢١، ٤٢، ٦٦، ١٨٥، ١٨٦، ٢٣٤، ٢٣٧، ٣٣١، ٣٨١.

(٥٠) انظر عن ذلك المصدر المتقدم نفسه، ج٣، ص: ٣٢، ٥٩، ٦٠، ٦٦، ٦٧، ٧٧، ٨١، ٨٣، ٨٦، ١٠٣، ١١٢، ١١٥، ١١٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٤١، ١٤٧، ١٦٩، ١٧١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٩، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٨، ٢٧٩، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٢٨، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٣٩، ٤٥٥. ج٥، ص: ٢٤، ٣٢، ٤٤، ٥١، ٦٠، ٦٧، ١١٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ٢٢٦، ٢٥٦، ٢٨٨٠، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣١١، ٣٩٠.

(٥١) انظر عن المادة الفقهية الحاشية المتقدمة، والمصدر المتقدم نفسه، ج ٥، ص: ١٦، ١٨، ١٩، ٨٦، ٨٧، ١٠٤، ١٢٦.

(٥٢) انظر عن مختلف أنواع هذه الكتب العلمية المصدر المتقدم نفسه، ج٢، ص: ١٠٤، ٢٤٨،٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٨، ٣١٢، ج٣، ص: ١٣، ٣١، ٦٠، ١٣١، ٢٠٠، ٢٤٠، ٢٧١، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٢٦، ٣٥١، ٣٥٣، ٤٢٦، ج٥، ص: ٩، ٣٤، ٤٨، ٥٦، ٦٦، ٨٩، ١٢٢، ١٣٤، ١٥٢، ١٥٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٣، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٥، ٣٤٣.

(٥٣) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٣، ص: ١٣٧.

(٥٤) ابن رشيد: **ملء العيبة**، ج ٣، ص: ٢٨٨.

(٥٥) المصدر المتقدم نفسه، ج ٣، ص: ٢٨٨.

(٥٦) انظر عن كل ذلك المصدر المتقدم نفسه، ج٢، ص: ١٠٩، ١١٠، ١١٩، ١٢١، ١٥٠، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٧، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٣٩، ٣٨٣، ج٣، ص: ٣٦، ١٣٣، ١٣٤، ٢٠٤، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٦٦، ٢٩٨، ٣٥٢، ٤٢٢، ج٥، ص: ١٢، ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٧٦، ٨٨، ١٢٦، ١٦٦، ١٦٨، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٤٥، ٢٤٨، ٣٢٦، ٣٦٠، ٣٦٧.

(٥٧) انظر عن كل ذلك المصدر المتقدم نفسه، ج ٣، ص: ٤٢، ٥٦، ٧٤، ١٠٤، ١٠٥، ١٣٢، ٢١٦، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٩٧، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٢، ٤١٣، ٤٤٦.

(٥٨) انظر عن كل ذلك المصدر المتقدم نفسه، ج٣، ص: ١٤، ٢٧، ٥١، ٧٨، ٨٢، ٩٩، ١٠٤، ١٠٨، ١٩١، ٢٢١١، ٢٤٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٩٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٣١، ٣٧٤، ٣٨١، ٤٠٥، ٤١٩، ٤٢٥.ج٥، ص: ٣٠٦، ٣١٩، ٣٤٣، .٣٤٤.

(٥٩) انظر المصدر المتقدم نفسه ج٣، ص: ٢٤، ٢٥.

(٦٠) المصدر المتقدم نفسه ج٥، ص: ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٠٥.

(٦١) المصدر المتقدم نفسه ج٣، ص: ٧.

(٦٢) المصدر المتقدم نفسه، ج٣، ص: ٧٩، ٨٠

(٦٣) المصدر المتقدم نفسه، ج٣، ص: ٦٤.

(٦٤) المصدر المتقدم نفسه، ج ٥، ص: ٢٨٧.

(٦٥) المصدر المتقدم نفسه، ج٣، ص: ٩٥، ٩٩، ج٥، ص: ١، ٢، ٣، ٢٨٤.

(٦٦) ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة**، ج١، ص: ١٥٣.

(٦٧) ابن رشيد: **ملء العيبة**، ج٥، ص: ١ وما بعد

(٦٨) كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ص: ٤٥٦.

(٦٩) ابن رشيد: المصدر المتقدم، ج٢، ص: ٣٢.

(٧٠) العربي (إسماعيل): **تاريخ الرحلة والاستكشاف**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٥٥، ٥٦، حسن (زكي): **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، بيروت، دار الرائد، ١٩٨١م، ص ١٤١، ١٧١.

(٧١) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ج ١، ص: ٢١٠، ٢١٢.

(٧٢) انظر ابن رشيد: المصدر المتقدم، ج٢، ص: ٣١، ٣٥.

(٧٣) السلطان أبو عنان بن السلطان أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد بن السلطان يعقوب بن عبد الحق، كان مهتمًا بالعلم والبلاغة والخط، وله إنجازات كثيرة، توفي عام ٧٥٩ هـ = ١٣٥٨م. انظر ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٢، ص: ١٨ ـ٢٣.

(٧٤) محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي، شاعر وكاتب وأديب، ولد بغرناطة ونشأ فيها، ثم انتقل إلى المغرب. انظر ابن الخطيب: المصدر المتقدم ج٢، ص: ٢٥٦ ـ ٢٦٥، ويبدو أن شهرته الأدبية هي التي دفعت السلطان كي يختاره لتدوين رحلة ابن بطوطة. وانظر ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ج ١، ص: ١٥١، ١٥٢.

(٧٥)البلوي (خالد): **تاج المفرق**، تح: الحسن السائح، ج١، **المقدمة** ص: ٥٣.

(٧٦) المصدر المتقدم نفسه، ج ١، **المقدمة** ص: ٥٨، ٥٩.

(٧٧) المصدر المتقدم نفسه، ج١، **المقدمة** ص: ٤٥

(٧٨) المصدر المتقدم نفسه، ج١، **المقدمة** ص: ٥٣.

(٧٩) المصدر المتقدم نفسه، ج١، **المقدمة** ص: ٥٣.

(٨٠) المصدر المتقدم نفسه، ج١، **المقدمة** ص: ٤٦، ٥٩.

(٨١) المصدر المتقدم نفسه، ج ١، **المقدمة** ص: ٤٧، ٥٣.

(٨٢) المصدر المتقدم نفسه، ج ١، **المقدمة** ص: ٤٦، ١٠١.

مصادر ومراجع البحث

١. ابن بطوطة (محمد بن عبد الله): رحلة ابن بطوطة، تح: عبد الهادي النازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م.

٢. ابن الجزري (محمد بن محمد): غاية النهاية في طبقات القراء، نشره ج برجستراسر، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٣٣م.

٣. ابن حجر (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م.

٤. ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦م.

٥. ابن الخطيب (محمد بن عبد الله): الإحاطة بأخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة، ط٢، ١٩٧٣م.

٦. ابن خلدون (عبد الرحمن): تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٨م.

٧. ابن رشيد (محمد بن عمر): ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تح: محمد الحبيب بن خوجة، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨١م.

٨. ابن العماد (عبد الحي أحمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م.

٩. ابن فرحون (إبراهيم): الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي، القاهرة، دار التراث.

١٠. البلوي (خالد): تاج المفرق، تح: الحسن السائح.

١١. جوهر (دلال): جغرافية العالم الإسلامي، دمشق، مطبعة الصباح، ١٩٩٢م.

١٢. حاجي خلفية (مصطفى القسطنطني): كشف الظنون، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م.

١٣. حسن (زكي): الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد، ١٩٨١م.

١٤. الذهبي (محمد بن أحمد): العبر في خبر من غبر، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م.

١٥. الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي.

١٦. الذهبي: معجم شيوخ الذهبي، تح: روحية السيوفي، بيروت، دار الكتب العلمية،ط١، ١٩٩٠م.

١٧. السبكي (عبد الوهاب بن علي): طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة، ط٢، ١٩٩٢م.

١٨. السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة.

١٩. السيوطي (عبد الرحمن): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى، ط١، ١٩٦٤م.

٢٠. الصفدي (خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م.

٢١. الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تح: محمد أبو زيد وآخرون، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.

٢٢. العربي (إسماعيل): تاريخ الرحلة والاستكشاف، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦م.

٢٣. فهمي (مقبل): دور العرب في اكتشاف العالم الجديد، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢٤. الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

٢٥. كحالة(عمر): معجم المؤلفين، بيروت، مؤسسة الرسالةط١، ١٩٩٣م.

٢٦. كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٩٧٤م.

٢٧. كراتشكوفسكي (إغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م.

٢٨. مصطفى (شاكر): مدينة للعلم، آل قدامة والصالحية، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩٧م.

٢٩. المقري التلمساني (أحمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شرح وضبط وتعليق مريم نطويل، يوسف طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٥م.

٣٠. اليونيني (موسى بن محمد): ذيل مرآة الزمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢م.

الإنكشارية، نشأتها، وماهيتها.

الدكتور عبد المنعم محمد الأحمد

جامعة دمشق

المقدمة:

لم تكن القبيلة الهائمة الباحثة عن مستقر لها، تملك جيشاً كما هو معروف، وإنما كانت القبيلة بكل قواها البشرية قطعة محاربين من الطفل إلى الشيخ المسن، ولم يكن عدد فرسانها المحاربين يزيدون عن أربعمائة وأربعين فارساً، يقاتلون أعداءهم، ونظراً لكثرة الصعاب التي تحيط بهم فرض عليهم التيقظ والحذر بصورة مستمرة، ولهذا كانوا يعقدون مجالسهم الشوروية على ظهور الخيول، ويتخذون قراراتهم القتالية حسب ظروف المواجهة ومتطلباتها، وبعدما تمكنوا من إثبات وجودهم والاستيلاء على مدينة قره حصار[١] أي (الحصار الأسود) ثم مدينة يكى شهر[٢] أي (المدينة الجديدة) ثم ازنيق[٣] ومدينة بورصه[٤] بدأت علائم قيام الدولة تتضح، وبدأ خلفاء عثمان من أورخان (١٣٢٤-١٣٦٢م) إلى مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م) بالتطلع إلى إنشاء جيش، لأن ما كانوا يجمعونه ويدربونه إضافة إلى المتطوعين الآخرين، لم يعد يفي بتحقيق أمانيهم التوسعية، والضامنة لإقامة دولة ذات كيان واضح ومعروف، فضلاً عما لديهم من قوات لا يمكّن السلطان الحاكم من مجاراة الواقع القتالي، فإنشاء فرقة الخيالة المسماة (الأقنجي) التي لم تختص بلباس مميز بها سوى الخضوع لنظام عسكري صارم،

وأسلحتها لا تتعدى قوس ونشّاب ومجن صغير ورمح خفيف وسيف قصير مرصع غالباً بالحجارة الكريمة، مقابل الأجر الزهيد والغنائم وإعفائها من الضرائب .

وكانت هذه القوات في أوقات السلم تعود لممارسة أعمالها الزراعية المعتادة. ولهذا فقد عمد السلطان أورخان إلى تعزيز الفرق الأربع (اليايا، المسلم، السباهية والأقنجي)، بعناصر قتالية أخرى جُمعت من الأسرى وأبناء المسيحيين، ومع مطلع القرن الخامس عشر بلغ تعداد القوى العسكرية (٢٠،٠٠٠)، وفيما بعد واظب السلاطين الذين تولوا العرش على تغذية هذا الجيش من خلال نظام الدوفشرمه (أي القطف أو الجمع)، وتضمّن هذا النظام (الدوفشرمه) إرسال لجان إلى المناطق المسيحية لجمع أبنائهم مما ينطبق عليه النظام(٥).

إن اعتماد السلاطين على تأسيس جيش بموجب نظام الدوفشرمه، أهلهم لتولي الريادة العسكرية في المناطق، وضمّن لهم الهيمنة، ومكّنهم من إلحاق الهزائم العسكرية وفرض سلطانهم ونفوذهم وتحقيق توسعات أرضية كبيرة، في حين أهملت الفرق الأربع من قبل السلاطين الذين وجهوا اهتماماتهم إلى القوات الإنكشارية التي شكلت الجيش العثماني بأجمعه وأطلق عليه اسم (الأوردى) أي الجيش المكون بموجب نظام الدوفشرمه . الذي أسفر عما يسمى بالإنكشارية(٦) أي الجندي الجديد (يني تشاري) .

وتفيد المصادر العثمانية أنه لم يكن لدى الأمير عثمان بك (١٢٨١-١٣٢٤) ولا ابنه أورخان (١٣٢٤-١٣٦٢) قوات عسكرية منظمة، وإنما القبيلة بمقاتليها وفرسانها مع قوات اليايا والمسلم والمتطوعين، كانوا أشبه بجيش، لأنه من الصعب الفصل في تلك المرحلة الحاسمة من حياة القبيلة ما بين العسكري والمدني ولاسيما في مجتمع محكوم تلقائياً بمبدأ العرف والتقاليد، لأن الأمور كلها أشبه بسديم تلفه النار من كل جانب .

وتؤكد المصادر العثمانية أن إطار الدولة تبلور مع فتح بورصه (Bursa) زمن أورخان، ومنذ ذلك التاريخ بدأت تتراءى عملية التمايز بين القوى العسكرية بأنماطها الأربع، والمُشكلة للقوات العثمانية المقاتلة وهي:

- **النمط الأول:** قوات العشائر، الألبيون (الفرسان).

- **النمط الثاني:** الطرق الصوفية، الدراويش.

- **النمط الثالث:** قوات العاصمة، المشاة.

- **النمط الرابع:** قوات الريف، الغرباء.

إن النمط العثماني الأول من القوات جيء بها من التنظيم العشائري لمجتمع البدائية المشاعية.

أما نمط الطرق الصوفية فهو من مخلفات ما قبل هذا التاريخ، لأن الطرق الصوفية خلال مرحلة نشأة الدولة العثمانية، كانت أشبه بمنظمات دفاعية سرية مغلقة، تأسست أصلاً لمقاومة الإقطاعي ومحاربته، وكان لها أتباع يعيشون عيشة أخوة وصحبة، ويحمل كل منهم اسم (الأخ) أو القالندري، وكانوا يجيدون حمل السيوف والرماح ويقاتلون في سبيل الله حتى الشهادة، وقد استفاد العثمانيون من تلك المنظمات، وتميزوا عن غيرهم بالتدافع إلى الشهادة.

أما نمط قوات العاصمة وقوات الريف منهما فهي من مخلفات التاريخ، أوفد إلى العثمانيين نتيجة المعطيات الحربية التي يفرضها عنصر القوة والمهابة، ولكن العثمانيين أخذوا الجديد منها، لأن واقعهم الحربي لا يحتمل المساومات العسكرية، إما مقاتل شرس وإلا لا مكان لك في محيط الدائرة القتالية الملتهبة(٧).

لقد قسم العثمانيون قواتهم بادئ الأمر إلى: مشاة وخيالة ومدفعية، وبما أن العثمانيين الأوائل لم يكن لديهم مدافع، فقد كلفوا عناصر المدفعية ولاسيما المشاة منهم بحماية الباديشاه (السلطان) والإحاطة به في أثناء المعركة، وحوّلت تلك القوات التي حملت لفظة يايا إلى الولايات باسم البيادة أي المشاة وكلفتها بحماية القلاع وشق الطرق.

وبالعودة إلى المصادر التي تفيد أن تشكيل الوحدات النظامية تم في عهد أورخان بعد فتح مدينة بورصة، وقبل فتح مدينة إزنيق، وقد اقترح قره خليل جندرلى الذي كان قاضي بورصه آنذاك ضرورة جمع الشبان الأتراك الأشداء، وألف فرقة للمشاة وفرقة للفرسان بأجر يومي يتقاضونه في أثناء الحرب، وكانوا يذهبون للحرب بالتناوب، وقد قُسموا إلى جماعات تضم كل جماعة عشرة جنود، وإلى بلوكات وكل بلوك يضم مئة جندي، وكان يترأس مجموعة العشرة قائد برتبة أونباشي أي قائد العشرة، ويترأس البلوك قائد برتبة يوزباشي أي قائد المئة، فيما يترأس التنظيمين قائد برتبة بيكباشي أي قائد الألف. أما جنود الفرسان من (مُسلّم) فقد قسّموا إلى أوجاقات تضم كل منها ثلاثين فارساً . ونص نظامهم بذهاب خمسة منهم إلى الحرب، كذلك فقد كانت تشارك في الفتوحات العثمانية الأولى قوات أخرى دائمة ومؤقتة وتحت أسماء مختلفة مثل: عزب، وجانباز، وغريب، وجرخوه [٨] .

١ – الجيش قبل قيام الدولة العثمانية

من حق الدول والشعوب أن تضع تاريخاً لها، والأتراك من جملة الشعوب التي بدأت تصنع لنفسها تاريخاً موغلاً في القدم، وبتعبير آخر، فإن معظم المراجع التركية تذكر في كتاباتها الجيش التركي لربط ماضيها بحاضرها، ومؤكدين أن تاريخهم ممتد في بواطن التاريخ ، وحتى ظهور الأتراك على مسرح التاريخ كدولة .

وتفيد المراجع التركية أن الجيش التركي يعود إلى سنة ٢٩٩ قبل الميلاد حينما نظم متـه Mete الجيش الهوني على نظام العشرات، وحدات خيالة، تتألف من ١٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠٠ خيال، وأن هذا التنظيم استمر حتى الوقت الحاضر.

لم نعثر في أي مصدر من المصادر القديمة أو الحديثة تفيد أن للأتراك جيشاً أسسه متـه Mete هذا، ولا نعلم من أين جاء أوزتونا بهذه المعلومة التي تنسف التاريخ العثماني الحافل بالبطولات والمواقف الأبية، ولنفترض أن لخياله أس من الصحة،

فالقبيلة العثمانية قبيلة معتدية اعتدت على أملاك الغير، وأن التاريخ العسكري والإداري الذي صنعته مجرد خيال وهمي، وأن العثمانيين ليسوا من القبائل الغزيّة ولا يمتون إلى الشجاعة بصلة (٩).

إن العثمانيين كانوا قبل استقرارهم فعلياً في الأناضول عبارة عن قبيلة هائمة هجرت موطنها بفعل الجفاف الذي ضرب مناطق سكناها، فاضطرت وبفعل عامل الجفاف إلى مغادرته فبلغت أعلى الفرات سنة ١٢٣١م، وما دام الأمر كذلك فلماذا لم يظهر الجزء الثاني سنقور تكن (شقيق أرطغرل) الذي فضل العودة إلى موطنه الأصلي بدلاً من الضياع كما تصور.

إن المؤرخين قبلوا وبفعل الأحداث وتراكمها والروايات التي تعددت بشأن النشأة والأصول، أما القول بأن الأتراك كانوا موجودين ما قبل الميلاد، فهذا مقال تنقصه الدقة والأمانة العلمية، وأن المصادر والمراجع تجمع على أن العثمانيين نسبة إلى عثمان كانوا مجموعة قبائل، وأن أصولهم تعود إلى سالور أو قبيلة قنق، وهل يعقل أن يقوم مته بتأسيس جيش على شكل مجموعات عشرة ومئة وألف وعشرة آلاف، ومن سيقاتل وضد من، وهل كان آنذاك قوى منظمة، فمصطلح الجيوش حديثة العهد ويعدّ العباسيون سباقين في تنظيم صفوف الجيش لأن صدامهم مع الدولة البيزنطية فرض عليهم هذا التنظيم لمواجهتها والتصدي لها ومنعها من ضرب حدود دولتهم (١٠).

٢- الجيش في أثناء وبعد قيام الدولة

أشرنا سابقاً إلى الخطوات التي اتخذت من قبل عثمان بك (١٢٨١_ ١٣٢٤) وابنه أورخان (١٣٢٤-١٣٥٩م) وحفيده مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م)، واعتمادهم على القوات المؤقتة مثل اليايا والمسلم والسباهية والأقنجي، ودفع الرواتب لها في أوقات الحرب وإعفائها من الضرائب. وأشرنا أيضاً إلى أن مثل هذه القوات لا ترضي مطامع سلاطين تلك المرحلة، ولهذا وبعدما انتزعوا بورصة أقاموا فيها القصور والقيادة

العامة لهم، وتسنى لهم أيضاً التفكير جدّياً بإيجاد جيش منظم يكون تحت السلاح بصورة مستمرة ويأتمر بإمرة قيادة تحاسب عن أي تقصير مرتكب. ويفيد المؤرخ الكبير إسماعيل أوزون تشارشلي(١١) أن الإنكشارية أسست رسمياً في عهد مراد الأول حيث بلور فعلياً تجنيد أبناء المسيحيين، فتوجه إلى أماسيا حيث كان الحجي بكطاش يتعبد في إحدى زواياها الجبلية وطرح عليه الفكرة وطلب منه أن يسميها، فاقترح عليه الحجي بكطاش(١٢) اسم يني تشاري أي الجندي الجديد .

وقد قصد مراد الأول من تصرفه هذا، حماية قواته الجديدة ومنحها الغطاء الديني لأنه كان يدرك أن العامة ستسلقها بألسنتها، وفي الوقت نفسه سيقف أصحاب الطرق الصوفية إلى جانبها وإضفاء الصفة الجهادية على أعمالها، فهي تحارب الكفار، فضلاً على أن أبناء الأسرى المسيحيين سوف يعلنون إسلامهم، وبالتالي فهم قوات مسلمة لدولة إسلامية .

إن نظام الدوفشرمه الذي دأب السلاطين العثمانيون على تطبيقه أسهم في بناء قوة عسكرية ضاربة مكنتهم من تحقيق انتصارات واسعة، فبفضلها رفرف الهلال العثماني على ثلاث قارات (آسيا وأوروبة وأفريقية) ولتأدية مهمتها بشكل رسمي ومنظم عمدت إلى تقسيمها على أوجاقات ولا سيما بعدما تخرجت من القصور التي أعدت لعناصرها ووُضعت لها أسس صارمة لا يجرؤ أي كان على الإخلال بها، وكان السلاطين بأنفسهم يشرفون عليها ويراقبون تطبيق نظامها (١٣).

لقد أخفقت المحاولات الأولى في تحويل الأسرى الراشدين إلى جنود مطيعين وملتزمين بالنهج العثماني، فضلاً عن فشلها في المعارك حيث أثبتت عدم أهليتها لذلك، وبناء عليه فقد اضطر السلاطين إلى تطبيق نظام الدوفشرمه على أبناء المسيحيين ممن تراوحت أعمارهم ما بين عشر سنوات وعشرين سنة في حال عدم تأمين الأعداد المطلوب جمعها، وأرسلت اللجان إلى المناطق والمدن التي فُتحت،

وجُمعت منها أبناء المسيحيين، ونص نظام الدوفشرمه على منع أخذ الولد الوحيد واليهودي والمسلم . ويعد أن يتحرك الوكيل بهؤلاء الأطفال إلى العاصمة تنقطع الصلة نهائياً بين هؤلاء الأطفال وذويهم .

وهكذا فإن القوات العثمانية ولاسيما البرية تندرج بمعظمها تحت اسم الإنكشارية، وأطلق على ذوي الاختصاص الواحد اسم يولداش yoldaş أي رفيق، ثم استبدل بمصطلح أوجاق ، وقد قسمت الإنكشارية بموجب ذلك إلى عدة أقسام هي[١٤]:

آ – أوجاق القابي قول Kapıkul ocağı

لقد قسمت الإنكشارية إلى سبعة أوجاقات على رأسهم أوجاق القابي قول أي عبيد الباب ، وقد جرى تطبيق نظام الدوفشرمه[١٥] بصورة منتظمة في عهد السلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١م)، وكان يتولى مسؤولية تطبيق نظام الدوفشرمة إداريون مختصون، حيث كانوا في بداية كل خمس أو ست سنوات وتبعاً للحاجة يأمرون بإرسال لجان لانتقاء أبناء الرعايا المسيحيين من مجمل الولايات الشرقية ، فتنطلق اللجان إلى المناطق المحددة حاملة فرمان الديوان الهمايوني وأمر آغا الإنكشارية إلى أمير الصنجق لمساعدة اللجنة المكلفة بمنطقته بمساعدتها، وعلى الفور يسرع أمير الصنجق يرافقه القاضي بالبحث عن الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين (٨-١٤) سنة، وفي حال عدم توفر الأعداد المطلوبة يطلب الشبان من ذوي الأعمار (١٤-١٨) سنة ثم من (١٨-٢٠) سنة وهو الحد الأقصى المسموح للجنة بجمعه

يطلق على الشبان الذين تم اختيارهم اسم (sürü) أي القطيع، ويظل هذا الاسم ملتصقاً بهم حتى دخولهم استانبول. وبعدها يُجمعون في إحدى الثكنات، ويعطون نقوداً وألبسة ويضعون على رؤوسهم قبعة، وبعدها يطلق عليهم (أصحاب خلعة البهاء أو عبدة الدراهم) وبعد أسبوعين يوزعون على القصور السلطانية لتعليمهم اللغة العثمانية

وتلقي العلوم العسكرية، وبعد استقرارهم في القصر أي السراي saray يطلق عليهم، (غلمان القصر)، أي iç oğlanlar أي غلمان القصر الداخلي.

وبعد أن تدرب تلك العناصر، ويعلن الصدر الأعظم عن التخرج ويسمى çıkış استناداً إلى تقرير آغـا الإنكشارية الذي أعلن جاهزيتها، يحضر السلطان عرض التخرج عندها يُنتقى العناصر التي تتمتع بلياقة بدنية، وهذه العناصر التي تم انتقاؤها من قبل السلطان يطلق عليها قابي قول Kapı Kul (عبيد السلطان)، يندرج تحت مصطلح قابي قول اختصاصات عدة، على الرغم من أن انتقاء السلطان العثماني لهم يدل على أنهم حرسه الخاص، غير أن تزايد هذه العناصر أكثر مما يحتاج السلطان شكل بمرور الزمن فرقة كبيرة من عساكر القابي قول، ولهذا خصص بعضها باختصاص المشاة piyade وسواري sücarı أي خيالة، وقد قسمت إلى ستة بلوكات، وهذه التقسيمات الست يأتي في مقدمتها السباهية sıpahı، والسلاحدار silahtar صاغ علوفجيلر أي الرواتبي اليمين، ثم صول علوفجيلر أي الرواتبي اليساري، واختصاص الغريب اليمين.

هكذا قسمت أوجاقات القابي قول الى قسمين السباهية(الفرسان) واليايا (المشاة)، وكلّف بعضها بالحراسة في الولايات وبصورة خاصة في بلاد الشام حيث خصصت ثكناتها بجوار القلعة [١٦].

وتؤكد المصادر العثمانية أن عناصر أوجاق القابي قول حظيت باهتمام السلاطين ولا سيما السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) والسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، حيث عهد إلى القابي قول ريادة المنظومة العسكرية . يترأس كل بلوك من بلوكات القابي قول قائد يسمى قابي قول باشي، وينقسم البلوك إلى أورطه orta والأورطه تقسم إلى oda ولكل أوضه قائد يسمى odabaşı شريطة أن يكون أقدم ضباط الأوضه، أما العناصر الرئيسة التي تم انتقاؤها من قبل السلطان فتسلم إلى آغا القابي قول Kapıkul ağası حيث يوزعهم على أقسام القصر مع مراعاة اختصاصاتهم، ومن

جملتهم تخصص فرقة يطلق عليها العناصر الرسمية، فتفرز إلى حراسة الحرملك (النساء) بعد إجراء عملية خصي لها، أما العناصر التي تتمتع بأجسام ضخمة وطويلة فتفرز إلى الركاب الهمايوني Rikab hümayun، بصورة دائمة ولاسيما في أوقات الصيد إضافة إلى السكبان والصولاقية وغيرهم من التشكيلات العسكرية لدى الدولة العثمانية (١٧) .

لقد ظلت الإنكشارية خاضعة إلى نظام عسكري صارم ولاسيما عناصر القابي قول الذين كلفوا بحماية السلطان والحريم السلطاني، وأي خلل أو خطأ مصير صاحبه الإعدام، ولهذا فإن العناصر التي كان يتم انتقاؤها لم تكن محظوظة، فمعظمها من لم يعدم تعرض للخصي مما ولّد لدى عناصرها حقد وكراهية، وقد ارتكب من تعرض للخصي أعمال وحشية، ولهذا فلقد تم انتقاء الجلادين من العناصر المخصية لضربه المذنب دون رحمة أو شفقة (١٨) .

ب – أوجاق العجمية أو الأعجمية Acemi ocağı

أطلق هذا المصطلح على العناصر المسيحية التي كان يؤتى بها من بلاد الصرب والبوسنة والهرسك بموجب قانون (پنـــچيك قانوني) أي قانون الخمس، وتفيد المصادر أن هذا القانون صدر سنة ١٣٦٣م في عهد السلطان مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م) ونص بأحقية الدولة على خمس الأسرى مقابل الضريبة المستحقة عليهم، وكان يجري في بادئ الأمر إلحاق تلك العناصر بالإنكشارية، غير أن هذه العناصر لا تخضع لما تخضع عليه الإنكشارية التي جمعت بموجب نظام الدوفشرمه، في حين أن نظام الخمس الذي أقره (پنـــچيك قانوني) لاينص على تحديد أعمار الخمس ولا مواصفاتهم من حيث البدانة والقوة وعرض المنكبين، ولكنه يشترط سلامة الصحة .

وبما أن هذا القانون والعمل بموجبه ينطوي على محاذير كثيرة وعديدة، فتم استبدال بعض فقرات القانون بحيث يشمل الفتيان من أسرى الحرب، ويكلفون بممارسة الأعمال الزراعية بغية تعليمهم اللغة والعادات والتقاليد التركية الإسلامية (١٩).

كانت عناصر أوجاق الأعجمية Acemi ocağı تكلف إلى جانب الأعمال الزراعية ببعض الأعمال العسكرية الأساسية، ولهذا فلقد أقيم تشكيل عسكري، وهذا الأوجاق كان أشبه بمدرسة حربية، أما مدحت أوغلو، فيؤكد أن أوجاق الأعجمية شمل عدة اختصاصات من مشاة وخيالة وفرسان، ويعود تأسيس هذا الأوجاق إلى أواسط القرن الرابع عشر، أي مرحلة السلطان مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م).

إن نظام الدوفشرمه نظام خاص بالدولة العثمانية، وقد تم انتقاء عناصر الأعجمية مع بقية العناصر التي كان يتم انتقاؤها، غير أن القانون الإداري نص على وجود أوجاق خاص بالعناصر الأعجمية، علماً بأن كل العناصر من أصول أوروبية، وبالتالي فهي أعجمية، ولا يعني هذا أنها استقدمت من بلاد الأعجم، غير أن الفتيان التي يتم انتقاؤها لأوجاق الإنكشارية ترسل إلى القصر للتدريب، بينما تدرس الفتيان التي اختيرت لأوجاق الأعجمية، فترسل أفرادها إلى العيش بين العائلات التركية بغية تعلم اللغة والعادات والتقاليد التركية، وبعد قضاء سبع أو ثمان سنوات في العمل يجرى إلحاقه بأوجاق العجمية أو الأعجمية، وهو الأوجاق الذي تأسس لأول مرة في مدينة غاليبولي، ويعدّ آغا غاليبولي من أكبر ضباط الأوجاق، وقد قسم الأوجاق إلى ثمانية بلوكات ويترأس كل منها ضابط يطلق عليه bölük başı، وكان أوجاق الأعجمية يضم ٤٠٠ جندي، غير أن أهمية هذا الأوجاق تضاءلت بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، حيث تعرض هذا الأوجاق إلى نظام أكثر دقة من السابق.

أقيم لأوجاق الأعجمية ثكنة خاصة بهم في استانبول (القسطنطينية)، وكانت تضم ٣١ بلوكاً وتقع بين حي (شهزاده باشي) وحي (وزنلرجيلر) وأكبر ضباطها هو آغا استانبول ويلي آغا الأناضول في الأهمية [٢٠].

يعدّ آغا الأناضول وآغا الروميلي أكبر ضباط هذه التنظيمات فعليهما تقع مسؤولية تنظيم عملية الدوفشرمه، وهما يقيمان خارج استانبول، وقد وجد لهما في المركز وكيل

كتخدا وجاويش بعد آغا استانبول. وتنحصر مهمتهم في ضبط وربط الأوجاق، وفيما بعد ألحقت أوجاق الأعجمية بجنود القابي قول ومنحوا رواتب كل ثلاثة أشهر، فضلاً عن تقديم الدولة لملابسهم ومهماتهم، وحينما يتم التأكد من سلامة تدريبها يصبحون من تعداد العناصر الإنكشارية، فيرسلون بعدها إلى الولايات كقوى عسكرية مهمتها حفظ النظام وضبط الأمن في الولايات التي كلفوا العمل بها مع زيادة في رواتبها، وعندها تتبع آغا الإنكشارية كبقية عناصر الدوفشرمه (٢١) .

جـ - أوجاق الجبجية cebeci ocağı

إن مصطلح الجبجي يعني المحارب الذي يواجه الأعداء بسلاحه، علماً بأن مهامه في التنظيمات العسكرية العثمانية تعددت وتنوعت، فمن صناعة الدروع إلى تعمير الأسلحة إلى المحافظة على القطعات المحاربة، وقد شغل موقعاً مهماً في التشكيلات العسكرية العثمانية، فبعض المصادر أطلقت عليه المدرع، والبعض أسمته بالمعمر للأسلحة، وكان هذا الأوجاق من المشاة سواء في تنظيم القابي قول أو بقية التنظيمات الأخرى.

ينقسم أوجاق الجبجية إلى قسمين، بلوك وجماعة، ومهمتهم الأساسية تأمين الأسلحة للإنكشارية والمحافظة عليها، كما عليهم نقل الإنكشارية في أثناء الحرب وبعدها إلى المكان الذي يضمن لهم السلامة، فضلاً عن إصلاحهم للأسلحة المعطوبة سواء في أثناء المعركة أو بعدها، وقد وجد في استانبول مخزن للأسلحة عرف باسم جبخانه cebahane، إضافة إلى إقامة مخازن أخرى داخل قلاع الحدود، يعمل فيها عناصر من الجبجية، وبما أن هذا الأوجاق ملازم للتنظيمات العسكرية، فإن تأسيسه في الدولة العثمانية تم عقب تأسيس الإنكشارية (٢٢).

وتفيد المصادر العثمانية أن عناصر الجبجية كان يؤتى بها من أوجاق الأعجمية، وقد أجاز القانون للمتزوجين من أوجاق الجبجية إلحاق أبنائهم بالأوجاق مباشرة ويطلق على

الملتحقين منهم باسم kul oğlu أي أولاد العبيد، وقد تميز جنود الجبجية بوضع الطرابيش الخاصة أو الطربوش الخاص على رؤوسهم. ويطلق عليهم (شبكلاه)، ومع تقدم الجبجي في السن يحال على التقاعد ويمنح الراتب المخصص له (٢٣) .

يطلق على أكبر ضباط الجبجية (جبه جي باشي cebeci başı) وقد كلفت عناصر هذا الأوجاق بحراسة أحياء (آيا صوفيا وخوجه باشا وآخير قايي) وهي أحياء داخل استانبول، وتفيد المصادر أن مخازن الأسلحة أقيمت في هذه الأحياء يساعده أربعة وكلاء (كتخدا kethüda) ، يطلق على أقدمهم خدمة (باش كتخدا kethüde başı) ويليه في المسؤولية رئيس الجاوشية (باش جاويش çavuş başı) في حين يطلق على كاتب الجبجية (جبه جيلر كاتبي cebeciler katibi) وقد كان أوجاق الجبجية قد قسم إلى ٣١ أورطه و٥٩ بلوكاً، تخصص منهم جماعات لصنع الأسلحة وإصلاح الأسلحة وتعميرها وإعداد البارود، وكان الجبجية في استانبول يقضون ثلاث سنوات خدمة في القلاع المنتشرة على الحدود أو في الولايات القريبة من المركز، كذلك فقد أجاز القانون الاستعانة بالأهالي المحليين القريبين من القلاع ومُنحوا امتيازات ورواتب، لكنهم لا يصنفون من التنظيمات العسكرية (٢٤) .

كلّف الجبجية بنقل الأسلحة والذخيرة إلى القوات الإنكشارية المحاربة من مخازن الأسلحة إلى ساحة القتال بالاعتماد على الدواب من حمير وبغال وجمال، ومهمتهم المرابطة خلف القوات المحاربة وتزويدها بما يلزمها من أسلحة وذخيرة أو سحب الأسلحة المعطوبة وإصلاحها إذا أمكن، وفيما بعد أقيمت نظارة (وزارة) خاصة تشرف على إدارة الأوجاق وتزوده بالعناصر اللازمة، وقد شارك أوجاق الجبجية في بعض الثورات التي قادتها الإنكشارية ، ولهذا فقد تم إلغاء هذا الأوجاق مع الوقعة الخيرية(٢٥) التي تم فيها القضاء على الإنكشارية سنة ١٨٢٦م.

لقد أدى هذا الأوجاق دوراً مهماً في تأمين السلاح للقوات الإنكشارية، حيث كان بكامل عناصره على أهبة الاستعداد وتأمين مستلزمات المعركة من السلاح (٢٦).

د – أوجاق القمبرجية homberci ocağı

الخمبر أو القمبر (خمبره) نـوع من القنابل التي تلقى باليـد أو بمدافع الهـاون، والخمبرجية، هم الذيـن يستخدمون هذه المقذوفات، ويعملون جنباً لجنب مع الجبجية وأوجاق المدفعية، غير أنهم وبعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م غدوا أوجاقاً قائماً بحد ذاته، وقد أقيم معظم عناصر هذا الأوجاق على الحدود المضطربة، وشكلوا عمليات فدائية، لأن مهمتهم إلقاء الذعر في صفوف الأعداء، وقد منحت العناصر التي كلفت القيام في استانبول رواتب، أما العناصر المكلفة بالعمل خارج استانبول فمنحت (ديرلكات) إقطاعية أراضية، ويترأسهم جميعاً قائد يقيم في استانبول ويعلم قائد الإنكشارية بأوضاع أوجاقه والتحركات القتالية التي تمت أو الواجب القيام بها. ويطلق عليه (homberci başı) أي رئيس الرماة، غير أن الدولة أهملت هذا الأوجاق بدءاً من القرن السابع عشر، ومع قدوم الكونت الفرنسي دي نيفال الذي أعلن إسلامه وتسمى باسم أحمد، عمل على تفعيل أوجاق الخمبرجية، وشكل طائفة جديدة جميع أفرادها من ذوي الرواتب، فقد عمل على إعدادها وتدريبها، وأقام ثكنة خاصة بتدريب عناصرها في استانبول في منطقة اسكدار، وبعد ذلك قسمهم إلى وحدات جديدة، وبعد وفاته أهمل هذا الأوجاق، وعلى الرغم من محاولة تفعيله في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م)، لكن المحاولة لم يكتب لها النجاح، لأن الدولة كانت تواجه مشكلات كثيرة، بسبب المحاولات الإصلاحية. وأزيل هذا الأوجاق في الوقعة الخيرية سنة ١٨٢٦م(٢٧).

ر – الأوجاقات الأخرى başka ocaklar

لقد تعددت أوجاقات الإنكشارية تبعاً لحاجة الدولة، ومقتضيات الساحات القتالية، وعلى الرغم من تقسيم الإنكشارية إلى عدة أوجاقات، فقد أنشئ أوجاق باسمها، في ظاهره يحمل لفظة أوجاق الإنكشارية، إلا أن قواه من القابي قول، وقد تشكل هذا الأوجاق

عقب فتح أدرنه على يد السلطان مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م)، وهذا الأوجاق لا يرتبط لا بنظام الطريقة البكطاشية، وكأن السلطان مراد الأول أقامه كعنصر محارب غير خاضع للتأثير الديني الذي ارتبطت به الإنكشارية اسماً [٢٨].

لقد ضم هذا الأوجاق عناصر السكبان (مربو الكلاب)، وقد قسم إلى ١٠١ بلوك، وكانت بلوكات السكبان مستقلة في البداية، وفيما بعد ألحقت بالإنكشارية، ولتميزها أطلق على أوجاقها أوجاق الإنكشارية yeniçerı icağı، وأطلق على قائدهم بكنچري آغاسي yeniçerı ağası، ويأتي في المرتبة الثانية سكبان باشي sekban başı، وعلى وكيله (قول كتخداسى kul kethüdası) ، وكان وكيل الآغا (قول كتخداسى) معاوناً لآغا الإنكشارية [٢٩].

ومن التشكيلات الأخرى من الأوجاقات، أوجاق المدفعية وهو أحد الأوجاقات القبوقولية المترجلة، وقد جرى تشكيله بعد تشكيل أوجاق الإنكشارية، ومهمته الاهتمام بإمداد أوجاق العجمية أو الأعجمية بالمجندين الجدد، ثم ألحق به أبناء الجند الذين أطلق عليهم (قول أوغلى) أولاد العبيد، وقسمت مهمته إلى صب المدافع وتصنيفها، والمهمة الثانية استخدامها، وكانت ثكنات المدفعية ومعامل التصنيع مقامة داخل استانبول في الحي المعروفة باسم (طوبخانه Tophane) .

كذلك فقد أقيم أوجاق سائقي عربات المدافع، وقد تشكل في أواخر القرن الخامس عشر لنقل المدافع الثقيلة، ويزود بالعناصر اللازمة من أوجاق الأعجمية، وفيما بعد سمحت الدولة لأبناء العاملين في الأوجاق نفسه بالانخراط فيه، وقد أقيمت ثكنة مركزية لسائقي عربات المدافع في استانبول، كما أقيمت له ثكنة في منطقة (شهر أميني)، وفي عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) أقيمت ثكنة جديدة لسائقي العربات في الطوبخانه [٣٠].

يأتي في الأهمية بعد رئيس سائقي العربات (طوب عربه جيلرباشي Top arablar başı) الكتخدا kethüda، ثم باش جاويش baş cavuş، ثم يليه نائب الوكيل (كتخدا يرى kethüda yeri، وكان يضم ٦٣ بلوكاً، وبلغ عدد أفراده ٦٢٢ جندياً، ثم ارتفع العدد ليتجاوز الألف جندي مع إضافة عساكر المتفرقة إليه .

كذلك فهناك أوجاقات القابي قول الراكبة، ويطلق على هذه القوات اسم الفرسان سوارى süvarı، وقد أدت دوراً مهماً في المنظومة العسكرية العثمانية على مدى قرنين من الزمن، وتتشكل من بلوكات السباهية والسلحدارية، ومع إضافة عناصر غرباء الميمنة والميسرة (صاغ وصول غريبلرى) وفرسان الميمنة والميسرة من حراس العلوفات (الرواتب أو المعاشات) ارتفع عدد السوارى (الفرسان) إلى ستة بلوكات ميدانية مقاتلة، وقد أطلق عليها (التي بلوك)البلوكات الستة،وقد حظيت عناصر هذا الأوجاق بمكانة رفيعة لدى السلطان ومؤسسته العسكرية، وحملت الأوسمة والنياشين الميدانية لما حققته من انتصارات في أثناء المعارك(٣١) .

لقد نص القانون العثماني على إيجاد قوات خاصة بالولايات تم تسميتها بالقوات المعاونة ، ولم يعطوا أي معاشات أو إعانات مالية من خزينة الدولة ، لذا كانت معيشتهم تتوقف على الأرض الممنوحة لهم من الدولة بمعنى أن نظامها المالي لا يعتمد على العلوفات أو الساليانات، وإنما على التيمار والدخل الذي لا يزيد عن عشرين ألف أقجه في السنة، وعرفتها المصادر التركية بالقوة الراكبة (التي تمتطي دواباً وليس أحصنة)، وكذلك أوجدت الدولة قوات معاونة للتشكيلات التي أقيمت في الولايات بدافع عدة عوامل، ولا سيما لتبديل هذه العناصر، أو لمدها ومساعدتها لدى تعرض الولايات إلى خطر خارجي أو داخلي على حد سواء، وقد تعددت أسماء القوى فمنه الأقنجي أي (الجاري أو الراكض) وإلى الدلى (المجون) وإلى اليايا (المشاة) وإلى الجانبار (الفدائي) وإلى جرخوه (الأجير) وإلى المتطوعة (كوكللو) والمتسلّم و البازدار وغيرها من الأسماء والصفات التي تحلت بها عناصر الإنكشارية (٣٢).

فمهمة الأقنجي استطلاع أرض المعركة قبل قدوم القوات الإنكشارية إليها، وهي تعتمد على الخفة والرشاقة، وبالإضافة إلى الأقنجي والدلي، هناك حفيف بياده مثل العزب وغيرها. وهناك قسم من القوات مهمته البقاء خلف القوات المحاربة مثل المسلم والاجرخوه والجانباز والشطار وغيرهم من العناصر التي أعدت لذلك. وهناك قوات من العزب وغيرها مهمتها حماية القلاع ومد المحاربين بالأسلحة والذخيرة ، وبعضهم كانوا يخرجون الى التيمار مع سواري الأوجاق حتى تزيد يوميتهم ، ومنهم من عمل ليلاً كحارس أو كشرطة للحفاظ على الأمن والانضباط.

وهكذا نلاحظ أن الإنكشارية بكل تشكيلاتها المختلفة، لم تكن متناقضة فيما بينها، وكل منها أدرك المهام الملقاة على عاتقه، والتزمت بالنظام واستجابت للنداءات المحلية التي كانت تحضّها على الجهاد، ولهذا تدافعت إلى الموت تدافعاً، وعدّت عملها جهاداً في سبيل الله، ولهذا شكلت القوات الإنكشارية قوة ضاربة حققت للعثمانيين انتصارات باهرة (٣٣).

٤- مزايا الجيش العثماني:

ليس للجيوش ميزة بحد ذاتها، وليس لديها مدائح تتحلى بها غير النياشين الرسمية، لأن بنية الجيوش الطاعة والولاء والتنفيذ دون احتجاج وتذمر، ولم يعرف التاريخ صفة خاصة بالجيوش تتعدى الشجاعة والالتزام بأوامر قادتها، وما عدا ذلك فليس من الجندية أو العسكرية بشيء، أما الجيش في الدولة العثمانية فهو ركن خاص بها منذ نشأتها وحتى انهيارها، وإذا كانت بقية الجيوش قد أقيمت على أساس العبودية أولاً، فالجيش العثماني لم يعرف هذه الصفة إلا بعدما اكتسب صفة الجيش وذلك بدءاً منذ سنة ١٣٦٣م وحتى انهياره سنة ١٨٢٦م، والجيش العثماني لم يعرف التراجع أبداً وإنما كان جيشاً فدائياً، انبثق من واقع القبيلة وكان مدركاً للمخاطر المحدقة به، إما أن يثبت جدارته القتالية وإما أن يزول نهائياً من الوجود ليس كقوة وإنما كإنسان،

والانتصارات الدائمة تتحقق بهدم الجيش وإزالته، وهناك أمثلة عديدة في التاريخ وما شهدته الدولة البيزنطية خير دليل على ذلك، فلقد أزالها العثمانيون نهائياً من التاريخ، وقبلها زالت الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الهابسبورغية، وعانت الإمبراطورية العثمانية مرارة الكأس أخيراً (٣٤).

لقد قدمت الدولة العثمانية بإقامة جيشها إلى العالم مفردات المنظومة القتالية ولقن جيشها أعداءها كأس الهزيمة والخسران، فالجيش العثماني أول من أسس على الاستحكامات، وأول من رفض التراجع في ساحات القتال، كذلك فلقد امتلك ضباطاً اتصفوا بالمهارة، وفي الوقت نفسه لم يقاتل تطلعاً لغنائم عينية وإنما كانت أهدافه الاستقرار والامتلاك، فمن أربعمئة وأربعين فارساً أقاموا دولة فرضت سلطانها على ممالك وأقاليم واسعة الأرجاء، وقد أفاد الماريشال الألماني Kont Monteeueeli أحد مؤسسي العسكرية الحديثة في أوروبا، بأنه لا يمكن الانتصار على الأتراك ما لم يؤسس جيش نظامي دائم في أوروبة كالأتراك، وقد كتب قبل هزيمة فيينا سنة ١٦٨٣م لتعلم أوروبة أنها ما انتصرت لولا أخذها بأصول الجيش النظامي الدائم، ولهذا تمكنت من هزيمة العثمانيين (٣٥).

أما صفات ومميزات الجيش العثماني فهي كثيرة، ولأيضاح ذلك يجب أن ندرك حجم الحروب التي خاضها:

١- حرب المجر سنة ١٣٩٦م(معركة نيقوبوليس) وفيها اتحدت المجر مع بعض الدول الأوروبية مثل الفرنسيين والألمان وفرسان القديس يوحنا، ورغم ذلك انتصر الجيش العثماني مدللاً عن شجاعته وقدرته على تحمل الجوع والعطش، ولم يعتد يوماً على طلب المؤنة في أثناء المعركة.

٢- حرب البانيا سنة ١٤٧٠م، وفيها اتحد اسكندر الألباني مع جيرانه على تركيا، وذلك في حرب دامت ٢٥ [illegible] وقد انتصر العثمانيون فيها ، حيث فتح السلطان محمد الثاني جزيرة اوبـ[illegible]

٣- حرب البندقية سنة ١٤٠٢م، وفيها قام اتحاد بين البنادقة وأتباع البابا وأمير نابولي، وفيها انتصر العثمانيون على الحلفاء.

٤- حملة عثمانية على نرانسلفانيا وهنغاريا وفتح مدن أنابي وكوبي سنة ١٤٧٩

٥- معركة موهاتش سنة ١٥٢٦ وبها يصل السلطان إلى بودا

٦- حرب النمسا سنة ١٥٣٢م ضد النمسا وإسبانيا وألمانيا والبابا، وعقد صلح قبل أن يحدد المنتصر.

٧- حرب الدول المتحدة سنة ١٥٣٨م، قادته البندقية مع حلفائها القدامى، وانضمت إليها جنوة والبرتغال، وكانت الحرب برية وبحرية وانتصر العثمانيون فيها.

٨- حرب الدول المتحدة سنة ١٥٦٠م، وكانت الحرب بحرية لم تسفر عن نتيجة واضحة.

٩-حرب البندقية سنة١٥٧١م، وفيها تشكل التحالف المقدس ضد العثمانيين، حيث تحطم الأسطول وخسرت الدولة العثمانية بعض الجزر التابعة لها.

١٠- حرب مع النمسا سنة ١٦٦٣م، وقد انتصر المتحدون الأوروبيون على العثمانيين.

١١- حرب مع النمسا وحلفائها سنة ١٦٣٨م، وكتبت الهزيمة للعثمانيين.

١٢- حرب مع النمسا سنة ١٦٨٤م، خسرت فيها الدولة العثمانية المجر(٣٦).

صحيح أن الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية تعرضت في معظمها للخسائر وفقدان بعض الممالك، غير أن العثمانيين ورغم قلة عددهم وعدم امتلاكهم للأسلحة التي كان أعداؤهم يطورونها، لكنهم أثبتوا صموداً وشجاعة قلما عرف التاريخ لها مثيلاً ، لان بهذا الجيش اتسعت رقعة الدولة العثمانية ونهضت في ثلاث قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا وكانت لها سلطتها وعظمتها وهناك بعض المعارك التي غيرت مجرى تاريخ الدولة العثمانية كمثل معركة قوصوه ١٣٨٩ وهي أول معركة يشترك بها الجيش الانكشاري في عهد السلطان مراد الأول(١٣٥٩-١٣٨٩) وبموجبها أدخل البلقان تحت الحكم العثماني[٣٧].

لقد أكدت الحروب التي جرت أن الجندي العثماني (التركي) رغم معرفته بأنه مهزوم، لكنه يرفض الاستسلام، فهو قليل الكلام في أثناء السير، ولا تسمع إلا صوت أقدامه، ولا يخرب ولا يعتدي علَى الحرمات، ففي حرب المجر أصدر السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) أوامر صارمة بأن لا تمس مدينة بودابست التي فتحها والمحافظة على سلامة جنودها في وقت انسحابهم وهذا وفق الاتفاق المبرم بينهم [٣٨] . وأيضاً في سنة ١٥٣٤م كان السلطان سليمان القانوني في بغداد، وكان قد حذر قواته من ارتكاب أي خطأ ضد الأهالي، أما شارلكان الملك الإسباني ففي السنة نفسها دخل تونس فخربّها وأقام برجاً من الجماجم بعدما أباح تونس ثلاثة أيام.

لم يعتد الجندي العثماني على تخريب المزروعات، ويمتاز بسرعته في التنقل، ولا يألوا جهداً في تنفيذ أمر يوجه إليه، وكانت قيادته تراعي حالته النفسية، فسليم الأول أمر بالانسحاب لأن الجيش في أثنائها غير مرتاح، وكذلك فعل السلطان سليمان القانوني في أثناء حصار فيينا، وهذا يدل على أن للجيش حقه في الفتوحات .

صحيح أن الجيش العثماني لا يستطيع صبراً على الحرب الطويلة، لأنه يتطلع وبفخر واعتزاز للحصول على لقب غازي (مجاهد)، وهو يؤمن بأن الشهادة أفضل حل

وأقصر الطرق إلى الجنة، وهو شجاع وجسور ومخلص، فهو لم يحارب الأوروبيين، وإنما كان يدافع عن أملاكه، ولم يتردد يوماً في إعطاء الغير حقه، لكنه يأبى أن يؤخذ الشيء منه عنوة.

إن المخالفات التي ارتكبها بعض أفراده، كانت بسبب الدناءة التي تربى عليها هذا المخالف، ونحن لإدراك ذلك، نرى الجندي الإنكشاري الذي تربى في المدارس لم يرتكب مثل ذلك، علماً بأن التجاوزات صفة من صفات العسكر، ولكن الدولة العثمانية وإذا كانت صفتها عسكرية محضة، لكنها لم تدرب جنودها على المخالفات، وعدّت المخالف منها مخالف لتعاليم الدين الإسلامي، وشددت على ضرورة التزامه بعدم تجاوز الحدود والابتعاد عن كل مخالفة دينية أو قانونية.

إن الجيش العثماني وإن تربى على الفضيلة والأخلاق، إلا أنه يختلف عن بقية الجيوش الأخرى، فهو لا ينتمي إلى قومية ودين، إلا بعدما دُرب وتربى في مدارس السلاطين، وما تعرض له من انحلال خلقي، فهذا مرده لقيادته الفاسدة، التي لم تراعِ الحدود، وقصرت في إعطائه حقوقه، وحملته مهام أكبر من طاقاته، فهو المسؤول عن ضبط الحدود، وعليها محاربة الفرس والبنادقة والنمساويين والروس والإسبان الذين تآمروا عليه وعلى معتقداته وكرامته، وحاولوا سلبه حقه في الحياة، وكان الواجب يحتم عليه الدفاع، وما حدث من مخالفات في أثناء حياته العسكرية مردها التقصير في تأدية حقوقه، وإرغامه على حرب لا رغبة له في خوضها (٣٩).

إن الجيش العثماني امتلك من الشجاعة والإقدام قلما توفرت بجيش من الجيوش، وحارب أكثر من جيوش العالم مجتمعة، رغم اللفيف العرقي الذي يلفه ويحيط به، فضلاً عن الصراعات التي كان يعيشها ضمن محيطه المتنافر اجتماعياً وقومياً إذا لم نقل عرقياً، وبزيادة التآمر الداخلي والخارجي الذي تسلل إليه منذ أواخر القرن السادس، فقد ظل متماسكاً، يواجه أعداءه ويرد هجماتهم المتكررة عليه، وحينما فشلت

المحاولات الرامية إلى تمزيقه، لجؤوا إلى الاقتصاد، من هنا بدأت مسألة تفسيخ الجيش العثماني بالتوسع والتفاقم، ولم تمض عقود محدودة حتى كان الجيش قد اندفع إلى ممارسة التجارة وتحولت بذّة الرجولة إلى بذّات ملونة مخططة لتنسجم مع واقعه الجديد، ولكي لا يتعرض أفراده إلى إهانات الأهالي الذين كانوا يقدرون الرجولة والتضحية فيهم، بدأت العناصر التي مارست التجارة تتخفى خلف ألبسة اعتاد التجار الأوروبيون على ارتدائها.

إن تغيير مسار الرجولة في الجيش العثماني حتى ولو تخفى بألبسة مختلفة، لم تلغِ الشهامة، ظل مواظباً علي حسن المعاملة، علماً بأن التجارة لا تعرف هذا ولا ذاك، وإذا كان سلاطين القرن التاسع عشر قد أعلنوا براءتهم من ماضي هذا الجيش وتذرعوا بإقامة مؤسسة عسكرية تناسب عصرهم' فإن الحرس القديم في الدولة العثمانية لا زال يتحدى القانون وعلى حساب الشرف العسكري، في حين ردت العناصر العسكرية المتقاعدة والتي لا تزال تشعر بأن الانهيار لاسمها، وهي في سن الشيخوخة أجابت بالقول: عتاب الجبان اجتنابه(٤٠).

يشكك المؤرخون بما آلت إليه القوات العسكرية العثمانية، ويحمّلون المسؤولية على التهاون في عدم تجديد أنظمة الجيش بما يتلاءم والمستجدات الجديدة، غير أن هناك فريقاً يلقي باللوم على بعض السلاطين الذين أهملوا شؤون الدولة عامة والجيش خاصة، ويؤكدون أن القوات العسكرية بكل أطيافها، لم ترفض يوماً التدريب على الأسلحة الحديثة المتطورة، ولم تنسحب من ساحات القتال لجبن فيها، وإنما يعود سبب انسحابها إلى تنامي الفساد والرشوة والمحسوبية، وحصول ترقيات لأشخاص لا تتوفر فيهم صفات القيادة، وهؤلاء مارسوا نزواتهم على ما دونهم من العسكر، وكلفوهم بأعمال السخرة وإطعام خيولهم والعمل في مزارع كعبيد، فضلاً عن تعريضهم لشتى أنواع الإهانات، فلجؤوا إلى العمل كمرتزقة مع بعض الطامعين بالسلطة من المحليين.

إن القارئ لتقرير آغوات الإنكشارية يدرك مدى تألم بعضهم لفساد نظام الإنكشارية، فبعضهم يحمّل نساء السلاطين التدخل في ترقيات الضباط ولاسيما روكسلانه زوجة السلطان سليم القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م، وزوجة السلطان سليم الثاني نوربانو ١٥٦٦-١٥٧٤م، ويفيد تقرير مصطفى كوبريلي أن كوسيم جدة السلطان محمد الرابع كانت تتدخل في كل شاردة وواردة في الدولة لدرجة تدخلها في تسريح الضباط ونقلهم إلى الولايات، وحسب ما يفهم من تقريره لولا تخلصه منها لما تمكن جده محمد باشا كوبريلي من إعادة هيبة الدولة.

إن الدولة التي تمتلك نظاماً عسكرياً كهذا يصعب القول إن العساكر هي سبب انهيارها، فالنظام الذي تربت عليه هذه العساكر أُهمل، وتولى السفلة مناصب القيادة والريادة، وأرغمت القوى العسكرية بالانسحاب من ساحات القتال لأنها كلفت بأعمال لا تليق بالشرف العسكري، فآثرت الموت في ساحات القتال أو الموت على أسرتها المنزلية [٤١].

الخاتمة:

إن إقامة مؤسسة الجيش العثماني (الأوردي) تعدّ النقطة الرئيسة في إقامة بقية مؤسسات الدولة العثمانية فالعثمانيون لم يكونوا يحلمون بدولة خاصة بهم، ولم يكونوا يتطلعون لأكثر من مستقر لهم يحميهم من التنقل والترحال، غير أن الظروف آنذاك هيأت لهم استقراراً، والاستقرار وسّع أحلامهم فاندفعوا وبفضل شجاعتهم وتماسكهم إلى فرض سلطانهم على مَنْ جاورهم، وبوفاة علاء الدين السلجوقي سنة ١٢٩٩م وانضمام دولته إليهم، حوّل القبيلة إلى قوة مهيمنة على من حولها، وبذلك بدؤوا يحققون الانتصارات، فمن ازنيق إلى ازميد إلى بورصه إلى استانبول تأكدت الدولة وتحولت بفتح استانبول إلى إمبراطورية اكتملت أطرها بالسيطرة على سورية سنة ١٥١٦م وعلى مصر سنة ١٥١٧م وغدت بفضل قواتها العسكرية تشكل أكبر قوة ضاربة في القرن السادس عشر.

إن الهيمنة العسكرية التي حظيت بها الدولة العثمانية أتاح لها إقامة مؤسسات إدارية التي انبثقت عنها بقية المؤسسات التي شكلت الدولة.

من هذا المنطلق ولد المجتمع العثماني كنتاج جديد من حطام الحضارتين الرومانية والإسلامية اللتين كانتا حضارتين أصيلتين قديمتين وشيكتين على الانهيار.

لم يعبأ العثمانيون لنتائج الانهيار ولم يدركوا أن الحياة تقتضي الصراع وتفرضه أو أن القانع بما لديه تجيز له الأقدار الاحتفاظ بما لديه. فهناك سلاطين أو بعض سلاطين آل عثمان رددوا أكثر من مرة أن استانبول تكفيهم، لكن القوى الأخرى حكمت عليه بالموت مبكراً وانتزعت أبناءه وهدمت منزله على أبنائه دون أن تترك لهم متنفساً أو وقتاً للرحيل والهرب.

أيكون العثمانيون قد أدركوا هذه المعادلة قبل قيام دولتهم، وتناسوها بعدما تحولت دولتهم إلى إمبراطورية، وإذا كان الأمر كذلك، فأين الأصالة البدوية التي يتشدقون بها؟

ربما تدخلت الأقدار ثانية فغفلت أعين القائمين على السلطة، فتناسوا درس العبرة وانجرفوا خلف أهوائهم معتقدين أن عجلة الزمن لن تعود إلى الوراء، غير أنهم تناسوا أيضاً، إذا كانت عجلة الزمان لا تعود إلى الوراء، ففي الوقت نفسه فإن شريعة الغاب وجبروت القوي لا تزال تترصد الضعفاء للانقضاض عليهم.

وسط هذا الاضطراب وتراكم الأحداث وتحسباً من مواجهة هذا المصير، قررت الزعامة العثمانية آنذاك إنشاء مؤسسة عسكرية منظمة، وصمموا على أن تكون سابقة لعصرها في التنظيم والإعداد، وفعلاً حققوا هذه المنهجية القتالية والتزموا بالقواعد التي أرسوا قواعدها، وشددوا كثيراً في تطبيقها، لدرجة أن كبار التجار، وكبار الأغنياء كانوا يتمنون ارتداء البذة العسكرية التي كانت تزين أجساد الرجال والفتيان.

تزامن تسارع الأحداث مع تسارع الأيام، في حين بقيت النظم ثابتة لم يلامسها التطور والتحديث، والأمناء عليها خانوا المسؤولية والأمانة لأن الراعي الأول (الباديشاه) يسبح في محيط اللهو ومستنقع المجون، ورفض الحامي النائب الذي عهد إليه السلطان

برعاية واجبه تحمل مسؤولية مؤسسة اتسعت أكثر من إمكانات الدولة، وتمادت أكثر مما لها من واجبات، وتجاهلت تأدية ما عليها من حقوق تجاه المجتمع والوطن والدين.
إن القارئ لنظم المؤسسة العسكرية العثمانية ودقتها يدهش ما آلت إليه هذه المؤسسة من نظام ودقة لدرجة أنه يتمسك بما سمع أو بما قرأ، ويتصور نفسه أنه في حلم، أيعقل أن تتحول الرجولة إلى تخنيث، أو أن يغدو السافل بطلاً واللص حاكماً.
في حقيقة الأمر، هذا ما تعرضت له المؤسسة العسكرية، فرجالها ضربوا سنة ١٨٢٦م وقتل في هذه الوقعة التي سميت بالوقعة الخيرية ما يزيد عن عشرين ألفاً خلال ساعات، ومن كتبت له الحياة سارع للتخفي بثياب امرأة. وتفيد تقارير تلك الوقعة أن بعضاً ممن كتبت له الحياة عمد إلى شنق نفسه لكي لا يكون موضع سخرية من قبل الجهلة من العامة، فإذا كانت بعض العناصر قد تجاوزت، فتجاوزها كان إرضاءً لقيادتها التي لم تعد مقتنعة بمنصبها، بل تطلعت إلى منصب صدر أعظم، ولكي يحافظ الصدر الأعظم على رأسه، وشوش السلطان أن القوى العسكرية تتآمر عليه، ولكن السلطان الحاكم لضعف عقله وضيق أفقه صدّق الصدر الأعظم المهدد من قبل العساكر لارتكابه الفساد وتجاوز القانون، فحرف الكلام عن موضعه، ووفق وبمساعدة فرنسا في ضرب الإنكشارية في ثكناتها سنة ١٨٢٦م، وزالت الإنكشارية أو بالأحرى الرجولة من التاريخ أسوة بالدولة البيزنطية التي أزالتها هي قبل أربعمائة سنة، وإذا كانت الدولة البيزنطية قد تركت للعالم تراثاً علمياً ضخماً، فإن الإنكشارية تركت هي الأخرى تراث الرجولة وأصول مواجهة الخصم.
لقد أسهمت هذه الهيمنة السلطانية في زيادة الترهل الإداري فتحولت الدولة بعد الاستقرار إلى هيئة كتبة وموظفين، ولا سيما بعدما تحول الأسرى الراشدين إلى جنود، ومع مرور الزمن أخذ الإنكشاري روحه من التركي ليبيع جسده للبادشاه.

الحواشي

(١) **قره حصار:** يوجد بضعة أماكن في تركيا باسم قره حصار أي القلعة السوداء ولكن القصد هنا بلدة أفيون قره حصار القريبة من قونيه .

(٢) **يكي شهر:** تلفظ الكاف هنا نون فهي، إذاً:(يني شهر) ومعناها البلد الحديث ويكتبها الأتراك هكذا yenisehir وتقع إلى الشمال الشرقي من بورصة.

(٣) **(أزنيق) نيقيا Nikaia** : مدينة قديمة في آسيا الصغرى هي اليوم إزنيق في تركيا على بحيرة إزنيق. عُقد فيها مجمعان مسكونيان ٣٢٥ وَ ٧٨٧.

(٤) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ١٢٠٤ – ١٢٦١. أسوار رومانية وبيزنطية، مسجد من القرن الرابع عشر، خزف مشهور.

(٥) **بورصة:** مدينة بآسيا الصغرى شهيرة بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية وبها مياه عديدة شافية لكثير من الأمراض ، ويرحل إليها في زمن الصيف كثير من الأغنياء لترويح النفوس وإراحة الأبدان .

(٦) وقد ظلت بورصة عاصمة الدولة العثمانية من سنة ١٣٢٧ إلى سنة ١٣٦١ ثم انتقلت العاصمة إلى أدرنة ثم إلى استانبول سنة ١٤٥٣ م .

(٧) بكر محمد إبراهيم ، الدولة العثمانية موسوعة التاريخ العثماني ، ط١ ، القاهرة ، مركز الراية للنشر والإعلام ، ١ح ، ٢٠٠٢ م ، ص ١٠٠ .

(٨) **الإنكشارية:** فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعايا الدولة الذين تم جمعهم مابين السادسة والخامسة عشرة من عمرهم من مختلف الولايات العثمانية في أوروبا ،في وقت معين من السنة وقد قدمت الانكشارية للدولة العثمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر خدمات كبيرة ،ثم فسد نظامها وأصبحت مشكلة كبيرة

في الدولة العثمانية. وقد تمردت على الدولة فأبا دهم السلطان محمود الثاني فـي مذبحة جرت في الأستانة١٨٢٦ م .

(٩) انظر إبراهيم الكيلاني، **مصطلحات تاريخية مستعملة** ، ص٣٥ .زيادة أبو

(١٠) غنيمة ، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، ط١، دار الفرقـان، ١٩٨٣م، ص٥٥،وأيضاً: انظر: حكمت قفلجملي،**التاريخ العثماني**،ت فاضـل لقمـان،دار الجليل ،دمشق، ١٩٨٧، ص١٨٩ وما بعدها.

(١١) كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ت نبيه أمـين الفـارس ، دار العلم للملايين ، بيروت ٢٠٠٥ ،ص٤١٤ وما بعدها ، محمود عـامر، **تـاريخ الدولة العثمانية**، منشورات جامعة دمشق ، ٢٠٠٤ ، ص٤٢ .

(١٢) محمد أنيس، **الدولة العثمانية والشرق العربـي**،١٥١٤~ ١٩١٤م ، مكتبـة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣ م ، ص ٢١٨ .

(١٣) سيار الجميل ، **العثمانيون وتكوين العرب الحـديث**، بيـروت ، مؤسـسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٩م ، ص ٧٥ .

(١٤) اسماعيل حقي أوزون تشارشلي، **التاريخ العثماني**، المجلد الثـاني، نـشره مجمع التاريخ التركي اتحاد المؤرخين الأتراك، أنقره ،ط٢ ، ١٩٨٤م، ص١٠٨، ومنهم من يقول في عهد السلطان أورخان ١٣٢٤ -١٣٥٩، وفريق آخـر مـن المؤرخين يشككون في صحة الرواية (لان الحتج بكداش كان قد توفى قبل إنشاء فرق الانكشارية بقرن من الزمن لكن الثابـت تاريخيـاً إن الانكـشارية كـانوا ملتصقين التصاقا قويا بالطريقة البكتاشية، انظر محمود الحويري: **تاريخ الدولـة العثمانية في العصور الوسطى**، المكتـب المـصري، القـاهرة ، ط١ ٢٠٠٢، ص٢٤٨ +٢٤٩.

(١٥) **الحجي بكطاش:** وهو مؤسس الطريقة البكطاشية وكان الحاجي بكطاش من كبار شيوخ خرسان وقد ولد في نيسابور ويقال بأن له كرامات كثيرة وكان معلمه هو الشيخ (لقمابرنده) والخوجة (أحمد ياسوي) انتشرت الطريقة البكطاشية بين المجاهدين والعسكر مع فتوحات العثمانيين كما انتشرت في البلقان ونهر الطونة إلى الأرناؤوط. وبني هناك الكثير من التكايا والساحات. كان خليفة حاجي بكطاش هو بابا اسحق والمؤسس الثاني لهذه الطريقة هو باليم سلطان في القرن الخامس عشر والسادس عشر.

(١٦) مفيد الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي في العصر العثماني**، عمان، دار أسامة للنشر،ط١ ، ٢٠٠٣ م ، ص ٨٢ .

(١٧) عبد الفتاح السيد، **نظام القضاء والإدارة في الدولة العثمانية**، القاهرة، مطبعة النهضة، ط١، ١٩٢٣م ، ص ١١٧. وأيضاً انظر محمود الحويري، **تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى**، ص٢٤٥.

(١٨) **دوفشرمه:** وهي كلمة تركية تكتب هكذاDosorme ، وفيما ما سبق كانت تكتب دوفشرمه بزيادة الفاء ولكن الأصح أن نكتب بدون فاء Dersime وهي أيضاً مصطلح عسكري ،وقد أطلق على أبناء المسيحيين المشردين في الشوارع،وكانوا يجمعون من شوارع البلدان المسيحية التي تم فتحها حديثا ،وخاصة من بلاد البلقان وذلك بهدف الإلتحاق بالإنكشارية أو للعمل في السراي وفسر زياد أبو غنيمة مصطلح الدوسشرمه؟ بأنها تعني الإسقاط أو السقوط وهي كلمتان فالأولى (الإسقاط) تعني عندما تسّقط الأم جنينها قبل إتمام شهور الحمل التسعة. وهي لاتطلق على المواليد الذين تكتب لهم الحياة وإنما الذين يموتون في الشهور الأولى من الحمل. أما (السقوط) فهو يعني سقوط شيء من على علو سواء كان إنسان أم جماد، وتطلق على الشيء المعنوي كالسقوط في هاوية

الرذيلة أو ما شابه ذلك من تغيرات كذلك تطلق على الأطفال اللقطـــاء والـــذين تلدهم أمهاتهم في السر .فيصبحون مشردين في الـــشوارع ،أو يوضـــعوا فـــي الطرقات أو على أبواب المساجد وأبواب الملاجئ وقد ساد فـــي بـــلاد العـــرب أطلاق كلمة داشر على الرجل الذي ليس له ولي أمر يرجع إليه في شؤونه كذلك الحال في المرأة فيقال لها (امرأة داشرة) أي لايعرف لها ولي أمر ترجع له في شؤونها.

وكلمة داشر لا تزال متعارف عليها في المجتمعات العربية حتى اليوم على أساس أنها تعني ذلك النوع من البشر ممن لا يلتزم بالمسؤولية وانجرف عن جادة الطريق دون الإلتزام بالتقاليد والعادات الإيجابية في مجتمعه وهذا النوع ينطبق على الجنسين من الذكور والإناث.

كما تأتي **كلمة ديوشر** بمعنى جمع الثمار والتقاطها في اللغة الفارسية.

(١٩) محمود السيد، **تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص ١٨١. وأيضاً: انظر: سونيا البنا، **فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية**، دار إيتراك، القاهرة،ط١ ٢٠٠٦ ،ص١٥

(٢٠) إسماعيل أوزون تشارشلي، **التشكيلات العسكرية العثمانيـــة**، أنقـــره، ١٩٥٨، ص٤٣ ومابعدها .

(٢١) المرجع نفسه، ص ٤٧ وأيضاً، انظر: أحمد جودت، **تاريخ جـــودت**، ١٢ج، استنبول ١٣٠١ هـــ، ج٤ ، ص٨٥ .

(٢٢) رضا نور، قورك تاريخي، **استانبول**، ١٩٢٤ ، ص ١٢٣ .

(٢٣) تشارشلي، مرجع سابق، ص ٥١ ومابعدها.

(٢٤) جودت، مصدر سابق، ج٤ ، ص٨٨، وأيضاً: انظر: محمد نجم الدين القرماني، **تاريخ سلاطين آل عثمان**، ط١، دمشق، البصائر،١ح، ١٩٧٠م، ص١٥٥.

(٢٥) محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، ط١، بيروت، دار النفائس، ١ح، ١٩٩٣م ، ص ٣٨٧ .

(٢٦) نور، قورك تاريخي، مرجع سابق ،ص ١٢٥وأيضاً انظر: عبد المنعم الهاشمي، **الخلافة العثمانية**، ط١، بيروت، دار ابن حزم، ح١، ٢٠٠٤م، ص٢١٠.

(٢٧) أحمد سعيد برجاوي، **الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري**، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع،ط١، ١٩٣٣ م ، ص ٢٢٣ .

(٢٨) **الواقعة الخيرية**: وهو الاسم الذي أطلق على حادثة إلغاء الإنكشارية فيما بعد. حيث ألغيت الانكشارية من الدولة العثمانية في ١٦ حزيران عام ١٨٢٦م ، بعد أن عاشت ٤٦٤ سنة إذا سلمنا بإنشائها عام ١٣٦٢ م.

(٢٩) تشارشلي، **التشكيلات العسكرية في الدولة العثمانية**، مرجع سابق، ص٦١.

(٣٠) محمد جميل بيهم، **فلسفة التاريخ العثماني**، بيروت، ط١، ١٩٥٤م، ص ١٨٥.

(٣١) البنا: مرجع سابق، ص١٣ وأيضاً: زكريا سليمان بيومي، **قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين**، ط١، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٩١م، ص ١١١

(٣٢) جودت: مصدر سابق، ج٤ ،ص٨٩ وأيضاً: أسامة أحمد تركماني، **جولة سريعة في تاريخ الأتراك والتركمان**، ط١، حمص، دار أسامة للنشر، ١ح، ٢٠٠٧م، ص ٢٠٨ .

(٣٣) جودت: المصدر نفسه، ج٩١ وأيضاً: إسماعيل سرهنك، **تاريخ الدولة العثمانية**، ط ١، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٩٣

(٣٤) نور، قورك تاريخي، مرجع سابق، ص ١٣٤، وأيضاً: محمد كامل الدسوقي، **الدولة العثمانية والمسألة العثمانية**، ط١، القاهرة، دار الثقافة،١ح، ١٩٧٦م، ص ١٧٧ .

(٣٥) خليل إينالجيك: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية**، ٢مج، ت عبد اللطيف الحارس، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٧، مج١، ص١٦٠.

(٣٦) سونيا: **فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية**، مرجع سابق، ص ١١٥ وأيضاً : يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، استانبول، مؤسسة فيصل للتمويل تركيا، ط١، ١٩٩٠م، ص ٣٤١ .

(٣٧) أكمل الدين إحسان أوغلي، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ترجمة صالح سعداوي، استانبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، ١٩٩٩م ، ج١ ،ص ٢٨٧ .

(٣٨) تشارشلي،**التشكيلات العسكرية العثمانية**، مرجع سابق،ص ٦٨

(٣٩) خليل اينالجيك، **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، ت محمد الارناؤوط، بيروت، دار المدى الإسلامي، ط٢٠٠٢،١، ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤٠) سونيا محمد سعيد البنا، **فرقة الإنكشارية نشأتها ودروها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية**، مرجع سابق ، ص٣٩٥ +٣٩٦.

(٤١) أماني بنت جعفر بن صالح الغازي، **دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية (الجيش الجديد)**، القاهرة، دار القاهرة، ط١ ، ٢٠٠٧ م ، ص٢٦٥.

(٤٢) تشارشلي: مرجع سابق ،ص٤٨٢ ومابعدها.

(٤٣) أوغلي، مرجع سابق، ص ٣٧٧ .

(٤٤) سرهنك، مرجع سابق، ص ٢٠١ .

المصادر والمراجع

- **مصادر عثمانية**

ا٠أحمد جودت باشا ، تاريخ جودت ،١٢ج ،استانبول ١٣٠١ ه

ب٠رضا نور، قورك تاريخي ،استانبول ،١٩٢٤ م

- **المراجع**

١. إبراهيم، بكر محمد، الدولة العثمانية موسوعة التاريخ العثماني، ط١، القاهرة، مركز الراية للنشر والإعلام ، ١ح ، ٢٠٠٢ م .

٢. أبو غنيمة، زيادة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، ط١، دار الفرقان، ح١، ١٩٨٣م، ص٥٥.

٣. إينالجك، خليل: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ترجمة عبد اللطيف الحارس،٢مج ، بيروت ،دار المدى الإسلامي، ط١ ، ٢٠٠٧.

: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الارناؤوط ، بيروت، دار المدى الإسلامي،ط١ ٢٠٠٢ .

٤. البنا، سونيا محمد سعيد، فرقة الإنكشارية نشأتها ودروها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، القاهرة، إيتراك للنشر والتوزيع، ط١ ، ٢٠٠٦ م.

٥. الجميل، سيار، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ط١، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية،ح١، ١٩٨٩م .

٦. الدسوقي، محمد كامل، الدولة العثمانية والمسألة العثمانية، القاهرة، دار الثقافة، ط١ ١٩٧٦ .

٧. السيد، عبد الفتاح، نظام القضاء والإدارة في الدولة العثمانية، القاهرة، مطبعة النهضة، ١٩٢٣م.

٨. السيد، محمود، تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، الإسكندرية، مؤسسة شباب

الجامعة،٢٠٠٤ م.

٩. الشناوي، عبد العزيز،الدولة العثمانية دولة مفترى عليهـا، ٢ج ، القـاهرة،دار الثقافة، ١٩٨٤.

١٠. الغازي، أماني بنت جعفر بن صالح، دور الإنكشارية في إضـعاف الدولـة العثمانية (الجيش الجديد)، القاهرة، دار القاهرة ، ٢٠٠٧ م .

١١. القرماني، محمد نجم الـدين، تـاريخ سـلاطين آل عثمـان، ط١، دمـشق، البصائر،١ح، ١٩٧٠م،ص١٥٥

١٢. المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقـي، ط١، بيروت، دار النفائس، ١ح، ١٩٩٣م .

١٣. الهاشمي، عبد المنعم، الخلافة العثمانية، ط١، بيروت، دار ابـن حـزم، ح١، ٢٠٠٤م.

١٤. أنيس، محمد، الدولة العثمانيـة والـشرق العربـي،١٥١٤~ ١٩١٤م، ط١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،١ح، ١٩٩٣م ،.

أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمـود سـلمان، مراجعـة وتنقيح محمود الأنصاري،٢ج، استانبول، مؤسسة فيصل للتمويل تركيا، ١٩٩٠م.

١٥. أوغلي، أكمل الدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ٢ج، ترجمـة صالح سعداوي، استانبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسـلامية باستانبول، ، ١٩٩٩م .

١٦. بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ت نبيه أمين الفارس ،بيروت، دار العلم للملايين ،٢٠٠٥ .

١٧. برجاوي، أحمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعـسكري، ط١ ، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١ح ، ١٩٣٣م.

١٨. بيهم، محمد جميل ، فلسفة التاريخ العثماني، ط١، بيروت، ١ح، ١٩٥٤م.

١٩. بيومي، زكريا سليمان، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ط١، القـــاهرة، دار الثقافة، ح١، ١٩٩١م.
٢٠. تركماني، أسامة أحمد، جولة سريعة في تـــاريخ الأتـــراك والتركمـــان، ط١، حمص، دار أسامة للنشر، ١ح ، ٢٠٠٧م.
٢١. قفلجملي، حكمت ،التاريخ العثماني ، ت فضل لقمان ،دمـــشق ، دار الجيـــل، ١٩٨٧ .
٢٢. تشارشلي، اسماعيل حقي أوزون، التاريخ العثماني، المجلد الثـــاني، الطبعـــة الثانية، أنقرة، نشر مجمع التاريخ التركي-اتحاد المؤرخين الأتراك، ١٩٨٤ م.
التشكيلات العسكرية العثمانية، انقره ،١٩٥٨:
٢٣. سرهنك، إسماعيل، تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكـــر الحـــديث، بيـــروت، ١٩٨٨م.
٢٤. الزيدي، مفيد ،موسوعة التاريخ الإسلامي في العصر العثمـــاني، عمـــان دار أسامة للنشر ،ط١ ٢٠٠٣
٢٥. الحويري، محمود ،تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوســـطى، القـــاهرة، المكتب المصري ،ط١،٢٠٠٢ .
٢٦. عامر، محمود، تـــاريخ الدولـــة العثمانيـــة، دمـــشق، منـــشورات جامعـــة دمشق،٢٠٠١ م .

موقف الولايات المتحدة الأمريكية من ثورة ١٤تموز١٩٥٨في العراق في مدونات وزارة الخارجية الأمريكية

الأستاذ الدكتور أسامة عبد الرحمن نعمان الدوري

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة بغداد

-المقدمة

تكمن أهمية البحث بأنه أماط اللثام عن الاهتمام الأمريكي المتزايد بشؤون "الشرق الأوسط"، وكيف حلت واشنطن محل لندن في الهيمنة على المنطقة، سيما وأن لواشنطن مصالح اقتصادية واستراتيجية متزايدة .

عند اطلاعي على الوثائق الأمريكية الخاصة بالعام ١٩٥٨ وجدت أن هناك إسلوبا جديداً في معالجة التطورات التي شهدتها الساحة العراقية في تموز ١٩٥٨، تراوحت بين الموقف السياسي والتلويح بالقوة العسكرية ولو بشكل غير مباشر، (الإنزال الأمريكي في لبنان)، ويبدو أن مسالة الحرب الباردة ومحاولة عدم تحريك الشعور القومي العربي، كانت عاملاً أساسياً لاتخاذ ذلك الموقف، وهي أمور سيوضحها البحث.

1. العلاقات العراقية – الأمريكية حتى عام ١٩٥٨

تركز الاهتمام الأمريكي في العراق منذ أواخر القرن التاسع عشر على الجانب التجاري ثم امتد إلى الجانب التبشيري والآثاري، ومن ثمَّ إلى الجانب الأكثر أهمية، بعد، وهو النفط (١) .

ومع وصول الرئيس أيزنهاور Dwight David Eisenhower إلى دست الحكم بين ١٩٥٣-١٩٦١(٢)، وتبنيه مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط ودول الحزام الشمالي، وزيارة وزير خارجيته جون فوستر دالاس J.F.Dulles(٣) إلى بغداد يوم ١٧ أيار /مايو ١٩٥٣، وما أن أيقن الأمريكان بإستعداد العراق للإنضمام للترتيبات الدفاعية الجديدة حتى وقعّت الحكومتان العراقية والأمريكية على إتفاقية المساعدة العسكرية في ٢١ نيسان /أبريل١٩٥٤ (٤)، تضمنت تعهد واشنطن لبغداد بتقديم مساعدات عسكرية عرفانا لتوجهات الأخيرة نحو المعسكر الغربي.

هيأ توقيع الاتفاقية لواشنطن موقعاً أكثر تميزاً في العراق، ولا نغالي إذا ماأشرنا إلى أنه زحزح العلاقات التقليدية بين العراق وبريطانية (٥).

ومن الجدير بالملاحظة أن ماوصلت إليه العلاقات بين بغداد وواشنطن من تطور، لم تمنع الدبلوماسي الأمريكي الأول في العراق، ولدمارغلمن W.Gallman (٦)، من إعطاء صورة حقيقية ومتكاملة عن أوضاع العراق الداخلية، اذ همس لخارجية بلاده " أن هناك هوّة بين الشعب والحكومة" (٧).

كانت تلك الاتفاقية مقدمةً لدخول العراق حلف بغداد، الذي روّجت له واشنطن، ولكنها لم تدخله إلاّ بصفة مراقب، ذلك الحلف الذي زاد الجفوة والتباعد بين الشعب ونظام الحكم الملكي في العراق، على الرغم من أن لذلك النظام وجهة نظر، لا تخلو من قناعات سياسية، أثارها خليل كنة، أحد المسؤولين أيام العهد الملكي، في كتابه " العراق أمسه وغده" (٨) .

وفي ضوء ذلك التقارب العراقي الأمريكي إرتفع حجم المساعدات الأمريكية للعـراق عام ١٩٥٧ الى ٣٣،٤ مليون دولار [٩].

ولابد من الإشارة إلى أن العراق رحب بمبدأ آيزنهاور الذي أعلنه الرئيس الأمريكـي في الخامس من كانون الثاني ١٩٥٧ والذي اعتبر أمن "الشرق الاوسط" أمـر حيـوي للولايات المتحدة الأمريكية ، وتضمن استخدام القوة ضد أي اعتداء مباشر يقـوم بـه الاتحاد السوفيتي على إحدى الدول الموالية في "الشرق الأوسط" فـضلاً عـن تعهـده بتقديم مساعدات لدول المنطقة لتحقيق الاستقرار. ومن جهته اعتبر نوري السعيد،أحد أبرز أركان النظام الملكي يومئذ، بل مهندس سياسة العراق الخارجية طيلـة العقـود الثلاثة الأخيرة من العهد الملكي، إن ذلك المبدأ ضمانةً ضد أي عدوان شيوعي، ومن جهته زار ولي العهد عبدالإله واشنطن لمناقشة الموضوع مع المسؤولين الأمريكـان، إضافة لموضوعات أخرى [١٠].

وأمام ذلك اقتنعت الإدارة الأمريكية أكثر مـن أي وقـت مـضى ضـرورة تقـديم المساعدات العسكرية للعراق لضمان مشاركة العراق الفعّالة في حلف بغـداد، فـضلاً عن اعتباره واحداً من دعامات السياسة الغربية في المنطقة، لاسيما وأنها كانت تواقة لأن يوفر لها العراق التسهيلات العسكرية عند الحاجة[١١] .

وعلى الرغم مما وصلته العلاقات الأمريكية العراقية، في جوانبها المختلفة، من تقدم، إلاّ أنّ غلمن لم يُخفِ عن حكومة بلاده واقع الحال في العراق فقـد كتـب موضـحاً ضعف الحكومات العراقية وابتعادها عن شعبها وهشاشة الوضـع ببغـداد، وتكفـي الاشارة إلى أنّ غلمن وصف الاتحاد الهاشمي الذي أعلن في شباط ١٩٥٨ بأنه "خطوة واقعية باردة"، ولا "يشكل استجابة شعبية"[١٢] .

وما يؤكد ذلك شكوى المسؤولين العراقيين لسلوين لويد، وزير الخارجيـة البريطانيـة والذي نقله لنظيره الأمريكي هيرتير Christian Archibald Herter [١٣]، مـن خـوف

المسؤولين العراقيين وقلقهم، الذي عبّروا عنه أثناء لقائه بهم وهو في طريقه إلى مانيلا، مؤكداً أنّهم يتصرفون وكأن نهايتهم خلال ستة أشهر وأنهم بحالة قلق واضحة، وجراء تبادل الرأي مع السفارة الأمريكية ببغداد حول الموضوع أوصى غلمن حكومته ضرورة اتخاذ الخطوات لتعزيز معنويات القادة العراقيين(١٤) .

إنّ ذلك كله يعني أنّ الإدارة الأمريكية كانت على دراية كاملة بالواقع السياسي المنهار في العراق. وما يؤكد ذلك نصيحة السفير الأمريكي ببغداد وتشجيعه لحكومة السعيد، على القيام ببرنامج إصلاحي لتقريب الفجوة الكبيرة بين الحكومة والشعب، بل أنّه حذّر من أيام عصيبة تنتظر العراق، ومع كل تلك الصورة القاتمة التي عرضها، إلاّ أنّ غلمن طمأن خارجية بلاده بقدرة ولي العهد ونوري السعيد في الحفاظ على أعصابهما (١٥) .

إن التطورات المتلاحقة والسريعة على الصعيد الداخلي العراقي والإقليمي، طرحت نفسها بقوة على طاولة المحادثات التي جرت في واشنطن بين الحكومتين البريطانية والأمريكية قبل ثلاثة وثلاثين يوما فقط من ثورة العراق، حتى أنّ الوثائق الأمريكية أسمت تلك المحادثات باسم "الوضع في العراق" والتي جرت في ٩-١١ حزيران ١٩٥٨، إشترك فيها الرئيس الأمريكي آيزنهاور ووزير خارجيته دالاس وعدد آخر من المسؤولين الأمريكيين، ومثّل الجانب البريطاني رئيس الوزراء ماكميلان Maurice Harold Macmillan(١٦)، تناولت وضع العراق الصعب، ومحاولات نوري السعيد ضم الكويت للإتحاد الهاشمي، ومحاولات الأخير الحصول على الأموال لسد عجز ميزانية الإتحاد، وفي الوقت الذي يُشم من حديث ماكميلان عدم رضاه عن نوري السعيد، إلاّ أنّه اعترف أنّ انهيار الاتحاد سيشكل ضربةً قويةً لمصالحهم في المنطقة ولهذا أخذ برأي راونتري W.M.Rountree، مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون "الشرق الادنى" وجنوب آسيه والشؤون الأفريقية، والعراق والأردن ضمن دائرة مسؤوليته، بدعم الإتحاد بـ (٣٧) مليون دولار حتى أيار ١٩٥٨(١٧) .

ولكن مايثير الاستغراب حقاً أنّه في الوقت الذي حذّر غلمن من تردي الأوضاع الداخلية العراقية وماطرحه ماكميلان مع الرئيس حول وضع العراق الصعب، إلاّ أنّ المخابرات المركزية الأمريكية، ذلك الجهاز الذي دسّ أنفه في كل مكان في العالم، أهمل في تقريره، يوم الثالث من تموز، دور وحجم المعارضة العراقية واعتبرها غير ذات جدوى، على الرغم من أنّها عترفت بانتشار المفاهيم المناهضة للغرب وبروز المفاهيم القومية، لثقتها بقدرات الأجهزة الأمنية في إحتواء الإضطرابات إن وقعت [١٨] .

وقبل قلب هذه الصفحة التمهيدية من العلاقات العراقية- الأمريكية في واقعها السياسي، لابد من معرفة ماوصلت إليه العلاقات في جوانبها الأخرى، إذ تكفي الإشارة إلى أنّ عدد الأمريكان في العراق وصل إلى ألفي شخص يوم ١٤ تموز ١٩٥٨[١٩]، مثلما تنامى عدد الدبلوماسيين الأمريكان ليصل إلى (٤٤) موظفاً عام ١٩٥٧[٢٠]، إنّه رقم له معناه في تلك المرحلة، ناهيك عن أعضاء البعثة العسكرية الأمريكية .

كما أصبح للأمريكان مدارس ومعاهد وكليات في العراق، وتزايدت أعداد الطلبة العراقيين الدارسين في المؤسسات العلمية الأمريكية، حتى أصبح لخريجي تلك المؤسسات الأكاديمية دور في إدارة دفة العديد من مؤسسات الدولة العراقية بالعهد الجمهوري[٢١] .

ومع كل هذا المركز المتقدم لبلاده في العراق لامَ السفير الأمريكي في بغداد حكومة بلاده لأنها " لم تلعب دوراً حاسماً في العراق لا إقتصادياً ولا سياسياً " [٢٢]. وظهر ندمه الشديد عندما كتب: "إن حاجات العراق لم تكن تحتل مقام الأفضلية في الولايات المتحدة الأمريكية" [٢٣] .

٢ . أسباب ثورة ١٤ تموز وأحداثها:

لم تكن ثورة ١٤ تموز وليدة يومها، بل أمضى الضباط الأحرار في تنظيمهم سنوات عديدة، حملوا خلالها هموماً تراكمية بطيئة وتدريجية [٢٤]، ويبدو ذلك واضحاً من أهدافهم بالتحرر السياسي والاقتصادي والتقدم والعدل الاجتماعي واعتبارهم الوحدة العربية هدفاً مصيرياً [٢٥].

كان للثورة أسبابها وأهدافها، برز منها (١٣) مبدءاً، كما أشار العقيد الركن صبيح علي غالب، أحد الضباط الأحرار، تضمن البند الثاني " مكافحة الاستعمار والقضاء على الأحلاف والقواعد العسكرية"[٢٦]، وحدد البند الثاني عشر طبيعة علاقات حكومة الثورة الخارجية، كما ورد في البيان الأول للثورة، على لسان العقيد الركن عبدالسلام محمد عارف،الرجل الثاني في قيادة الثورة بعد عبدالكريم قاسم[٢٧]، "تلتزم بالعهود والمواثيق وفق مصلحة الوطن وبقرارات مؤتمر باندونغ "[٢٨].

ومن الجدير ذكره هنا، أنّ الميثاق الوطني الذي اتفق عليه الضباط الأحرار لم يهتم بتأميم النفط ، على الرغم من أنّه من الموضوعات المحببة للوطنيين والقوميين، خشية انتقام دول الامتيازات النفطية وأبرزها بريطانية والولايات المتحدة الأمريكية ولما يجره ذلك من عواقب بالجانب الاقتصادي. أما في السياسة الخارجية فإنّهم إتفقوا على عدم ارتباط العراق بعجلة الغرب ولهذا لم يتخذوا قراراً بالانسحاب من حلف بغداد، وترك موضوع الإنسحاب لتقديرات الحكومة الجديدة، وعدم الإساءة لعلاقات العراق الودية مع جيرانه، تركية وايران، واتباع سياسة عدم الانحياز والإلتزام بميثاق الجامعة العربية وشرعة الأمم المتحدة [٢٩] .

اعترف عدد من البريطانيين والأمريكان، بأنهم لايعلمون شيئاً عن تنظيم الضباط الأحرار، إلاّ النذر اليسير، إذ أشار سام بول[٣٠] شخصياً " بقوله: لم تكن لدينا نحن

البريطانيون ومن المفترض أيضاً الامريكان، استخبارات خاصة بنشاط الضباط الأحرار" (٣١) .

وعلى الرغم من أنّ ثورة ١٤ تموز شكّلت مفاجأةً لبريطانية والولايات المتحدة الأمريكية إلاّ أنّ أركان سفارتي البلدين كانوا يدركون حجم التذمر العارم بين المدنيين والعسكريين(٣٢)، كما حذّرت شخصيات عراقية قريبة من السلطة الحاكمة الملك شخصياً من خطورة الأوضاع الداخلية، ومنهم السيد محسن أبو طبيخ (٣٣)، بل إنّ خليل كنّه الذي قابل الملك قبل إسبوع واحد من إندلاع الثورة حذّره هو الآخر من خطورة الاوضاع (٣٤).

وفي جانب آخر من صورة الثورة، أنّه في الوقت الذي أججت النداءات الإذاعية مشاعر الجماهير التي خرجت إلى الشوارع مرحبةً بالثورة وعبّرت بشتى الوسائل عن حنقها للنظام الملكي وللمصالح الغربية، سواء منها البريطانية أو الأمريكية، قابله توازن في البيان الأول، الذي تضمن عبارات لتهدأة خواطر القوى الأجنبية خشية تفكيرها بتدخل عسكري، وهذا بحق يعبّر عن إدراك القادة العسكريين الذين قاموا بالثورة بتقدير الموقف بشكل واقعي، على الرغم من أنّها بدأت تمسك بالأرض وتنال تاييداً جماهيرياً كبيراً، وبهذا لم يعد ماقام به الضباط الأحرار مجرد إنقلاب عسكري بل نالت تأييد الجماهير لإنهاء الأوضاع التي كانت سائدة في العراق.

لم تقف إجراءات قيادة الثورة بتأجيج دور الجماهير وحسب بل اتخذت السلطات العسكرية إجراءاتٍ عديدةٍ لضمان نجاح الثورة، ومن بين تلك الإجراءات تطويق عدد من سفارات الدول وتحديداً البريطانية والأمريكية، إذ طوّقتها قوات عراقية بعد ساعة واحدة من الهجوم على القصر الملكي وبيت نوري السعيد، وبدأوا بتفتيش كل من يريد الدخول أوالخروج كما فتشت البنايات الأمريكية القريبة (٣٥). وحاولت تلك القوات تجريد السفارة من القدرة على الاتصال بالخارجية الأمريكية، خشية أي تدخل

عسكري خارجي، فطلبوا من أركان السفارة تسليمهم أجهزة اللاسلكي، كما إحتجزت موظفي السفارة داخل مبنى السفارة للحيلولة دون حصولهم على أية معلومات موثقة بشأن مايجري ببغداد، ولم يمض يوم واحد إلاّ وعُززت تلك القوات التي طوّقت السفارة الأمريكية بقوات مدرعة [٣٦]، إدراكاً من الضباط القائمين بالثورة بعدم تكرار ماحدث عام ١٩٤١ من تدخل السفارات الأجنبية في العاصمة،إذ سبق أن لعبت المفوضية الأمريكية ببغداد دوراً مشبوهاً في إجهاض انتفاضة العراق ضد البريطانيين.

لقد عمل قادة الثورة كل جهودهم لتفادي أي تدخل أجنبي، لاسيما وأنّه كانت هناك بوادر تدخل لإجهاض الثورة من قبل دول حلف بغداد والأردن، وهذا ماأشار إليه ثاني أبرز قادة الثورة في مذكراته بقوله:"كنا ندرك أنّ حركتنا لابد أن تواجه بهياج إستعماري" [٣٧]، ولذلك تركزت سياسة حكومة الثورة على منع التدخل الأجنبي بشتى الوسائل، فقد أعلنت وبالبيان الأول أنّها تلتزم بالاتفاقيات الدولية كما حاول قادة الثورة بتصريحاتهم تطمين الجهات الأجنبية بعدم المساس بمصالحهم في العراق [٣٨]، ولكن اندفاع الجماهير الغاضبة نحو السفارة البريطانية محاولين حرقها وكسر أبوابها وتحطيم تمثال الجنرال ستانلي مود، القائد البريطاني الذي احتل بغداد عام ١٩١٧، بإعتباره رمزاً للإستعمار، وبحماية من الجيش نقلت هيئة السفارة إلى فندق بغداد، كما هاجمت الجماهير عدداً من رموز العهد الملكي، واكتسحت تلك الموجة العنيفة عدداً من الأجانب، إذ قتل عدد من الأمريكان، كما سنتناول ذلك تفصيلاً فيما بعد، [٣٩]. وهكذا جمعت ثورة تموز بين طبيعتها العسكرية وغضب الجماهير الشعبية [٤٠].

٣. موقف واشنطن الأولي من قيام ثورة ١٤ تموز

وصف ولدمار غلمن، سواء ببرقياته أوبمذكراته، ماجرى ببغداد فجر ١٤ تموز وصفاً دقيقاً مشيراً إلى أنّ كلَ شيء قد تغير قبل نهاية ذلك اليوم مركزاً: "أن الجماعة

الصغيرة التي خططت للإنقلاب بمنتهى الكتمان قد نالت نجاحاً مذهلاً ...وكان واضحاً من البداية أنّ النظام الجديد لايمكن الإطاحة به إلاّ بقوة خاطفة ومتفوقة من الخارج". وهمس لحكومته أنّ "السفارة محاطة بالدبابات والقوات مخيمة في أرض السفارة، لحمايتنا "، وينقل بمنتهى الذكاء للإستدلال على حقائق ماجرى تجاه بلاده "إن تلك القوات لم تتدخل حين علقت على مدخل السفارة لافتة ... ورسمت شعارات معادية لأمريكا على أسوار حديقة السفارة وبدلاً من منع هذه التحريضات كان حماتنا منهمكين في تفتيش كل من يدخل السفارة أو يغادرها " [٤١]، إنّ تلك الإيماءات للسفير الأمريكي تؤشر إلى أنّ تعامل السلطات العسكرية المحيطة بالسفارة تنم عن عداء للأمريكان، وفي أقل الأحوال حذر وترقب من أي تصرف للسفارة قد يكون معادياً للثورة.

إنّ إجراءات الحكومة العراقية الجديدة تجاه السفارة الأمريكية وما عبر عنه السفير الأمريكي تؤشر أنّ عدم الثقة بين الطرفين منذ اللحظات الأولى، ولهذا أرادت السفارة الأمريكية أن تنأى بنفسها في مثل هذه اللحظات الحرجة إذ استطاعت أن تهرّب عبدالكريم الأزري وزير مالية الاتحاد العربي، الذي التجأ إلى السفارة حال سماعه نبأ الثورة[٤٢]، حتى أنّه أصبح مترجماً لكل بيانات الحكومة العراقية الجديدة [٤٣]، لاسيما وأن السفير الأمريكي لم يتسلم أي تعليمات من حكومته وخشيةً من المجابهة مع السلطات العراقية، اتفق مع الأزري على تهريبه فالبسوه " بزة سائق في السفارة واصطحبه أحد موظفي السفارة فمرت السيارة بالحرس واجتازت الدبابات دون أن يتحداها أحد، ووصل الأزري إلى مكان آمن وعاد الموظف وحده دون أن يفطن الحرس إلى عدم وجود السائق "؟! [٤٤]، ربما أراد السفير الأمريكي القول وبأسلوب تهكمي أنّ تلك القوات كانت ساذجة والأمر لايعدو أن يكون إستعراض عضلات مهلهلة .

وإذا كان تهريب الأزري يدل على محاولة السفارة الأمريكية النأي بنفسها عما يجري ببغداد، إلا أنّ إختراقها التعليمات والاحتفاظ بجهاز إرسال برقي في الوقت الذي طالبت السلطات العراقية تسليم أجهزة الاتصالات (٤٥)، يدل على أنّ السفارة الأمريكية بدأت تأخذ منحىً آخر تجاه الثورة، ليس هذا وحسب بل إنّها أصبحت الوسيلة التي تتصل من خلالها السفارة البريطانية ببغداد بحكومتها إذ تبرق لواشنطن ثم تتحول المضامين حرفياً إلى الخارجية البريطانية، بعد أن انقطعت اتصالاتها مع لندن منذ الساعة التاسعة من صباح ١٤ تموز.

واللافت للنظر أن تنسيقاً جرى بين السفارتين البريطانية والأمريكية ومنذ الساعات الأولى للوقوف ضد نجاح الثورة بل ويمكن القول محاولة إجهاضها، ولكن بالشكل الذي لايثير إنتباه وإهتمام قادة الثورة الجدد، لأسباب تتعلق بالوضع الإقليمي والدولي والمصالح النفطية في العراق، وما يؤكد عمق العلاقة والتعاون في تلك الساعات ماعرضه السفير الأمريكي على السفير البريطاني وزوجته، بأن يهيء لهما ملاذاً أكثر أمناً داخل السفارة الأمريكية وفي أي وقت يشاءان (٤٦)، ناهيك عن آرائهما المشتركة في اليوم الأول والثاني بإمكانية الإطاحة بالنظام الجديد بالقوة.

وإذا كان ذلك ماجرى في السفارة الأمريكية ببغداد يوم الثورة، فإن ماجرى بواشنطن يكشف عن موقف أكثر وضوحاً للموقف الأمريكي من الثورة، فبعد أن أبرق غلمن لحكومته صباح ١٤ تموز ليعلمهم بما جرى في بغداد اتصل وزير الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس هاتفياً بالرئيس الأمريكي آيزنهاور في الساعة الثامنة وتسع وعشرون دقيقة من صباح ١٤ تموز حسب توقيت واشنطن ليبلغه بأنّ إنقلاباً قد وقع في العراق، كانت الساعة في بغداد حينها الرابعة وتسع وعشرون دقيقة عصرًا (٤٧)، أي بمعنى آخر أنّه عندما وصلت برقية غلمن واتصال الوزير دالاس بالرئيس الأمريكي كان قادة الثورة قد سيطروا على المفاصل المهمة في العاصمة بغداد.

وعلى أية حال علّق الرئيس بقوله:" يبدو الآن كأن لديك عالم عربي موحد الكلمة ضدنا"، إنّه قول ينمُ عن خيبة أملٍ من إنحسار النفوذ الأمريكي في واحدة من أهم قلاعهم في المنطقة العربية . وللبحث في مصير ما تبقى من معاقلهم في المنطقة، ناقشا انعكاساتها على الأردن ولبنان ودول حلف بغداد الإسلامية، ويبدو أنّ القادة الأمريكان ساورهم القلق جراء السياسة الأمريكية تجاه المنطقة العربية وغير المقبولة من شعوبها، ولذلك قال للرئيس: " نشعر دائماً بأننا سنفقد العالم العربي ولكننا لانريد أن نفقد ثقةَ هذه الدول تحت أي ظرف كان"، ونتيجة لإجراءات قادة الثورة تجاه السفارتين البريطانية والأمريكية، وعدم القدرة على تغطية التطورات الداخلية المتسارعة في بغداد، أكد الوزير للرئيس أنّه لايمتلك أية فكرةٍ عما حدث في بغداد " لأنها حدثت بسرعة ولكن يعتقد بوجوب عقد إجتماع اليوم ".

انعقد مجلس الأمن القومي الأمريكي، وأكد على أهمية جمع المعلومات وارتأى أهمية عقد اجتماع محدود مع وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية وهيئة الأركان المشتركة (٤٨).

وإذا كان ذلك فحوى الحديث الهاتفي بين الرئيس آيزنهاور ودالاس، وما يكشفه من جهل بحقيقة أوضاع العراق السياسية، فإن الرئيس نفسه اعترف في مذكراته: "أنّه في صباح يوم الاثنين ١٤ تموز ١٩٥٨صُدمت بإستلام أخبار بحدوث إنقلاب في بغداد ضد العائلة الهاشمية، هذا البلد كنا نعتبره من المناطق والمواقع المتينة والرصينة والمحصنة والمستقرة والمتقدمة في المنطقة"، وهكذا، كما قال الرئيس الأمريكي: "تحولنا بين عشية وضحاها من حالة الهدوء إلى القلق والمشاكل لمواجهة الأزمة الجديدة بما يناسب حجمها الهائل" (٤٩).

وبناءً على الإتفاق بين الرئيس ووزير خارجيته، اجتمع الرئيس مع مجموعة من مستشاريه للشؤون الخارجية والأمن القومي، لمناقشة تطورات الأحداث المتسارعة في

العراق وانعكاساتها على دول منطقة "الشرق الاوسط" ، صباح ١٤ تموز وتحديداً في الساعة العاشرة وخمسين دقيقة، أي بعد ساعتين وواحد وعشرين دقيقة فقط من اتصال دالاس الهاتفي به، حسب توقيت واشنطن، أي الساعة السادسة وخمسين دقيقة مساءاً بتوقيت بغداد، وإستناداً لما ذكره المتحدث باسم اجتماع الجنرال أندرو كودباستر General Andrew Goodpaster، افتتح مدير المخابرات المركزية الأمريكية آلن دالاسAllen Welsh Dulles (٥٠) الاجتماع بإعطاء موجزعن الوضع في العراق ولكن لم يكن دقيقاً في معلوماته، تطرّق فيه إلى أنّه " طبقاً لما ورد من تقارير من إذاعة بغداد التي يسيطر عليها المتمردون، فإنّ ولي العهد قد مات وربما نوري السعيد كذلك، ومصير الملك غير واضح"، وهذا يؤشر تخبط المخابرات المركزية الأمريكية وعدم إمتلاكها المعلومات الصحيحة اذ لم يقتل نوري السعيد عند عقد الاجتماع، ويبدو من سؤال طرحه وزير الخارجية لأخيه مدير المخابرات المركزية، يمكن أن يستشف الباحث أنّ المجتمعين كان يدور بخلدهم الأمل بإجهاض الثورة في مهدها، عندما سأله: "ألا توجد أية تقارير عن موقف القوات العراقية خارج بغداد؟".

وفي ضوء هذه الوقائع على الأرض ناقش المجتمعون إمكانية التدخل الأمريكي في لبنان وعواقب مثل هذا القرار(٥١).

ومن جهة ثانية أشار جون فوستر دالاس إلى أنّ هناك فرصة جيدة، بتحرك الأتراك إلى داخل العراق، وإزاء هذه الصورة عن الأوضاع بالمنطقة أوضح الرئيس: "بأنّ علينا التصرف سريعاً أو الخروج من "الشرق الاوسط" ،وعندما سأل وزير الخزانة "ماذا ستفعل "إسرائيل" لو دخلنا إلى الأردن أو العراق"، كان رد دالاس: "بأنها ستبقى خارجاً، إذا ماقمنا بعملية التدخل " (٥٢).

وهنا لابد من الإشارة إلى رسالة مشتركة بعثتها الملحقية العسكرية الأمريكية في العراق إلى كل من القوة الجوية والبرية والبحرية الأمريكية المرقمة ,CX39 أرسلت

في الساعة التاسعة وخمس دقائق حسب توقيت بغداد من يوم ١٤ تموز جاء فيهـا أنّ إنقلاباً نفذه مجموعة من الزعماء والعقداء قد جرى، وأنّ حكومة جديدة تسيطر علـى بغداد..، ولقد تمّ إصدار سلسلة من القرارات الجمهورية عن طريـق راديـو بغـداد تضمنت تعيين الزعيم عبدالكريم قاسم رئيساً للوزراء ووزيراً للـدفاع [٥٣]، والعقيـد عبدالسلام محمد عارف نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية والزعيم أحمـد صـالح العزي[٥٤] رئيساً لأركان الجيش، وضمت قائمـة الـوزراء عـدداً مـن اليـساريين والناصريين ولا توجد أي معلومات الآن تخص الملك ونوري السعيد، أو أي واحد من أعضاء الحكومة السابقة، وأنّ القوات التي تحمي السفارة الأمريكية الآن هـي تحـت إمرة قوانين الحكومة الجديدة. وتمّ فرض حظـر التجـوال فـي مدينـة بغـداد [٥٥]، وإنتشرت الدبابات وتمّ غلق المطار وحملت اللافتات التي ترفع صور الرئيس جمـال عبدالناصر وبشكل واضح جداً والناس تهتف بحياته، وبإشارة لها مغزاها نوهت تلـك الوثيقة إلى عدم معرفة وجهة نظر القطعات العراقية المسلحة خـارج العاصـمة، ولا سيما اللواء المتمركز شمالي الأردن والمكون من ثلاثة الآف فرد ولـواء آخـر فـي الصحراء قرب الحدود الأردنية[٥٦].

لقد اعترف هارولد دبليو كلايدن Harold W. Glidden، مسؤول قسم البحوث والتحليل "للشرق الأدنى" وجنوب آسيه وأفريقيه، في مذكرته التي بعـث بهـا إلـى كومينـغ Cumming، مدير الاستخبارات والبحوث، والمعنونة بـ "مؤشرات الإستخبارات عـن الانقلاب في العراق" قائلاً :"لم تظهر أي إشارة مهمة عن العمل الوشيك في العـراق في أي مصادر موجودة لدى قسم البحث والتحليل "للشرق الHدنى" وجنـوب آسـيه وأفريقيه (مكتب الاستخبارات والبحوث) وزارة الخارجية ،بالرغم من الرقابة الدقيقـة على هذا التطور، لقد أكدت الاتصالات غير الرسمية مع الأشـخاص الـذين عـادوا مؤخراً من العراق قبل أيامٍ قليلة أو ساعات من الانقلاب بأنّ هناك انطباعاً عن عـدم وجود علامة ظاهرة كون الثورة وشيكة ". ولكن معد المذكرة اعتـرف بـأنّ قاعـدة

النظام الملكي متدنية وهناك إدراك عام بتصاعد حدة الإستياء الشعبي العام، وعزى ذلك إلى الحملة الدعائية للجمهورية العربية المتحدة ضد الأردن والعراق والإتحاد العربي، ولكن المذكرة أكدت امتلاك الحكومة السابقة نظاماً أمنياً ممتازاً ومقدرةً على احتواء مثل هذه الثورات طالما أن ليس لديها قاعدة تنظيمية في الجيش.

ولم تكن المذكرة دقيقة عندما أشارت إلى أنّ الدليل الظرفي يؤشر "بأن خطوط المؤامرة تم وضعها خارج العراق من قبل المغتربين المنشقين في القاهرة ودمشق" (٥٧). وأخيراً أشارت المذكرة إلى أنّ

"قوات الأمن العراقية قد تعرضت إلى الخداع معتقدين أنّ المؤامرة ستبدأ بانتفاضات من مجموعات صغيرة في مناطق نائية" (٥٨) .

وهكذا أثار اندلاع الثورة في العراق قلق الحكومة الأمريكية بشدة، كما يشير الباحث توماس برايسون Thomas A.Pryson، وأيقن الرئيس ووزير خارجيته، بأن الأوضاع في العراق أصبحت خارج أيديهما ولكن هناك وقت لإتخاذ إجراءات في لبنان، فقرر الرئيس إرسال الاسطول السادس إلى شواطيء بيروت بحجة حماية أرواح الأمريكان ولتشجيع الحكومة اللبنانية للدفاع عن لبنان وهذا ماأعلنه للشعب الأمريكي يوم ١٥ تموز (٥٩).

إنّ ترحيب الجمهورية العربية المتحدة ومن خلال إذاعتي القاهرة ودمشق بالثورة وبحرارة كما فعلت إذاعة موسكو العربية، أموراً أزعجت الإدارة الأمريكية وإعتقدت المخابرات المركزية الأمريكية خطئاً "أن موسكو قد أشرفت على الخطة الإجمالية"(٦٠). الأمر الذي يدل على أنّ واشنطن لم تعط إعتباراً لإرادة الشعب العراقي.

وفي اليوم نفسه قدم آلن دالاس مدير المخابرات المركزية الأمريكية تقريراً تضمن ملاحظات مختصرة تتناول مجموعة محاور، أولها العراق و"الشرق الاوسط"، وثانيهما الحالة في مدينة بغداد وتأثير الثورة على الأقطار المجاورة وموقفها منها.

أشار في الفقرة الأولى إلى أنّه "تم ... إسقاط الحكومة الموالية للغرب في العراق، بواسطة انقلاب عسكري مدعوم من عناصر مدنية موالية لجمال عبدالناصر"، وأشار إلى مقتل ولي العهد ونوري السعيد وأن القصر الملكي تحت النيران ومصير الملك غير معروف، وهناك إشارة إلى السماح له بمغادرة البلاد، ومرة أخرى يؤشر أنّ معلومات آلن دالاس غير دقيقة ومرتبكة، على الرغم من اعترافه أنّ " تقاريرنا تستند على البرقيات التي تصلنا من سفارتنا وكذلك من الإذاعة والملحقيات"، وأكد أنّ إمكانية الحصول على تقارير مستقلة من السفارة تكاد أن تكون نادرة جراء الحراسة الموجودة على السفارة من قبل الدبابات والجنود الذين يمنعون الدخول والخروج [٦١].

اعتقد آلن دالاس أنّ "الانقلاب"، كما يسميه،" قامت به عناصر موالية لجمال عبد الناصر ...ويدعمهم الفقراء من الناس"، سماهم "بالرعاع"، وإلى تشكيل مجلس وزراء يضم عدداًم ن صغار الضباط ومن المدنيين اليساريين، وسيطرة أعضاء حزب البعث عن طريق مجاميع مدنية خاصة بهم، وشكلت لجنة من ثلاثة أعضاء للنظر في شؤون الجمهورية لتحل محل الملك وبينهم الجنرال الربيعي المشكوك به سابقاً بارتباطه مع المصريين وكان تحت المراقبة الشديدة لبعض الوقت، وأشار إلى تقاعد الجنرال الداغستاني"الصديق الوفي للغرب " [٦٢].

وهكذا يتضح أنّ الاجتماع في واشنطن جرى والمعلومات لم تكتمل عن التطورات الجارية في العراق ولذلك استطاع السفير الأمريكي غلمن أن يجمل تطورات ذلك اليوم الخطير في العراق، والذي له إنعكاساته على المصالح الأمريكية في المنطقة، ببرقية بعثها في الساعة الحادية عشر ليلاً من نفس يوم ١٤ تموز، نقل فيه "أن الحركة (لاتزال في محلها، وإنها ذات طابع عسكري ويبدو أن القوة الجوية تدعم المتمردين ولا توجد أي علامة على ظهور حركة مضادة تقوم بها أي قوات موالية"[٦٣]. واعترف غلمن بأنّ الثورة لم تكن محصورة بالجيش، بل أن" هناك حماساً محلياً ملحوظاً للإنقلاب وهناك أرجحية بأن تحظى بشعبية بالمناطق الأخرى

من البلاد" (٦٤). وإنتقل إلى نقطة أخرى تهم الأمريكان أكثر من غيرهم وهي "أن طبيعة الإنقلاب مضاد للغرب وموال لجمال عبدالناصر، وأنّ الجماهير تنادي بشعارات موالية لعبدالناصر وتحمل صوره"، ولكنه من جهة ثانية حاول أن يطمن الخارجية الأمريكية بإسلوب ينمُ عن قدر كبير من الذكاء عندما ذكر "حسب التقارير الحالية فانّه على الرغم من مقتل إثنين من الأمريكيين أثناء مشاجرة (٦٥)، والذي لم يعثر لهم على أثر إلا أنه أكد لايوجد أي شعور مضاد للولايات المتحدة الأمريكية" (٦٦)، ولكن في نفس الوقت حذّر من أنّ أي تدخل أمريكي في لبنان من خلال الاسطول السادس سيؤدي إلى نشوب العداء عند الشعب تجاه الولايات المتحدة" (٦٧)، وأشار أيضا إلى أنّه على الرغم من أنّ منع التجوال رفع جزئياً في مركز المدينة الاّ أنّه لايوجد أي نشاط للسفارة (٦٨).

وفي ظل هذه الاجواء علّق الرئيس الأمريكي بقوله: "هذه هي البلاد التي كنا نعتمد عليها إعتماداً كلياً في أن تكون الحصن المنيع للاستقرار والازدهار في تلك المنطقة"(٦٩).

وعلى أية حال لم يبق الأمريكان يضربون أخماسا بأسداس ولا يعلمون شيئاً، لا عن الثورة، ولا عن رجالاتها، بعد أن رُتب لقاء بين عبدالكريم قاسم والسفير الأمريكي في مساء اليوم الثاني للثورة .

٤- لقاء ولدمار غلمن- قاسم يوم ١٥ تموز

لم يمضِ يوم واحد فقط على قيام الثورة، حتى إستطاع السفير الأمريكي الالتقاء بعبد الكريم قاسم رئيس الوزراء العراقي مساء يوم ١٥ تموز، بعث غلمن وقائعه برقياً الساعة السابعة من مساء نفس اليوم، أي بعد نهاية الاجتماع مباشرةً، فبعد أن تمّ تحديد موعد الزيارة، رافقه فيها فرتزلان أحد موظفي السفارة الأمريكية، اصطحبهما العقيد دريد الدملوجي Damandji(٧٠) إلى وزارة الدفاع حيث مقر عبدالكريم قاسم .

وبغض النظر عمن طلب الآخر للإجتماع، إلاّ أنّ فحوى اللقاء ومادار فيه يعبر عن رغبة الطرفين بلقاء الآخر .

وعن أول لقاء مع عبدالكريم قاسم، ذكر غلمن حرفياً : "لقد استقبلني الزعيم عبدالكريم قاسم بشكل ودي ولكن بنوع من الخجل وهو يتكلم الإنكليزية بطلاقة وتبادلنا الحديث دون الحاجة إلى مترجم"، وأضاف "أنّه أخبر قاسم برغبته في إقامة علاقة اتصال ولديّ عدد من الأمور التي أريد البحث فيها خلال الأسابيع القادمة، ولقد أبلغني بأن لديّ كامل الحرية في زيارته في أي وقت" وقال قاسم عبارة فكّت أسارير غلمن المتشنجة عندما قال له بالحرف الواحد: "نحن العراقيون نريد أن نكون أصدقاء مع الولايات المتحدة We Iraqis want to be friends with the US"، وعبر غلمن عن سروره لسماع هذه الرغبة منه، وطلب من قاسم ضمانات عديدة أولها ضمان حياة وممتلكات الأمريكيين ووعده بأنّه سينظر بهذه المسألة وطلب غلمن ضمانات أخرى، ومنها : "إخلاء المواطنيين الأمريكيين عند الضرورة وكذلك حمايتهم عند إخلائهم عبر البلاد وضمان حماية الطائرات وسهولة حركتها لنقل المواطنيين الأمريكان في حالة إخلائهم، أبدى قاسم بعض التردد ومن ثم بيّن أنّ الضمانات التي تخص حياة الأمريكيين وممتلكاتهم تجعل ضمانات الإخلاء غير ضرورية، وعلى أية حال فانّه سيعطي هذه الضمانات" [٧١]. إنّ طلبات الإجلاء تنم عن تهديد مبطن للثورة، ويبدو أنّ موافقة قاسم، القائد العسكري، على تلك الضمانات تدل بما لا يقبل الشك عن رغبته في عدم تأجيج الموقف مع الغرب أو تصعيده،لاسيما وأنه تزامن مع الإنزال الأمريكي في بيروت.

واللافت للنظر، أنّ ذلك اللقاء الأول تمّ ولم يكن أمر نوري السعيد، محسوماً بعد، والدليل أنّه وهو في طريق عودته إلى دار السفارة الأمريكية صادفت غلمن مظاهرات حاشدة تهتف بصوت عال ضد نوري السعيد، وعلمَ السفير حال عودته إلى السفارة بأنه تمّ إعلان مقتل نوري السعيد عبر الإذاعة ونقلت جثته إلى المستشفى الملكي[٧٢].

وفي يوم ١٥ تموز ناقش غلمن مقتل إثنين من مواطنيه مع وزير الخارجية الجديد عبدالجبار الجومرد ووزير الإرشاد محمد صديق شنشل، وعبّر الجومرد عن شديد أسفه وحزنه وأكد للسفير الأمريكي أنّه سيبذل جهده للعثور على جثتيهما، وتطرّق وزير الإرشاد إلى مسألة الإنزال الأمريكي في لبنان وماأثاره من ردود فعل عراقية وما هي العوامل التي تقف وراء ذلك الإنزال وهل إن القوات الأمريكية ستذهب إلى الأردن، ولما جاء رد السفير الأمريكي بأنّها لن تذهب إلى الأردن أبدى شنشل سروره لسماعه هذا النبأ (٧٣)، لأنه امتص المخاوف والشكوك من تدخل عسكري أمريكي لوأد الثورة.

ومن جهته أعد غلمن الخطط لإجلاء رعايا بلاده الألفين من العراق، فلقد بيّن السفير الأمريكي أنّ هناك ١٦٠٠ من مواطني بلاده في بغداد (بينهم ١١٠٠ امرأة وطفل وبينهم العديد من المرضى وبعض النسوة حوامل يحتجن إلى عناية خاصة، و٢٨٨ مواطناً في شمالي العراق بينهم ١٠٠ إمراة وطفل، و١١٣ أمريكي في البصرة بينهم ٦٠ امرأة وطفل، وإقترح أن يعد خطة لإجلاء ٣٠٠ شخص كل يوم (٧٤).

وعلى الرغم من تلك اللقاءات التي تمت إلاّ أنّ الخارجية الأمريكية نبّهت سفيرها بعدم إجراء إتصالات مع السلطات العراقية قد يفهم منها الاعتراف بالنظام الجديد(٧٥).

لم يكن ولدمار غلمن وحده الذي استطاع الالتقاء بعبدالكريم قاسم في ذلك اليوم بل إن السفير البريطاني ببغداد السر مايكل رايت، هو الآخر إستطاع مقابلة قاسم وعارف بحضور وزير المالية محمد حديد (٧٦).

أكد قاسم خلاله على دوافع الثورة الوطنية (٧٧)، كما أكد أنّ أرواح وأموال البريطانيين مصانة" (٧٨) وهنا أيضاً حاول قاسم أن يسحب البساط من أي ذريعة بريطانية للتدخل وإجهاض الثورة.

يتضح مما تقدم سريّة الثورة وعملها الدقيق، الذي أدى إلى إخفاق الإستخبارات البريطانية ووكالة المخابرات الأمريكية في كشف هذه الحركة[٧٩]، الأمر الذي أكد عليه محمد حديد أول وزير للمالية في العهد الجمهوري، قال مانصه : "من الواضح أنّ الحكومتين البريطانية والأمريكية بوغتتا على نحو كامل بوقوع الثورة وأصبح حدث ١٤ تموز مثالاً على وقوع أحداث خطيرة في غفلة من المخابرات الغربية .."[٨٠]، وهو ما إعترف به أحد ضباط المخابرات المركزية الأمريكية ولبر كرين أيفلاند: "أنه مامن أمريكي في الشرق الأوسط أو في واشنطن توقع حدوث الانقلاب العراقي " [٨١].

إلاّ أنّ هناك أراءاً أخرى ترى أنّ بعض الأوساط قد علمت بقرب حدوث الثورة [٨٢].

وعلى أية حال فإن ماضمته التشكيلة الوزارية من شخصيات، تَعلّم عدد منهم بالجامعات الغربية، وخلوّها من أي وزير شيوعي، تعد أمورًا هدأت من قلق الإدارة الأمريكية إضافة إلى أمور أخرى سيتناولها البحث[٨٣].

٥- واشنطن محط أنظار لندن وعواصم الجوار العراقي لمواجهة الثورة

أكدت الحقائق ومنذ اليوم الأول للثورة، أن البريطانيين الذين ظلوا أصحاب القدح المعلى في العراق حتى فجر يوم ١٤ تموز لم يعودوا قادرين على إتخاذ أي قرار سياسي أو عسكري تجاه ماجرى في العراق دون التشاور مع واشنطن، بل إنّ لندن أعطت واشنطن مكان الريادة في إتخاذ القرارات لمواجهة الموقف، وما يؤكد ذلك أنّ مجلس الوزراء البريطاني أرجأ اجتماعه المطول يوم ١٤ تموز لمناقشة ماجرى في العراق، ليعطي ماكميلان الفرصة للإتصال بالرئيس الأمريكي ليتحاشوا خطر الوقوع بسوء فهم مع واشنطن حول حجم وغرض التدخل المشترك في "الشرق الاوسط"، ولكن الرئيس الأمريكي أوضح له المدى الذي يمكن أن يقدمه لمساعدتها في حفظ مواقعها في العراق، وأن أي قرار بالشروع لعمليات أكبر من الإنزال في لبنان تتعدى

سلطاته، ومع ذلك الرد ظلّت الحكومة البريطانية تتطلع بمساعدة مادية ومعنوية أمريكية، إذا ماتطلب الموقف ذلك[٨٤]. إلاّ أنّ الإعلان عن مصرع أركان النظام الملكي أدت إلى تريث البريطانيين باستخدام القوة ضد الثورة [٨٥].

وهكذا تراجعوا عن فكرة غزو العراق[٨٦]، وحتى بول، العارف بشؤون العراق، نصح حكومته بعدم التدخل لإجهاض ثورة ١٤ تموز إذ أشار بالحرف الواحد أنّه " لايمكن لأية حكومة مدعمة بقوة أمريكية بريطانية أن تواجه بالقوة حركة شعبية حماسية، ولايمكن لمثل هذه الحكومة أن تحافظ على البقاء حتى لو قمنا بإحتلال العراق، لقد فات الأوان " [٨٧].

ومع ذلك لم يبق للندن خيار غير إستطلاع وجهات نظر الحكومة الأمريكية حول الوضع في العراق [٨٨]. بل أثبتت الوقائع أنّ الحكومة البريطانية لم تجرؤ على اتخاذ أي خطوة دون التشاور مع واشنطن، وهكذا إستلمت واشنطن مكان الريادة في إتخاذ القرارات لمواجهة الموقف، وما يؤكد ذلك أن ماكميلان عندما عاد للإجتماع بمجلس وزرائه الساعة الحادية عشر مساء ١٤ تموز أبلغهم أن الرئيس الأمريكي أوضح له، أن قرار الشروع بعمليات أكبر من الإنزال في لبنان تتعدى سلطاته الدستورية [٨٩].

مرة أخرى يتبين وبدون لبس أنّ البريطانيين أصبحوا عاجزين عسكرياً وسياسياً عن القيام بأي عمل عسكري سريع في العراق. وأدرك مجلس الوزراء البريطاني "أنه ليس من الحكمة والضرورة أن نورط أنفسنا في التزامات لحفظ السلطة في العراق"، غير أننا لابد أن نقوم بالخطوات الضرورية لحفظ أرواح البريطانيين وممتلكاتهم"[٩٠].

وفضلاً عن الموقف البريطاني من الثورة في العراق ومدى إرتباطه بموقف واشنطن منه فإن دول الجوار العراقي صوّبت وجهها شطر واشنطن تريد المدد والعون والمساندة لمنع إنتشار لظى تلك الثورة إلى أراضيها. ففي بيروت اجتمع الرئيس كميل شمعون صباح يوم الثورة مع السفير الأمريكي روبرت ماكلينتوك Robert

McClntock، وطلب منه" تدخل القوات الأمريكية لحماية لبنان خلال ثمان وأربعين ساعة [٩١].

وفي المملكة الأردنية الهاشمية اجتمع الملك الأردني بالسفير الأمريكي رايت Wright صباح يوم الثورة، طالباً مساندة واشنطن ومساعدتها بفتح جسر جوي لتأمين التجهيزات الكافية للقوات الأمنية الأردنية، وبيّن أنّ "أن القوات الأردنية ستتصل مع القوات الملكية العراقية الموالية للتدخل السريع بالقوة وسحق التمرد"[٩٢].

وحتى المملكة العربية السعودية لم تقف متفرجة عما جرى في جارتها الشمالية، فقد كشف تقرير للمخابرات الأمريكية عن إرسال "الملك السعودي مبعوثاً خاصاً وموثوقاً به إلى سفيرنا في جدة وطلب التدخل..أو مامغزى جميع هذه المواثيق؟"، وأضاف "أنّه في حالة عدم إتخاذ أي إجراء يخص العراق والأردن من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانية فإنهما سينتهيان كقوى في الشرق الاوسط"، وطلب رداً سريعاً على رسالته، وحتى الكيان الصهيوني أشار آلن دالاس في تقريره "تشعر بالخطر بسبب إحاطتها بدول عربية تحت تأثير جمال عبدالناصر، ..وأن التعبئة الإسرائيلية محتملة". إذ لم يقتصر الأمر على الدول العربية الصديقة لواشنطن، أو دول حلف بغداد بل إنّ الحكومة الإسرائيلية وقبل إنقضاء يوم الثورة الأول، إستدعت السفير الأمريكي لوسونLawson في تل أبيب للتباحث معه حول تبعات ماجرى في العراق على الكيان الإسرائيلي،[٩٣].

أما الكويت فإنّ الوضع بها مهدد جراء هذه الأحداث "باعتبارها المنتج الأكبر للنفط في الشرق الأوسط، وقد تواجه بريطانية اليوم باحتلال الكويت أو تخسر مصادرها النفطية التي تمتلكها المصالح البريطانية والأمريكية "[٩٤] .

أما دول حلف بغداد، فإن الإدارة الأمريكية أبدت معارضتها للرغبة التركية بالتدخل العسكري لإجهاض الثورة مقابل الدعم الجوي الأمريكي لقواتها البرية التي ستزحف

على بغداد، ودعوا إلى الإنتظار ومراقبة التطورات في العراق واعتبروها الطريقة المثلى لمعالجة الموقف في العراق.

وهكذا مضى اليوم الأول في أروقة وزارة الخارجية الأمريكية والبيت الأبيض وسفاراتها في بغداد ولندن وبيروت وعمان وجدة وأنقرة وتل أبيب، بعمل دؤوب ليله بنهاره لاسيما وأن واشنطن أصبحت قبلة تلك العواصم دون غيرها، بل أصبحت هي الأمل والرجاء في الحفاظ على كيانات دول الجوار.

ومما تقدم يبدو أنّ المصالح الأمريكية العليا هي التي تحرك الإدارة الأمريكية حتى انّ واشنطن لم تعط أذناً صاغية لصرخات لندن باحتمال فقدها مصالحها النفطية الكبيرة في العراق والكويت، بل أبدى دالاس إستعداد بلاده تلبية احتياجات بريطانية النفطية وسد النقص عندهم إذ كان قلق بريطانية يقتصر على موضوع الإمدادت النفطية فقط(٩٥). ومع ذلك لم تمانع واشنطن من استقبال سلوين لويد للتشاور حول موضوع العراق (٩٦).

وحتى داخل أروقة الإدارة الأمريكية الأخرى، كان الشأن العراقي حاضراً وبقوة، ففي مكالمة هاتفية بين نائب الرئيس الأمريكي نيكسونRichard Milhous Nixon (٩٧) وجون فوستر دالاس جرت في الساعة السادسة وتسع وأربعين دقيقة من مساء الخامس عشر من تموز أكد نيكسون على أهمية عدم تردد الجانب الأمريكي بالمسألتين العراقية والأردنية، الاّ أنّ ردّ دالاس كان مبطناً بالتحذير "أننا لانتوقع أن نقع في مستنقع الفشل كما فعل البريطانيون في السويس ويجب علينا الخروج"(٩٨). ووافق دالاس رأي نيكسون بعدم "أهمية لبنان بصورة كبيرة"، بل وأضاف له بـ"عدم أهمية الأردن كذلك وأنّ العراق هو الأهم"، مضيفاً أن سلوين لويد سيأتي للتحدث بالمسالة العراقية وحول احتمالية التدخل العسكري، أكد نيكسون أن بلاده" على استعداد للحرب ولكن لن نقاتل من أجل طرف سيكون خاسراً" (٩٩).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الدوائر الأمريكية المختصة ظلت تتابع وتحلل أوضاع العراق بشكل دقيق، ولكن ظلّ التخبط وعدم الدقة بادياً عليها، ففي مذكرة من كومينغ مدير الاستخبارات والبحوث إلى هيرتير، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية يوم ١٧ تموز، تحت عنوان: "النظام المتمرد في العراق" اعتبر، مثلا" عبدالكريم قاسم الرئيس الصوري مثل محمد نجيب في مصر "مبيناً أنّ الذي يؤشر عليهم هو عدائهم للنظام السابق وأنّ الأعضاء الكبار لديهم تاريخ بالمقاومة السياسية وإثنين منهم معروفون بولائهم للنازية ومعاداتهم لبريطانية أثناء محاولة إنقلاب ١٩٤١، ومنهم من يمتلك العقلية المثقفة القومية الحيادية الإصلاحية التي تعتبر جمال عبدالناصر بطل من طراز نموذجي، كما أنّهم ظاهرياً يميلون إلى الغرب "وأن أكثرهم لديهم خبرة تعليمية انكليزية أو أمريكية، وتوّقع كومينغ أيضا أن يقوم النظام الجديد بالحث على الإصلاح الإجتماعي والعمل على التنمية المطلقة، وأن تكبح جماح المعارضة السياسية كالنظام السابق، وأخيراً وهذا أمر مهم للسياسة الأمريكية " أنّ الاحتمال قائم في الإتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة بصورة رسمية في مرحلة مبكرة، والاعتراف بالقومية والحيادية، وضمن هذا السياق، إظهار رغبة في إقامة علاقات دبلوماسية مع الكتلة الشرقية وقبول الإعانة منها". وإنتهت المذكرة بالتأكيد على أمر مهم جداً وهي "أن هذه المجموعة تسيطر على جميع أجزاء العراق باستثناء الشمال بضمنها منطقة حقول النفط في كركوك"(١٠٠).

وفي ضوء هذه الصورة التي رسمتها الدوائر الأمريكية المختصة جرت المباحثات الأمريكية البريطانية. إذ وصل وزير الخارجية البريطانية إلى واشنطن يوم ١٧ تموز، وجرت مباحثات حول العراق وضم الجانب البريطاني، إضافة إلى سلوين لويد عدداً من السياسيين والدبلوماسيين والقادة العسكريين البريطانيين، وضم الجانب الأمريكي وزير الخارجية ووزير الدفاع وعدد من المسؤولين في وزارتي الدفاع والخارجية فضلاً عن المخابرات المركزية الأمريكية، ركز سلوين لويد على خطة إعادة احتلال

العراق الأمر الذي خالفه فيه دالاس[١٠١]. وهكذا يتضح التناقض مرة أخرى بين الموقفين البريطاني والأمريكي تجاه معالجة الشأن العراقي ولاسيما أثناء محادثات واشنطن، والذي كشف رجحان الموقف الأمريكي في نهاية الأمر كما أثبتت الوقائع والأحداث.

٦- حكومة الجمهورية العراقية وسياسة التهدئة:

وإذا كان ذلك هو ماجرى في الأيام الأولى من عمر الثورة في واشنطن فإن بغداد لم تكن أيامها الأولى أقل حرارة ونشاطاً، لاسيما وأن قادة الثورة قد بدؤوا يدركون، لحظة بعد أخرى حجم وجسامة الحدث الذي قاموا به، ولذلك بدؤوا عملاً دؤوباً لتهدئة خواطر الدول الكبرى، خشية مواجهة عسكرية يعرفون، وجلّهم من العسكر، أنهم الطرف الخاسر فيها، ولهذا فحتى قبل اجتماع مجلس الوزراء لأول مرة صرح ناطق رسمي باسم الجمهورية العراقية :"أنّ الحركة الوطنية التي قام بها الجيش بمساندة الشعب إنما هي حركة داخلية محض تستهدف تخليص العراق من أوضاع الحكم الفاسدة وعهود الرجعية "، وأكد التزام الحكومة العراقية بالعهود الدولية وفق مصلحة الوطن، و"إن الحكومة مستعدة للتعاون مع أعضاء الأمم المتحدة وتأمين أطيب العلاقات السياسية والاقتصادية معها بما تمليه عليها مصلحة العراق في الميادين الدولية وفي سبيل دعم أسس السلام العالمي"، وظل يبث لأيام عديدة [١٠٢]. وفي أول اجتماع لمجلس الوزراء العراقي الذي عقد مساء ١٥ تموز في وزارة الدفاع وعلى مدى خمس ساعات نوقشت مسألة صيانة البلاد من الاضطرابات الداخلية والتهديدات الخارجية ولاسيما تزامن ذلك مع الإنزال الأمريكي في لبنان وتدفق القوات البريطانية نحو الأردن، لهذا طالب المجلس من هيئة الأمم المتحدة تأجيل الجلسة الخاصة بالعراق التي كان من المقرر عقدها بناءً على طلب حكومة الولايات المتحدة الأمريكية للنظر بأمر العراق وقيام الثورة فيه والثورة الشعبية في لبنان بحجة أنهما يهددان السلام في العالم، كما عيّن، في جلسة مجلس الوزراء تلك، هاشم جواد ممثلاً للعراق في هيئة الأمم المتحدة [١٠٣].

ثم ناقش مجلس الوزراء في إجتماع مساء يوم ١٦ تموز، والذي إستمر حتى الصباح الباكر، الموقف الدولي من الثورة وعدم الرغبة في إثارة الغرب (١٠٤).

لقد أدرك قادة الثورة أيضا أهمية إستمرار جريان النفط سواء للغرب أو للميزانية العراقية، لأن المهم في تلك الأيام الحرجة سحب البساط من تحت أقدام بريطانية بشكل خاص، والتي كانت تتذرع بأن لها إستثمارات ومصالح نفطية كبيرة في العراق والكويت، ولهذا وحفاظاً على إستمرار تدفقه تمت السيطرة على المنشآت والحقول وكذلك أنابيب النفط الناقلة داخل العراق وهدد بيان الحاكم العسكري الصادر يوم ١٥ تموز المخالفين باشد العقوبات (١٠٥) وطوّقت وحدات الجيش منشآت النفط لحمايتها، لإيمان قادة الثورة بأهمية النفط للغرب وأن أي ضرر يمس مصالحهم النفطية ربما يؤدي إلى تدخل خارجي والقيام بعمليات معادية للثورة الوليدة (١٠٦).

لم تكتفِ حكومة الثورة بتلك الإجراءات بل أصدر عبدالكريم قاسم بياناً حول السياسة النفطية أكد فيه حرص حكومته على إستمرار إستخراج النفط وجريانه وهي تحترم التزاماتها مع الفرقاء المعنيين. وإنها اتخذت الخطوات اللازمة لحماية كل المرافق النفطية داخل البلاد(١٠٧). تبعه يوم ١٩ تموز السماح لشاحنات النفط بدخول الموانيء العراقية وشحن النفط . الأمور التي لاقت ترحيب شركات النفط وحكوماتها (١٠٨).

ولكن ما يؤكد أنّ تلك التطمينات أخذت طابعاً سياسياً بحتاً، أنّه لم تمض عشرة أيام على قيام الثورة إلاّ وبدأت المطالبة بمفاوضات نفطية لتعديل بنود امتيازات النفط(١٠٩)، ولم يقف الأمر عند هذا الجانب بل امتدت إلى المطالبة بالإنسحاب الفوري من حلف بغداد وإنهاء المعونة الأمريكية العسكرية والفنية، وراحت مطالبات الشيوعيين إلى أبعد من ذلك وهو التعاون مع الاتحاد السوفيتي، إلاّ أن عبدالكريم قاسم لم يعط أذناً صاغية لتلك الصيحات، في تلك المرحلة البالغة الحساسية، بل مضى في التأكيد على سياسة التعامل مع جميع الدول على أساس الإحترام المتبادل والمصالح المشتركة،

وشدد على الحياد والتضامن العربي دون الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة [١١٠].

إن إجراءات الحكومة وموقفها في تلك الأيام كان لها هدف بارز اعترف به وزير المالية الجديد، محمد حديد، عندما أشار وبالحرف الواحد في مذكراته "أن قضية الاعتراف الدولي بالجمهورية العراقية الجديدة أهم قضية تواجه حكومة الثورة " [١١١].

٧- الاعتراف الأمريكي بالجمهورية العراقية

لم يمض على اندلاع الثورة إلاّ خمسة أيام حتى غطت الخارجية الأمريكية، بدوائرها وسفاراتها، كل التطورات الجارية بالعراق بصورة مفصلة، ولم تتوقف تلك التقارير بل إنها كانت ترسل برقياً لسرعة تجهيز مؤسسات وزارة الخارجية بها لأهميتها، وظلت السفارة الأمريكية ببغداد مثلاً، تنقل كل التفاصيل على الساحة العراقية ساعة بساعة .

بعث غلمن تقريراً مفصلاً، أرسله برقياً يوم ١٩ تموز بيّن فيه أنّه يريد أن يقدم لوزارة الخارجية الأمريكية موجزاً مختصراً ومفيداً عن الأوضاع الجديدة في العراق، ويبدو أنّ مضامين ذلك التقرير نقل الرؤية الأمريكية للنظام الجمهوري إلى مرحلة جديدة، إذ ركّزَ غلمن رؤيته بثلاث نقاط ، أشار في الأولى أن التغيير الحاصل في العراق سريع وناجح وبعد اليوم الأول لم تسجل أية حوادث خطيرة، وعلى الرغم من إنقطاع الإتصالات مع باقي أجزاء العراق " فنحن نعلم بأنّ الثورة قد نجحت في الموصل وكركوك، والتقارير محدودة في البصرة ولكنها تشير بعدم وجود معارضة هناك[١١٢]، وإن النظام الجديد الذي يسيطر عليه العسكريون قد نجح في السيطرة على الجيش والشرطة ويحاول تشجيع التوظيف في الدوائر المدنية[١١٣].

وركزت النقطة الثانية على أنّ "النظام الجديد مازال يشحذ همم الناس وبصورة ناجحة لتحريض الكره ضد نظام نوري السعيد وعبدالإله ومزجه بالشكوى ضد الغرب

والنفور منه" مركزاً على أنّ تفاعل الناس، وعلى جميع المستويات، قد زاد من مكانة النظام الموالي لجمال عبدالناصر، وظهور صوره المرفوعة مع قادة الإنقلاب، ولهذا فإنه نصح واشنطن "أن أي حكومة بديلة تفرضها القوى الخارجية لاتستطيع أن تسيطر على الوجدان العاطفي وستكون مصابةً بالشلل"(١١٤).

وأكد غلمن في النقطة الثالثة أن الإنقلاب نفذه الجيش ولهذا فإنّ له اليد العليا على الرغم من وجود إشارات على وجود وزراء مدنيين يحاولون التأثير عليه تدريجياً، ويريدون التعاون مع الغرب والحصول على التقنية الغربية، وبناءً على تلك الصورة حذّر غلمن "من أن الضعف الداخلي سيزيد من إستمالة جمال عبدالناصر مقارنة بالقادة العراقيين الذين يفتقرون إلى الخبرة والمعرفة".

وانتقل السفير الأمريكي إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي مربط الفرس في المصالح الغربية والأمريكية، أي موضوع النفط، إذ أشار إلى "أنّ الإتصالات الشخصية فيما يتعلق بالسياسة النفطية والإتفاقيات الدولية والضمانات الخاصة للصداقة، على الأقل تظهر رغبة النظام في عدم معاداة القوى الغربية وكذلك الحصول على المساعدة الأمريكية والمساعدة التقنية "(١١٥).

ونصح غلمن الخارجية الأمريكية "أننا يجب أن نعمل على تنظيم علاقاتنا مع هذا النظام غير متناسين بأنّ تدهور العلاقات قد يؤدي إلى إتخاذ إجراءات مثل مغادرة الفنيين الأمريكان لمصفى الدورة أو سحب المساعدات الأمريكية المختلفة الأنواع، وبالتالي إستفزاز قادة النظام والاتجاه نحو الإتحاد السوفيتي، ونحن بمقدورنا تطوير أسس التعاون بصورة تدريجية إذا كنا حذرين ومتأكدين من حقيقة شعارات الصداقة التي يرفعها النظام"(١١٦).

وبعد أن أوضح غلمن الأوضاع السياسية والأمنية، حذّر الإدارة الأمريكية من مغبة معاداة النظام الجديد لاسيما وأنه يريد علاقة جيدة مع الغرب ويضمن جريان النفط ولا

يريد الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة وإن أي سوء فهم للوضع الجديد قد يجّره إلى الارتماء في أحضان الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية الأمر الذي لاتريده واشنطن البتة.

ويبدو في ضوء هذه الوقائع على الأرض أنّ الدوائر المختصة في واشنطن رمت وراء ظهرها مسألة تغيير النظام الجديد في العراق وبدأت تفكر جدياً بخطوات عملية لتتعامل معه، كل ذلك جرى ولم تمض ستة أيام على قيام الثورة فقد كتب كومينغ مدير الاستخبارات والبحوث إلى المستشار رينهاردت يوم ٢٠ تموز مذكرة في غاية الأهمية، جاء فيها تأكيدات لما ذهب إليه غلمن في تقريره الآنف الذكر، وتنطلق من سياسة الأمر الواقع، قال في مستهلها " تشير الأدلة المتوافرة الآن بزوال فرع العائلة الهاشمية في بغداد بصورة كاملة، وعلاوة على ذلك فقد مات أكثر مؤيدي النظام السابق من العراقيين بضمنهم السياسيين وعناصر عسكرية وبعض ملاكي الأراضي والصناعيين وهم إما في السجن أو تحت الإقامة الجبرية في منازلهم، لذلك لم يتبق أحد من أقطاب النظام الملكي في العراق يستطيع معارضة الجمهورية الجديدة ويمكن نجدته ".

وخفف من حركة الأمير زيد المعارضة للنظام الجمهوري، قائلاً: "أن تقارير الإذاعة الموالية وحركة المقاومة المتمركزة حول الأمير زيد، الأخ غير الشقيق للملك فيصل الثاني البالغ من العمر ٦٥ عاماً والموجود حالياً في تركية هي غير مؤكدة، وفي ظل تلك الظروف ومن وجهة نظرنا فإن أي حركة مقرونة بالقوة تأتي من الخارج إلى العراق سوف لن تلاقي دعماً عراقياً وإن احتمالية نجاحها ضعيفة جداً، وبالإضافة إلى ذلك ومنذ توقيع اتفاقية الدفاع المشترك يوم أم فإن جمال عبدالناصر والسوريون سيسارعون على الفور بتقديم يد العون للنظام الجمهوري في العراق"(١١٧). وذهب إلى نقطة أخرى تخص الحرب الباردة بين الكتلتين وهو الأمر الذي يهم الكتلة الغربية والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص عندما أشار "وأخيراً فإن رد الفعل السوفييتي

أو رد فعل الكتلة الذي يقتصر في الوقت الحاضر على الاحتجاجات والدعايات سيتخذ وبدون شك أسلوباً صلباً يستند إلى طبيعة الغزو، وعلى الرغم من تفادي المخاطر الجدية لحرب عامة، فإن النتائج ستكون ذات جدية في الشرق الأدنى وقد تنتشر في أماكن أخرى"[١١٨] .

لقد أردف كومينغ مذكرته تلك، وفي اليوم نفسه، بمذكرة أخرى إلى رينهاردت، تضمنت الانتقال إلى خطوة جديدة في العلاقة مع النظام العراقي الجديد لاعتبارات خاصة بالمصالح الأمريكية، ويبدو أنها اعتمدت نفس الأسس التي تناولتها برقية غلمن ليوم ١٩ تموز، إذ ركز كومينغ هذه المرة على فرش أرضية مناسبة لإقامة علاقات مع النظام الجديد "تشير التقارير التي وصلتنا من بغداد بأن النظام الجديد في العراق يرغب بإقامة علاقات صداقة مع الغرب وسيحافظ على الإتفاقيات الدولية الحالية وسيبقى عضواً في حلف بغداد، على الأقل في الوقت الحاضر، وسوف لن يقوم بتأميم إنتاجه النفطي، وسيعترف بالجمهورية العربية المتحدة ولكن دون الإنضمام اليها "، وأثار نقطة ركّزَ عليها غلمن، وهي في غاية الاهمية، لأنها تسد الباب بوجه الداعين بالتدخل العسكري في العراق " وعلى الرغم من أنّ الحكومة الجديدة قد استلمت السلطة بطرق غير قانونية ودموية ولكن ليس هناك شك بأنها مدعومة شعبياً أكثر من نظام الملك فيصل. وعلاوةً على ذلك وعلى الرغم من أن الجمهورية العراقية قد أشارت إلى رغبتها في التخطيط لإقامة علاقات مع الإتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الأخرى إلا أنّ التأثير الشيوعي في الحكومة يبدو أبعد من أن يكون محدوداً"، وبنى كومينغ على تلك الصورة طبيعة العلاقة مع النظام الجديد في العراق "إن الاقتراب غير الرسمي نحو الحكومة الجديدة يتطلب ضمانات تتعلق بالنقاط الأربعة السابقة والتي تبدو مبررة، إنها تميل إلى دعم العناصر الموالية للغرب في الحكومة الجديدة وبصورة سرية، وقد تساعد في تثبيت الوضع في العراق بشكل مفضل لدينا "[١١٩]، علماً أنّ هناك تقاريراً تضمنت تحديداً للعناصر الشيوعية في الحكومة العراقية الجديدة

وهو واحد فقط ، حسب رأيهم، إضافة الى وجود أعضاء وشخصيات موالية للولايات المتحدة الأمريكية (١٢٠).

وهكذا بدأت دوائر إصدار القرار في واشنطن تتحى منحىً جديداً بإتجاه الاعتراف بالنظام الجمهوري في العراق، ففي رسالة من وسنر Wisner، نائب مدير الخطط في المخابرات المركزية الأمريكية، إلى هندرسون Henderson ،مساعد وكيل وزير الخارجية لشؤون الإدارة، يوم ٢٢ تموز تضمنت موضوعاً يسيل له لعاب الأمريكان، وهو النفط، مشيراً إلى مضمون رسالة شخصية وسرية إلى جورج همفري George Humphrey في يوم ٢٢ تموز والتي تضمنت القضايا الدولية والمحلية التي يفكر بها الرئيس جهاراً، والتي جعلت الرئيس الأمريكي هو الآخر ينحى منحى مهادنة النظام الجديد والاعتراف به إذ أشار الرئيس أنّه "لم تحدث في العراق عمليات شغب غوغائية كما كنا نتوقع، فلم يقوموا بتخريب أنابيب النفط ولم يحاولوا التدخل بعمليات إنتاج النفط في المنطقة، وتوجد هناك مؤشرات عن الرغبة في الإبقاء على علاقات عمل جيدة مع الغرب وأعتقد أن لديهم رغبة في توقيع عقود نفطية جديدة والتي من المحتمل أن تكون على نمط عقد أنديانا Standard Oil of Indiana (١٢١).

وتوالت الاجتماعات والنقاشات وتبادل المذكرات في أروقة وزارة الخارجية الأمريكية والمخابرات المركزية الأمريكية والبيت الابيض حول أوضاع العراق الجديدة وبدأ الاتجاه يترسخ للاعتراف بالحكم الجديد دون أن يعيروا اهتماما لموقف الدول الأخرى في حلف بغداد، المهم هو ضمان المصالح الأمريكية وديمومتها في العراق وعدم انجرار الحكم الجديد لا مع الجمهورية العربية المتحدة ولا مع الكتلة الشرقية لاسيما بعد أن تكشفت الأوضاع بأنّ النظام الجديد رسخ أركانه وحافظ على الأمن في البلاد *ولم يعد بالمستطاع القضاء عليه أو إنهيارة خلال فترة قصيرة، ففي مذكرة لراونتري* مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون "الشرق الأدنى" وجنوب آسيه وافريقيه، والعراق ضمن دائرة مسؤوليته، إلى جون فوستر دالاس يوم ٢٣ تموز عنوانها

"الاعتراف بالحكومة العراقية الجديدة"، جاء فيها "مع تعزيز النظام الثوري في العراق وإستبعاد أي محاولة للإنقلاب عليها سواء بالقوة أو بإسلوب آخر، يبدو أننا مواجهون بسؤال هو متى وتحت أي ظرف نعترف بالحكومة الجديدة، فعلى الرغم من سفك الدماء بإفراط ببداية الأمر إلاّ أنّ النظام استطاع وبسرعة إثبات إصراره وقدرته في إعادة الأمن والنظام، فلقد تمّ إزالة شعارات المتطرفين وإعلامهم وأبدى بعض القادة انطباعاً بأنّ لديهم الرغبة في تجنب استغلال البعثيين والشيوعيين للوضع، وأعطت الحكومة الجديدة ضمانات أنّ في نيتها احترام الالتزامات الدولية والتعاقدية والحفاظ على تدفق النفط وحماية الأجانب وإيجاد علاقات صداقة مع جميع الدول، وعلى الرغم من تجنب هجرة المواطنين الغربيين وخصوصاً ألفنيين فإنها سمحت بجدول للرحلات للمواطنين من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة "(١٢٢).

وتناولت المذكرة من جانب آخر طبيعة وحجم العلاقة بين رجال الثورة وبين الجمهورية العربية المتحدة، وزيارة عدد من قادة الثورة في العراق ولقائهم مع جمال عبدالناصر في دمشق وتوقيعهم إتفاقية أكدت ثانية على الإجراءات الأمنية المشتركة والروابط الاقتصادية والثقافية بين العراق والجمهورية العربية المتحدة. وحذرت المذكرة من التباطؤ بالاعتراف بالنظام الجديد الذي سيدفعه باتجاه الجمهورية العربية المتحدة والشيوعيين داخل العراق وخارجه، وأكد ضرورة تبادل عروض وطلبات الصداقة للحكومة الجديدة، ولم يأبه التقرير بردود فعل دول حلف بغداد ولبنان والأردن إذا ماقررت واشنطن الاعتراف، إذ أشار بالحرف الواحد "وعلى أية حال فإن الحاجة إلى حماية مصالحنا في العراق وأهمية تشجيع الموقف المعتدل الذي تدّعي به الحكومة الجديدة قد يتفوق على المعارضة"، وأكد أنّه في الإجتماع القادم لحلف بغداد "سيعطي الفرصة الأفضل في إيصال نوايانا إلى الدول الإسلامية الأعضاء في الحلف، ونحن نستطيع الاعتماد على الدعم البريطاني الذي يشاركنا في تقييم الوضع". وأوصت المذكرة "أن نوافق مبدئياً على توسيع الاعتراف الرسمي بالحكومة العراقية

إذا إستطعنا الحصول على إتفاق أو قبول من أعضاء الحلف المسلمين خلال اجتماع لندن وبعد أن يحصل مورفي على نفس الشيء من حكومتي لبنان والأردن"[١٢٣].

ولم يقف الأمر بين البيت الأبيض والخارجية والمخابرات الأمريكية فقط بل إنّ لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي هي الأخرى استدعت آلن دالاس مدير المخابرات المركزية للإدلاء بشهادته بخصوص العراق، وكان الضغط قوياً للاعتراف المبكر بالحكومة العراقية الجديدة . وحادثَ الرجل أخاه جون فوستر دالاس صبيحة يوم ٢٥ تموز، وأكد الوزير انه" إذا كان من مصلحتنا فسوف نقوم بالاعتراف وسوف لن يناقش آلن دالاس بذلك"، ولكن جون فوستر دالاس تساءل هل يريدوننا أن نعترف بالحكم الجديد حيث سيعتبره "حلفاؤنا إجراءاً خائناً، نحن نعمل على الاعتراف بأسرع وقت ممكن بدون الإساءة لحلفاءنا "[١٢٤].

ولم يكتمل شهر تموز إلاّ وكتب جون فوستر دالاس مذكرةً إلى الرئيس آيزنهاور بتاريخ ٣٠ تموز أوضح فيها "بأنه يعتقد بأن على الولايات المتحدة الأمريكية الاعتراف بالحكومة الجديدة في العراق خلال فترة قصيرة"، وردد ماتناولته المذكرات السابقة مشيراً إلى تاكيدات المسؤولين العراقيين الجدد ورغبتهم باستمرار علاقات الصداقة والتعاون الإقتصادي وعلى الأخص في الامور النفطية مع الغرب، وبيّن للرئيس أنه ناقش الأمر مع مسؤولين في الدول الإسلامية بحلف بغداد، الذين أدركوا مصداقية الاعتراف الأمريكي، وبدون تأخير كي يكونوا بوضع أفضل لحماية المصالح الأمريكية في العراق ولما له من تأثير إيجابي على النظام العراقي الجديد، ولقد قامت كلاً من الأردن ولبنان بالتعبير عن تقييم مماثل وبصورة سرية، وقامت الدول العربية الأخرى بالاعتراف، مثل المملكة العربية السعودية وتونس، وازاء ذلك صادق الرئيس آيزنهاورعلى الاعتراف[١٢٥].

ويبدو أن تحذير وزير الخارجية العراقية لغلمن بعد أسبوعين من الثورة كان لها وقع أيضا في الدوائرالرسمية بواشنطن "إذا لم تتوخوا الحذر، فقد تدفعوا الحكومة الجديدة نحو الشيوعية " (١٢٦)، إنه تهديد مبطن وأسلوب دبلوماسي يعبر عن مقدرة وذكاء. ومن جهته إعترف غلمن، حول نفس النقطة "أننا بلغنا نقطة لانفع لنا فيها من عدم الاعتراف، وإن تأخرنا عن الاعتراف قد يضعنا في عزلة خطيرة"، لاسيما أنّ بريطانية وتركية وباكستان وايران اعترفت بالعهد الجديد، فقدم غلمن اعتراف واشنطن بالنظام العراقي الجديد في الأول من آب الى وزير الخارجية العراقي على أساس أنّ العراق سيلتزم بمباديء القانون الدولي بتعويض أسر الأمريكيين المقتولين الثلاثة (١٢٧).

وفور الاعتراف الأمريكي بالنظام السياسي الجديد في العراق وتسليم الاعتراف بشكل رسمي للخارجية العراقية، تحركت الدبلوماسية الأمريكية لتكريس هذا الاعتراف على أرض الواقع والذي تمثّل بزيارة مورفي الى عدد من عواصم منطقة الشرق الاوسط ومن بينها بغداد بناءاً على تكليف الرئيس آيزنهاور، والذي أجرى إجتماعات مع قادة الثورة العراقية وعلى رأسهم عبدالكريم قاسم، في الوقت الذي لازالت فيها حماسة الجماهير ملتهبة في بغداد كما هو جوّها الحار جداً في مثل هذه الأيام من السنة.

كتب مورفي تقريراً يوم الثاني من آب عن مباحثاته مع وزير الإرشاد العراقي محمد صديق شنشل، وفي الثالث من آب، تضمن تقريره مباحثاته صباح الثالث من آب مع رئيس الوزراء قاسم ووزير الخارجية عبدالجبارالجومرد ووزير المالية محمد حديد ورئيس مجلس السيادة الربيعي، وتضمنت المباحثات عدداً من القضايا ذات الأرضية المشتركة كما هي مع شنشل، بالإضافة إلى ماطرحه مورفي عن قضية دورالعراق المستقبلي في حلف بغداد ومايتعلق بمسالة الأمن الجماعي وتضمنت برقية مورفي على إستنتاج إيجابي "بأنّ القادة العراقيين كانوا على درجة عالية من الجدية والتلهف لإظهار موقف الصداقة والتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية "(١٢٨).

ومن الجدير ذكره هنا أنّ غلمن لم يكن متحمساً لزيارة مورفي للعـراق بعـد المـدة القصيرة لقيام الثورة، وحتى السلطات العراقية التي وافقت على زيارة مورفي عـادت وأمرت طائرته بالعودة من حيث أتت، وربما يعود موقفها لخشيتها مـن ردود فعـل الشارع العراقي الذي انطلق من عقاله يكشف عن حنقه من سياسـة واشـنطن تجـاه القضايا العربية ولا سيما القضية الفلسطينية، وكذا الشيوعيين الـذين يحملـون فكـراً مناقضاً للمعسكر الرأسمالي. وعلى أية حال وصل مورفي واستقبله السفير الأمريكـي وممثلوا الحكومة العراقية الجديدة، ورتّب السفير غلمن موعداً لزيارةعبدالكريم قاسـم، وفي وصف له دلالته العميقة ذكر التقرير بدايةً، حياة قاسم وحرسه "كان يعمل وينـام في وزارة الدفاع ،والتي تعج بالحراس القلقين، ولقاسم رشاشته الخاصة غيـر بعيـدة منه، وكان رئيس الوزراء الجديد نحيف الجسم يقضاً متنبهاً حذراً في كلامـه لايلـزم نفسه بشيء"، وحضر الجومرد الإجتماع.

يبدو أن قاسم كان أكثر ثقةً بقوة نظامه وإبتعاد مخاطر التدخل الأجنبـي كمـا كـان متحسباً في الايام الاولى، إذ إنطلق يشرح لمورفي كيفية إعداده ومائة مـن الـضباط للثورة منذ سنوات بكل دقة وسرية ، كما أوضح أسباب الثورة، ومن جهته بيّن مورفي لقاسم سبب حضوره، لمساعدة الحكومة الأمريكية على مزيد من التفهم لسياسة حكومة قاسم التي اعترفت بها الولايات المتحدة فوراً. وبـرر مـورفي التـدخل العـسكري الأمريكي في لبنان بأنه تصادف مع الثورة في العـراق، وحـاول مـورفي أن يبـدد المخاوف العراقية من التدخل العسكري الأمريكي في لبنان"، وأكد التقريـر أن قاسـم "أعرب عن رغبته في إقامة علاقات طيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية وسائر الدول الغربية". وأمام هذه الرغبة طرح مورفي على قاسم أن الدول الغربية كانت قلقة نوعاً ما من وصول بعثة روسية كبيرة الى بغداد، ويبدو أنّها كانت متعاونة تعاوناً وثيقاً مع الحزب الشيوعي العراقي الذي سمح له باستئناف نشاطه، أكد قاسم "أنّه لـم يجـازف

بالقيام بالثورة بقصد تسليم العراق إلى الإتحاد السوفيتي وأضاف أنّه هو وزملاؤه لم يجازفوا بحياتهم ليجعلوا العراق خاضعاً لمصر".

وعلى الرغم من أنّ تلك الكلمات تجاه موسكو والقاهرة نزلت كالماء البارد في جوف مورفي إلاّ أنّ الأخير قيّم قاسم "كرجل يلعب على الحبلين بين موسكو والقاهرة"، وصرّح له قاسم أنّ بلاده تريد زيادة إنتاج كميات النفط التي تشحنها إلى الغرب بنسبة ٥٠% على الأقل، ولقد "تكلم قاسم بشراسة هادئة ...ولم أشك أنّه كان مصمماً تصميماً قاطعاً على صيانة إستقلال العراق .." (١٢٩) .

وعقب تلك الزيارة وجّهت الخارجية الأمريكية سفارتها ببغداد بالتحرك الجاد والسريع لإستثمار الاعتراف الأمريكي وزيارة مورفي لتبادل الاراء والخطوات اللاحقة مع حكومة قاسم، بإقامة علاقات صداقة مبنية على أساس الثقة المتبادلة، وكذلك الحفاظ على تدفق النفط، وإستمرار برامج المساعدة الفنية والعسكرية.

ففي برقية لوزارة الخارجية الأمريكية إلى سفارتها في بغداد بتاريخ الرابع من آب الساعة الثامنة و١٢ دقيقة مساءاً بتوقيت واشنطن بيّنت الخارجية الأمريكية "أنها تلقت ببالغ الاهتمام تقارير المحادثات التي أجريتموها أنتم ومورفي مع القادة العراقيين خلال عطلة نهاية الأسبوع"، أي في الأول من آب، وحددت سفيرها بأن يقدم خمسة أفكار للحكومة العراقية تقدم بشكل شفوي "تعبر عن وجهة نظرنا تجاه الجمهورية العراقية، إن عليكم الإسراع في إجراء لقاء مع وزير الخارجية العراقي "تبّين رغبة الحكومة الأمريكية لإجراء محادثات صادقة وذات مضمون وهي:

أولاً – إنّ الحكومة الأمريكية تشارك وبصورة كاملة رغبة الحكومة العراقية في إقامة علاقات صداقة وتتطلع إلى تعاون وثيق مع الحكومة العراقية الجديدة فيما يخص المصالح المتبادلة.

ثانياً- إنّ الولايات المتحدة الأمريكية قد تلقت وبسرور تصريحات الحكومة العراقية ورغبتها في الحفاظ على إستمرار تدفق النفط .

ثالثاً- الاستعداد الأمريكي في إستمرار برامج المساعدة الفنية (التقنية) تبعاً لرغبة الحكومة العراقية ولاحظت علاقات العمل المتجانسة المتطورة بين بعثة عمليات الولايات المتحدة ببغداد وبين مختلف الوزارات.

رابعاً- وفيما يتعلق بمستقبل برامج المساعدة العسكرية فإن الولايات المتحدة الأمريكية تؤكد بأنّ هذا الموضوع يخضع لإعتبارات ومناقشات الحكومتين، إن الولايات المتحدة الأمريكية لاتمانع في أي حال من الأحوال في إمكانية إستمرار برامج التواجد ولكنها تعتبر بأنّ هناك تفاصيل عملية وأموراً سياسية يجب العمل بها، فعلى سبيل المثال، في إتصال جرى مؤخراً فقد اعتمدت المساعدة الأمريكية على أهداف القوة التي تنسب إلى رغبة العراق كعضو في حلف بغداد لمقاومة العدوان السوفيتي ضد "الشرق الاوسط" .

خامساً- تأمل الولايات المتحدة الأمريكية بأن تقوم العلاقات الأمريكية العراقية على أساس الثقة المتبادلة وهذا بدوره سيدّر بالمنفعة المتبادلة على الشعب العراقي ويعزز الأمن وينشر الخير في الشرق الأوسط . إنّ الولايات المتحدة الأمريكية على ثقة بأن التعقل والصراحة والإخلاص هي الوسائل الأحسن في تحقيق ذلك بالنسبة للطرفين(١٣٠).

إنّ الاعتراف الأمريكي بالنظام السياسي الجديد في العراق لايعني أنّ الدوائر الدبلوماسية والمخابراتيه الأمريكية قد اطمأنت للواقع العراقي الجديد بل ظلت التقارير والمذكرات تُكتب وتتبادلها الجهات المعنية الأمريكية، وهذا يؤشر إلى أهمية العراق ومكانته في السّوق الأمريكي .

والملاحظ أن العلاقات العراقية الأمريكية لم تأخذ مساراً واحداً بل كانت بين مد وجزر (١٣١). الأمور التي سيتناولها الباحث في كتاب مستقل.

الخاتمة:

فرض التغير الثوري المفاجيء في العراق أن تصبح واشنطن محط أنظار دول الجوار العراقي الموالية للغرب عوضاً عن بريطانية التي أصبحت هي نفسها ترنو بانظارها صوب واشنطن. وهذا يؤشر نهاية الحقبة الاستعمارية البريطانية، كما أنّه يؤشر في الوقت نفسه تبوء الأمريكان مكان الصدارة في إدارة المصالح الغربية في المنطقة، لاسيما وأنّ الوقائع أثبتت عجز البريطانيين عسكرياً وسياسياً عن القيام بأي عمل عسكري سريع في العراق لإنقاذ النظام الملكي العراقي، حليفهم التقليدي لعشرات السنين.

إنّ التقارير الأمريكية المفصلة والتي تابعت الأحداث أولاً بأول والإجتماعات الرسمية التي عقدت على أعلى المستويات في دوائر صنع القرار بواشنطن كشفت أهمية العراق للولايات المتحدة الأمريكية في جوانب مختلفة .

إلاّ أنّ ثنايا البحث كشفت أنّ إرادة الشعب العراقي في التحرر والانعتاق كانت أكبر وأقوى من كل الإمكانيات المخابراتية للأمريكان والبريطانيين، ولكن إدراكاً من قادة ثورة ١٤ تموز١٩٥٨ بأهمية تفويت الفرصة على القوى الغربية لإجهاض الثورة بالقوة فإنهم هادنوا الأمريكان والبريطانيين بداية الأمر .

واللافت للنظر أنّ الاعتراف الأمريكي بالنظام الجمهوري في العراق بعد أسبوعين من إندلاع الثورة مثّل رؤية أمريكية بعدم دفع الحكم الجديد في العراق نحو الكتلة الشيوعية أو حتى التحالف مع الجمهورية العربية المتحدة الأمور التي تعرّض المصالح الأمريكية للخطر، لاسيما وأنّ أقطاب النظام الملكي ذهبوا بين قتيل أو رهن الاعتقال والمحاكمة. وفوق ذلك كله فإن الأمريكان كانوا ميالين لدعم العناصر الموالية للغرب في النظام العراقي الجديد .فجاء الاعتراف الأمريكي بداية لمرحلة جديدة من العلاقات بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية.

هوامش البحث

(١)أسامة عبد الرحمن نعمان الدوري (الدكتور)، **العلاقات العراقية - الأمريكية في سنوات الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥**،بغداد،٢٠٠٦، ص٢٦-٢٨، وهي في الأصل أطروحة دكتوراه من جامعة بغداد.

(٢) الرئيس الرابع والثلاثون ،حكم بين ١٩٥٣-١٩٦١،ولد في١٤ تشرين الأول /أكتوبر عام ١٨٩٠،درس في الأكاديمية العسكرية البحرية الأمريكية، أصبح القائد العام للحلفاء ١٩٤٤-١٩٤٥، ثم رئيس أركان الجيش الأمريكي١٩٤٥-١٩٤٨، وقائد قوات حلف الناتو١٩٥٠-١٩٥٢، ينتمي للحزب الجمهوري، أنهى الحرب الكورية،توفي في ٢٥مارس/آذار ١٩٦٩،له كتب عديدة منها مذكراته التي صدرت عام ١٩٦٣وترجمها هيوبرت يونغمان إلى العربية ونشرت عام ١٩٦٩، وكتابه المهم Waging Peace أصدره عا١٩٦٥، لمزيد من التفاصيل ينظر: The Encyclopedia Americana, International Edition ,printed in USA,1987,Volume.10,p.99.

(٣)جون فوستر دالاس،ولد في ٢٥ شباط / فبراير ١٨٨٨في واشنطن، درس في بريستون والسوربون وجورج واشنطن،عمل في مؤتمر سان فرانسيسكو،ثم أصبح سيناتورا عن نيويورك ، وفي ٢١ كانون الثاني/ يناير١٩٥٣ أصبح وزيراً للخارجية وبقي في منصبه حتى ١٥ أبريل/نيسان ١٩٥٩وتوفي في ٢٤ مايس/أيار ١٩٥٩، قضى في العمل الدبلوماسي ٥٢ سنة،صب كل جهوده كي لايسمح للاتحاد السوفيتي والصين أن ينهيا العالم الحر.ينظر: The Encyclopedia Americana,, Volume.9,p.463.

(٤) ينظر نص الاتفاقية عند :عصام شريف التكريتي(الدكتور)،**العراق في الوثائق الأمريكية ١٩٥٢-١٩٥٤**،دار الشؤون الثقافية، بغداد،١٩٩٥، ص٣٥-٣٧.

(٥) لمزيد من التفاصيل ينظر: علاء جاسم محمد الحربي(الدكتور)، **العلاقات العراقية -البريطانية ١٩٤٥-١٩٥٨**،بغداد،٢٠٠٢، ص٢٣٢-،٢٤٤ ،وهي في الأصل أطروحة دكتوراه من جامعة بغداد.

(٦) السفير الأمريكي في العراق بين ١٩٥٤-١٩٥٨

(٧) ولدمار غلمن، عراق نوري السعيد. **انطباعاتي عن نوري السعيد** بين ١٩٥٤-١٩٥٨،بيروت ، ١٩٦٥،ص١٨.

(٨)لمزيد من التفاصيل ينظر: خليل كنة،**العراق أمسه وغده**،بيروت،١٩٦٦، ص ١٧٧-١٨٩.

(٩)لمزيد من التفاصيل ينظر:حسين شذر (الدكتور)،**العراق وأمريكا ١٩٤٥-١٩٥٨**، بيروت ، ١٩٩٨، ص٤٥٩-٤٦٨،وهي في الأصل أطروحة دكتوراه من الجامعة الأردنية.

(١٠) المرجع نفسه، ص٤١٧-٤٣٠.

(١١)Foreign Relations of the United States,1958-1960,Volume X11,NearEast Region,Iran-Iraq,Arabian peninsula, United States Government Printing Office,Washington,1993,(FRUS1958-1960,Vol,x11), Memorandum From the Assistant Secretary of State for Near Eastern ,South Asian, and African Affairs(Rountree) to Secretary of State Dulles, Washington,January18,1958, SUBJECT: Problem of United States Assistance for the Iraqi Air Force and our Relations with the United Kingdom,p.289..

(١٢) Ibid,p.293,Telgram From the Embassy in Iraq to the Department of State ,Baghdad ,February 21,1958,7. p.m.

(١٣)هيرتير، ١٨٩٥-١٩٦٦،ولد بباريس تخرج من جامعة هارفرد ١٩١٥،عمل بالخدمة الخارجية ووزارة التجارة والصحافة، جمهوري، عضو بالكونغرس بين ١٩٤٣-١٩٥٣، حاكم ماستيوشيست ١٩٥٣-١٩٥٧،ومساعد وزيرالخارجية الأمريكية ١٩٥٧-١٩٥٩،ووزيرا للخارجية خلفا لـدالاس ١٩٥٩- ١٩٦١ . ينظر: The Encyclopedia Americana,Vol.14,p.158.

(١٤) FRUS1958-1960,Vol.x11,Pp.29-295.

(١٥) Ibid, p.297

(١٦) رئيس وزراء بريطانية ١٩٥٧- ١٩٦٣ بدأ حياته السياسية عام ١٩٢٤اقام في شمالي أفريقيه علاقات صداقة مع آيزنهاور، تقلد عدة حقائب وزارية للفترة بين ١٩٥١-١٩٥٥ بينها الدفاع والخارجية، اختاره الحزب خلفا لأنتوني ايدن أثر استقالة الأخير عقب العدوان الثلاثي على مصر . The Encyclopedia Americana,Vol.18,Pp.47-48

(١٧)FRUS1958-1960,vol.x11,Pp.301-302,Memorandumof Conversation, Washington, June9, 1958,3p.m., MACMILANTALKS, Washington, June9-11,1958.

(١٨)Ibid,Pp.304-305.

(١٩) لمزيد من التفاصيل ينظر:"**العراق في الوثائق البريطانية ١٩٥٨-١٩٥٩**، الجزء الأول . ١٤ تموز١٩٥٨-٣١ تموز١٩٥٨،ترجمة وتعليق العميد المتقاعد خليل إبراهيم حسين ، بغداد ، ٢٠٠٠، ص٨٩.

(٢٠) سنان صادق حسين الزيدي، **سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه العراق ١٩٥٨-١٩٦٣**.

أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه من كلية التربية / جامعة بغداد،في التاريخ الحديث عام ٢٠٠٥،ص١٧.تناول الباحث الموقف الأمريكي من الثورة .

(٢١)مزيد من التفاصيل ينظر:حسين شذر، مرجع سابق،ص ص ٣١٣-٣٦٥.

(٢٢)ولدمار غلمن ، مصدر سابق ،ص٣٠٥.

(٢٣) المصدر نفسه ،ص٣٢٦ .

(٢٤)حنا بطاطو، العراق، الكتاب الثالث، **الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار**، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٢،ص ص٧٥-٧٦.

(٢٥)محسن حسين الحبيب(أحد الضباط الأحرار)،**حقائق عن ثورة ١٤ تموز في العراق**؟١٩٨١،ص٥٨؛ فاضل حسين(الدكتور)، سقوط النظام الملكي في العراق، القاهرة ،١٩٧٤، ص ص٦٨-٧٠؛ ليث عبدالحسن الزبيدي، ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨في العراق،الطبعة الثانية،بغداد، ١٩٨١، ص١٠١-١٥٣.

(٢٦)صبيح علي غالب، **قصة ثورة ١٤ تموز والضباط الأحرار**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٤٤.

(٢٧) وصف مير بصري عبدالسلام محمد عارف وصفاً قاسياً إلى حد ما بقوله: اتسم بالجرأة الفائقة والانتهازية الواضحة، كان متهوراً حقوداً متعصباً متعجلاً للأمور لايحسب للعواقب حساباً. ينظر: مير بصري، أعلام السياسة في العراق الحديث، لندن،١٩٨٧، ص ٢٥٠-٢٥١ ؛أما الدكتور فاضل حسين، الذي عاصر الإحداث فوصفه: بأنه رجل قومي مع ميول دينية، وقيل أن له علاقة مع حزب البعث العربي الاشتراكي عن طريق فؤاد الركابي، كان رجعيا متعصباً، كان أنانياً وفردياً ومحباً للزعامة، وكان شجاعاً، وبعد نجاحه في تنفيذ الثورة تعجرف وتكبر على أصحابه فنفر منه القوميون وبذلك سهّل على عبدالكريم قاسم ضربه

والتخلص منه . ينظر: فاضل حسين، مصدر سابق، ص ٩٤.أصبح رئيساً للجمهورية العراقية بين ١٩٦٣-١٩٦٦، وتوفي بحادث سقوط طائرته بالبصرة.

أما عبدالكريم قاسم: فقد ولد ببغداد ١٩١٤ عمل معلماً ثم ضابطاً، اشترك بحرب فلسطين وأصبح آمر اللواء التاسع عشر نهاية عام ١٩٥٣، وعند إعلان الثورة أصبح رئيساً للوزراء ،أعدم رمياً بالرصاص يوم التاسع من شباط ١٩٦٣، ويرى أن للأمريكان يد في الإطاحة بحكمه. للتفاصيل ينظر:مير بصري، مصدر سابق ، ص ص٢٤١-٢٤٣؛ وتضيف الانسكلوبيديا البريطانية عنه، اهتم قاسم بالأوضاع الداخلية قبل التفكير بأي اتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة وتعرض لمحاولات قلب نظام حكمة مرات عديدة من القوميين وأيده الشيوعيون، وواجه تمرداً كردياً عام ١٩٦١، The New Encyclopedia Britannica,Volume.9,USA,1997,p.832؛ أما الدكتور فاضل حسين، فوصفه "كان أنانياً وفردياً ومحباً للزعامة ومؤمناً بمبادئه الشخصية القاسمية، واختُلفَ في تقييم فكره السياسي فقيل أنه ميال للحزب الوطني الدمقراطي وللشيوعية، واتهمه البعض بعلاقته مع الإنكليز كما قال عنه بعض الضباط الأحرار أنه كان قومياً وحدوياً . ينظر: فاضل حسين؛ مصدر سابق، ص ٩٣؛ أما السفير الأمريكي فوصفه: لم تظهر على قاسم أي دلالة على أنه شيوعي بل هو في قرارة نفسه مصلح اجتماعي حسن السريرة مهتم جداً بتحسين مستوى المعيشة للآلاف من الفقراء وتأمين المسكن والملبس، "ولسوء الحظ أنه استلم زمام الحكم دون سابق خبرة في أعمال الحكومة، ودون فلسفة مدروسة أو منهاج إصلاح إجماعي يسترشد به". ينظر، ولدمار غلمن، مصدر سابق، ص٣٥٨.

(٢٨) صبيح علي غالب، مصدر سابق، ص ٤٤-٨٠.

(٢٩) مجيد خدوري(الدكتور)، العراق الجمهوري، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ص ٤١-٤٤.

(٣٠) دبلوماسي بريطاني، سبق أن عمل بالبحرية البريطانية، وانتمى للخدمة الخارجية وعمل في السفارات البريطانية في عدد من دول الشرق الأوسط مستشاراً شرقياً في طهران وبغداد، ثم سفيراً لبلاده في الكويت ثم السويد، ومندوباً سامياً في سنغافورة ونيجيريا، عمل محاضراً بعد تقاعده في عدد من الجامعات البريطانية، ونشر مذكراته "My Lucky Life"، عام ١٩٩٦. نقلاً عن: محمد حديد، مذكراتي. الصراع من أجل الديمقراطية في العراق، تحقيق نجدة فتحي صفوت، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٦، ص٣١٢.

(٣١) "العراق في مذكرات دبلوماسيّين بريطانيّين"، ترجمة وتعليق خليل ابراهيم حسين الزوبعي، بغداد،٢٠٠٣، ص١٥٣ .

(٣٢) للتفاصيل ينظر: مجيد خدوري، مصدر سابق، ص ص ٤٥-٥٩؛ "العراق في مذكرات دبلوماسيّين بريطانيّين"، ص١٦٢-١٦٦.

(٣٣) للتفاصيل ينظر:"مذكرات السيد محسن أبو طبيخ ١٩١٠-١٩٦٠.خمسون عاماً من تاريخ العراق السياسي الحديث "،جمع وتحقيق جمال أبو طبيخ ، بيروت، ٢٠٠١، ص٤٢٩-٤٤٣.

(٣٤) خليل كنه ، مصدر سابق ، ص ٢٤٩،ص ص٣١٧-٣٢١.

(٣٥)ولدمار غلمن ، مصدر سابق ، ص٣١٩.

(٣٦) "العراق في الوثائق البريطانية ١٩٥٨-١٩٥٩"،الجزء الأول ،ص ٢٢وص٤٥.

(٣٧) علي منير ، مذكرات عبدالسلام عارف، بغداد، ١٩٦٧،ص٣٨.

(٣٨) قحطان أحمد سليمان الحمداني(الدكتور)،**السياسة الخارجية العراقية من ١٤ تموز ١٩٥٨ إلى ٨ شباط ١٩٦٣**، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ٢٠٠٨،ص٨٤.

(٣٩) نوري عبدالحميد خليل وآخرون، **تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري**، الجزء الأول، بغداد، ٢٠٠٠، ص٢٠-٢١.

(٤٠)مجيد خدوري ، مصدر سابق ، ص٧٠-٧٤.

(٤١) ولدمار غلمن ، مصدر سابق ، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٤٢) ذلك اللجوء الذي يشابه مافعله الوصي وعدد من المسؤولين العراقيين إبان انتفاضة ١٩٤١ في اللجوء إلى السفارة الأمريكية وتهرّيبها الوصي عبدالاله وحمت عدداً من المسوؤلين العراقيين يومها، وكان واحداً من أسباب إجهاض انتفاضة العراق .لمزيد من التفاصيل . ينظر:أسامة عبدالرحمن نعمان الدوري ، العلاقات العراقية الأمريكية في سنوات الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥، الفصل الثالث.

(٤٣)"العراق في الوثائق البريطانية ١٩٥٨-١٩٥٩"الجزء الأول ،ص٣٤.

(٤٤) ولدمار غلمن، مصدر سابق ، ص٣٣٧.

(٤٥) مؤيد إبراهيم الونداوي، وثائق ثورة تموز١٩٥٨ في ملفات الحكومة البريطانية، بغداد، ١٩٩٠،ص٣٥.

(٤٦)المصدر نفسه ، ص٢٤-٣٠.

(٤٧) إن فارق التوقيت بين بغداد وواشنطن ثماني ساعات .

(٤٨) El-lipsis in the source text, Memorandum of telephone Conversation

by Bernau; Eisenhower Library, Dulles Papers, White House Telephone .Conversation,Quited: FRUS1958-1960,Vol.x11,p.307.

(٤٩) Dwight D.Eisenhower,The white house years, waging peace1956-1961,N.Y,1965,p.269. وترجمت إلى العربية. "مـذكرات آ يزنهـاور" ، ترجمـة هيوبرت يونغمان ،بيروت ، ١٩٦٩.

(٥٠)آلن دالاس١٨٩٣ -١٩٦٩،محامي ودبلوماسي وموظـف حكـومي درس فـي بريستون وجورج تاون عمل دبلوماسياً في النمسا وسويسرا، أصبح رئيس قـسم الشرق الأوسط في الخارجية الأمريكية ، وساهم بمؤتمرات دولية عديدة ،وعمل منذ عام ١٩٤٧ في وكالة المخابرات الأمريكية المنشأة حديثاً ثم مديراً للمخابرات المركزية الأمريكية ١٩٥٣-١٩٦١وله مؤلفـات عديـدة. . The Encyclopedia Americana,Vol.9,p.462

(٥١) طلب كميل شمعون الرئيس اللبناني من السفير الأمريكـي ببيـروت روبـرت ماكلنتوكRobert Mcclintock تدخل الحكومتين الأمريكية والبريطانية خـلال ٤٨ ساعة Thomas A.Pryson,American Diplomatic Relations with The Middle East 1784-1975,N.J,1977Pp.213-215. علماً أن هذا الكتاب ترجمته دار طلاس في دمشق، كما ترجمه مركز البحوث والدراسات في بغداد، وسنعتمد مـستقبلاً قدر الإمكان على ترجمة دار طلاس.

(٥٢) FRUS1958-1960,Vol.x11, Pp.307-308.

(٥٣) وردت في النص وزيرا للداخلية .

(٥٤)هكذا وردت في النص. والصحيح أحمد صالح العبدي.

(٥٥) ظل منع التجوال مفروضاً لأيام عدة من بعد الظهر.

(٥٦) FRUS1958-1960,Vol.x11,P.309 .

(٥٧). يخطأ التقرير بإعطاء رتبته العسكرية على الرغم من أن التقارير السابقة سمته الزعيم .

(٥٨)FRUS1958-1960,Vol.x11,P.322-323,Memorandum From Harold W.Glidden of the Division of Research and Analysis for Near East, South Asia, Africa to the Director of Intelligence and Research (Cumming),Washington,July 16,1958,Subject:Intelligence indications of Coup in Iraq.

(٥٩) Thomas A.Pryson,Op.Cit ,Pp.213-215..

(٦٠) ولبر كرين أيفلاند ، **حبال من رمل** .قصة إخفاق أمريكا في الشرق الأوسط ، نقله إلى العربية د.سهيل زكار، دمشق،١٩٨٤،ص ٥٢٩.

(٦١) تقع السفارة الأمريكية ببغداد بجانب الرصافة أي شرق نهر دجلة وكانت القنصلية الأمريكية تملك مبنى منفرد لقسم مركز المخابرات الأمريكية ، ومبنى آخر لمقر رئيس البعثة، أما قسم الملحقين العسكريين فقد أبقي مكانه في مقر كبير خصصه لنفسه قرب بيت آخر ، وفي شارع الرشيد،وهو الشارع المستقيم الوحيد في بغداد ، كان هناك مكتب الاستعلامات الأمريكي(ولبر كرين ايفلاند ، حبال من رمل ، ص ٦٩،وهذه المعلومات تنم عن عدم دقة المعلومات التي طرحها رجل المخابرات الأمريكية الاول.

FRUS1958-1960,Vol.x11,Pp.308-309,Briefing Notes by Director of (٦٢) (Central Intelligence Dulles,Washington,July 14,1958.

(٦٣) كل مرة يستخدم مصطلحاً يختلف عن سابقه مرة انقلاب عسكري ومرة حركة ومرة تمرد وبعد يوم واحد منها بدؤوا يسمونها ثورة ؟! .

FRUS1958-1960,Vol.x11,P.314 .(٦٤)

(٦٥) أشارت الوثائق الأمريكية أنه في منتصف ليلة ١٤/١٥ تموز ألقت قوات عراقية القبض على عشرة أجانب يقيمون في فندق بغداد ولكن الغوغاء- كما يسميهم -أخذتهم من الجنود، ومن ضمنهم أمريكيان ايغن بيرنز Eugene Burns من سايساليتو Sausalito من كاليفورنياوجورج كولي George Colley,Jr من سان فرانسيسكو وهو رئيس قسم ما وراء البحار لشركة بيكتل وكلاهما يعتقد أنهما توفيا، والشخص الأمريكي الثالث جوز كارابيا Jose Carabia الذي أخذ من الفندق وضرب بشدة والرابع هو Robert W.Alcock تشير التقارير انه اختفى ويفترض انه مات، Ibid,P.315,Telegram116,fromBaghdad,July14.1958Midnight

(٦٦) ولدمار غلمن ، مصدر سابق ، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٦٧) FRUS1958-1960,Vol.x11,P.315.

(٦٨) Ibid.

(٦٩) Dwight D.Eisenhower,the white house years.Waging Peace1956-1961,N.y.1965,p.269.

(٧٠) عرّفه غلمن: هوالعقيد دريد الدملوجي، مساعد ملحق عسكري سابق في الملحقية العسكرية العراقية في واشنطن ومتزوج من أمريكية الأصل بل وكانت تعمل في وزارة الخارجية الأمريكية، قسم الخدمة الخارجية ويعد صديقاً لأمريكا كما علمت بذلك من قسم الخدمة هنا، كما وجده غلمن شخصية ودودة وله رغبة في التخلص من النظام الثوري، والآن يعمل ضابط ارتباط بين الحكومة العراقية والبعثات الدبلوماسية. FRUS1958-1960,Vol.x11,Pp.318-319,

(٧١) Ibid,P.319.

(٧٢) Ibid.

(٧٣) Ibid.

(٧٤) مؤيد ابراهيم الونداوي ، مصدر سابق ، ص ٧٥.

(٧٥) FRUS1958-1960,Vol.X11,319,Tel.142,July15.8.23p.m.

(٧٦)محمد حديد:هو رجل سياسي وصناعي وتجاري ولد في الموصل ١٩٠٧وتوفي بلندن ١٩٩٩، عن عمر ناهز ٩٢ عاما، عمل مع جماعة الاهالي والحزب الوطني الديمقراطي واسس الحزب الوطني التقدمي، وزيرا للتموين عام ١٩٤٦ ، ووزيرا للمالية(١٩٥٨-١٩٦٠) اعتقل بعد ١٩٦٣ وانصرف للاعمال التجارية، التحق بعائلته في لندن عام (١٩٩٥-١٩٩٩) The Independent ,August6, نقلا عن محمد حديد ، مصدر سابق،ص ص٥٥٠-٥٥٢.

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٣٢٠

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٣٢٩،

(٧٩) صبيح علي غالب ، مصدر سابق، ص٢٦ -٣٧.

(٨٠) محمد حديد، مصدر سابق ، ٣١٥ .

(٨١) ولبر كرين أيفلاند ، مصدر سابق ، ص ٥٢٧-٥٣٠.

(٨٢) للتفاصيل ينظر: مذكرات محسن أبو طبيخ ١٩١٠-١٩٦٠،ص٤٣٧؛اديث وائي ايف بينروز، **العراق**. دراسة في علاقاته الخارجية، الجزء الأول، ص٣٢٧؛"العراق في مذكرات دبلوماسيّين بريطانييّن" ص١٥٥-١٥٦.

(٨٣) للتفاصيل ينظر: نوري عبدالحميد خليل وآخرون ، مصدر سابق ، ص٣٤-٥٢.

(٨٤) مؤيد ابراهيم الونداوي(الدكتور)، مصدر سابق، ص ٤٣-٤٦.

(٨٥) علي منير ، مصدر سابق ، ص ٤٩.

(٨٦) مؤيد ابراهيم الونداوي، مصدر سابق ،ص٤٦.

(٨٧) "**العراق في مذكرات دبلوماسيّن بريطانيين**" ،ص١٧٧.

(٨٨) مؤيد ابراهيم الونداوي، مصدر سابق ، ص٢٤-٣٠.

(٨٩) المصدر نفسه، ص٤٤-٤٦.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٤٦-٥٥.

(٩١)FRUS1958-1960,Vol.x11,P.309.

(٩٢) Ibid,P.312,Telegram From the Embassy in Jordan to the Department of State,Amman,July14,1958,3p.m.

(٩٣)Ibid ,P.316,Telegram From the Embassy in Israel to the Department of State,Tel Aviv,July15,1958,1a.m..

.(٩٤)Ibid,Pp.310-311

(٩٥)Ibid,Pp.317-318,Memrandum of telephone Conversation Between President Eisenhower and Secretary of State Dulles,Washington,July 15,1958,8.40 a.m..

. (٩٦)Ibid

(٩٧) الرئيس السابع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية١٩٦٩-١٩٧٤، ولد عام١٩١٣ في كاليفورنيا، عمل محامياً وسياسياً، في الحزب الجمهوري، خدم بالبحرية الأمريكية١٩٤٢-١٩٤٦، نائباً بالكونغرس، اختير نائباً للرئيس وهو بعمر ٣٩ عاماً، أصبح رئيساً للبلاد لدورتين، إلا أن فضيحة ووترغيت أجبرته على الاستقالة للتفاصيل ينظر: The Encyclopedia Americana,V01.20,Pp.389-391.

.(٩٨) FRUS1958-1960,Vol.x11,P.321,Memorandum of the Telephone Conversation Between Secretary of State Dulles and Vice President Nixon,Washington,July15,1958,6:49p.m

(٩٩)Ibid..

(١٠٠)Ibid,P.324-325,Memorandum From the Director of Intelligence and Research (Cumming)to the Under Secretary of

State(Herter),Washington,July17,1958,Subject:Intelligence Note: The Insurgent Regime in Iraq.

(١٠١) FRUS1958-1960,Vol.x11,P.325-326,Memorandum of Conversation,Washington,July17,1958,5 p.m.,subject:Iraq.

(١٠٢) نوري عبدالحميد العاني وآخرون، مصدر سابق، ص٧٨-٧٩.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص٥١-٦٢.

(١٠٤) مجيد خدوري، مصدر سابق، ص٩٠؛ نوري عبدالحميد العاني وآخرون، مرجع سابق،ص ٦٦.

(١٠٥)" الزمان " ،جريدة ، بغداد،١٦ تموز ١٩٥٨.

(١٠٦) نوري عبدالحميد العاني وآخرون ، مصدر سابق،ص١٠١.

(١٠٧) أسامة عبدالرحمن نعمان الدوري ، تطور سياسة العراق النفطية ١٩٥٢-١٩٦٣، بغداد، ٢٠٠٣، ص١٠٣-١٠٦.

(١٠٨) نوري عبدالحميد العاني وآخرون، مصدر سابق، ص ص١٠٤؛ أسامة عبدالرحمن نعمان الدوري، **تطور سياسة العراق النفطية**١٩٥٢-١٩٦٣ ص ١٠٦- ١٠٨

(١٠٩) أسامة عبدالرحمن نعمان الدوري، **تطور سياسة العراق النفطية** ١٩٥٢-١٩٦٣،ص ص١٠٧-١٠٨.

(١١٠) مجيد خدوري، مصدر سابق ، ص ٢٤٤-٢٤٧.

(١١١) اعترفت بريطانية بالجمهورية العراقية يوم ٣١ تموز .لمزيد من التفاصيل ينظر: محمد حديد، مصدر سابق، ص ٣١٨-٣١٩ و ص٥٢٩-٥٣٠.

(١١٢) يشير فؤاد عارف، أنه استطاع الحصول على تأييد رجال الدين للثورة تحريرياً، الأمر الذي أفرح قاسم الذي كان مجتمعاً مع السفير الأمريكي ساعتها، لأن غلمن سأله إن كانت الثورة قد حصلت على تأييد رجال الدين في الجنوب. ينظر"**مذكرات فؤاد عارف**. مرافق الملك غازي والوزير في

العهد الجمهوري"، تقديم الدكتور كمال مظهر أحمد، الدار العربية للموسوعات، بيروت ،٢٠٠٦، ص١٥٨-١٥٩.

(١١٣)(FRUS1958-1960,Vol.x11,P.327,Telegram From the Embassy in Iraq to the Department of State,Baghdad,July19,1958,5p.m.

(١١٤)Ibid,P.327.

(١١٥)Ibid,Pp.327-328.

(١١٦)Ibid,P.328 .

(١١٧) وقعت وأعلنت أثناء زيارة العقيد الركن عبدالسلام محمد عارف والوفد المرافق له في دمشق .

(١١٨) FRUS19581960,Vol.x11,P.329,Memorandum From the Director of Intelligence and Research (Cumming) to the Counselor (Reinhardt), Washington, July20,1958.(١١٩) Ibid,P.330,Memorandum From the Director of Intelligence and Research(Cumming)to the Counselor(Reinhardt),Washington,July20,1958 .

(١٢٠)Ibid.

(١٢١) وهو ماوقعته الحكومة الإيرانية مع شركة ستاندرد اويل اوف أنديانا في الأول من حزيران ١٩٥٨للتنقيب عن النفط في شواطئ الخليج العربي، والتي تحصل بموجبه الحكومة الإيرانية على ٧٥% من صافي الأرباح وحصة أنديانا ٢٥% من الأرباح كما دفعت الشركة ٢٥ مليون دولار إلى الحكومة الإيرانية كمكافأة لها لتوقيع الاتفاقية وإعطائها الامتياز والتي جعلت من الاتفاقية الأكثر تميزاً في بلد منتج للنفط والموقعة لحد ذلك التاريخ . Ibid,Pp.330-331,Letter From the Deputy Director for Plans of the Central Intelligence Agency (Wisner)to the Deputy Under Secretary of State for .(Administration(Henderson),Washington,July22,1958.

(١٢٢)Ibid,Pp.331-332,Memorandum From the Assistant Secretary of State for Near East,South Asian,andAfrican Affairs(Rountree)to Secretary of

State Dulles,Washington,July23,1958,Subject:Recognition of New Iraqi Government.

(١٢٣)Ibid,Pp.332-333.

(١٢٤)Ibid,Pp.333-334.

(١٢٥) Ibid,Pp.333-334. ، يشير الرئيس في مذكراته إلى أنه في نهاية تموز تحسنت الأوضاع في العراق، كان رئيس الوزراء قاسم يظهر إمارات الود نحو الغرب، ويبدو أنه سيطر سيطرة تامةً على الحكومة، ولم يكن هناك أي عذر للولايات المتحدة الأمريكية أن تحجب اعترافها أكثر من ذلك، وافقنا على الاعتراف في ٣٠ تموز. "**مذكرات آيزنهاور**"، ترجمة هيوبرت يونغمان ،بيروت ، ١٩٦٩،ص١٢٨.

(١٢٦) ولدمار غلمن، مصدر سابق، ٣٥٠ .

(١٢٧) المصدر نفسه.

(١٢٨)FRUS1958-1960,Vol.x11,P.335, Telegram From the Department of State to The Embassy in Iraq, Washington,August4,1958,8.12p.m.

(١٢٩) نجدة فتحي صفوت، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب، مذكرات روبرت مورفي، السفير الأمريكي المتجول عن زيارته إلى العراق عقب ثورة ١٤ تموز١٩٥٨، ص ٢٦٧-٢٧٠.

(١٣٠) FRUS1958-1960, Vol.x11, P.335.

(١٣١) لمزيد من التفاصيل ينظر : . Ibid, Pp.335-355